وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
٧١٨



The Making of a War

the Middle East from 1967 to 1973

John Bulloch

الإعداد للحرب

الشرق الأوسط من ١٩٦٧ـ ١٩٧٣

تأليف جون بولوك

الإعداد للحرب

الشرق الأوسط من ١٩٦٧ - ١٩٧٣

THE MAKING OF A WAR

تأليف جون بولوك

مقدمة

يعالج هذا الكتاب فترة من تاريخ الشرق الأوسط بدات بحرب وانتهت بحرب ، كما يتناول البحث عن السلام . فلقد شهد العرب فى عام ١٩٦٧ بعد هزيمة حاسمة فى المعركة واذلال على أيدى المنتصريين ، اراضيهم تحتلها قوة دخيلة عليهم ، واهلهم يطردون من ديارهم التى عاشوا فيها اجيالا ، واقتصادهم يصاب بأضرار بالغة ، حتى اضطرت الدول التى كانت تنعم بالرخاء فيما مضى ، الى ان تعيش على هبات جيرانها الأوفر ثراء . وظل العرب يكافحون ست سنوات لتغيير هذا الوضع باستخدام مزيج من القوة والتهديد بالقوة وباستخدام الدبلوماسية . وفى النهاية تطلب الأمر خوض حرب اكتوبر لكى تدرك اسرائيل والعالم انه لا يمكن السماح باستمرار ازمة الشرق الأوسط . واستطاع الرئيس انور السادات والرئيس حافظ الأسد بهجومهما فى سيناء والجولان وحده ان يقنعا اسرائيل المتشككة والعالم الذى يقف موقف اللامبالاة بأن العرب مصممون تصميما حقيقيا على استرداد أراضيهم المفقودة وعلى بذل كل ما فى وسعهم لاستعادة حقوق شعبا فلسطين .

وكان الفلسطينيون هم لب المشكلة ، فلقد كان ثمة مليون ونصف مليون لاجىء مسجلين لدى وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للأمم المتحدة منهم أكثر من نصف مليون كانوا مازالوا يعيشون فى ظروف المخيمات الرهيبة فى الأردن وسوريا ولبنان والأراضى المحتلة ودوافع التناسل الحقيرة التى يدفع اليها اليأس ، وما تبقى من المعايير الوطنية . ولم يكن الفلسطينيون الذين أخرجوا قسرا من ديارهم فى عام ١٩٤٨ ثم فى عام ١٩٦٧ لينسوا الأرض التى لم يرها الكثير منهم . فقد تبين من أحد البحوث التى أجريت ان الأغلبية الكبرى من أعضاء المنظمات الفدائية المختلفة الذين كانوا يساهمون فعلا فى الهجوم على اسرائيل كانت من سكان مخيمات اللاجئين وينتمون الى أشهر الطبقات فقرا ، وان عددا كبيرا منهم من مواليد ما بعد عام ١٩٤٨ . ولم يحقق هؤلاء الفدائيون بالعمليات التى كانوا يقومون بها أى نجاح حقيقى بل انه خلال السنوات التى بلغ فيها نشاطهم العسكرى ذروته فيما بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٠ لم يتعرض الاسرائيليون أبدا لأى خطر نتيجة لهذه العمليات .

وكان ما حققوه هو ابقاء فكرة فلسطين حية وارغام قادة العرب والعالم على السواء على النظر الى أمانيهم بعين الاعتبار . ولولا الفدائيون لكانت تسوية أزمة الشرق الأوسط أمرا أكثر سهولة الى حد بعيد . وقد تحقق الفلسطينيون

بمواصلتهم القيام بهجماتهم الانتحارية واعلان مطالبهم الجامحة وعقد الاجتماعات الحاشدة وتسيير المظاهرات والمسيرات انهم لن يتعرضوا للنسيان . وكان المتعصبون من أعضاء منظمة أيلول السوداء الذين صدموا العالم الى حد بعيد بغاراتهم القاتلة على أفراد أبرياء يحققون نفس النجاح الذى يحققه القادة « المسئولين » من أمثال ياسر عرفات الذين يستخدمون مظاهر السياسة البراقة ليظلوا موضع رضاء الجماهير ، لا من أجل العظمة الشخصية وانما من اجل الشعب المطرود من دياره .

فمن الأمور التى يجب أن لا تنسى ، ان الفلسطينيين قد اخرجوا من ديارهم وطردوا منها : فقبل الحرب العالمية التى استمرت من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥ كان عرب فلسطين يعربون عن مخاوفهم من ان يصبحوا اقلية فى بلادهم حيث عرض كتاب أبيض بريطانى صدر فى ذلك العام خطة لضمان عدم حدوث ذلك وتقضى بانهاء هجرة اليهود فى غضون خمس سنوات وان تقتصر فورا على خمسة وسبعين ألف مهاجر سنويا . وكان ذلك قبل أن تنكشف الأهوال الكاملة للاضطهاد النازى لليهود فى أوروبا . وقبل أن تبرز أمريكا كأقوى دولة فى العالم ، وكأكبر مدافع عن الصهيونية . ولم يكن لدى بريطانيا القدرة ولا الرغبة فى تنفيذ مقترحاتها وفى عام ١٩٤٧ أحالت المشكلة كلها الى الأمم المتحدة التى قررت على الفور تقسيم فلسطين ومنحت اليهود اكثر من نصف مساحتها قليلا . ولم تضع الأمم المتحدة أى قواعد حازمة عن الوسيلة التى ينفذ بها هذا التقسيم ولم تكن لديها أى قوات لمنع أى جانب من ان يحاول استخلاص مزايا من الموقف بينما كانت القوات البريطانية فى البلاد مهتمة فقط بالجلاء عنها بأسرع ما يمكن . وكانت النتيجة قيام قطاعات من الدولة اليهودية التى لم يكتمل قيامها بشن حملات منتظمة لارغام العرب على الخروج من المناطق المخصصة لاسرائيل .

وعندما اعلن قيام دولة اسرائيل رسميا فى عام ١٩٤٨ تدخلت الجيوش العربية محاولة وضع حد لهذا الكيان الدخيل قبل أن يتمكن من تثبيت جذوره ولكنها فشلت فشلا مخزيا . وظلت الدولة الجديدة تقوى وتزدهر طوال الخمسة والعشرين عاما التالية على حساب العرب عادة . ثم حلت هزيمة عام ١٩٦٧ الكاملة بانتزاع القدس من سيطرة الأردن واحتلال سيناء حتى قناة السويس واجتياح الضفة الغربية لنهر الأردن واخراج السوريين عنوة من جزء كبير من مرتفعات الجولان . وفى غضون ذلك برز الى الوجود مئات الآلاف من اللاجئين الجدد فقد ارغم الفلسطينيون على الرحيل مرة اخرى بعد فرارهم قبل ذلك من ديارهم الأصلية واضطر المصريون الى ترك مدن

القناة والبحث عن مأوى لهم فى القاهرة المزدحمة بالسكان فرارا من القصف الاسرائيلى وطرد الفلاحون السوريون من قراهم المتداعية فى المرتفعات القاحلة ــ اما مدينة القنيطرة التى لم يلحق بها القتال اى اضرار خلال حرب عام ١٩٦٧ فقد دمرها مهندسو الجيش الاسرائيلى فيما بعد لكى يتعذر على المدنيين السوريين أن يعودوا اليها .

وكانت حرب ١٩٦٧ نقطة تحول فى الحياة الحديثة للدول والشعوب العربية . فبعد عام ١٩٦٧ بدأ الفلسطينيون ينظمون أنفسهم بطريقة جادة واخذت الدول المجاورة لاسرائيل تدرك انه من غير المحتمل أن تساعدها اية هيئة أجنبية ما لم تتبين انها راغبة فى مساعدة نفسها . وبدأ بروز منظمات المقاومة فى ذلك الوقت وبلغت ذروتها عام ١٩٧٠ وعادت الى الظهور كقوة سياسية فى السنوات التى أعقبت تحطيم جيش الملك حسين لقوة الفلسطينيين العسكرية حتى تستطيع الأردن البقاء كدولة ذات سيادة . وكان الفلسطينيون منذ ١٩٦٧ يؤثرون على كل العوامل الأخرى فى العالم العربى ولولاهم لاتخذ قادة العواصم العربية المختلفة مسلكا مختلفا تماما عن المسلك الذى اتخذوه .

وكانت مصر طوال سنوات ما بين الحربين هى القوة العربية الكبرى بالرغم من كل الصدمات والتطورات غير المتوقعة والتقلبات التى طرأت على سياستها وبالرغم من كل التغييرات العنيفة التى تعرضت لها البلاد . فلقد وحد الرئيس جمال عبد الناصر صفوف شعبه فى أعقاب كارثة ١٩٦٧ ووضع الأساس الذى اقام عليه خليفته نظاما جديدا . على ان الرئيس السادات هو الذى وحد صفوف العرب بصورة لم تحدث ابدا من قبل وهو الذى صاغ التحالف مع الملك فيصل الذى ادى الى وضع ثروة السعودية ومكانتها فى خدمة العرب لأول مرة وهو الذى نجح فى الوقت نفسه فى تجنيد الدول « الثورية » فى معركة يهيمن عليها منافسوها من الدول المجاورة وكان الرئيس السادات الذى دفعت به مصادفة اصابة عبد الناصر بأزمة قلبية مبكرة قاتلة الى شغل منصب رفيع أكثر الزعماء العرب كلهم تعرضا لسوء الفهم كما كان أكثرهم تعرضا للمعاناة فى أحوال كثيرة . ولقد كانت سياسته واضحة وكان يعلنها بوضوح : كان ينهج كل سبيل يمكن للتوصل الى تسوية متفق عليها مع اسرائيل فى الوقت الذى كان يستعد فيه لمواجهة عسكرية معها . ومن المؤسف ان الأحداث كانت تتضافر لكى يبدو أن الحل السلمى هو الذى يشغل كل اهتمامه حتى أنه فى النهاية لم يعد أمامه بديل سوى المعركة التى ظل يحذر دائما بأنها محتملة والتى ظل يعمل جاهدا على تجنبها .

ومثلما كانت السلسلة الطويلة من الأحداث التى وقعت فى مصر كتغيير القيادات وأساليب القيادة واقصاء المعارضين وتكوين ادارة مختلفة تماما عن الادارة التى أقامها الرئيس عبد الناصر كان أيضا تطور أنظمة جديدة فى الدول العربية الأخرى هو الذى يسر وقوع أحداث عام ١٩٧٣ فقد تحولت سوريا التى أرهقها وقوع عشرين انقلابا خلال عشرين عاما الى دولة مستقرة حيث يضطلع بالحكم رئيس معتدل بموافقة الأغلبية . وفى الخليج أقنعت امارات البترول الغنية بانها تشكل أيضا جزءا من العالم العربى وأن عليها واجبا نحو هذا العالم . كما أن دول جنوب الجزيرة العربية المختلفة تماما اكتشفت هويتها ، ولعبت فى النهاية دورها فى سلسلة الأحداث المثيرة وفى دول المغرب اضطر ملك الى القيام بدور رجل سياسة وتحول ثائر الى رجل اقتصاد بينما كان الجميع يزدادون اقترابا من المشرق العربى . وتولى شاب تغلب عليه الخيالية امور الحكم فى ليبيا . ولو أن القذافى نادرا ما كان ينسق خطواته مع غيره الا انه نجح فى ان يكون بمثابة ضمير العالم العربى . وفى الأردن تمكن حاكم ومجتمع قبلى من البقاء فى مواجهة كل المتناقضات وبدا أنه من المحتمل ان يحققا عن طريق عدم القيام باى نشاط اكثر مما حققاه نتيجة لحملاتهما ضد الاسرائيليين او الفلسطينيين الذين كانوا ينشدون تقطيع أوصال المملكة بل وتولى السلطة فيها .

وثمة دولة واحدة فقط لم نتعرض لها فى هذا الكتاب هى اسرائيل ، الدولة الوحيدة التى لابد وأن تؤثر دائما فى الدول الأخرى كلها فى الشرق الأوسط . ومع ذلك فهى موجودة كامنة فى كل واقعة تشكل كل حدث وتلون موقف كل رجل دولة . فقد كانت تصرفات العرب حتى عام ١٩٧٣ ردود فعل بينما كانت اسرائيل هى التى تأخذ بزمام المبادرة دائما . فكان الهجوم الاسرائيلى على بلدة الكرامة الأردنية هو الذى ادى مباشرة الى تزايد شعبية حركة الفدائيين الفلسطينيين بصورة كبيرة وكانت المساعدات التى قدمتها اسرائيل الى المتمردين فى جنوب السودان هى التى أبعدت تلك البلاد عن « اتحاد الدول العربية » وكان رفض اسرائيل تقديم تنازلات واحتقارها الذى لاتكاد تخفيه للعرب جميعا هو الذى فى النهاية جعل حرب ١٩٧٣ امرا محتوما .

ولقد نجح العرب بشق النفس فى خوض تلك الحرب حتى حققوا تعادلا فى ميادين القتال ومن العبث ادعاء شىء غير ذلك بالرغم من انه مع عودة بعض الايمان بفكرتين متناقضتين فى وقت واحد والذى غاب لحسن الحظ اثناء القتال جرت محاولات لاحقة لوصف نتيجة الثمانية عشر يوما من القتال بانها انتصار عربى . ولكنها لم تكن كذلك . الا ان ما تحقق بالفعل كان اهم

بكثير من استرداد الأراضى المحتلة او اعادة الحكم العربى الى مناطق كان يسيطر عليها من قبل . فقد استعاد العرب فى حرب ١٩٧٣ احترامهم لانفسهم ومحوا ذكرى هزائمهم الماضية واظهروا للعالم ان العرب يمكنهم ان يقاتلوا تماما كأى انسان آخر وان لديهم القدرة الفنية على القيام بمناورات معقدة وان قادتهم قادرون على توجيه اقدارهم بمهارات وجراة ووعى سياسى رفيع والأهم من ذلك كله ان الجيوش العربية فى حرب اكتوبر ارغمت اسرائيل ومن يساندونها على التسليم بحقيقة كريهة وهى أنه لابد من تسوية الخلاف اذا ما كانت هناك رغبة فى قيام سلام دائم فى الشرق الأوسط مثلما قال الملك حسين للاسرائيليين مرارا كثيرة : « يمكنكم ان تنالوا الارض او تنالوا السلام . ولكن لا يمكنكم ان تنالوا الأمرين معا » . وبعد طول انتظار اضطرت اسرائيل الى قبول ذلك باعتباره واقع الحياة واصبح عليها لأول مرة منذ قيامها ان تستجيب للعرب على عكس ما كان يحدث فى الماضى .

ان النتيجة النهائية كانت ما تزال فى عالم الغيب عند تدوين هذه المقدمة وكانت ما تزال غامضة تماما بالرغم من جهود الدكتور هنرى كيسنجر ورغبة الرئيس السادات الطيبة ونزعة الملك فيصل العملية وتأييد كل الساسة فى بقية العالم الغربى . ولعل الحقيقة المؤكدة الوحيدة هى انه بعد ١٩٧٣ لن يظل العرب كما كانوا من قبل مرة اخرى ولن يعود فى وسع الاسرائيليين أن يتصرفوا كما يشاءون فى منطقة سيطروا عليها فترة طويلة من الزمن . كما ان الأمور قد تغيرت بالنسبة للدولتين الكبريين فقد اضطرت أمريكا وروسيا الى التوصل الى انهما لا تستطيعان المضى فى التنافس فى الشرق الأوسط حيث لكل من الدولتين مصالح مشروعة ومطامح مفهومة وان الدول التى تمثلهما قد حققت حالة شبه توازن اضطرتهما الى أن يحذوا حذوها . ومن ثم كان على عهد الوفاق بل والتعاون الذى يتجلى فى كثير جدا من المناطق الأخرى أن يمتد الى الشرق الأوسط .

واخيرا فان هناك نتيجة واحدة اخرى لحرب ١٩٧٣ وربما بدا انها اهم النتائج بالنسبة للغرب . فقد وحدت الدول المنتجة للبترول صفوفها لأول مرة وفى مظاهرة مقنعة بقوتها رفعت اسعار البترول وقيدت شحناته وبعد أن كان البترول يباع بسعر ٢ر٥ دولار للبرميل فى أوائل ١٩٧٣ ارتفع الى ١٧ دولار للبرميل بعد ذلك بعدة اشهر فقط وتلاشت سياسات أمريكا والغرب الاقتصادية القائمة على الاعتماد على موارد الطاقة الرخيصة من العرب بين عشية وضحاها . بل ان ثمة نتيجة اخرى شديدة الأثر . فقد اظهرت الدول التى تملك المواد الأولية فى العالم فجاة الدليل على قوتها . فاذا كان العرب قد

استطاعوا أن يفرضوا ما ينبغى أن يدفعه العالم ثمنا للبترول فان فى امكان زامبيا وشيلى معا ان تقررا أسعار النحاس ، ومن الممكن ان تضارب غانا بدخلها من الكاكاو كما تشاء ، أو تحدد ماليزيا سعر القصدير ، وربما كانت هذه النتيجة بحق هى المساهمة الأساسية للعرب فى وقت يتميز بالتغيير السريع ـ ان يظهروا لدى العالم مدى ما يستطيع العالم الثالث ان يمارسه من سلطة وربما ليمهد الطريق الى اعادة توزيع الثروة فى العالم بصورة عنيفة .

ولو نجحت حرب اكتوبر فى تحقيق ذلك فان انجازاتها ستكون حينذاك أعظم بكثير من مجرد تسوية ازمة الشرق الأوسط بالرغم من اهميتها . ولعل الرئيس السادات بكسره الجمود فى الشرق الأوسط يكون أيضا قد وضع حدا للنظام الذى تصبح فى ظله الدول الغنية اكثر ثراء والدول الفقيرة اشد فقرا .

١ ـ العرب يوحدون صفوفهم

لقد ظل الرئيس السادات ثلاث سنوات يستعد لهذه اللحظة فانشأ احلافا واقام صداقات ، ورهن دخل بلاده لعشرات السنوات المقبلة وغامر بنشوب انتفاضات فى الداخل ، وتجاهل الانتقادات الخارجية الموجهة اليه . على انه عندما حانت لحظة اصدار الأمر ببدء الحرب كان السادات اشد القادة الذين عرفهم التاريخ ترددا ٠ وحتى عندما كانت القوات المصرية الخاصة تحتشد عبر القناة والدبابات السورية تندفع الى الأمام عبر هضبة الجولان تحت غلالة من نيران المدفعية كان الرجل المسئول أكثر من غيره عن المكاسب العربية فى حرب الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ جالسا فى مقر قيادته فى احدى ضواحى القاهرة يتساءل عما اذا كان قد أصاب فيما فعل .

لقد كان ذلك نوعا من الشك النفسى الذى لابد وان قد ابتلى به كثير من القادة عند بدء المعارك ، ولكنه فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ من اكتوبر ألم بالسادات أشد مما ألم بمعظم القادة ٠ وكان يعرف أنه بالرغم من أن اللواء احمد اسماعيل هو الذى يصدر الأوامر ، فان الخطوات السياسية هى التى يسرت اكثر من الحشد العسكرى ، شن هذه الحرب كما كان السادات يدرك بوضوح بصفته عقيدا سابقا وباعتباره كان قريبا من العنف فى مناسبات كثيرة ، مدى المذبحة التى قد تحدثها أوامره ٠ وربما لهذا السبب أكثر من أى سبب آخر لم يشاهد السادات وهو يستريح فى النهاية الا بعد ان بدأت القيادة تتلقى التقارير عن نجاح المصريين فى عبور القناة باقل الخسائر . لأن السادات عندما كان يتحدث عن الجنود والبحارة والطيارين المصريين ويصفهم بقوله : « ابنائى » انما كان يعنى ذلك بطريقة شخصية جدا ، ففى العالم الاسلامى يضطلع عميد العائلة أو رئيس العشيرة أو زعيم البلد بمسئولية تتجاوز كثيرا الموقف الذى يتخذه الساسة الغربيون أو ينتظر منهم اتخاذه ، وقد كان السادات وما يزال مسلما حقا .

وفى ذلك الشهر الحاسم ، شهر اكتوبر ، كان السادات أيضا رجلا أسىء فهمه بصورة كبيرة . كان قد ظل طوال سنوات مضت يحذر من العواقب اذا لم يتم التوصل الى تسوية متفق عليها فى الشرق الأوسط ، واذا ما استمرت اسرائيل ترفض التخلى عن الأراضى التى احتلتها فى سنة ١٩٦٧ او التفاوض حول تعويض مليونى فلسطينى أرغموا على مغادرة وطنهم منذ سنة ١٩٤٨ او فروا خوفا مما قد يحل بهم . ولم يكن أى انسان يصدق السادات . وكان

كلما ازداد تحذيرا كلما قل الميل الى تصديق ما يقول ، حتى انه فى النهاية كانت خطب السادات التى يتنبأ فيها بنشوب الحرب هى التى ساعدت على تمكين المصريين والسوريين من شن هجومهم المفاجىء .

وفى سوريا كان الوضع مختلفا : كان الرئيس حافظ الأسد يحتل منزلة مخالفة تماما عن منزلة زميله فى مصر ، اذ كان على الأسد أن يتحدث باسم سوريا وحدها بينما كان السادات هو زعيم العالم العربى المعترف به وكان الأسد يضطلع بالحكم بموافقة عدد من المجتمعات السياسية المتفرقة فى دولة كان استقرارها محل شك وعلى الدوام . وكان السادات يسيطر سيطرة مطلقة على بلد نادرا ما يتخذ الانشقاق فى الداخل فيه شكلا آخر غير الشكل الفكرى لقد كان الزعيمان مختلفين عقائديا كما كانا مختلفين من ناحية الثقافة الأساسية بل انهما كانا مختلفين من ناحية الدين . ومع ذلك فان الأمر الوحيد الذى كانا يشتركان فيه كان كافيا لأن يحقق بينهما تقاربا أكبر مما استطاع معظم الزعماء العرب الآخرون بحقيقة من قبل ، وكان ذلك العامل الوحيد الذى الف بينهما هو ان جزءا من اراضى بلديهما يخضع للاحتلال الاسرائيلى .

وثمة بلد ثالث كان يعانى الأمر نفسه ، ولم يكن زعيمه يختلف عن السادات والأسد فحسب ولكنه كان معارضا لهما أساسا . ومع ذلك فبالنسبة للملك حسين ملك الأردن كان الوجود الاسرائيلى على ما يعتبره الملك انه ارضه سببا كافيا جعله يسوى خلافاته القديمة . ويصبح على استعداد للقتال الى جانب مصر وسوريا . واذا كان الملك حسين لم يفتح جبهة ثالثة فى الضفة الغربية لنهر الأردن فان السبب هو قرار عسكرى رضى به الثلاثة جميعا . ولم يكن بسبب اية شكوك ربما تكون قد راودت الملك فيما يتعلق بعدالة القضية .

اما الدول العربية فقد اوفت بما عاهدت به بالرغم من انه كان من الطبيعى ان الدول الثلاث الأساسية المجاورة لاسرائيل هى التى طلب منها وحدها ان تلعب الأدوار الرئيسية . فقد ارسلت العراق قواتها على الفور الى سوريا بالرغم من أن جناح حزب البعث الحاكم فى بغداد كان أقوى منافس للجناح الحاكم فى دمشق . وارسلت السعودية التى كان ملكها يعارض بشدة اى انظمة يسارية تنم عن اى اثر قليل للشيوعية الملحدة ، قواتها لنجدة السوريين أما الجزائر التى كانت قد أعلنت بجلاء أنها تعتبر سياسات مصر « انهزامية » فقد اشتركت بطائراتها فى القتال بعد اربع وعشرين ساعة من اندلاع الحرب وهكذا مضت الأمور بمساهمة دولة بعد أخرى بما تستطيعه فى

مظاهرة مؤثرة بذلك التضامن الذى ظل العرب يفتقرون اليه فترة طويلة . وكان ينبغى ان يكون ذلك تحذيرا مفيدا لاسرائيل ومؤيديها عن مدى عمق المشاعر التى تولدت نتيجة لما يعتبره العرب جميعا غطرسة وعنادا اسرائيليين .

ان ذلك الاجماع فى الاستجابة لم يتحقق بالصدفة وانما كان هو ما ظل السادات يعمل على تحقيقه طوال السنوات الماضية . فقد ادرك أن مصر بمفردها لا يمكنها أن تأمل فى الحاق الهزيمة باسرائيل بالرغم مما طرأ على قدرة الجيش المصرى من تحسن . وحتى لو توفرت المساعدة السورية فان فرصة النجاح تكون ضئيلة للغاية . ومن ثم فقد كان على السادات أن يحكم التدبير لكى يشهر العرب سلاحهم الآخر : وهو سلاح البترول . وفى النهاية تم الجمع بين الأمرين وتحقق ما كان منتظرا . غير انه كان من الواضح ان العرب ما كانوا ليحققوا سوى النذر اليسير لو انهم كانوا قد ركنوا الى الحرب وحدها وانه لولا عبور القناة وخوض المعارك فى سيناء لما امكن دفع الدول المنتجة للبترول الى فرض الحظر الذى كان له فى نهاية المطاف فاعلية القوات المقاتلة .

لقد كان الطريق الى الحرب طويلا وشاقا بدأ بالهزيمة المشينة التى لحقت العرب عام ١٩٦٧ والتى تضاعفت عندما اضطر الرئيس عبد الناصر تحت وطأة العقاب الشديد الذى كانت توقعه المدافع الاسرائيلية الى قبول وقف اطلاق النار الذى تبنته امريكا عام ١٩٧٠ . ولكن السباق نحو النزاع الفعلى لم يبدأ الا عندما وطد السادات دعائم حكمه فى عام ١٩٧١ ولم تتخذ الاستعدادات النهائية الا منذ بداية عام ١٩٧٣ . ومن اليسير اذا ما تأملنا الماضى . ان نرى بجلاء مدى ذلك كله بالرغم من عدم وضوح اى شىء فى ذلك الوقت وبالرغم من التجاهل الذى كانت تقابل به التحذيرات التى دأب السادات على توجيهها . فقد فسرت خطوات الاستعداد الواضحة مثل تولى السادات سلطات جديدة قبل الهجوم بستة شهور بأنها « تمثيلية اخرى للاستهلاك المحلى » كما اعتبر تزايد النشاط الدبلوماسى بين مصر وسوريا والسعودية امرا روتينيا وقوبلت تحذيرات الملك فيصل الجادة والمتكررة بالتجاهل ، واغفلت تقديرات المخابرات وصورت متاعب سوريا الداخلية بطريقة تنطوى على المبالغة ، كما كان هناك استخفاف بالجيش المصرى . وفى الوقت نفسه كانت المحاولات المستمرة بين الدول العربية والافتقار الى وحدة الهدف بينها من الأمور المسلم بأنها ستظل باقية دائما ،وانها ستحول بقوة دون قيام العرب بأى عمل موحد اذ كان العالم الخارجي قد تكونت لديه صورة مشوهة وزائفة عن الشرق الأوسط .

وكان ذلك خطأ مفهوما . فعلى مدار السنين : ينفق العرب كثير من الوقت فى قتال بعضهم لبعض اكثر مما انفقوه فى مقاتلة عدوهم وقتل من الفدائيين الفلسطينيين بأيدى العرب عدد أكبر مما استطاعت اسرائيل أن تقتله وبدأ ان سوريا كانت تعتبر الملك حسين عدوا الد من جولدا مائير لأن سوريا دفعت بدباباتها الى داخل الأراضى الأردنية قبل ذلك . وبالرغم من تأييد العراق للفلسطينيين فانه لم يفعل شيئا من الناحية العملية اما العقيد القذافى فقد كان أكثر تصمما على بناء ليبيا منه على تقويض الكيان الذى أقامته اسرائيل والذى كان يصفه مرارا بانه كيان طفيل . وكان اهتمام الجزائر وتونس والمغرب بالأحداث فى شرق البحر الأبيض ضئيلا بينما كانت دول الخليج « المحافظة » تعتبر خطر التهديد من جانب النظام الماركسى القائم فى عدن ملموسا أكثر من الخطر الذى تمثله اسرائيل بالنسبة للعالم العربى بأسره .

أما فى مصر طليعة الدول العربية منذ زمن بعيد فقد بدا أن عام ١٩٧٣ قد بدأ بنفس الطريقة المألوفة فبينما كانت التحقيقات ما تزال تجرى لمحاولة كشف أسباب اندلاع فتنة طائفية كريهة بين المسلمين والأقباط خرج طلبة القاهرة مرة أخرى فى مظاهرات بشوارع المدينة وكان من الصعب فى هذه المرة معرفة ماذا يريدون على وجه الدقة : اذ بدا انهم يعانون أساسا من احساس عام بالاحباط وان لابد لهم من التنفيس عنه بوسيلة ما . وقد أمهلوا لفترة قصيرة وبعد ثلاثة أيام من الاضطرابات طردوا من ساحات الجامعات وأغلقت الجامعات مؤقتا ، لأن السلطات لم يكن لديها وقت لكى تعاملهم برفق فقد كانت ثمة امور تجرى أهم من ذلك بكثير . وكان أهم هذه الأمور جميعا العلاقات الجديدة التى كان السادات يقيمها مع دول عربية أخرى فى الوقت الذى بدأ فيه اللواء سعد الدين الشاذلى رئيس أركان حرب القوات المسلحة شهور الاستعدادات الأخيرة لقواته .

وقد اشترك اللواء أحمد اسماعيل مع السيد حسن صبرى الخولى السفير المتجول فى المحادثات التى أجريت فى دمشق والتى أدت الى عقد ميثاق الحرب السرى بين سوريا ومصر عندما قام الرئيس الأسد بتعيين وزير الحربية المصرية قائدا عاما لجبهتى سيناء والجولان دون أن يطلب منه ذلك للتدليل على ثقته فى الشريك الأكبر فى الاتفاق . وكان ذلك هو أول اجتماع من الاجتماعات الكثيرة التى عقدت بين العسكريين والمسئولين المصريين والسوريين بصورة سرية فى كل من دمشق والقاهرة اذ كان العرب يظهرون بالفعل مقدرة جديدة على تنظيم أنفسهم دون أن يتيحوا للعالم فرصة معرفة ما يجرى بالرغم من أن السادات أعلن فى اجتماع عقد بمدينة طرابلس فى ١١ من يناير أنه لا بديل

عن القتال . وقد استقبلت الملاحظات التى أبداها باهتمام ضئيل خارج الشرق الأوسط ، بل ان العرب أنفسهم لم يكترثوا لها ، لأنه كان قد ردد ذلك مرارا من قبل .

وكان التقارب الجديد مع سوريا واحدا من أهم الاستعدادات العسكرية للحرب التى كانت القيادة المصرية تعتبرها محققة لأن المخططين المصريين كانوا واقعيين تماما بالنسبة لها : فقد كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون بالرغم من كل التطورات التى طرأت على جيوشهم أن يخوضوا حربا تستطيع فيها اسرائيل حشد كل قواتها على جبهة واحدة . وكان لابد من تنظيم مسألة الامدادات ايضا . ولذلك استدعى الرئيس السادات فى ٢٤ من يناير السفير السوفييتى مستر فيلاديمير فينوجرادوف لأول مرة منذ اصدر اوامره بطرد المستشارين السوفييت من مصر فى العام السابق وأبلغ الدبلوماسى الروسى أن مصر قد أصبحت مقتنعة أخيرا بأن المفاوضات برعاية أمريكا لا يمكن أن تحقق شيئا : وأن المطلوب هو اظهار خطورة الموقف بشكل ما وأنه من الضرورى لنجاح هذه الفكرة زيادة تدفق الأسلحة . ولم يأخذ مستر فينوجرادوف الأمر على محمل الجد تماما لأنه كان قد سمع ذلك من قبل . بيد أن زميله فى دمشق مستر نور الدين محيى الدينوف كان يبلغ فى ذلك الوقت مطالب مماثلة بصورة غريبة من الجانب السورى فبدأ الروس يولون الموضوع اهتماما أكبر ونفذوا ما طلب منهم فازدادت شحنات الأسلحة . وكانت موسكو قد أصبحت مثل العرب تضيق بأمريكا واضطلاعها بدور بارز فى الشرق الأوسط فقررت أنه من الضرورى لحماية مركزها ، أن تتخذ خطوة اكبر قليلا وان قيام مصر أو سوريا بمظاهرة صغيرة لن يؤدى الى أى ضرر ولا سيما أن اسرائيل أصبحت أكثر عدوانية عن ذى قبل فى ردها على ما تعتبره « استفزازات » من دول تحيط بها .

وكانت مبررات اسرائيل أن الفدائيين الذين يقومون بعمليات فى أنحاء العالم كله ينطلقون من لبنان أو سوريا وأنهم بوجه عام يتلقون تدريباتهم ويجمعون أسلحتهم ويتخذون قواعد لهم فى هذين البلدين ، ومن ثم كان الاسرائيليين يقولون أنهم سوف ينقلون الحرب الى داخل هذه الدول وأثبتوا فى الشهور الأولى من عام ٢٩٧٣ أنهم يعنون ما يقولون . ففى شهر فبراير هاجموا مخيمى النهر البارد وبدوى اللذين يضمان اللاجئين فى شمال لبنان انتقاما لسلسلة من حوادث القصف على امتداد الحدود اللبنانية ولكن هذا الهجوم كان فى حقيقة الأمر محاولة فاشلة لكى يأسروا الرجل الذى يكن له الاسرائيليون أشد البغض وهو جورج حبش قائد الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين ، وقد ضاعت من المغيرين فرصة اعتقال الرجل لتأجيل اجتماع كان مقررا عقده من قبل الا أن ما ظهر من معرفة الاسرائيليين التفصيلية بالمخيمين وبعمل الجبهة الشعبية بالاضافة الى قيام دليل لاجدال فيه على تواطؤ أشخاص من ذوى المكانة فى لبنان كان ينبغى أن يكون تحذيرا لقادة المقاومة لكى يحتاطوا فى المستقبل . ومن المؤسف أنهم لم يدركوا مدى ضرورة اتخاذ اجراءات وقائية جديدة .

وفى الوقت الذى كان يقوم فيه الاسرائيليون بالتوغل الى أبعد مناطق العمق داخل لبنان أسقطت طائرة ركاب ليبية بواسطة طائرات اسرائيلية عندما ضلت طريقها وحلقت فوق سيناء المحتلة نتيجة لخطأ اجراءات المراقبة الجوية المصرية وخطأ الطيار الى حد ما . وكان من الواضح أن هذين العاملين بالرغم من مساهمتهما فى وقوع الحادث لا يمكن أن يبررا تعمد اسقاط طائرة كان يبدو بوضوح أنها طائرة ركاب مدنية لا تميزها أى علامات فوجدت اسرائيل نفسها تتخذ لاول مرة موقف الدفاع . بيد أن ذلك لم يستمر لفترة طويلة فبعد مضى فترة تزيد قليلا عن أسبوع على هذا الحادث اجتاح ارهابيوا ايلول الأسود سفارة المملكة العربية السعودية فى الخرطوم واعتقلوا عددا من الرهائن وقتلوا ثلاثة منهم بطريقة تتسم ببرود غريب لأن الفدائيين كانوا يعلمون أنه لا أمل لهم فى نجاح مطلبهم الخاص باطلاق سراح أحد زعمائهم من سجنه فى الأردن . وكان ذلك مجرد عذرا أما الغرض الحقيقى من العملية فكان استعادة سمعة منظمة ايلول الأسود التى تقوم على العنف والقسوة تلك السمعة التى رأى قادة الجماعة انها قد لطخت نتيجة اخفاق مجموعة أخرى من الفدائيين فى تنفيذ عملية مماثلة فى بانجكوك .

لقد كان النشاط الارهابى من كل من الجانبين هو الذى يستأثر باهتمام العالم حسبما كان الفلسطينيون على الأقل يقصدون. مع أنه كانت تجرى من وراء الكواليس تحركات أهم كثيرا أخطرها الحلف الجديد الذى كان يقيمه السادات بينما كان يتخلى بهدوء عن حليفه القديم العقيد القذافى رئيس ليبيا الذى كان قد خدع المصريين وحملهم على الموافقة على وحدة لم يكونوا يريدونها اذ كان الدبلوماسيون فى القاهرة يرون بوضوح تام المزايا الجغرافية والمالية المترتبة على اتحاد بلادهم مع جاراتها المترامية الأطراف . ولكنهم كانوا يرون بنفس الوضوح العقبات السياسية والاجتماعية ولذلك كان المصريون يقاومون بينما كانوا يبذلون مافى وسعهم لكى يظل القذافى سعيدا حتى لا يقطع المعونات المالية التى كانوا فى حاجة شديدة اليها . وقد أدرك القذافى نفسه ما كان

يجرى وقام بتصعيد ضغطه وسمح له بان يبدأ الخطوة الأولى لأنه لم يكن قد ظهر حينذاك بديل عن ليبيا ، وعندما يظهر هذا البديل فسيكون فى الامكان الاستغناء عن القذافى .

وبطبيعة الحال كان الرجل الذى حل محله هو الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية الوهابى المتقشف الذى يحكم بلدا ذا ثراء يجعل ليبيا نفسها تبدو فقيرة الى جانبه . وكان الملك أكثر من راض عن التودد اليه لأنه لم يكن ملكا على صحراء غنية فحسب وانما كان حارس الاماكن الاسلامية المقدسة أيضا فضلا عن استضافته كل عام لمئات الآلاف ممن يؤدون فريضة الحج وكان الملك فيصل يضطلع بهذه المسئوليات بجدية فكان يحافظ على مكة والمدينة كما ينبغى أن تكون المحافظة كما كان فى استطاعة كل من يقوم بالحج الى السعودية أن يركن الى هذه الحماية . الا أنه كان ثمة حرم ثالث لا يخضع لسيطرة فيصل وهو المسجد الأقصى بالقدس . وكان الملك قد أصبح على مر السنين يشعر بقلق متزايد بالنسبة للموقف . وكان يرتبط ارتباطا وثيقا بامريكا التى كانت المملكة العربية السعودية قد دخلت معها فى تحالف رسمى يرجع الى عام ١٩٣٣ كما كانت احدى الشركات الأمريكية مسئولة عن انتاج بلاده الغزير من البترول . كما تلقى معظم كبار المسئولين فى حكومته تعليمهم فى أمريكا وكان الملك مفطورا على الانحياز الى زعيمة العالم الغربى لوقف الانتهاكات والاعتداءات المتزايدة التى يقوم بها النظام الشيوعى الملحد وداعيته الكبرى روسيا . لذلك أخذ الملك مرة بعد أخرى يتيح للزعماء الأمريكيين فرصة معرفة حقيقة مشاعره : فبعث برسائل مع كبار المسئولين ووجه خطابات ونداءات بل أنه ذهب الى حد أبعد من ذلك باجراء مقابلات صحفية وتليفزيونية وهو أمر كان يكره القيام به ويعتبره غير لائق بملك . كان يقوم بأى شئ محاولا أن يجعل الأمريكيين يدركون ان مشاعره قوية ، وأنه يعنى ما يقول وأنه سيقدم حقيقة على خطوة ما اذا لم يحدث أى تغيير : وكان كل ما حصل عليه مجرد وعود وتأكيدات رقيقة . وهكذا كان فيصل متأهبا تماما للترحيب بمقترحات السادات لأن الملك كان قد احترف السياسة عمليا لفترة طويلة من الزمن فكان يدرك أن السعودية لا تستطيع بمفردها أن تحقق أهدافها . ولو منعت السعودية شحنات البترول فان ذلك قد يؤدى الى الضغط على أمريكا بحيث ترغم اسرائيل على القيام بنوع من الانسحاب ولكنه لن يكون قطعا سبيلا للتوصل الى تسوية دائمة ومناسبة . فمن غير المحتمل أن يلتزم العرب الهدوء لفترة طويلة بعد أن يروا أراضيهم ترد اليهم نتيجة دبلوماسية بترول بعيدة نوعا ما كما ان اسرائيل سوف تكن لاعدائها ازدراء يتسم بمزيد من الغطرسة

وسيظل هدف الملك الأساسى المتمثل فى رؤية القدس تحت السيطرة العربية أمرا بعيد المنال مثلما كان من قبل ولذلك كان من الضرورى ربط قوة السلاح بضغط البترول وكان هذا هو ما يعرضه السادات .

كان الرسل ينطلقون جيئة وذهابا كل أسبوع تقريبا بين القاهرة والرياض يشرحون ويناقشون ويتملقون لأن فيصل كان مثل السادات تماما محاربا مترددا ولو كان من الممكن بأى حال من الأحوال لكان قد فضل الحصول على ما يريد بأن يكتفى بالتهديد بما يرى بصورة متزايدة ، أنه لا مفر منه . ولكن ذلك لم يكن ممكنا ، اذ كان لابد من أن تترجم التهديدات الى أفعال ولذلك ضمنت السعودية كخطوة أولى دعما ماليا كبيرا لمصر وسوريا ، وبدأت بهدوء حملتها الدبلوماسية فى الخليج للتأكد من أن الدول المنتجة للبترول سوف تتصرف عندما يحين الوقت المناسب فى تفاهم وأنها لن تسعى الى أن تضعف احداها الأخرى . فقد صمم فيصل الذى كان يدرك من تجارب الماضى مدى ضعف الاحساس بالوحدة بين حكام الخليج على أن يلقى بثقله فى هذه المرة وأخذ يعد العدة للقيام بذلك .

وبعد أن ضمن السادات الدعم المالى الذى كان يحتاج اليه وبعد أن وثق تماما ان الدول المنتجة للبترول فى النهاية ستفى بالتزاماتها . وعندما تحين اللحظة المناسبة لهذا أخذ يواصل جهوده لتوحيد الدول التى سيكون فى أشد الحاجة اليها فى خوض الحرب مع اسرائيل لقد كان على ثقة من وقوف سوريا الى جانبه ، ولم تكن ليبيا بذات أهمية وكان بسبيله الى اسقاطها من حسبانه ومن ثم كانت الدولة التالية هى الأردن التى كانت حدودها مع اسرائيل أطول من حدود أى دولة عربية أخرى . كما كانت الأردن موضوعا دقيقا للغاية لأن الملك حسين كان أوثق ارتباطا بالكتلة الغربية من فيصل وكانت فكرته سيئة للغاية عن قدرات العرب العسكرية : فقد شرح فى أحد الأوامر اليومية السرية التى كان يصدرها لقواته : أنه لا يعتقد أنه فى امكان العرب أن يحققوا نصرا فى حرب جديدة مع اسرائيل ، وأوضح الأسباب التى يرغب من أجلها فى أن يبقى جيشه بعيدا عن هذه الحرب اذا ما نشبت وفضلا عن ذلك كانت علاقة الأردن بسوريا شائكة للغاية منذ أرسلت سوريا دباباتها لمساعدة الفلسطينيين أثناء المواجهة التى وقعت فى عام ١٩٧٠ كما كانت الأردن أيضا على حذر من العراق . ولم تكن هناك علاقات قائمة مع الفدائيين ومع ذلك صمم السادات على اعادة الأردن من عزلته الى الحظيرة العربية فقد كان فى حاجة الى كل حليف يمكن أن يحشده ضد اسرائيل . ومع أنه قبل وجهة النظر العسكرية القائلة بأن الأردن لن يكون فى وسعها فتح جبهة ثالثة ضد اسرائيل

عندما تنشب الحرب فقد قدر تقديرا سليما أنه اذا اعتبر الملك حسين مرتبطا ارتباطا قويا بالمعسكر العربى وقام بتوزيع قواته على هذا الأساس ، فقد تكون النتيجة أفضل مما أرسل الملك قواته للاشتراك فى المعركة .

وكان الأمير سلطان وزير الدفاع السعودى أول من فاتح حسين فى الموضوع لأن السعودية كانت هى الدولة المجاورة الوحيدة تقريبا التى ترتبط بها الأردن بعلاقات ودية . وأخذ الأمير يفسر بحذر التقارب الجديد بين بلاده ومصر ، وحث الملك حسين على تناسى خصوماته القديمة فى سبيل وحدة العرب وتضمن حديثه بصورة تتسم بالكياسة بعض التلميحات عن المساعدة الضخمة التى تتلقاها الأردن من الملك فيصل وعن القوات السعودية التى تضم أربعة آلاف جندى والمرابطة قريبا من المفرق ، وكان المعنى الضمنى الواضح ان السعودية قد تضطر الى اتخاذ سياسة جديدة اذا لم يقبل حسين المقترحات التى ستتقدم بها مصر لاعادة الأمور الى سابق عهدها . وأدرك حسين الذى يعتبر أكثر زعماء العرب شجاعة وان كان أكثرهم تعرضا للخطر والمتاعب وأدرك ماينبغى عليه القيام به ، كما أدرك ان خطوة السادات أبعد من انحناءة الاحترام الشعائرية المألوفة لفكرة « الأمة العربية الواحدة » ومع أن الملك أعلن بعد ذلك عندما ما نشبت الحرب انها كانت مفاجأة له ، فان ما كان يقصده هو أن توقيتها هو الذى كان بمثابة مفاجأة له وليس بدء القتال . فما أن تأكد الأردنيون من مدى الضغط الذى كانت مصر مستعدة لممارسته حتى أيقنوا أن العرب سيخوضون الحرب فى نهاية المطاف .

ولقد مارس المصريون بالفعل ضغطا شديدا ولا سيما على الفلسطينيين وكانت بعض عناصر منظمتى فتح وايلول الأسود قد توصلت الى نتيجة مؤداها أن حركة المقاومة سوف تختفى تماما مالم تؤمن لها قاعدة تهاجم منها اسرائيل وقررت هذه العناصر ان لبنان لن تفى بهذا الغرض . فمنطقة الجليل الأعلى لا تصلح لحرب العصابات بينما لا تؤثر المعارك التى تدور حول جبل الشيخ فى الأسرائيليين . كما أن سوريا لن تسمح بأى وجود للفدائيين يكون غير خاضع لرقابتها واشرافها . وهى أقوى من أن تجبر على قبول هذا الوجود وليس هناك سوى الأردن ،بالرغم من أن الفدائيين كانوا قد تعلموا بعد أن دفعوا الثمن غاليا ، أنهم لا يستطيعون قبول تحدى الجيش الأردنى فى معركة صريحة لكنهم كانوا يعتقدون أنهم قد يستطيعون تغيير الحكم فى الأردن وفضلا عن ذلك فقد كان الأردن ما يزال بلدا منقسما على نفسه : فقد كان هناك مليون فلسطينى فى البلاد ، وهو نفس عدد أهالى الضفة الشرقية لنهر الأردن ، كما كان الفدائيون يعتقدون أن كثيرين من ضباط الجيش الأردنى ساخطون وأن أى نظام

يسارى بالنسبة لنظام الملك سوف يضمن تأييد العراق وسوريا المجاورتين ولذلك دبرت مؤامرة للقيام بانقلاب ضد الملك وأوفد محمد داود عوده وهو أحد كبار ضباط منظمة فتح ويعرف باسم أبو داود ، لتنظيم هذا الانقلاب • وكان هناك عدد من خطط العمل البديلة من بينها اختطاف وزراء الحكومة والقيام بعمليات اغتيال والقاء قنابل • وتدل كل هذه الخطط على مدى ضعف مخابرات الفدائيين لأن تدابير الأمن الأردنية كانت من أشد التدابير أحكاما فى العالم ولم يكن أمام هـذه المحاولات أدنى فرصـــة للنجاح • فكما حدث ، سرعان ما اعتقل أبو داود ويرجع ذلك الى حد بعيد الى أنه أتبع اسلوبا ملفتا للنظر فى التنقل داخل الأردن مرتديا زيا سعوديا حاملا جواز سفر عمانيا ومستقلا سيارة لبنانية يقودها سائق لبنانى متزوج من أردنية • ولم يكن من الممكن أن يخطىء رجال الأمن الأردنيون فهم هذه الدلالات وهم من أقدر رجال الأمن وأشدهم قسوة واعتقل أبو داود وأدلى سريعا باعتراف كامل وظهر على شاشة التليفزيون ليقدم تفصيلات عن نظام القيادة فى منظمة أيلول الأسود • وكانت المعلومات القليلة التى ذكرها غير معروفة فى ذلك الوقت لمختلف أجهزة المخابرات المعنية ولكن التأكيد المباشر للأدوار البالغة الأهمية التى يلعبها صلاح خلف ومحمد يوسف النجار وحسن سلامة لقى تقديرا كبيرا ولعله هو الذى أدى بصورة مباشرة الى مصرع النجار بأيدى الاسرائيليين ، والى المحاولة الحرقاء التى قام بها الاسرائيليون فيما بعد فى النرويج عندما قامت مجموعة من رجال « الموساد » باغتيال جرسون فلسطينى برىء كان يعمل فى احد المطاعم معتقدة خطأ أنه حسن سلامة •

وقد قام رجال الملك حسين باغتيال أبو داود وسبعة عشر فدائيا كانوا معه كما اعتقلوا عددا كبيرا من الفلسطينيين المقيمين بالبلاد حامت حولهم الشكوك فى أنهم كانوا سينضمون الى المؤامرة فيما لو قدر لها النجاح ولم تؤد هذه الأحداث كلها الا الى تعزيز رأى الملك حسين فى الفدائيين الفلســـطينيين وتصميمه على ابعادهم عن بلاده وبالرغم من عدم أهمية هذه المسألة ذاتها فانها أدت فقط الى زيادة تعقيد الأمور بالنسبة لجهود السادات الرامية الى تحقيق قدر من الوحدة • فقبول المصريين للملك حسين دون أى خطوة أردنية تجاه الفدائيين سوف يعتبر بمثابة خيانة من القاهرة للقضية الفلسطينية • وبالرغم من أنه لم يسبق لأى حكومة عربية أن أظهرت حساسية بالغة بالنسبة لرغبات الفدائيين وأفكارهم فان السادات لم يكن يريد أن يواجه متاعب من تلك الناحية فى وقت كان يعد فيه للحرب اعدادا صادقا • فقد كان هناك آلاف من الطلبة الفلسطينيين فى جامعات مصر ، وكانوا جميعا بطبيعة الحال يؤيدون حركة المقاومة كما كانوا منظمين تنظيما جيدا • وربما كان نشوب اضطرابات

جديدة فى القاهرة أو الاسكندرية عشية الحرب وسيلة ممتازة للتمويه الا أنها نادرا ما تشجع الدول الأخرى على أن تأخذ مصر على محمل الجد ، كما أن نشوب الاضطرابات قد يزيد من صعوبة عمليات الامدادات والتموين وانتشار القوات •

ولذلك أصر السادات على أن تقدم الأردن بعض التنازلات وظل الملك يرفض الاذعان عدة شهور بالرغم من أنه فى محاولة منه لكى لا تفوته فرصة اقامة علاقات صداقة مع مصر أوفد السيد عبد المنعم الرفاعى وهو رئيس وزراء سابق معروف باعتداله بالنسبة لمسألة الفلسطينيين ممثلا للأردن لدى الجامعة العربية بالقاهرة وبالتالى سفيرا غير رسمى لدى مصر ، لأن العلاقات الدبلوماسية الرسمية كانت قد قطعت فى العام السابق • ولكن الأمر تطلب عدة زيارات أخرى قام بها صبرى الخولى كما تطلب اجراء محادثات طويلة بين دمشق والقاهرة وعمان قبل أن يوافق الملك فى النهاية على الانضمام الى هذا « الرفاق الصغير » الجديد وفى النهاية أقنع الملك باطلاق سراح أبو داود ومئات من المسجونين السياسيين الآخرين وفى مقابل ذلك وافق السادات على اسقاط الدعوى ضد عدد من الطلبة الأردنيين فى مصر بينما اتخذت سوريا خطوة أكثر خطورة فقامت باغلاق محطة اذاعة الفدائيين فى درعا التى كانت تثبت دعاية معادية للملك حسين فى الأردن كما اعتقلت المشرفين على ادارتها وهكذا كان فى استطاعة الملك أن يعتقد بحق أنه قد حقق فى الواقع نجاحا من وراء ذلك ومع هذا فقد كان يعرف أيضا ان عليه أن يدفع ثمنا أكبر من مجرد فتح أبواب السجون وأنه سيطالب فى مرحلة ما بأن يثبت أنه عربى صادق وأنه ليس « ذيلا لأمريكا » كما وصفه الكثيرون • والواقع ان همة حسين وحماسته وكذلك قواته تجلت بصورة كاملة •

بعد تحقيق هذا الارتباط الوثيق مع فيصل والأسد وحسين ، عكف الرئيس السادات على انجاز مهمة ملحة بصورة مماثلة وهى التخلى عن حليفه الوحيد غير المرغوب فيه وهو العقيد القذافى هذه المهمة كان لابد من القيام بها لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن الثقة فى استمرار تعاونه فقد أظهر مرارا ان مستوى سلوكه هو مستوى طفل مدلل فى ملعب للأطفال ما أن ينال ما يريده ويعترف بزعامته للمجموعة حتى تنفرج أساريره كلها • أما اذا رفض أحد أن يشاركه اللعب أو تولى الزعامة بدلا منه فانه يعبس ويتجهم • وكان يستطيع أن يتصرف بهذا الاسلوب داخل بلاده التى لا يزيد عدد سكانها عن مليونى نسمة والتى يقل فيها عدد القيادات دون أن تترتب على سلوكه هذا أية عواقب وخيمة لأنه كان الانسان الوحيد الذى أصبحت له شخصية وطنية ودولية معا ومن ثم

كان وجوده ضروريا فبعد ثلاثة أعوام من توليه الحكم استطاع أن يصبح زعيما لاغنى عنه تقريبا كأى زعيم آخر ومن ثم فعندما كان يواجه بأى معارضة كان يرحل الى خيمته ليعتزل فيها الناس . ولعل هذه الفترات من التأمل فى الصحراء برقة قد أفادته من الناحية الروحية كما نجحت دائما فى تحقيق الغرض منها . ففى مرات ثلاث كان زملاؤه من أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبى يفدون اليه يناشدونه أن يعود وكان فى المرات الثلاث يقبل على مضض الحجة التى يقدمونها اليه وهى أن واجبه تجاه شعبه يحتم عليه العودة ومن المثير تأمل ما كان من الممكن أن يحدث لو لم يطلب أحد منه أن يعود الى الملعب - ولعله كان يلجأ الى تسلق السور .

ولقد نجحت هذه الأساليب أيضا فى علاقاته مع الدول العربية لفترة من الوقت فلكى يحقق أغراضه كان القذافى يهدد بالتوقف عن دفع المعونات التى كانت الدول الأخرى تحتاج اليها تماما مثل الطفل الذى يهدد باعادة مضربه الى البيت مالم يمنح دور البطولة فى مباراة الكريكيت . وقد استطاع بهذه الطريقة أن يحمل السادات على الموافقة على توحيد بلديهما بالدرجة الأولى كما استطاع بنفس هذه الأساليب أن يقنع المسئولين عن صياغة الدستور المشترك المقترح بادراج المواد التى يرى ضرورة ادراجها . وكان غرضه واضحا على الدوام كان يريد قاعدة قوة موثوق بها لا تستطيع ليبيا أن توفرها له عن طريق أموالها وحدها . كان فى حاجة الى الشعب والى الدراية والحنكة والمقدرة التكنولوجية التى يمكن أن تقدمها مصر بالاضافة الى المنبر الدولى المعد الذى يتوفر لأى موقع قيادى فى سياسة القاهرة ولا ريب فى أنه كان يعتقد أنه وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره يمكنه أن يخلف الرئيس السادات فى المستقبل غير البعيد جدا لو اصبح الرجل الثانى فى قيادة دولة عظمى متحدة جديدة . ولو أنه كان يصدق مثل هذه الأمور حقا ، فلابد اذن من أن خطأ تقديراته كان اكبر مما يبدو ذلك ان مصر لم تكن سترحب به أبدا ، فلقد اضطر السادات الى الدخول فى جدل عنيف مع أخلص مستشاريه ومعاونيه الذين كانوا يريدون انهاء الحوار مع القذافى فى كل مرة تظهر فيها نوبات غضبه فقد كان السادات اكثر حلما وصبرا وكانت النتيجة أن اخذت الأموال تتدفق عليه فلما توقف القذافى فى نهاية الأمر كان فيصل على استعداد بملايينه المتدفقة من البترول لأن يسد الثغرة وكانت عملية محكمة التوقيت .

وكانت العملية تجرى أيضا بأسلوب مهذب للغاية وبطريقة مصرية صميمة فقد أخذ المسئولون المصريون يعوقون عمل اللجان المنوط بها اتمام الاستعدادات لقيام الوحدة بحيث لم يكن يتم انجاز شىء على الاطلاق وبذلك بدأ السادات

يدلى بتصريحاته علنية متزايدة عن ضرورة توخى الحذر فى مثل هذه الأمور ووزن المخاطر ودراسة الاحتمالات . ولما لم يتلق القذافى أى رد على الاطلاق على طلباته المتزايدة الهياج بضرورة ابلاغه عما يجرى أسرع هو شخصيا الى السفر الى القاهرة وهناك ارتكب غلطة كبرى بمحاولة الاحتكام الى الشعب متخطيا رئيس الجمهورية . ولم يشعر السادات بالضيق من هذا العمل الذى يتسم بالفظاظة وانما شعر بسرور بالغ وبذل مجهودا خاصا ليرتب برنامجا كاملا للقاءات وللمناقشات لضيفه الليبى لسبب بسيط وهو أنه كان ما يزال يوجد فى داخل مصر تيار قوى مؤيد للوحدة وكانت السياسة المصرية فى الشهور السابقة لحرب اكتوبر أكثر تحررا وديمقراطية الى حد كبير مما كانت عليه من قبل ومما أصبحت عليه فيما بعد ولذلك فقد كان لابد من كشف مدى ما سينساق الى الوقوع فيه أنصار الوحدة وتطوع القذافى لانجاز مهمة السادات ففى اجتماعاته مع المنظمات النسائية المتحررة أخذ يتحدث عن تخلف المرأة الطبيعى وضعفها البيولوجى الذى يحول بينها وممارسة كثير من الأعمال التى يمكن للرجال وحدهم القيام بها وأعلن أن دور النساء هو الدور الذى رسمه القرآن الكريم : أن يكن سكنا لأزواجهن وأمهات لأطفالهم ولم تشعر سيدات مصر بالابتهاج وبعد ذلك بدأ القذافى الذى منح نفسه ترقية من رتبة نقيب الى رتبة عقيد عقب الانقلاب غير الدموى تقريبا الذى مكنه من تولى الحكم بدأ يحاضر كبار الضباط المصريين فى الاستراتيجية العسكرية . والقى خطابا أمام أعضاء مجلس الشعب يبشر فيه بمزايا نظام الحكم الذى تخضع فيه حقوق الفرد لمصلحة الدولة كلية . وأخذ يفسر أمام أى من المصريين يستطيع أن يلتقى بهم ضرورة العودة الى الاسلام مفضلا اتباع اسلوب الثورة الثقافية التى كان قد بدأ الأخذ بها فى بلاده وأعلن ان الفضائل القديمة أفضل وان الشريعة التى تقضى أحكامها بقطع يد السارق ورجم الزانى هى السبيل الوحيد لاصلاح المجتمع وأنه ينبغى تحريم كل المشروبات الروحية وأن تستولى اللجان الشعبية على محطات الاذاعة والصحف كما يجب استئصال النفوذ الغربى الفاسد . وكان المصريون ينظرون بعضهم الى بعض فى ذهول بالغ ثم ينصرفون الى بيوتهم التى تضم كل وسائل الراحة لمشاهدة التليفزيون وليقطعوا على أنفسهم عهدا بأنهم لن يسمحوا أبدا فى أى وقت من الأوقات بأن يكون للعقيد القذافى رأى فى الطريقة التى يجرى بها تسيير دفة الأمور فى بلادهم .

وهكذا عاد القذافى الى ليبيا بعد أن ظل ثلاثة أسابيع يحاول أن يؤثر على المصريين لكى يؤيدوا اسلوب تفكيره ، لقد عاد ومعه فشله الذريع فى هذه المحاولة ولكنه لم يفكر سوى دقيقة واحدة أو اثنين ، وبعد ذلك بدأ محاولته

التالية والأخيرة • فقد قرر أن يقوم بمحاولة أخرى واحدة للاحتكام الى الشعب المصرى مباشرة على المستوى الشعبى هذه المرة طبقا للوصف الملطف الذى استخدمه وأصدر أوامره الى المسئولين فى مدينة طرابلس بالعمل طوال الليل والنهار على تنظيم مسيرة جماهيرية ضخمة يقوم بها الليبيون وأجبر اربعون الف شخص على الرحيل الى مصر مستقلين سيارات نقل الركاب العامة وسيارات خاصة واى شىء آخر يمكن ان يتحرك بهدف الوصول الى القاهرة واقامة مخيم امام مجلس الشعب ليقيموا فيه هناك حتى تصدق مصر على وثيقة توحيد البلدين • وكانت هذه الخطة بما تتسم به من تهور واندفاع وتطرف وعدم امكان تنفيذها واقترانها بالتنظيم الممتاز يحمل طابع القذافى الواضح بالرغم من انكار ان له أى دور فيها •

وانطلق الليبيون فى « مسيرتهم الوحدوية » وعند الحدود ازالوا مخفر الجمارك والحاجز المقام عبر الطريق قبل أن يواصلوا سيرهم • ولكنهم لم يتقدموا بعيدا لأن السادات الذى كانت تشغله استعدادات الحرب كان قد ضاق ذرعا بأوهام شريكه الأصغر الحمقاء • ومن ثم فقد وضعت سلسلة ممتدة من عربات السكة الحديد بحيث تعوق عبور الطريق واتخذت قوات الأمن تساندها مجموعات من القوات المسلحة ، مزودة ببنادق آلية ومدافع رشاشة مواقعها خلف هذه العربات وكانت الأوامر الصادرة لهذه القوات هى ضرورة وقف هذه المسيرة مع استخدام كل الوسائل الضرورية ذلك للحيلولة دون بلوغ ذلك الهدف • والواقع أن الأمر لم يتطلب استخدام القوة فقد عاد الليبيون من حيث أتوا فى خنوع مثبطى الهمة بعد اختيار وفد يمثلهم للتوجه الى القاهرة لتقديم عريضة ـ مكتوبة بالدم ولم يذكر دم من كتبت به العريضة ـ تطالب بقيام وحدة سريعة بين البلدين • وكان ذلك بطبيعة الحال هو نهاية الفكرة بأسرها • وكانت النتيجة هى ذلك التصدع الذى أصاب البناء العربى عندما نشبت حرب اكتوبر • فقد رفض القذافى أن يقوم بأى دور لأنه كان ما يزال يشعر بآلام شديدة من جراء المهانة التى لحقت به على أيدى المصريين فلم يرسل الى الجبهة جنديا واحدا ولم يقدم للمعركة طائرة أو دبابة أو سفينة وذهب القذافى بنفسه الى القاهرة مرة أخرى ومكث بها ثلاث ساعات ولما زار مركز القيادة الضخم المشيد تحت الأرض والذى كان اللواء أحمد اسماعيل ومعاونوه يديرون منه دفة الحرب بدأ مرة أخرى فى انتقاد ما يجرى وقدم اقتراحاته المفيدة فرافقته قوة من الحرس وخرجت به من مركز القيادة الى مطار القاهرة قبل أن يقدم بعض ضباط القيادة الشبان باستخدام وسائل أقل كياسة للتخلص من ضيفهم الثقيل العربيد •

وهكذا كانت تجرى الاستعدادات للحرب ولكن السادات كان ما يزال حتى اللحظة الأخيرة تقريبا يسلك طريق السلام ولو انه استطاع التوصل الى تسوية عن طريق المفاوضات حتى شهر سبتمبر لكان قد وافق عليها بلا ريب لأن العد التنازلى الى ساعة الصفر لم يبدأ قبل ١٥ من سبتمبر • وكان من الممكن أن اتفاقا مماثلا لذلك الاتفاق الذى توصل الى عقده هنرى كيسنجر فى النهاية فى شهر نوفمبر ـ يؤدى الى منع نشوب الحرب بلا ريب • اذ كان المبعوثون المصريون حتى شهر سبتمبر يتحركون باستمرار فى الأمم المتحدة فى نيويورك وفى واشنطون ولندن وباريس وموسكو • وفى نصف عواصم العالم الثالث يطالبون بالتأييد ويقدمون بالضغط متبعين فى اصرار وكفاءة سياسة السادات القائمة على السعى الى السلام مع الاستعداد للحرب • الا أنه كان واضحا مع بداية الربيع ان الأمل ضئيل فى تغيير الصورة : فالعروض الأمريكية الخاصة « بالمحادثات عن قرب » والتى تتضمن بقاء الجانبين فى فندق واحد على أن لا تجرى فى الواقع محادثات مباشرة بينهما لم تسفر عن شىء بينما ظلت قرارات الأمم المتحدة الجديدة كما كانت دائما « حبرا على ورق » كما يقول المثل العربى وكان السادات على وعى تام بذلك ففى شهر مارس وجه الصحفى الأمريكى المشهور ارنودى بوشجريف الذى اختاره الجانب المصرى أداة رئيسية له للاتصال بالغرب سؤالا الى الرئيس السادات عما اذا كانت الحرب أمرا محتوما فاجاب الرئيس بلهجة موزونة وهو يفكر فى اهتمام ويتوخى الدقة فى انتقاء كلماته « لقد أصبح من الواضح تماما ان الولايات المتحدة تريد فرض حل أمريكى فى مصلحة اسرائيل تماما واذا كانت تلك هى الحقائق وهو ما أعتقد أنه كذلك فمن المحتمل خوض غمار حرب تحرير » وسأل بوشجريف : « متى ؟ » وكان الرد : « بأسرع مما قد تظنون » •

ولا يمكن أبدا أن يكون زعيم دولة على شفا الحرب قد قدم صورة أوضح فيها عن نواياه مثلما أوضحها السادات ومع ذلك فقد ظلوا فى الغرب أو فى اسرائيل لا يصدقون الرئيس السادات فقد سبق له أن أطلق استغاثات كاذبة مرارا وكان من رأى المراقبين الغربيين أن الأمر لا يعدو أن يكون استغاثة كاذبة أخرى هذه المرة أما فى دول الشرق الأوسط وحدها فقد كان هناك اعتراف تدريجى بأنه يعنى ما يقول فعلا بالرغم من أنه كان ما يزال فى ذلك الحين اعتقادا غير راسخ اذ كانت صراحة السادات المطلقة أفضل تمويه ابتكر من قبل • فحتى عندما تقلد وظائفه الرسمية المتصلة بالمعركة لم يتنبه أحد الى ذلك وفى بداية شهر ابريل صدرت سلسلة من القرارات الجمهورية بتعيين الرئيس السادات حاكما عسكريا للبلاد مع منحه سلطات شاملة • وفى الوقت

نفسه اعيد الى أذهان الشعب مرة أخرى أن قانون الطوارىء مازال سارى المفعول . ومرة أخرى نادرا ما يمكن أن يكون هناك مثل هذه الاشارة الواضحة الى المعركة المقبلة ولكن أحدا لم يتنبه الى تلك الاشارة أيضا . وفى سوريا كان الوضع مماثلا فقد قام الرئيس الأسد بزيارة لموسكو وعند عودته اصطحب معه أحد كبار ضباط السلاح الجوى السوفييتى وبعد ذلك بفترة قصيرة وصل فنيون سوفييت للمساعدة على انشاء شبكة دفاع صاروخية فى سوريا مماثلة للشبكة المقامة على طول الضفة الغربية لقناة السويس وهى دلالة واضحة أخرى على المعركة المقبلة .

وكانت هناك بطبيعة الحال امور تصرف الانتباه عن الاستعدادات الخاصة بالحرب ، ولا سيما النزاع الجديد الذى نشب فيما بين العرب بعضهم مع بعض ففى لبنان كانت العلاقات بين الحكومة والفلسطينيين قد أخذت فى التدهور نتيجة لأزمة من صنع اسرائيل وكانت مجموعة الهجوم الاسرائيلى المؤلفة من ثلاثين رجلا والتى اجتاحت قلب بيروت لاغتيال ثلاثة من قادة الفدائيين هى التى فجرت فى الحقيقة القتال الذى نشب فى بيروت فى شهر مايو . اذ أن القوة الاسرائيلية المغيرة التى قام بارشادها الى أهدافها ستة من العملاء السريين كانوا قد أمضوا الأسبوع السابق فى المدينة لم تواجه اى مقاومة على الاطلاق ولم يتسع الوقت أمام قادة الفدائيين أنفسهم لكى يصلوا الى مواقعهم قبل أن يسقطوا صرعى برصاص الاسرائيليين . والأدهى من ذلك أن الرجال الموجودين فى ثكنات قوة الدرك المواجهة تماما للمبانى التى تضم مساكن قادة الفدائيين لم يلتفتوا على الاطلاق الى طلقات المدافع التى سمعوها وزعموا فيما بعد أنهم ظنوا أنها طلقات متبادلة بين الفدائيين وهكذا استقال رئيس الوزراء اللبنانى كما هى العادة وسرعان ما انتقلت الأزمة من ساحة المناقشة الى الشارع وقد ساعد على ذلك رجال الجبهة الديموقراطية الشعبية الذين اختطفوا عمدا عددا من الجنود على أمل ان يثيروا مواجهة . وقد نجحوا فيما أرادوا فسرعان ما شهد العالم الطائرات النفاثة اللبنانية تقصف الفلسطينيين بصواريخها فى ضواحى عاصمة دولة عربية وعادت الصورة القديمة للعرب الذين يقاتل بعضهم بعضا بكل أهوالها . ولم يكن أمرا مثيرا للدهشة أن يقرر الغرباء عن العالم العربى أن العرب لن يحققوا مطلقا وحدة تكفل أى تهديد لاسرائيل ولكى يضاعف القذافى من الفوضى الناشبة بعث برسالة الى ياسر عرفات يبلغه فيها أنه اذا استطاع رجاله الاستيلاء على مطار بيروت فان ليبيا ترسل كل الدعم الذى يحتاج اليه الفدائيون وبعد ذلك أغلقت سوريا حدودها وسمحت لجيش التحرير الفلسطينى بغزو لبنان . وهبطت أسهم العرب الى الحضيض .

وتم حل الموقف بصورة مماثلة للحلول السابقة . اذ عاد الفدائيون الى مخيماتهم الذين عاشوا فيها منذ فترة بعيدة وعاد الجيش اللبنانى الى ثكناته وتولى السياسيون الحكم مرة أخرى . وكان من الطبيعى أن تترك هذه المسألة آثارا ما تزال باقية حتى الآن فى لبنان من الناحية المادية والروحية بالرغم من نسيانها سريعا خارج لبنان . ومن المؤكد ان الرئيس السادات لم يسمح لهذا الموقف بأن يصرفه عن غرضه الرئيسى فقد كانت احدى مميزات السادات هى قدرته على استبعاد المسائل العرضية عن فكره عندما يكون فى حاجة الى ذلك والتركيز تماما على المشكلة التى تهمه . ولذا فقد كان فى استطاعته أن يوجه اهتمامه الصادق الى حل ازمات خارجية مثل الأزمة التى تفاقمت بين الحكومة اللبنانية والفلسطينيين حوالى ساعة ثم يعود الى معالجة الاستعدادات السياسية والعسكرية المعقدة الخاصة بالحرب دون أن يضيع منه خيط مشاورات مقطوعة ينسى رأيا سمعه قبل ذلك بساعة واحدة وهى خاصية حيوية لأى سياسى وكان السادات يتمتع بأكبر قسط منها كما أظهر مرارا خلال عمله الممتد فى الحياة . فعلى الرغم من أنه لم يكن معروفا خارج مصر قبل أن يتولى الحكم على أثر وفاة جمال عبد الناصر فانه شارك بطريقة ما فى القضايا المصرية منذ طفولته ففى عام ١٩٤٢ سجن بتهمة التجسس لحساب المانيا وفصل من الجيش بالرغم من ان ما كان يحاول القيام به فعلا هو الترتيب لانضمام المصريين الى الجانب الألمانى مقابل الحصول على الاستقلال بعد الحرب مفترضا انتصار ألمانيا فى الحرب . وبعد اطلاق سراحه قرب نهاية الحرب أعيد الى السجن مرة أخرى فى سنة ١٩٤٥ لاشتراكه فى مؤامرة لاغتيال النحاس باشا الذى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الوقت وعدد من الشخصيات الأخرى . وقد تجلت منذ ذلك الحين أن السادات يؤمن بالمثل العربى القديم : عدو عدوى صديقى .

ولقد كان السادات أحد الضباط الأحرار الأوائل الذين أطاحوا بالملك فاروق فى عام ١٩٥٢ ليقيموا جمهورية مصرية وكان حلقة الاتصال بين التنظيم السرى فى الجيش وجماعة الاخوان المسلمين التى كانت عاملا بارزا فى الحياة السياسية فى مصر فى ذلك الحين . ولا شك فى أنه كان فى مرحلة ما عضوا فى تلك الجماعة المتعصبة بالرغم من أنه نفى هذا منذ ذلك الحين وبالرغم من أنه عندما وصلت الأمور الى قيام مواجهة بين النظام الجمهورى الفتى والاخوان لم يساوره اى شك فى تحديد الجبهة التى يختصها بولائه ونبذ على الفور رفاقه القدامى . وفى الوقت نفسه فان الفترة التى قضاها مع الاخوان المسلمين تركت أثرها العميق عليه . فقد ظل طوال حياته يرتاح الى الجامعات الدينية

السياسية اليمينية أكثر مما يرتاح الى الأحزاب التقدمية التى تنكر وجود اى شىء يتجاوز الظواهر المادية وهو موقف يعكس وجهة نظر المصرى العادى فهو يوافق على الاشتراكية اذا كانت تؤدى الى تحسين مصير الفلاحين كما حدث ولكنه لا يوافق قطعا على الاشتراكية من أجل النظرية وحدها . وكان من الطبيعى أن يكون السادات بموقفه هذا محبوبا من الشعب الذى رأى نزعته المحافظة الغريزية وكراهيته للتغيير من أجل التغيير منعكسة فيه . ولكنه كان أقل نجاحا مع زملائه من رجال السياسة الذين يعتبرونه شخصية ضحلة الى حد ما ولذلك بقى جنديا بارزا وان كان غير مشهور من جنود الثورة حتى اللحظة التى تولى فيها رئاسة الجمهورية التى كانت فى حد ذاتها أمرا من قبيل المصادفة . فقبل أن يسافر عبد الناصر للاشتراك فى مؤتمر القمة بالرباط فى عام ١٩٦٩ أبلغ بأنباء مؤامرات تدبر لاغتياله أثناء زيارته للمغرب فقرر أنه من المستحسن أن يعين نائبا ويبدو أنه اختار السادات دون تفكير تقريبا ولو لم يفعل ذلك لكان من الصعوبة البالغة بالنسبة للسادات أن يتولى الحكم مثلما فعل عند وفاة عبد الناصر لأن شغله لمنصب نائب رئيس الجمهورية هو الذى كفل له فى النهاية منصبه كثالث رئيس للجمهورية المصرية .

وفى رأى الأغلبية ان اختيار السادات بواسطة عبد الناصر كان أمرا سليما للغاية وأنه عندما حانت الفرصة المناسبة كان يتحرك بمقدرة وحسم ليتحقق من أن هناك تحولا منظما من نظام الى آخر وقد أرسى السادات أكثر من معظم الزعماء أسلوب حكم شخصى تماما وقد وضع السياسات ونظرا لأنه كان يبدو دائما ان شيئا لا يتم انجازه فقد اتهم بأنه لا يضع خططا محددة وحدد الأولويات ووجه اليه اللوم عندما ساءت الأمور . وأخيرا اتخذ قرار الحرب واتخذ ما هو أشق من ذلك وهو قرار التخلى عن القتال وتحويل النزاع الى قاعات المؤتمرات عندما أدرك ان بلاده مهددة بالهزيمة مرة أخرى .

ولم يكن من الممكن التنبؤ بيوم من هذه الأيام التى تبعث على اليأس عندما تولى السادات الحكم فى عام ١٩٧٠ ولعله بما يتمتع به من التفكير السياسى ذى البصيرة كان يتوقع بعض المحن التى اضطر الى مكابدتها قبل أن يتمكن من ارسال قواته لاقتحام الدفاعات اسرائيلية لتعيد للعرب ثقتهم واعتدادهم بأنفسهم ولتحقق على الأقل الأمل فى سلام دائم لمنطقة من أشد مناطق العالم اضطرابا . وكان أهم شىء بالنسبة للسادات ومصر على السواء أن يكون رئيس الجمهورية آمنا . معترفا بحقه وأن يكون هو الذى يصدر الأوامر ولكفالة هذه الأمور قام السادات بأولى خطواته الشخصية تماما بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية .

٢ ـ مصر : عام الحسم

وصف السادات عام ١٩٧١ بأنه « عام الحسم » وكانت جهوده تقابل بالسخرية . ويمكننا الآن ان ندرك انه كان على صواب : فلقد كان عام ١٩٧١ هو العام الذى أصبحت فيه الحرب بين اسرائيل والعرب أمرا محتوما ، كما كان العام الذى بدأ فيه الملك فيصل التفكير فى استخدام البترول كسلاح ضد أمريكا وكذلك كان العام الذى تحطمت فيه بصورة حاسمة قوة حركة المقاومة الفلسطينية باعتبارها قوة عسكرية فضلا عن أنه كان الوقت المناسب الذى بدأت فيه مصر تتحرر من عهد الناصرية الطويل وهو عهد ظل باقيا بعد وفاة الرجل نفسه وكان لا بد من وضع حد له اذا ما أرادت مصر وحكامها الجدد تحقيق مكانة لها فى الشرق الأوسط والعالم دون أن يتأثروا بالعواطف الشخصية ووفقا لشروطهم .

وفى عام ١٩٧١ أيضا تولى الرئيس حافظ الأسد رئيس سوريا مقاليد الحكم فى بلاده بانقلاب من نوع جديد هيأ لسوريا استقرارا أعظم مما شهدته طوال العشرين عاما الماضية ، بينما كان يجرى اعلان قيام دول جديدة فى الخليج العربى ، هى البحرين وقطر والامارات العربية المتحدة ، وبينما كانت عمان تقبل أخيرا ، ولو على مضض ، عضوا أصليا فى الأسرة العربية وقبل كل شىء فقد انهارت فى تلك الفترة الجهود الأمريكية الخاصة بتحقيق سلام عن طريق التفاوض فى المنطقة انهيارا نهائيا لا تمكن معالجته . فقد تبين أنه لا يمكن تنفيذ مشروع روجرز الذى كانت تعلق عليه آمال كبرى ، لأن أمريكا لم تكن تستطيع أو لم تكن ترغب فى ذلك الوقت فى أن تمارس على اسرائيل من الضغط ما يجبرها على تقديم حد أدنى من التنازلات يستطيع معه أى زعيم عربى الجلوس الى مائدة المفاوضات .

وفضلا عن ذلك فان أنور السادات وطد فى ذلك العام دعائم حكمه كرئيس للجمهورية بحكم حقه الشخصى وليس كمجرد خليفة للرجل العظيم الذى سبقه ، وبهذا أرسى الأساس لدوره اللاحق كزعيم للعالم العربى بأسره وكمفاوض رئيسى مع اسرائيل وكسياسى يحسب حسابه بلغة العالم . على أنه بينما كان يثبت دعائم مركزه بسلسلة من الخطوات الجريئة التى كان يجب أن تكون نذيرا بما سيحدث فى المستقبل ، الحق ضررا بالغا بامكانية الثقة فيه الى حد أن أحدا لم يكن يعتقد أنه سيبقى مدة طويلة فى الحكم . والواقع ان سلسلة التصريحات الجامحة التى كانت سببا فى الفيض الوافر من النكات

السياسية التى انتشرت فى القاهرة قد أثبتت فى النهاية أنها كانت مفيدة للغاية فى اخفاء النوايا المصرية فى اكتوبر ١٩٧٣ . ومن المؤكد أن السادات لم يكن يقصد هذا فى ذلك الوقت ولكنه لموذج للطريقة التى تحولت بها مواطن ضعفه الواضحة الى مناقب مفيدة فيما بعد .

ولقد بدأ الصراع الذى حله السادات بطريقة مثيرة فى شهر مايو بمجرد أن تولى الحكم فى شهر سبتمبر من العام السابق . وكان المأزق الذى واجهه السادات مع الحالة النفسية التى كانت عليها البلاد عقب وفاة عبد الناصر انه من المستحيل بالنسبة له ان يشرع فى اعادة تنظيم الحكومة على نطاق واسع يسمح له بادخال رجاله فى الحكم . وكان عليه أن يستمر فى الحكم بالادارة التى اقامها عبد الناصر تدليلا على عزمه على انتهاج السياسات التى كان ينتهجها عبد الناصر . وهو امر كان يجعل الحياة عسيرة للغاية لوجود رجال يشغلون مراكز رئيسية فى الحكم كانوا يعتقدون ان السادات ليس افضل اختيار كثالث رئيس للجمهورية المصرية وانه لم يكن ينبغى الموافقة عليه كخليفة طبيعى . ومع ذلك فقد اضطر السادات الى العمل معهم ومن خلالهم وقتا طويلا .

كان السادات فى مأزق حقيقى . كان قد اختير رئيسا للجمهورية بأغلبية ضخمة فى استفتاء ولكن ثلاثة ارباع مليون شخص اعترضوا على اختياره وهو امر لم يسبق له مثيل . وكان من الواضح على مستوى مجلس الوزراء ان بعضا من اقرب زملائه لا يعتبرونه اكثر من « واجهة » يمكنهم التلاعب به كما يريدون تحقيقا لأغراضهم وكان على راس هؤلاء الأشخاص على صبرى نائب رئيس الجمهورية وهو شخص لم تكن له جماهيرية ومع ذلك تمكن من ان يحتل مركزا رئيسيا فى الحكم منذ قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ . وكان قد عزل من منصبه قبل ذلك بعامين نتيجة لمحاولته التهرب من دفع الرسوم الجمركية ولكنه استطاع ان يستعيد مكانته لدى عبد الناصر وكان لابد من أن يسند اليه منصب كبير فى حكومة السادات باعتباره احد اعضاء « الصف الثانى » للضباط الأحرار .

وكان على صبرى يعتبر ايضا « رجل موسكو فى القاهرة » بالرغم من انه لم يكن شيوعيا ابدا وعلى هذا الاعتبار كان لابد من معاملته بحذر وكان الشائع ان اى خطوة ضد على صبرى سوف تفسرها روسيا على أنها عمل غير ودى . وكان لهذا الاعتبار وزنه فى وقت كانت فيه مصر تعتمد اعتمادا شديدا على الاتحاد السوفيتى فى كل أنواع المساعدات مع انه بمرور الوقت أصبح من

الواضح بصورة متزايدة انه لن يستطيع ابدا ارساء اسلوبه فى الحكم طالما بقى على صبرى . ومن ثم كان من الضرورى ايجاد عذر للتخلص من الرجل . على ان يصادف هذا العذر قبولا لدى الشعب المصرى . ومع ان المصريين بطبيعة الحال عنصر ليس من السهل استثارته الا ان صبرهم كان قد اخذ ينفد بسبب ما عانوه طوال السنوات القليلة السابقة ، فكان من الممكن أن يؤدى أى اضطراب حكومى كبير الى حدوث قدر كبير من المتاعب مالم يعالج بحرص . وكان السادات يدرك من البداية أن عزل على صبرى لن يضع حدا لهذه المتاعب لأن على صبرى كان له حلفاء اقوياء فى الحكومة لا بين زملائه فى مجلس الوزراء فحسب ، وانما على المستوى التنفيذى ايضا .

لذلك دبر السادات مؤامرته لتوجيه ضربة وقائية ضد خصومه ويرجع ذلك الى تقديره السياسى الهادئ، وثقته فى نفسه أنه اتخذ خطواته على مسئوليته الشخصية تماما دون ان يفضى الى احد بسره ودون ان يضع ثقته فى احد من زملائه أو معاونيه معتمدا فقط على دراسته للموقف من يوم الى يوم وتقييمه للأفراد الذين يساعدونه على الخروج من المأزق ، وقد حقق نجاحا رائعا بالرغم من انه كانت هناك لحظات بدا فيها الوضع مفجعا فى واقع الأمر . ففى مظاهرة للقوة استخدم السادات مبررا لتصرفاته مسألة كان خصومه يحظون فيها بتعاطف الجماهير ، وهى المشروعات الخاصة باقامة اتحاد بين مصر وسوريا وليبيا . وكانت الفكرة قد طرحت فى البداية بواسطة معمر القذافى الزعيم الليبى الشاب ، ووافق عليها عبد الناصر لما يمكن أن تحققه من مزايا مالية ومادية اخرى ، لأن عبد الناصر كان يرى فى القذافى شبابه . وكانت السودان عضوا مؤسسا فى الاتحاد المقترح ولكن الرئيس السودانى جعفر نميرى اخذ يزداد انشغالا بالأمور الداخلية فى بلاده وهكذا كانت مصر وليبيا وسوريا هى التى اعلنت فى النهاية بعد اجتماع استمر ثلاثة أيام فى بنغازى فى أوائل شهر مايو أنها ستقيم « اتحاد الجمهوريات العربية » .

ولم تكن سوريا مثار قلق للمصريين العاديين فى عام ١٩٧١ وانما كان مايثير قلقهم هو ليبيا . فقد كان معمر القذافى الطفل المزعج للعالم العربى يتابع مسلكه المتحمس فكان يبث الرعب فى قلوب المصريين دون النظر بأى اعتبار لمدى تأثير هذا المسلك على شعبه . وكان تمسكه الصارم بقواعد الاسلام يثير القلق فى نفوس المسلمين والاقباط على السواء فى القاهرة لأن المصرى العادى يحب مباهج الحياة ويؤمن بأنه لا ينبغى بالضرورة تطبيق عقائد القرآن الكريم المتشددة على القرن العشرين . كما كان المصريون يشعرون بشىء من الخوف

من جيرانهم الليبيين وكان الليبيون ينظرون الى المصريين بشكوك مماثلة وان كانت لأسباب مختلفة ، ولذلك كان من الصعب ان يوجد انسان واحد يذكر الوحدة المقترحة بكلمة خير . وكان على صبرى يستند الى اساس سليم عندما اختار ان يعارض الرئيس السادات فى ذلك الموضوع وكان الرئيس يقاتل من موقف ضعف عندما استخدم الوحدة المقترحة مبررا للتخلص من خصومه.

ولا ريب فى ان على صبرى كان صادقا فى اعتراضاته عندما عارض الموافقة التامة على المشروع الليبى خلال اجتماع بنغازى ولكنه كان أيضا يستخدم المناسبة السليمة للمعارضة والخلاف لتدعيم مركزه ومركز خلفائه ولكى يجعل السادات اكثر قليلا من رئيس رمزى او ما يعرف فى الاصطلاح اللاتينى «بالاول بين الاكفاء» ولكنه بلا شك زعيم لا يستطيع ان يحكم الا برضاء صريح من المحيطين به وربما فات على صبرى ان يدرك فى ذلك الوقت ان اعتراضاته كانت تبدو شخصية للغاية وانها كانت موجهة الى حد بعيد جدا الى اسلوب ونظام الحكم المصرى بدلا من ان تكون منصبة على الامور التى كانت تجرى مناقشتها. ولا ريب فى أن السادات أدرك ذلك . فلما عاد الى القاهرة بدأ فى اتخاذ عدد من الاحتياطات بهدوء بالرغم من انه ظل مصمما على انجاز الاجراءات السليمة فقد كانت خطة السادات الشاملة أن يبنى نظام حكمه على أساس سيادة القانون بقدر ما يستطيع . وهكذا عرضت الاتفاقية ، التى كانت قد وضعت فى بنغازى ، على اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى ، التنظيم السياسى الوحيد فى البلاد . وكانت اللجنة تتكون من ثمانية أعضاء يشكلون فى الواقع المجموعة الاساسية التى تقرر السياسة فى مصر ، لأن مجلس الوزراء كان أكثر اهتماما بتسيير دفة الأمور اليومية منه بالاستراتيجية البعيدة المدى . وفى الاجتماع الذى عقدته تلك اللجنة تلقى الرئيس السادات صدمة خطيرة .. فقد اكتشف انه لا يؤيده سوى اثنين ومن ثم فقد هزم هزيمة منكرة بتصويت الاعضاء الخمسة الباقين ضده وهم على صبرى ، وعبد المحسن أبو النور امين الاتحاد الاشتراكى ، وضياء الدين داود ، وهو أحد الاعضاء البارزين فى اللجنة وشعراوى جمعه وزير الداخلية ، ولبيب شقير رئيس مجلس الشعب. وكان مؤيدا السادات هما محمود فوزى رئيس الوزراء وحسين الشافعى نائب رئيس الوزراء .

ورفض السادات ان يسلم بنتيجة التصويت وأصر على احالة الخلاف الى اللجنة المركزية التى تتكون من ١٥٠ عضوا والتى تأتى فى المقام الثانى فى الهيكل التنظيمى للاتحاد الاشتراكى . ومرة ثانية وجد السادات نفسه يواجه متاعب . وكانت المتاعب حقيقة فى هذه المرة ، فقد انقلب الاجتماع الذى

عقد بمبنى الاتحاد الاشتراكى بالقاهرة الى واحد من اشد الاجتماعات التى شهدها هذا المبنى صخبا بقيام الأعضاء بالهتاف ودق الأرض باقدامهم والتصفيق لعلى صبرى ورفضهم اتاحة فرصة الحديث للسادات مستخدمين بوجه عام ما يعرف فى العالم العربى باسم « سياسة الشارع » . وكانت هذه الطريقة فعالة أيضا . فلم يجد السادات أمامه أى فرصة وتعلق باقتراح بتأجيل مناقشة الموضوع تقدم به محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام الذى كان قد دعى الى الاشتراك فى اجتماع غير رسمى عقد بمكتب عبد المحسن أبو النور خلال فترة استراحة وقد أشار هيكل على السادات بأن لا يحاول التحدث مع اعضاء الاجتماع او مجادلتهم ، ذلك الاجتماع الذى كان واضحا تماما ان خصوم الرئيس قد استعدوا له ، واقترح عليه بأنه من المستحسن ان يعلن عن تشكيل لجنة فرعية لوضع مشروع جديد لاتفاقية الاتحاد التى تم التوصل اليها فى بنغازى . وتمت الموافقة على هذا الاقتراح الذى رأى فيه المجتمعون فى القاعة الرئيسية انتصارا لهم وكسب السادات فسحه من الوقت .

ولما عرض المشروع المعدل على اللجنة العليا أدعى السادات أنه ينطوى على « تغييرات فنية طفيفة » . والواقع ان التعديلات على بساطتها وضآلتها كانت خطيرة الشأن تماما لأنها كانت تعكس فى كل ناحية شكوك على صبرى فى الامر كله اذ جعلت الاتحاد تجمعا اقل تماسكا كما أن النص على صدور قرارات السلطات العليا فى الاتحاد بالاجماع كفل لمصر عدم امكانية ارغامها على انتهاج سياسة لا تقرها اذا ما اتفقت الدولتان الاخريان عليها . والواقع ان ما وصفه السادات بأنه « كلمات فنية بسيطة » جعل الاتحاد لا مغـزى له تقريبا .

وقبل السادات المشروع الجديد لا لأنه كان موافقا – فى ذلك الوقت – على ما حدث وانما لأنه كان يريد أن يتخلص من خصومه الواحد بعد الآخر. وكان أول من ينبغى التخلص منه على صبرى . وهكذا أصدر السادات فى ٢ من مايو وقبل يومين من الموعد المحدد لوصـول وزير الخارجية الأمريكية وليم روجرز الى القاهرة قرارا مقتضبا باعفاء على صبرى من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية . ولا ريب فى أن الرئيس كان يود أيضا أن يطرد منافسه من مناصبه المختلفة فى الاتحاد الاشتراكى العربى الذى كان الأساس الحقيقى لقوة على صبرى – ففى الانتخابات التى اجريت فى عام ١٩٦٨ عندما أمر عبد الناصر باجراء اصلاح شامل للتنظيم السياسى الذى أنشأه حصل على صبرى على ١٢٤ صوتا فى انتخابات عضوية اللجنة التنفيذية العليا بينما حصل السادات على ١١٩ صوتا . ونظرا لأن السـادات لم يكن فى هذه المرحلة

مسيطرا على موازين القوى لذلك لم يكن فى استطاعته ان يقدم على اى خطوة فى هذا الشأن . ولكنه كان قد كسب فسحة اخرى من الوقت كان فى حاجة ماسة اليها فى ذلك الشهر الحافل بأيامه المشغولة بمناقشات مسائل الحرب او السلام التى تجرى مع روجرز والوفد الأمريكى وكل لحظات الحرب الأخرى المكدسة لاعداد سبل التخلص من المعروفين بتأييدهم لعلى صبرى فى الصراع على السلطة الذى يجرى حسمه اذ ذاك . وجاءت الخطوات التالية المحتومة بعد مرور احد عشر يوما فقط على عزل على صبرى . وكانت هذه الخطوات طبقا لأى رواية موضوعا لقصص غريبة .

وطبقا لما اعلنه الرئيس السادات توجه رجل مجهول الى بيته الخاص – بيت الرئيس – فى القاهرة فى ساعة مبكرة من صباح يوم ١٣ من مايو واصر على ان يتحدث الى الرئيس . ولم يكن من المثير للدهشة ان يرفض حرس الرئيس وياورانه السماح للرجل بدخول البيت ، ولذلك سلم اليهم شريطى تسجيل وطلب منهم ان يستمع الرئيس اليهما . واستمع السادات الى الشريطين ووجد انهما تسجيلان لمحادثات تليفونية بين اعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى عقب مجادلاتهم مع السادات حول الاتحاد وتبين من التسجيلين وهما من تسجيلات الرقابة على التليفونات التى كانت تجرى بطريقة روتينية بادارة البريد ان الأعضاء الخمسة الذين اقترعوا ضد السادات فى الاجتماع قد اتصلوا بأعضاء اللجنة المركزية وأمروهم بضرورة الاستعداد لاثارة اضطراب عندما يحاول السادات عرض المشكلة عليهم فى الاجتماع التالى . وبعد هذا الحادث الفظ وجه أحد طرفى المحادثة التليفونية السؤال التالى : « هل أوليت الاذاعة اهتمامك ؟ » فرد الطرف الثانى بالايجاب . وقد فسر السادات هذه المحادثة فيما بعد بأنها اشارة الى المناسبة التى ذهب فيها اعضاء من «التنظيم الخاص» التابع للاتحاد الاشتراكى الى دار الاذاعة بالقاهرة ليمنعوا الرئيس على ما يبدو من دخول الاذاعة اذا ما قرر ان يتحدث الى الشعب لأنه كان قد أنذر معارضيه فى الاتحاد الاشتراكى قبل ذلك بأنه سوف « يحتكم الى الشعب » اذا لم يتحقق له ما يريد فى اللجنة المركزية .

وكان من الواضح أن التدخل فى حرية رئيس الجمهورية يكاد يبلغ مرتبة الانقلاب طبقا لما ذكره السادات فى خطابه الذى أذاعه على الشعب وسرد فيه المسألة كلها . وقد نجح فى اضفاء قدر كبير من التأثير على حديثه الذى القاه باللغة العامية دون اعداد نص سابق له « لو أن اللى محاصرين الاذاعة لهم عند الشعب حاجة او طلع واحد منهم وكلم الشعب وقال انهم مسكوا الحكم . ما خلاص دا انقلاب » .

وقال الرئيس انه استدعى بعد ذلك سامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية وامره بأن يذهب الى شعراوى جمعة وزير الداخلية ويطلب منه تقديم استقالته . وهنا تبدو رواية السادات للأحداث وفيها شىء من الغموض لأنه من غير المتصور ان يوفد سامى شرف الى شعراوى جمعة فى مثل هذه المهمة . فقد كان شعراوى جمعة باعتباره وزيرا للداخلية يشرف على الشرطة وقوات الأمن الداخلى الأخرى بالاضافة الى أجهزة المخابرات المختلفة التى تخضع لاشراف الوزارة بينما كان سامى شرف يراس جهاز مخابرات مماثلا من المفروض ان نشاطه لخدمة رئيس الجمهورية فكان الرجلان معا فى وضع يستطيعان معه التأثير فى الحياة المدنية فى البلاد ولو توفرت لهما مساندة القوات المسلحة لأصبحا فى وضع لا يمكن التغلب عليه . يضاف الى كل هذا انه كانت هناك صلة نسب بين الاثنين عن طريق الزواج وبالرغم من أنها لم تكن متينة بصورة خاصة الا أن كلا منهما كان يقدر قدرات الآخر ويدرك تماما مدى القوة التى يستطيعان السيطرة عليها معا .

ولا بد من ان الرئيس السادات هو الذى قام بتحريف سياق الأحداث قليلا عندما كان يسرد روايته لأنه فى الحقيقة اوفد صديقه ونصيره ممدوح سالم – وهو ضابط شرطة أصبح محافظا للاسكندرية – وبرفقته مجموعة من الرجال اختارهم بنفسه ممن خدموا تحت امرته من قبل ليطلب من شعراوى جمعة ان يقدم استقالته ويحدد اقامته بمنزله وأن يضع يده على اى دليل يستطيع العثور عليه يثبت ادانته بتهمة التواطؤ فى الانقلاب . وفى الوقت نفسه صدرت اوامر الى المسئولين الموثوق بهم فى وزارة العدل بجمع كل اشرطة التسجيل الموجودة بوزارة الداخلية بينما أرسلت وحدة معززة من الحرس الجمهورى لسد المنافذ الى غرفة مراقبة التليفونات بادارة البريد المركزية .

وكانت وحدة اخرى من الحرس الجمهورى بقيادة العميد الليثى ناصف هى التى ادت اكثر مما اداه اى فرد آخر للحيلولة دون وقوع انقلاب حقيقى لو كان ثمة تفكير فى القيام بهذا الانقلاب . فقد انطلقت هذه الوحدة لاعتقال الرجل الذى لابد وأن عددا كبيرا من أفرادها كانوا يعتبرونه قائدا لهم وهو وزير الحربية الفريق محمد فوزى ولم تتردد الوحدة عند تكليفها بالقيام بهذه المهمة .

وقد حدث ذلك بعد الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١٣ من مايو مباشرة وبذلك تجلى رد فعل السادات السريع بالنسبة للموقف لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد تحقق من ان وزير الحربية الذى يتسم الى حد ما برباطة

الجاش وعدم التأثر بســـعة الخيال له ضلع فى هذا الموقف . وقد وقعت تلك الصدمة الخطيرة عندما قام محمد فائد وزير الاعلام باتخاذ الترتيبات لكى يذاع خبر استقالته وشعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد فوزى وحلمى السعيد وزير الكهرباء وسعد زايد وزير الاسكان فى نشرة انباء الساعة الحادية عشرة مساء وكان من الواضح ان الهدف من ذلك هو اتاحة الفرصة امام المنشقين للقيام بمناوراتهم السياسية لئلا ينضم عدد من أعضاء مجلس الوزراء الى جانبهم وعندئذ يكون فى استطاعتهم ــ وبخاصة انهم واثقون من مساندة الاتحاد الاشتراكى العربى ــ ان يطلبوا من الرئيس الســـادات تقديم استقالته ــ او يعتقلوه ــ استعدادا لاعادة على صبرى منتصرا .

ولكن السادات تحرك بأسرع مما كانوا لأنه كان قد أدرك خلال الأسبوعين السابقين أن تلك المواجهة أمر مؤكد . ففى خلال دقائق قليلة فوجىء كل الوزراء المنشقين بوجود حراس على منازلهم وبقطع الاتصالات التليفونية عنهم بينما اغلق مجلس الشعب وفرضت عليه الحراسة لمنع اعضاء المجلس المشتبه فى اشتراكهم مع الوزراء المنشقين من الاعتصام بداخله وذلك طبقا لما ذكرته المصادر الرسمية غير ان المرجح ان هذا الاجراء قد اتخذ للحيلولة دون عقد اى اجتماع يمكن أن يتحول الى نواة للمقاومة . وصدر قرار بحل الاتحاد الاشتراكى العربى . واعتقل عبد المحسن أبو النور وضيـــاء الدين داود ولبيب شقير مع عدد من الأعضاء الآخرين . وفى اليوم التالى ذهب السادات الى التليفزيون وأدى أعظم دور تمثيلى فى حياته وكان دورا حافلا بالاثارة العنيفة التى يحبها المصريون وانتهى الانقلاب .

لم يكن الانقلاب بطبيعة الحال حقيقيا على الاطلاق لولا ما كان سيحدث حتما من اراقة للدماء فيما لو تصرف السادات على هواه أو اســـتولى أحد خصومه على الحكم . وعلى العموم فانه كان تقديرا كبيرا لنظام الحكم المصرى ولاستقرار مؤسسات الدولة لإن السادات استطاع أن ينتصر لأنه اســتخدم سلطته كرئيس للجمهورية للحصول على الولاء للدولة معتمدا على مكانة المنصب وليس على الولاء لشخص معين . وبالمثل ، فان خصوم الســادات حاولوا الاطاحة به بوســائل دســتورية ولم يبدأو التفكير فى خوض معركة مباشرة الا عندما اصبح واضحا ان الرئيس نفسه يتحايل على القانون قليلا لأنه من الواضح أن السادات قد هزم حقيقة فى اقتراع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى وفى اللجنة المركزية وكانت هناك احتمالات كبيرة اذا ما توفرت فرصة التحرك والمناورة ان تحصل زمرة على صبرى على أغلبيـــة الأصوات فى مجلس الوزراء ولو حدث هذا لاضطر السادات الى تقديم استقالته ولكنه

تحرك قبل أن تتطـــور الامور الى هذا الحد وقام بتطهير النظام الذى ورثه عن عبد الناصر بصورة فعالة .

ولم يترتب على محاولة الانقلاب او الانقلاب المضاد او التطهير اى ضجة فى داخل مصر فقد بدا أن المصريين يعتبرون هذه الأحداث نوعا من الصراع السياسى الذى يدور على مستوى القمة ، وانه لا شـــأن للرجل العادى به اما اولئك الذين كانوا يأخذون الأمور على محمل الجد فانهم بصفة عامة كانوا مؤيدين للرئيس لأنه فى مصر كما فى جميع الدول الديمقراطية الأخرى يتمتع شاغل أسمى منصب فى البلاد بميزة راســخة ولأن على صبرى خصم السادات الأول كان رجلا لا شعبية له بصورة عامة اما اهل الفكر فقد كانوا يعتبرون على صبرى « رجل موسكو » بالرغم من ان الروس كانوا قد تخلوا عنه فى الواقع منذ فترة من الزمن ولم تحرز الشـــيوعية على الاطلاق اى تقدم حقيقى فى مصر وكانت الجماهير تنظر الى على صبرى نظرة شك لأنه ينحدر من اسرة ثرية ولم يكن يخفى ابدا حبه لمباهج الحياة ــ فقد شيد لنفســه فيلا رائعة خارج القاهرة فى عام ١٩٦٨ فى وقت كان فيه التقشف شعارا يتردد دائما عقب الحرب ثم تورط علانية بعد ذلك فى قضية تهرب من دفع رسوم جمركية بينما كان السادات يبدو رجلا من عامة الشعب بصورة أكبر بكثير فقــد كانت بيئته بســيطة وكان اسلوبه فى الحياة يتسم بالانضباط والتحفظ ، لكنه قبــل كل شىء كان يتميز بالقدرة على مخاطبة الناس بالطريقة التى يحبونها ويفهمونها ولو كان ثمة اختيار مباشر بين على صبرى والســادات لما كان هناك شك فيمن سيقع عليه اختيار الجماهير .

وفى خارج مصر كان رد الفعل أكثر تعقيدا : فقد أعلن الأمريكيون انهم يعتقدون أن عزل على صبرى فى اليوم السابق على الموعد المحدد لوصـــول روجرز الى القاهرة دلالة على نوايا المصريين الطيبة وعلى صداقتهم بينما اعتبروا الانشقاق الذى حدث بعد ذلك فى مجلس الوزراء مسألة داخلية الا انه من المؤكد ان عزل على صبرى من منصبه لم تكن له صلة بأى فكرة لارضاء مستر روجرز ومرافقيه كما لم يكن مقصودا به من الناحية الأخرى توجيه صـــفعة الى روســيا وكما أعلنت كثير من الصـــحف اليسارية وكما صرح كثير من الشخصيات خارج القاهرة ــ ولم يســتطع العالم الخارجى بما فى ذلك دول الشرق الأوسط أن يقيم الموقف تقييما سليما الا بعد التطهير النهائى لجميع العناصر المناوئة للسادات . وحينئذ فان هذه الدول بلا استثناء تقريبا أيدت الرئيس السادات فقد أرسلت السودان وليبيا وسوريا وفودا لتؤكد للسادات مساندتها وتدفقت الرسائل من دول بعيدة وكانت الدولة الوحيد المعارضـــة

وهو ما كان معروفا تماما من قبل هى جمهورية العراق التى كانت تراودها فى ذلك الوقت ولفترة قصيرة بعد ذلك اطماع فى أن تصبح زعيمة للدول العربية بدلا من مصر .

وهكذا استطاع السادات خلال معركة حاسمة استمرت اربعا وعشرين ساعة ان يوطد اقدامه « ريسا » بلا منازع مثلما اعتاد عبد الناصر وحده ان يوصف ووضع رجالا جددا على راس الجهاز المدنى والعسكرى وقد ظل هؤلاء الرجال باستثناء عدد قليل منهم يمارسون عملهم حتى اكتوبر عام ١٩٧٣ فكان الفريق صادق وزير الحربية وحده هو الذى عزل من منصبه ليس لعدم ولائه لرئيس جمهوريته وانما لأن اراءه فى الوضع العسكرى لم تكن تتفق والتقييم السياسى للقيادة المدنية . وفى الوقت نفسه الذى كان فيه السادات يشكل وزارة جديدة كان يقدم الدليل الأول والأكثر اقناعا على قدرته على معالجة امور كثيرة فى وقت واحد لأنه فى غمرة انشغاله بالوزراء المنشقين ورجال الحزب الطموحين كان يبحث ايضا زيارة وزير خارجية امريكا وافكار السلام مع اسرائيل التى كان مستر روجرز يقوم بنشرها فى ارجاء الشرق الاوسط . وهى مثل رائع على ما يتمتع به من موهبة التركيز بصدق على موضوع ما . ثم التحول عنه تماما الى شىء آخر يوجه اليه نفس القدر من الاهتمام .

وقد عرض مشروع روجرز لأول مرة فى يونيو عام ١٩٧٠ عقب جولة قام بها فى المنطقة مستر جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكية وكانت فائدة هذه الجولة على الأقل انها اظهرت عمق مشاعر الفلسطينيين فقد منع مستر سيسكو من زيارة عمان نتيجة المظاهرات التى قامت هناك وطلبت حكومة حسين الغربية الميول من السفير الأمريكى مغادرة الأردن نتيجة ادلائه ببعض التصريحات التى تفتقر كثيرا الى الدبلوماسية وبالرغم من وجود مثل هذه المصاعب فان عمليات الاستطلاع التى قام بها مستر سيسكو قد مكنت وزارة الخارجية الأمريكية من تقديم ما اعتبروه صيغة عملية بسيطة لوقف حرب الاستنزاف الدائرة وحمل الأطراف على استئناف المحادثات وكانت الأسس التى تقوم عليها تلك الصيغة ان كلا الطرفين يقبلان وقف اطلاق جديدا وملزما وانهما يوافقان على تنفيذ نصوص القرار رقم ٢٤٢ كلها وانهما يتعهدان بالدخول فى مفاوضات تحت اشراف دكتور جونار يارنج الممثل الخاص للأمم المتحدة بهدف اقرار « سلام عادل ودائم يقوم على اعتراف كل من الجمهورية العربية المتحدة واسرائيل بسيادة الاخرى ووحدة اراضيها واستقلالها السياسى وانسحاب اسرائيل من الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ » والواقع ان

هذه الأسس لم تكن الا تأكيدا جديدا للقرار ٢٤٢ الذى ينطوى على اجراء التسوية والذى تمت الموافقة عليه فى نوفمبر ١٩٦٧ وقامت على اساسه كل الجهود الخاصة بالسلام فى الشرق الاوسط .

وكان العنصر الجديد الوحيد الذى لم يوضح هو ان المشروع قد وضع اساسا بقصد التمكين لاعادة فتح قناة السويس وكان أساس التفكير الأمريكى هو انه اذا ما تم ذلك فان نشوب قتال جديد سيكون امرا بعيد الاحتمال وان الروس قد يمارسون ضغطا على مصر لقبول مقترحات روجرز لأن القناة ذات قيمة استراتيجية كبرى بالنسبة لروسيا . وهكذا كانت مقترحات روجرز مثلها فى ذلك مثل القرار رقم ٢٤٢ تنطوى على غموض كامن متعمد تماما كالغموض الذى اضفاه خبراء الصياغة البريطانيون على القرار الأصلى . وكان البريطانيون يزعمون أن الافتقار الى الوضوح الكلى أمر مفيد بينما كان كل شخص آخر سواهم يعلن أنه عقبة كأداء كبرى . فقد ذكر القرار ومشروع روجرز انسحاب اسرائيل « من أراضى محتلة فى ١٩٦٧ » وكان رجال السياسة العرب يشيرون دائما الى « الأراضى المحتلة » ويقولون أن القرار يعنى كل « الأراضى المحتلة بينما كانت اسرائيل تعتبر أن القرار يتيح مجالا « لتعديلات » فى الحدود .

وعندما قبل الرئيس عبد الناصر مشروع روجرز فى خطابه الذى القاه فى الذكرى السنوية لثورة ٢٣ من يوليو حرص على أن يعلن أن يارنج سوف يطلب من الاسرائيليين أن ينسحبوا من « كل الأراضى المحتلة » ولعل تلك العبارة هى التى حكمت بالفشل على محاولة المضى قدما فى مفاوضات السلام منذ البداية مع انه من الواضح أن العناد الاسرائيلى هو الذى ادى الى انهيار مشروع روجرز فى النهاية غير أن مشروع روجرز نجح فى تحقيق هدفه المباشر : فقد اسكت المدافع على طول قناة السويس وادى الى توقف اسرائيل عن القيام بغاراتها فى عمق مصر . وهى غارات ادت أصلا الى زيادة الالتزامات السوفييتية فى البلاد ولو كانت هذه الغارات قد استمرت لأدت الى اشتراك الروس مباشرة فى القتال .

وقد تم اثناء جنازة عبد الناصر وضع الأسس الخاصة بالجولة التى قام بها مستر روجرز بعد ذلك بعام فى الشرق الأوسط مع ان الطريقة التى عالجت بها امريكا المسألة انما تدل على الأسلوب الأخرق الذى كانت واشنطن تصر على انتهاجه فى تعاملها مع العرب . وكانت البداية ان اوفد الأمريكيون مستر اليوت ريتشاردسون الذى يتميز بالكفاءة ولكنه غير معروف تماما كما انه ليس

من كبار موظفى وزارة الخارجية الأمريكية ليمثل الولايات المتحدة فى تشييع الجنازة ونظرا لأن امريكا كانت قبل ذلك بفترة قصيرة قد اوشكت على التدخل للمحافظة على حكم الملك حسين فى الاردن ولذلك كانت على خلاف مع بقية العالم العربى فانه من الواضح انه كان من الصعب عليها ان توفد مسئولا على مستوى عال جدا الى القاهرة ومع ذلك فانه لو كان هنـــاك قدر اكبر قليلا من التفكير او التخيل لأمكن بالتأكيد ايفاد مبعوث أفضل ، لأن مستر ريتشارد سون اساء الى مشاعر المصريين لا نتيجة لافتقاره الى الوضع القانونى فحسب ولم يكن ذلك خطأ من جانبه بالتأكيد وانما نتيجة لمسلكه ايضا فقد ذكر الدبلوماسيون المصريون الذين التقى بهم انه استخدم اسلوب التحذير واختار وفاة بطل مصر الوطنى العظيم كمناسبة ملائمة لأحداث ضجيج متوعد وللتحذير من العواقب اذا لم تستمر قوة الدفع نحو السلام التى بداها عبد الناصر .

وقد أعلن الرئيس السادات نفسه فى أول بيان رسمى سياسى له بعد وفاة عبد الناصر ـ وكان حينئذ رئيسا مؤقتا فقط ـ ان اسرائيل والولايات المتحدة قد انتهزتا الفرصة للقيام بضغط على مصر لدفعها الى « الاستســلام » وعرض السادات حينذاك الموقف الذى يلتزم به فقال : « اننا لن نفرط فى شبر واحد من الأرض العربية الا إننا فى الوقت نفسه على استعداد لاجـراء محادثات على اساس المبادرة الأمريكية (مشروع روجرز) بشرط أن لا يكون هناك ضغط وان لا يحاولوا استغلال النكبة التى ألمت بنا أو الفراغ الذى يزعمون أنه حدث بعد وفاة الرئيس » .

ولابد من أن تكون تلك التلميحات عن نشوء « فراغ » هى التى أثارت غضب السادات أكثر من أى شىء آخر فمن هو السياسى الذى شغل بنجاح مركزه فى الحياة العامة طوال عشرين عاما تقريبا وكان يستطيع أن يقبل مثل هذه الطعنــة ؟ لعل تلك الغمزات الأمريكية المستقرة فى مؤخـرة عقله هى التى دفعت السادات الى التحرك ضد خصومه فى العام التالى ، والى توطيد نظام من الواضح تماما أنه من ابداعه المحض • وبالرغم من المشكلات الداخلية التى كانت تحدق به وسعيه الى تأمين توليه الحكم خلفا لعبد الناصر وتصميمه على التأكد من بقاء الوحدة التى أقامها عبد الناصر بشـق النفس وتلهفه على المحافظة على احلافه العربية والدولية فقد اتسع الوقت مع ذلك أمام السادات لكى يوضح انه يرغب فى المضى على طريق الســلام الذى بداه سلفه .

وهكذا ففى الرابع من مايو وبعد مضى يومين بالضبط على عزل على صبرى كان السادات يرحب بمستر روجرز ومرافقيه فى القاهرة ويستعد للمفاوضات

الشاقة التى كان يأمل فى ان تعيد لمصر أراضيها المفقودة والواقع أنه لم تجر مفاوضات ففى اجتماعهما الأول اعترف مستر روجرز بأن مصر قد قدمت تنازلا كبيرا فى فبراير عندما وافقت على الدخول فى مفاوضات سلام رسمية مع اسرائيل ، وهو أمر تجنبته الدول العربية كلها فيما مضى • وقال روجرز بلا تردد انه لا يطلب من مصر شيئا آخر وذلك طبقا لما رددته التقارير الرسمية فى القاهرة فيما بعد • والواقع انه كان يريد مطلبا واحدا آخــر • وهو مطلب دقيق لأنه كان يأمل فى أن يتخذ الترتيبات اللازمة لكى يكون القوات المصرية التى ترسل عبر قناة السويس بعد انسحاب اسرائيل مسلحة على نحو لا يوفر لها القدرة على اثارة « نزاع جديد » فلا مدافع ثقيلة ولا دبابات على الضفة الأخرى من القناة فى سيناء وكل ما كان الأمريكيون ـ والاسرائيليون ـ سيوافقون عليه فى الحقيقة ليس الا فصائل قليلة من البوليس وكان المسئولون الأمريكيون فى ذلك الوقت يتحدثون فى سخرية عن « السماح » للمصريين بعبور القناة ، ويقولون ان القوات الوحيدة التى يحتاجون اليها بالفعل هى « فصائل قليلة لكى ترفع العلم وتنظر اليه فى تأثر حتى يمكن نشر صورة لها على الصفحة الأولى فى صحيفة الأهرام •

وأيا ما كان ما ذكره روجرز فى القاهرة فلم يكن من الممكن أن يكون له أى أثر اذ كان عليه أن يحصل على ردود ايجابية فى تل أبيب ولذلك وعد بأن يعود سيسكو الى القاهرة لابلاغ السادات بما حدث • وبدأ المرحلة الأخيرة من جولته • ولكنها لم تحقق شيئا وبالرغم من أن سيسكو عاد الى القاهرة لكنه لم يكن لديه شىء يبلغه للسادات ومنذ تلك اللحظة مات مشروع روجرز فعلا بالرغم من أنه ظل لفترة من الوقت طيفا لأمانى عابرة ونوايا طيبة تحوم حول موائد المؤتمرات وكانت نتيجتـه الملموسة الوحيدة وهى نتيجة ذات أهمية كبرى أن استمر وقف اطلاق النار •

وبالنسبة للسادات الذى كان يواجه الحاجة الملحة الى تعزيز سيطرته على البلاد وعلى أجهزة الحكم لم تكن هذه النتيجة أمرا سيئا الا أنها أثارت الاعتراضات على رغبته الصادقة فى السير فى طريق متوازن فى نضاله لاسترداد الأراضى العربية بانتهاج سياسة مزدوجة تقدم على السعى الى المفاوضات مع الاستمرار فى الضغط العسكرى اذ كانت فجوة الثقة فى السادات قد أخذت تتجلى بالفعل وهى الفجوة التى أصبحت لصيقة بالرئيس الى حد أنه عندما أعلن بجلاء فى عام ١٩٧٣ أنه يستعد للحرب لم يصدقه أحد ، وكلما ردد ذلك كلما تضاءل الاهتمام بما يقول وكان هذا تمويها محكما بالرغم من أنه لم يكن

مقصودا أبدا . وهكذا فبينما كان السادات يستعد لتنظيم الأوضاع الداخلية فى بلاده اتخذ خطوة كبرى أخرى تستهدف فيما يبدو تمكينه من خوض غمار الحرب اذا ما اضطر الى ذلك فعقد معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتى .

وحتى فى ذلك الوقت كانت الدراسة الدقيقة لنصوص المعاهدة تبين ان عقد المعاهدة لا يمكن أن يؤدى الى أى تمييز عملى سواء بالنسبة للنزاع العربى الاسرائيلى أو العلاقات بين مصر وروسيا وأن الغرض من عقد المعاهدة هو تخفيف حدة النقد الموجه الى السادات من جانب اليسار وتقنين المساعدات التى كان السوفييت يستعدون لتقديمها الى مصر مع توفير نوع من الضمان لاستمرار تدفق شحنات الأسلحة التى يعتمد عليها الجيش المصرى . وكان أول من اقترح عقد المعاهدة هو مستر كوسيجين رئيس الوزراء السوفييتى الذى عقد عدة اجتماعات مع السادات أثناء وجوده بالقاهرة فى أواخر شهر سبتمبر ممثلا لبلاده فى جنازة عبد الناصر وقد أشار كوسيجين حينئذاك الى أهمية عقد معاهدة رسمية بالنسبة لمصر التى ذكر أنها ستجد نفسها معرضة من جميع الجهات لهجمات الناقدين الذين لم يجرؤوا على المجاهرة بآرائهم عندما كان عبد الناصر على قيد الحياة ومرة أخرى لم يظهر على السادات أنه فوجىء كثيرا بحجة بدا أنها مثل الحجج التى قدمها الأمريكيون تشكك فى قدراته . الا أنه بعد انقضاء عدة شهور على اضطلاع السادات بحكم البلاد تجلت له قوة الحجة الروسية وأخيرا أقنعه النقد الموجه اليه من اليسار فى أنحاء العالم العربى « لتصحيحه المسار الوطنى » — عزله الجماعى للوزراء — ان المعاهدة التى تعرض روسيا عقدها ستكون ذات فائدة له باعتباره رئيسا للجمهورية كما ستفيد بلاده .

وهكذا عقدت المعاهدة وسط أقصى قدر من الطنطنة بعد أن قام الرئيس نيكولاى بودجورنى ووزير الخارجية اندريه جروميكو بزيارة للقاهرة استمرت ثلاثة أيام وتضمنت المعاهدة اثنتى عشرة مادة — كما ترددت حكمة « السلام احدى عشرة مرة — بالرغم من أن المواد الفعالة كانت ثلاث مواد فقط احداها كانت تتعهد بالتعاون المتصل فى المجال العسكرى ولا سيما « المساعد فى تدريب قوات الجمهورية العربية المتحدة لمساعدتها على استيعاب الأسلحة والمعدات التى تزود بها الجمهورية العربية المتحدة لتعزيز قدرتها على ازالة آثار العدوان » وكانت المادة الثانية تتعهد بأن لا يعقد أى جانب من الجانبين أية معاهدات أخرى ولا ينضم الى أى تكتلات دولية موجهة ضد الجانب الآخر — وتمثل هذه

المادة أحد المكاسب الواضحة القليلة التى حصلت عليها روسيا بمقتضى هذه الوثيقة — وكانت المادة الثالثة تنص على اجراء اتصالات فورية « فى حالة ما اذا اعتبر الطرفان ان هناك ظروفا تمثل تهديدا أو انتهاكا للسلام » .

وحددت مدة سريان المعاهدة بخمسة عشر عاما وتضمنت مادة لتجديدها لمدة خمسة أعوام أو كما أوضح بعض الدبلوماسيين الغربيين فى القاهرة « مدة سداد الديون الروسية مع فترة معقولة لاجراء مفاوضات جديدة » ومهما يكن قد بدا بوضوح للمراقبين المحترفين من أهداف المعاهدة فانها قد خلفت فى معظم دول الشرق الأوسط الأثر الذى كان السادات يجاهد من أجله فقد أدت الى اعادة الطمأنينة الى اليساريين وتهدئة الأحزاب اليسارية بعد الصدمة التى نزلت بهم من جراء طرد على صبرى ومعاونيه وهى خطوة فسرت حينئذ وعلى نطاق واسع بأنها ضربة موجهة الى النفوذ السوفييتى فى مصر والعالم العربى واسترضاء لأمريكا وأدت المعاهدة المصرية السوفييتية الى تعديل ذلك التوازن واقنعت من ينتقدون السادات بأنه لم يكن بسبيله الى ربط بلاده بالولايات المتحدة كما كانوا يخشون ولكنه فى الحقيقة كان ينتهج ذلك المسلك المتوازن الذى ظل يلح على واشنطن أن تنتهجه طوال سنوات — ومع أنه كان من الممكن تحقيق نفس النتائج العملية بعقد اتفاقيات ثنائية سرية الا أن التأثير العام الشامل الذى أحدثه عقد هذه المعاهدة كان يستحق تماما النقد المحدود الذى وجهه حزب اليمين .

فمن الناحية العملية كانت سياسة التعاون مع روسيا هى السياسة الوحيدة المتاحة أمام مصر مع افتراض تأييد أمريكا الصادق لاسرائيل ولم يكن هذا التعاون أمرا جديدا . فبالرغم من أن السوفييت كانوا من بين أول الدول التى اعترفت بدولة اسرائيل بعد قيامها مباشرة فان هذا الموقف تغير بسرعة وعندما وقع السادات أول معاهدة عربية روسية للتعاون والصداقة كانت قد مضت سنوات على التأييد السوفييتى للعرب والتورط الشديد فى مصر وقد بلغ هذا الوضع ذروته فى عام ١٩٧١ وهو ما أضفت عليه المعاهدة الشكل الرسمى فحسب اذ كان الوجود السوفييتى قد تزايد بصورة كبيرة منذ طلب الرئيس عبد الناصر مساعدة روسيا فى الدفاع عن المراكز الصناعية والسكانية فى بلاده ضد غارات اسرائيل فى العمق والتى بلغت ذروتها بقتل ما يزيد على سبعين عاملا بمصنع السبائك المعدنية فى أبو زعبل عام ١٩٧٠ ولم يكن قد وصل الى مصر حتى ذلك الوقت أكثر من بضعة آلاف من الفنيين الروس للمساعدة فى تركيب بطاريات صواريخ سام ٢ التى تحمى القاهرة وسد

اسوان . وكانت صواريخ سام ٢ فعالة فقط عندما تحلق الطائرات المغيرة على ارتفاع كبير فكانت الطائرات الاسرائيلية تندفع بسرعة البرق الى مصر محلقة على ارتفاع قليل جدا وكثيرا ما كانت تهاجم بطاريات الصواريخ ذاتها كما كانت تهاجم أى أهداف أخرى يهتم المغيرون باختيارها – وفى احدى المرات اتخذت طائرتان اسرائيليتان من طراز ميراج وضعا خلف احدى طائرات الركاب المصرية التى كانت تتجه نحو مطار القاهرة ونظرا لأنه لم يظهر على شاشات الرادار سوى صورة واحدة فقط فقد تمكنت الطائرتان من الوصول الى قلب القاهرة دون أن يكتشف أمرهما . لذلك قام الرئيس عبد الناصر بزيارة موسكو سرا فى بداية العام ليناشد الروس أن يساعدوه فى حماية البلاد من هذه العمليات ولوقوف هذه الغارات . وفى نهاية شهر فبراير ظهرت النتائج عندما أخذ جنود أفواج الصواريخ السوفييتية يتوافدون على مصر بحرا وجوا ومعهم أحدث صواريخ سام ٣ المصممة بدقة لمقاومة تكتيكات الغارات التى تخصص فيها الاسرائيليون .

وقد أصبحت روسيا فى نزاع مباشر مع أمريكا بعد وقف اطلاق النار الذى بدأ تنفيذه فى ٨ من أغسطس ١٩٧٠ ونتيجة لتورطها فى مصر عن طريق وجودها فقد كان اتفاق وقف اطلاق النار الذى توصل اليه مستر روجرز ينص على أن : « يمتنع كلا الطرفين عن تغيير الوضع العسكرى الراهن داخل مناطق تمتد خمسين كيلوا مترا (واحد وثلاثين ميلا) شرق وغرب خطوط وقف اطلاق النار ولا يقوم أى من الطرفين بادخال أو بناء أية منشئات عسكرية جديدة فى هذه المناطق ويقتصر النشاط داخل هذه المناطق على صيانة المنشئات الحالية بحجمها الحالى ومواقعها الحالية وعلى مناوبات وتموين القوات الموجودة داخل المنطقة حاليا . وكان من الطبيعى أن يبدأ كلا الجانبين فورا فى تنفيذ العمل الذى يرى أنه ضرورى للغاية . وكان من المؤسف بالنسبة لمصر أن الخطوات التى كانت تجرى على الضفة الغربية للقناة هى التى بدت أكثر اثارة وأستأثرت بالعناوين الرئيسية للصحف فى أنحاء العالم . فقد بدأ المصريون العمل على عجل بمساعدة الروس فى اقامة سلسلة من بطاريات الصواريخ على طول القناة ابتداء من صباح الثامن من شهر أغسطس أى بعد مدة لا تزيد عن ست ساعات من بدء سريان وقف اطلاق النار وأخذ الاسرائيليون يشكون مر الشكوى مما يجرى فى الوقت الذى كانوا هم فيه أنفسهم عاكفين تماما على اكمال خط بارليف وهو سلسلة من النقط القوية والحصون التى تمتد كلها بمحاذاة القناة وقد رفضت أمريكا هذه المرة أن تؤيد اسرائيل التى تعيش فى حمايتها بالرغم من أنها كانت على علم أكثر حتى من اسرائيل نفسها

بما يحدث نتيجة للصور التى التقطت بواسطة القمر الصناعى (ساموس) وطائرات الاستطلاع من الارتفاعات الشاهقة من طراز يو ٢ التى كانت تحلق فوق سيناء من قواعد فى اليونان وتركيا وأحيانا من قبرص وكيريت أيضا . وطلب الدبلوماسيون الأمريكيون المساعدة من خبراتهم فى وكالة المخابرات المركزية وزعموا ان الصور التى يحصلون عليها « غير قاطعة » وان الصور التى التقطها الاسرائيليون من طائرات الفانتوم التى تحلق بمحاذاة القناة داخل سيناء لا تصلح لاستخدامها دليلا لمساندة اى احتجاجات فقد كانت امريكا تغض الطرف عن عمد آملا فى المحافظة على الهدنة كما أن روسيا التى كانت تتوافر لديها أيضا معلومات كافية عن النشاط الاسرائيلى عن طريق المراقبة التى تقوم بها الأقمار الصناعية كوزموس امتنعت بالمثل عن اثارة أى اعتراض طالما أن أمريكا تلتزم السكوت . وهكذا ظل السلام قائما على طول القناة بعد عامين ظلت خلالهما الاشتباكات اليومية بنيران المدفعية هى القاعدة مع المعارك الجوية بين المقاتلات فى السماء والغارات الجوية المنتظمة .

وقد اقتضت تلك الحرب التى أطلق عليها الرئيس عبد الناصر اسم « حرب الاستنزاف » ضريبة فادحة فمن الجانب الاسرائيلى بلغ عدد القتلى مائتين وأربعة وأربعون جنديا وستة عشر مدنيا خلال مدة الحرب التى استمرت عامين وبالرغم من أن المصريين لم ينشروا أبدا أى أرقام فان التقارير فى ذلك الوقت كانت تقدر الخسائر بالمئات فى بعض الأسابيع ولم يكن من الممكن أن تستمر تلك الحرب اذ كان من الواضح أنها غير حاسمة وانها خسارة للرجال وتدمير للأسلحة والمعدات ولا تحقق أية فائدة لأى من الجانبين . كما أنها لم تكن عامل تأثير فى البلاد كما كان القصد منها . فقد كان من الممكن بوضوح رؤية الوميض المنبعث من المدافع أثناء الاشتباكات الليلية بنيران المدفعية من المبانى العالية فى القاهرة وان المعارك الضارية التى كانت تدور قريبا جدا منهم كانت تؤثر فى سكان مصر وقد وصلت معنوياتهم خلال هذين العامين من حرب الاستنزاف الى الدرك الأسفل فقد كانوا يشعرون بالسخرية والمرارة وزالت عن أعينهم الغشاوة بعد هزيمة ١٩٦٧ وكانوا يعانون من الشعور بالمهانة والاحباط ولم يكن يزيد هذا الشعور مرارة الا مقدرة اسرائيل الواضحة على املاء شروطها فى الحرب . فكان وقف اطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ هو أفضل شئ حدث فى مصر فى سنوات ما بين الحربين اذ أنه أتاح لها أن تتوقف لالتقاط الأنفاس وتجرى تقييما وتعيد تقدير موقفها وقدراتها وتحدد الاتجاه الذى تريد التقدم نحوه .

وبسبب الضغوط المتزايدة فى العالم العربى لم تتوافر لعبد الناصر

ذاته الفرصة لكى يقود بلاده الى مسار جديد . لكن موافقته الجريئة على المبادرة الأمريكية وهى خطوة لطخت الى حد كبير صورة الرجل العظيم فى نظر كثير من العرب – قد مكنت سلفه السادات من تولى السلطة فى بلد كان مهيأ للبعث من جديد ودولة تكتشف نفسها باناة وتصميم على خلق ادارة حازمة وأهداف جديدة وهو ما هيأه السادات لها .

٣ – ثورة فى الخليج

وكما كان عام ١٩٧١ عام تغيير وترتيب للأوضاع من جديد بالنسبة لمصر بالرغم من أن الأمور لم تحسم « بطريقة أو باخرى » كما وعد السادات فقد شهد العام تغييرات واسعة النطاق فى منطقة الخليج العربى النائية التى كانت ماتزال فى ذلك الحين تعتبر متخلفة فى رأى كثير من المصريين المتحذلقين لان مصر شانها فى ذلك شان بقية دول العالم سلمت بدون تفكير بحقيقة ان منطقة الخليج تضم ثلثى احتياطيات العالم الغربى الثابتة من البترول ومع أن الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية كان شخصية تتمتع باحترام واسع فى العالم العربى لولايته على الأماكن الاسلامية المقدسة فان أقرانه حكام الخليج كانوا غير معروفين وكانوا أقل اعتبارا منه وكانت أحداث عام ١٩٧١ هى التى أرست الأساس لاندماجهم مع الاتجاه السائد فى الشئون العربية بعد ذلك بعامين عندما أثر تضامنهم وقدرات شعوبهم الفنية ذلك التأثير الذى جاء صدمة للعالم .

ولم تبرز السعودية الى العالم الحديث الا عندما تسلم الملك فيصل مقاليد الحكم من الملك سعود فى عام ١٩٦٤ وكان فيصل أكثر فطنة من أخيه الى حد بعيد كما كان أكثر وعيا باتجاه الأساليب العصرية وكان أكثر ميلا الى الأخذ بها فى مملكته الاقطاعية وقد ظل فى الوقت نفسه متمسكا بنزعة محافظة قوية بمقاييس العالم الخارجى وعامل اعتدال مستمر فى الشئون العربية ذلك أنه بالاضافة الى ما كانت تتمتع به بلاده من أهمية بسبب وجود مكة والمدينة وما كانت السعودية أيضا تمارسه من نفوذ عن طريق ثروتها البترولية الهائلة كان فى استطاعته أن يشترى وأن يبيع الرجال والأحزاب وكثيرا ما فعل ذلك . وقد ساعدت معوناته المالية الأردن ومصر على أن تظلا قادرتين على الوفاء بالتزاماتهما تقريبا عندما انخفضت ايراداتهما نتيجة لحرب ١٩٦٧ كما أن سخاءه أتاح الفرصة لظهور كثير من قادة المقاومة الفلسطينية ولم يكن الملك متخلفا عن عصره بل لا يعتبر كذلك اذ أن نوع الحكم المطلق الذى ينتهجه مخطط بدقة لاحتياجات شعبه البالغ تعداده ستة ملايين من الأنفس ولحماية وتعزيز أسرته ويضطلع الملك بالحكم عن طريق عشيرته التى يبلغ عدد أفرادها خمسة آلاف والمستخدمين « الأغراب » الذين يعملون كخبراء فنيين ويتعين على النظام أن يعتمد عليهم وفى المقام الأول الفلسطينيين فى صناعة البترول والمصريين فى المدارس وقد أصبح كثيرون من هؤلاء المهاجرين سعوديين عن طريق التجنس ولا يقل اخلاصهم للملك ولبلدهم الجديد عن اخلاص اى بدوى . ولكنهم يشكلون فى الوقت الحاضر قوة فى البلاد يتعين على الملك ان ينتبه اليها .

ولقد غيرت حرب ١٩٦٧ المملكة السعودية كما غيرت وجهة نظر ال...
ودوره فقد كان فيصل حتى ذلك الوقت يعتبر الى حد بعيد وبصورة ...
منافس عبد الناصر على زعامة العالم العربى وقوة موازنة للأنظمة « اليسارية »
فى الشرق الأوسط والزعيم الطبيعى والمعترف به للكتلة « المحافظة » ال...
تتألف من امارات الخليج والممالك الأخرى كالأردن وليبيا والمغرب وكان التنافس
بين مصر والمملكة العربية السعودية قد اتخذ طابعا صريحا فى الحرب الأهلية
فى اليمن عندما أيدت مصر الجمهوريين وساند فيصـل الملكيين اتباع الامام
البدر المخلوع . وانتهى ذلك الصراع نهاية غير حاسمة بطريقة أتاحت لكل
الجانبين أن يخرج منه ببقايا من ماء الوجه . ومع أن أيا من الطرفين لم يكن
فى استطاعته أن يزعم أنه حقق نصرا . وبالرغم من ان النظام الذى سيطر
على الحكم فى نهاية الأمر فى صنعاء كان يسمى نظاما جمهوريا فانه فى الواقع
كان نظاما محافظا .

ولقد غيرت حرب ١٩٦٧ ذلك التوازن بين المحافظين والمتطرفين والحقيقة
ان الملك فيصل ورجاله لم يلعبوا دورا فعالا لأنه بالرغم من ان الملك وعد بتقديم
معاونة عاجلة للأردن فان الحرب انتهت وهزم العرب فى الوقت الذى بدأت
فيه القوات السعودية الاندفاع نحو الشمال . وبالرغم من ذلك فقد كان
لهزيمة العرب وقع شديد وخاصة على الملك فيصل نفسه . كان ضياع القدس
هو الذى أثر فى نفسه . فقد كان فيصل وهو انسان شديد التدين ينظر
بعين الجد تماما الى دوره باعتباره حامى الأماكن الاسلامية المقدسـة وتضم
القدس ثالث هذه الأماكن بعد مكة والمدينة وبالرغم من ثراء فيصل وما يتمتع
به من أهمية فانه أساسا رجل يتسم بالبساطة فهو رجل صحراء يكون أقرب
الى سجيته عندما يكون فى خيام قبيلته منه وهو داخل القصـور المزخرفة
المشيدة بأموال بتروله المكتشف حديثا وقد حاول جاهدا منذ اللحظة التى
خلف فيها أخاه أن يحتفظ بالأساليب القديمة فى الوقت الذى أخذ يدخل
ما يراه معقولا من اصلاحات قليلة كتعليم البنات وهى بدعة جريئة أدت الى
قدر من النقد الصريح وكانت شئون مملكته مايزال يسيرها أساسا ائتلاف من
أسرته وحلفائهم الموثوق بهم والعلماء الذين يتمتعون بسلطان كبير فى المملكة
العربية السعودية عن طريق استئثارهم بدراسة الشريعة والمحاكم الوحيدة
فى البلاد هى المحاكم الشرعية وهى محاكم دينية تقوم على أساس من تعاليم
القرآن الكريم والسنة النبوية .

كانت السعودية تسير فى طريق التغيير ولكن ببطء شديد فقد كانت
الأساليب القديمة مازالت هى الأفضل ولئن كانت الأسوار المحيطة بالمدن قد

أزيلت من أجل التنمية الجديدة فان القصور والفيلات التى يملكها الخمسـة
الآلاف الذين يحكمون البلاد كانت ماتزال محاطة بالأسوار لتصد عنها نظرات
الفضوليين المفترسة وكانت المملكة ما تزال تنتهج أسلوبها المتكتم الا فى يقينها
وايمانها بالله .

كان الانتصار الإسرائيلى فى الحرب بمثابة صدمة عنيفة فقد كان فيصل
نفسه مايزال يميل الى اعتبار اليهود مخلوقات أقل شأنا ووحوشا غريبة
قادرة على ارتكاب أى شر . وكان الشىء الذى لم يستطع الملك أن يتحمله هو
أن يسيطر هؤلاء الناس على المنطقة الشرقية من القدس . وهكذا طرأ تغيير
على المملكة ولم يكن هذا بالأمر المثير وانما كان احساسا جديدا بالانتماء الى
العالم العربى وشعورا بوحدة الهدف فقوبل ظهور حركة المقاومة الفلسـطينية
ـ التى كانت تدان فيما مضى ارتجالا لارتباطاتها بالشيوعية التى تعتبر تلقائيا
الحادا ـ قوبل بالترحيب والتأييد ولم يكن هذا الترحيب وهذا التأييد موجها
بالطبع الى الجماعات المارقة المتطرفة التى يرأسها جورج حبش أو نايف حواتمة
أو أحمد جبريل وانما كان موجهـا الى الفدائيين الذين يتسمون بالاتزان
والواقعية من اتباع ياسر عرفات الذى كان يحظى برضاء الملك باعتباره عضوا
سابقا فى جماعة الاخوان المسلمين . وكان ولابد الآن من مساندة عبد الناصر
الذى كان فيما مضى العدو اللدود الذى كانت أفكاره « الاشتراكية » تنتشر
فى العالم العربى وتفسده كما يجب اعادة الملك حسين ـ الذى كان أسلافه
الهاشميون قد طردوا من السعودية على يد أسرة فيصل الوهابية ـ الى الصف
العربى فقد كان الملك فيصل على استعداد لمواجهة كارثة اسرائيل أن يتناسى
منافساته السابقة وأن يسوى خلافاته القديمة وأن يضم جهوده الى جهود كل
العرب المتلهفين على استرداد الأراضى المغتصبة من المعتدين « الكافرين » .

وكان ذلك انطلاقا خطيرا بالنسبة لفيصل الذى كانت سياسته الدولية
حتى ذلك الوقت موجهة فى المقام الأول الى تكوين « حلف اسـلامى » يكون
بمثابة كتلة محافظة معتدلة لمقاومة النزعة المتطرفة للدول العربية الأخرى التى
صمم على ابعادها عن شبه الجزيرة العربية ولم يتخل فيصل عن خطته التى
تستهدف قيام تجمع اسلامى ولكنه استخدم اهتمامه الجديد بالشئون العربية
وسيلة لتدعيم هذه الخطة . ففى مقابل مساعداته المالية والتأييد الذى يقدمه فى
الصراع من أجل استرداد الأراضى المحتلة ومكانته كناطق بلسـان الاسـلام
أخذ فيصل يحث عبدالناصر على الاشتراك فى مؤتمر سوف يضم الدول العربية
كما سيضم كثيرا من الدول الأخرى التى تهتم بالمنطقة بسبب الدين وحـده
وكان من الواضح تماما أن ذلك المؤتمر محاولة من جانب فيصل لاكتساب

مزيد من النفوذ وكان الاشتراك فى المؤتمر من جانب عبد الناصر تنازلا لكسب تأييد زعيم ودولة ـ وهو تأييد جوهرى لسبيل الوحدة العربية الذى يعتقد أنه أرجح السبل للوصول الى نتائج فى الجبهة الدبلوماسية والواقع أن كلا من المؤتمر الاسلامى ومؤتمر القمة العربى الذى أعقبه لم يحقق نجاحا كاملا وتحول المؤتمر الثانى الى كارثة كبرى .

وقد عقد كلا المؤتمرين بمدينة الرباط تلك العاصمة المغربية الرائعـــة وهى مدينة فرنسية أكثر منها عربية ما تزال تزدهر فيها بيوت الدعارة وتقدم أنواع رائعة من النبيذ فى كل مقهى فيها ويعيش فيها الملك الحسن حياته الخالية من الهموم دون ان تشغله أحداث المشرق البعيد انقـــلق . وكان اختيار الرباط محاولة متعمـدة لتكون حلف من الحـــكام « التقليديين » ولربط دول المغرب العربى بالاتجاه السائد فى الشئون العربية . وكان قبول الزعماء « الثوريين » لهذا الاختيار تنازلا مباشرا من جانبهم .

وكان المبرر لعقد المؤتمر الاسلامى هو حريق المسجد الأقصى فى القدس عندما قام استرالى مخبول عقليا باشعال حريق أحدث اضرارا بالغة بالمسجد الذى أسرى اليه النبى من مكة والذى صعد منه الى السماء . وكان الحريق صدمة كبيرة فى أنحاء العالم العربى الاسلامى وبلور المخاوف من أن تحاول اسرائيل بالتدريج الاستيلاء على الأماكن الاسلامية فى القدس وتقييد طابعها وقد أعرب الملك فيصل عن هذه المخاوف فى اليوم التالى للحريق عندما دعا مرة ثانية الى الجهاد « ينبغى على الزعماء المسلمين فى أرجاء العالم المسارعة الى تحرير الأماكن المقدسة فى القدس الحبيبة مسلحين بايمان صادق وهو أقوى من أى سلاح آخر واضعين فى اعتبارهم النصر الذى وعد الله به المؤمنين والأنبياء الذين يؤمنون بالعالم الآخر ويؤمنون بالبعث » .

ولم يكن الملك بعيدا عن الأحداث المعاصرة الى الحد الذى يجعله يعتقد ان المواعظ الدينية وحدها سوف تعيد القدس الى العرب اذ كانت هذه المقدمة ضرورية فحسب فقد تحدث عن نكوص الأمم المتحدة عن ارغام اسرائيل على الامتثال لأى قرار من القرارات الكثيرة التى أصدرتها وادان ضمنا المحاولات الأمريكية التى تستهدف اقرار سلام متفق عليه اذ قال : « ان جميع التسويات السلمية التى تعرض يوما بعد يوم ما هى الا سراب يهيىء للصهيونية العالمية الفرصة لتنفيذ مخططاتها التوسعية التى تستهدف السيطرة على العالم بأسره ».

فقد بادرت الجامعة الاسلامية التى كان الملك قد أقامها واتخذت مقرها بمدينة مكة والتى كان أمينها الشيخ محمد سرور الصبان موظفا سعوديا مثـل

اى موظف آخر الى اقرار النداء الذى وجهه الملك لخوض حرب مقدسة وارسال دعوات عاجلة الى الدول الاسلامية كلها لحضور المؤتمر « لاتخاذ القـرارات اللازمة لانقاذ الأراضى المغتصبة ،ووضع حد للاضطهاد » .

وعقد ذلك المؤتمر فى شهر سبتمبر بعد مرور شهر واحد على حريق المسجد الأقصى ولكن وقع خلاف حتى قبل اجتماع المندوبين فقـد كان عبد الناصر يريد أن يعقد وزراء الخارجية اجتماعا تمهيديافى البداية بينما تمسك فيصل بعقد اجتماع عاجل واصر على جدول أعمال يضعه ممثلو السعودية وايران والصومال والمغرب وماليزيا والباكســتان والنيجر . وقد تجلى ذلك النقص فى الاعداد السليم عندما اجتمع قادة خمس وعشرين دولة اسلامية بفندق هيلتون الفاخر بمدينة الرباط خلال الفترة من ٢٢ الى ٢٥ سبتمبر اذ رفضت العراق وسوريا معا منذ البداية حضور المؤتمر وكان رفض سوريا فى الظاهر انها لم تكن تتبادل علاقات دبلوماسية مع المغرب بينما كان رفض العراق مرجعه رغبتها فى ان يمثل الفلسطينيون تمثيلا مبـاشرا فى المؤتمـر والواقع أن الدولتين لم تستطيعا احتمال الاشتراك مع الملك فيصل والزعماء « الرجعيين » الآخرين فى مؤتمر واحد وفى النهاية سمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالاشتراك فى المؤتمر بمراقبين . الا أنه كان واضحا تماما فى ذلك الوقت أن المؤتمر مقبل على كارثة وعندما بدأت المناقشات تأكدت صحة ذلك سريعا اذ أدى النزاع الهندى الباكستانى الى معظم المتاعب . فقد كانت الباكستان احدى الدول الأصلية فى المؤتمر ولذلك كان من الطبيعى أن لا تدعى الهنـد التى لم تكن من الناحية الرسمية بلدا اسلاميا . لكن الهند التى توجد بها أقلية السكان المسلمين يقدر عددها بنحو ستين مليونا طلبت الاشتراك فى المؤتمر وتمت الموافقة على اشتراكها بعد جدل كثير . وعلى أثر ذلك انسحب الرئيس الباكسـتانى يحيى خان على الفور واعتكف فى الفيلا التى ينزل بها مهددا بعدم المشاركة بعد ذلك فى المؤتمر ولكنه اقتنع بحضور هذه الجلسة الختاميـة للمؤتمر بعد ان استطاع المسئولون أن يحثوا الهنود بدورهم على عدم حضـور هذه الجلسة . ولم يكن الخلاف الهندى الباكستانى البعيد جدا عن شـئون الشرق الأوسط المباشرة ليؤدى الى اثارة قلق شديد بين العرب ولكنه لم يكن نقطة الخلاف الوحيدة لسوء الحظ وكان الأمر والأدهى من ذلك هو تلك المشـادة الكلامية النابية بين شاة ايران وعلى صبرى الذى كان يرأس الوفد المصرى لأن الرئيس عبد الناصر كان قد قرر دبلوماسيا انه يعانى مرضا . اذ ان الشـاه المعروف بسياسته الموالية للغرب لم يوافق الا على القرارات المعتدلة تماما ولم يكن الشاه كما أوضح على صبرى فى حديثه الحاد يوافق على القـرارات التى

تتجاوز القرارات التى سبق ان اصدرتها الأمم المتحدة وهى قـــرارات تعتبر بصورة عامة بالغة الضعف الى حد بعيد .

وقد انقسم المؤتمر منذ انعقاد أول جلساته الى معسـكر « تقليدى » ومعسـكر (تقدمى) بضم أولهما السـعودية وايران وتركيا وبعض الدول الأفريقية ويضم المعسكر الثانى بقية الدول المشتركة فى المؤتمر وعلى رأسها الجزائر ومصر . وكان المطلب الأساسى « للتقدمين » قبول الفلسطينيين كأعضاء يتمتعون بعضوية كاملة فى المؤتمر . وأن تتعهد الدول المشتركة فى المؤتمر بقطع علاقتها الدبلوماسية مع اسرائيل وأن تبحث مشـــكلة القدس فى اطار النزاع فى الشرق الأوسط كله أما المسجد الأقصى نفسه الذى كان هو السبب الظاهرى لعقد المؤتمر فلم يرد له ذكر تقريبا .

وفى النهاية تمكن المؤتمر من اصدار عدة قرارات متوقعة وحميدة تماما وتدعو هذه القرارات الدول الكبرى لتكثيف جهودها لضمان الانســحاب الاسرائيلى من الأراضى العربية المحتلة وتتعهد بتأييد الفلسطينيين فى نضالهم من اجل « حقوقهم العادلة » وترفض أى حل للأزمة لا يعيد القدس الى وضعها قبل سنة ١٩٦٧ ولم يكن فى هذه القرارات ما يثير قلق أحد غير الدول الثورية التى كانت تأمل فيما هو أكثر من ذلك والملك فيصل ومؤيدوه الذين اعتبروا المؤتمر خطوة أولى نحو قيام تجمع اسلامى قوى . والواقع أن المؤتمر قرر عقد اجتماع آخر فى العام التالى وانشاء سكرتاريته وقد تم ذلك أخيرا . الا أن المؤتمر بما حدث فيه من خلافات وما ظهر فيه من مرارة وعنف وما وقع فيه من انقسامات أدى الى اقتناع الملك فيصل بأن فكرته التى تقوم على سيطرة العرب عن طريق الاسلام لم تكن فكرة سديدة وربما كان ذلك الاقناع هو أهم نتيجة فهو الذى وضع الأسس لدور السعودية المعتل فى الشئون العربية ولتعاون فيصل مع عبد الناصر وخليفة عبد الناصر . وقد تجلى ذلك بعد ثلاثة شهور عندما زار الملك القاهرة لمدة يومين قبل أن يتجه الزعيمان لحضور مؤتمر القمة العربى الذى يعقد فى الرباط ثانية . فبالرغم من الصداقة والتفاهم فيما بينهما على مثل هذا المفهوم الجديد كان من المحتم أن تظل بعض نقط الخلاف القديمة الا أن الرجلين استطاعا أن يحققا نجاحا أكثر مما كانا يتوقعان وقررا فى الحقيقة أن يحترم كل منهما وجهة نظر الآخر . وقد أعلن فى البيان المشترك الذى صدر فى نهاية الاجتماع انهما اتفقا على « الخطوط العريضة للتضـــامن الاسلامى والعربى لمواجهة اسرائيل » كما تم الاتفاق بطريقة ودية على انهاء بعض المنازعات القديمة بين البلدين مثل مطالب السـعودية بتعويض رعاياها عن ممتلكاتهم التى تم الاستيلاء عليها فى مصر وكان الاجتماع وهو أول اجتماع

يعقد بين الرجلين منذ مؤتمر القمة الذى عقد بالخرطوم ســنة ١٩٦٧ علامة على التقارب الحاسم بين زعيمى الكتلتين الرئيسيتين فى العالم العربى .

ولكن هذا التضـامن الذى قام حديثا بين السـعودية ومصر لم يكن كافيا لانقاذ المؤتمر الذى عقده القادة العرب فى الرباط بعد ذلك بيوم واحد والواقع ان ذلك المؤتمر كان علامة على مدى ما وصــلت اليه جهود العرب للوحــدة والتضــامن من تدهور وانحطاط بما شــهده المؤتمر من انســحاب الوفود من الجلسات والمجادلات التى دارت به والنقد الذى وجه خلاله وغيبة اية نتائج عملية تماما . بل لقد وجد أنه من غير الممكن اصدار بيان نهائى وكان كل ما استطاع الملك الحسن أن يعلنه عن المؤتمر بعد ذلك أنه رائع لأن الفلسطينيين اشتركوا لأول مرة فى مثل هذا المؤتمر .

وكان الملك الحسن نفسه السبب فيما حدث من فوضى عندما طالب بأن يراس المؤتمر باعتباره مضيفا بينما كان اللواء نميرى رئيس السودان ورئيس الدورة الحالية للجامعة العربية يرى انه ينبغى ان يراس جلسة الافتتاح قبل ان يتخلى عن رئاسة المؤتمر للملك الحسن ، وهو ما تم فى النهاية ولكنه كان دلالة على النزاع والتنافر الذى ساد المؤتمر طوال ثلاثة أيام من المشاحنات وكان من أخطر الخلافات التى نشبت واشترك فيها الملك فيصل فضلا عن الدولتين المعنيتين ذلك الخلاف الذى وقع بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية والخلاف الآخر الذى أثير بين مصر وليبيا اللتين كانت العلاقات بين رئيسيهما قوية عادة والخلاف الثالث الذى جعل العراق عرضة لمعارضة كل الوفود الأخرى فى المؤتمر عندما رفض المؤتمر المشروع الذى تقدمت به العراق والخاص « بالتعبئة الكاملة » وقد انسحب عبد الناصر نفسه من احدى جلسات المؤتمر لا بسبب أى نقطة محددة وانما لأنه شعر بأن المناقشـــة لا تؤدى الى شىء وثبت فيما بعد أن رأيه كان صحيحا فبالرغم من المحادثات التمهيدية التى جرت بين فيصل وعبد الناصر لم يمكن حتى التوصل الى اتفاق على قيمة المبلغ الذى ينبغى أن تقدمه دول البترول الغنية الى « دول المواجهة » ومنظمة التحرير الفلسطينية . وكانت المنظمة التى اعترف برئيسها ياسر عرفات لأول مرة كرئيس دولة تطالب بثلاثين مليون جنيه استرلينى لاستخدامها فى الأراضى المحتلة وبين الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة . وقد رفض هذا الطلب . ولم يكن مرجع الرفض تماما الى ان الدول المقدمة للمعونات تضن بتقديم هذا المبلغ وانما لأن الزعماء العرب لم يكونوا مقتنعين تماما بالرغم من انتعاش العمليات الفدائية فى ذلك الوقت ان ما يقدمونه من معونات سينفق فى أوجهه السليمة والمفيدة .

ولعل النتيجة المفيدة الوحيدة لاجتماع الرباط انه اظهر العرب
نقص استعدادات مصر لخوض الحرب وبالتالى مدى كذب نداءاتهم « بالانتقام
من اسرائيل » فقد قرر الفريق محمد فوزى وزير الحربية المصرية ان مصر بعيدة
عن القدرة على خوض غمار المعركة ، وانها فى الواقع قادرة على الدفاع بشق
النفس وانها سوف تحتاج الى قدر كبير من المال والوقت لتصحيح ذلك الوضع
وقدم مشروعا يحدد فيه المساهمة المطلوبة من كل دولة بالرجال والمعدات
والمال ولم ير أحد من الزعماء المتصارعين انه يقدر اوضاعهم الخاصة وكانت
المناقشة المتكررة الى حد الملل بهذا الموضوع هى التى ادت فى النهاية الى اثارة
غضب عبد الناصر وانسحابه من الجلسة . وقد سأل عبد الناصر المندوبين
فى جلسة مغلقة « ان ما أريد معرفته هو : هل تريدون خوض المعركة أو لا
اننى لا اوجه هذا السؤال لكى أواجه بالاتهامات ، اننى أريد أن اعرف فقط
وانا على استعداد لكلا الاحتمالين فاذا كان الاحتمال الأخير فاننى اضع خطتى
على اساس اننى ساقاتل وحدى ولكن المسألة لا تتعلق بالجمهورية العربية
وحدها ولو كان الأمر كذلك لاستطعنا أن نحل المشكلة منذ فترة طويلة ولكنها
مسألة تهمكم جميعا » .

وقد فسرت الدول الأكثر « ثورية » هذا الخطاب القصير اللاذع مع ربطه
باشارة الى « تسوية سلمية » وردت فى سياق العرض الذى قدمه الفريق
فوزى امام المؤتمر بانه تهديد بأن تتخذ مصر اجراء منفردا . وقد أثار هذا
الخطاب مزيدا من الرعب بين المندوبين ولكنه فى الحقيقة لم يكن سوى تعبير
عن الاحساس العام باليأس الذى يعانيه عبد الناصر ازاء هذه المشاحنات
التافهة ورفض مواجهة الحقائق .

كان للمؤتمرين اللذين عقدا فى الرباط أثرهما الكبير على تفكير الملك
فيصل . وبالرغم من انه لم يتنازل ولم يكن فى استطاعته أن يتنازل عن خططه
الخاصة باقامة حلف اسلامى فانه لم يعد له وزنه الكبير جدا فى رأيه بعد
ما شاهدة مباشرة باقامة حلف وفرقة بين الدول المعنية . ومضى قدما فى اجتماع
وزراء الخارجية فى جده الا انه حتى فى هذا الاجتماع كان أبسط الأمور يثير
انقساما بين الوزراء فلم يستطيعوا حتى أن يوافقوا بالاجماع على اقامة
سكرتيرية كما رفضت العراق وسوريا مرة ثانية ان تشتركا فى المؤتمر وبالرغم
من ان الجامعة الاسلامية تأخرت أكثر مما ينبغى . وبالرغم من الجهد الذى
بذل لتوفير مكانة أكبر لها بتعيين شخصية بارزة ، تنكو عبد الرحمن رئيس
وزراء ماليزيا سكرتيرا عاما لها فانها سرعان ما كفت عن القيام بأى دور حقيقى
فى شئون الشرق الأوسط . وفى الوقت نفسه قرر الملك فيصل انه يجب ان يلعب

دورا متزايدا فى العالم العربى بسبب ما يراه من اللا مسئولية المغرضة التى
يتسم بها كثير من زملائه من الزعماء ذلك ان فيصل وهو ارستقراطى بفطرته
يثق بمعرفته لسلطانه داخل بلاد ومكانته فى الخارج وادراكه المتزايد لمدى
ما يستطيع أن يمارسه من تأثير عن طريق استخدام انتاج بلاده من البترول
فى المناورة . يتصف بنوع من التكبر فهو على ثقة من حقه فى ان تكون له السيطرة
ويؤمن بانه ينبغى على الدول العربية « الصغرى » ان تستمع اليه وكان من
المؤكد ان مثل هذا الموقف يؤدى الى اثارة الاستياء ولكنه كان موقفا منطقيا
وكان يحقق نتائج . ومن المؤكد ان الملك بدأ منذ هذا اهتماما اشد كثيرا بالشئون
العربية كلها .

وكان عليه قبل ان يستطيع أن يجعل وجوده ملموسا فى اطار دول الشمال
ان يعزز ويدعم مكانته فى منطقته حيث تشيع الخلافات كما تشيع فى كل
الأجزاء الأخرى . وكانت المشكلة الرئيسية من صنع بريطانيا التى كانت الدولة
العظمى المسيطرة فى الخليج منذ وقعت المعاهدات الأولى فى عشرينات القرن
التاسع عشر اذ قررت الحكومة البريطانية ان تسحب قواتها من المنطقة كلها
فى نهاية عام ١٩٧١ وكانت تأمل من وراء اعلانها هذا الموعد الأكيد . بعد تردد
كبير – أن تركز افكار الحكام المعنيين الذين اعتقدوا بأن بريطانيا سوف تبقى
فى المنطقة اذا ما حدث ضغط ، بل انهم عرضوا ان يدفعوا نفقات القوات
البريطانية فى المنطقة والتى كانت تتكلف حينذاك حوالى عشرين مليون جنيه
استرلينى سنويا وكان معنى القرار البريطانى ان ذلك الانسحاب سوف يترك
بلغة الجغرافيا السياسية فراغا فى واحدة من اكثر المناطق حيوية فى العالم –
فالأراضى الممتدة على طول الخليج العربى تتاخم الطريق البحرى الذى تسلكه
ثلث شحنات بترول العالم الحر تقريبا بعبور ناقلة بترول مضيق هرمز الضيق
الى البحر العربى كل عشر دقائق . وما لم يتم ملء ذلك الفراغ بطريقة مرضية
فانه من الممكن بسهولة أن يصبح مسرحا لمنافسات جديدة لا بين الدول الواقعة
على ساحل الخليج فحسب وانما بين الدول الكبرى أيضا لأن روسيا بمصالحها
المتزايدة فى العراق الواقعة عند منبع الخليج ومشروعاتها الخاصة بالانتشار
فى المحيط الهندى تهتم اهتماما كبيرا بالخليج أيضا .

وكان رد الفعل البريطانى بالنسبة للمخاطر الواضحة بمثابة تنصل منها
اذا كان هدفها المقرر هو أن تعهد بالدفاع عن المنطقة الى الدول المتاخمة للخليج
متجاهلة التفاوت الكبير فى الحجم والثراء والتطور بين هذه الدول ودون ما التفات
الى التنافس واحتمال قيام سباق للتسليح بين الدولتين الرئيسيتين وهما
ايران والسعودية .

وكان الجهد الحقيقى الوحيد لتجنب كارثة مطبقة هو التلويح بذلك الدوا[ء] البريطانى الذى يعالج كل داء وهو الاتحاد . فظل سير وليام لوس الذى كا[ن] يشغل من قبل منصب مقيم فى الخليج ينتقل كالملوك بين الامارات المختلفة طوال شهور ومتاعب مضنية محاولا تسوية الخلافات بين الحكام وتصفية العداوات العائلية المستحكمة وتنبيه رجال يتسمون بالسذاجة السياسية والتشكك الى مزايا الاتحاد ومع غيرهم ممن ظلوا اجيالا يعتبرونهم اعداء ومنافسين لهم . وكانت مهمة غير مجدية ومستحيلة تقريبا لم ينل عنها « لوس » ما يستحق من تقدير وقد تمكن فى النهاية من تحقيق قدر من النجاح خطير الشأن للغاية .

وكان يبدو منذ البداية انه من غير المحتمل ان تستطيع البحرين الاتحاد مع مجتمعات قروية ريفية مثل ام القوين او عجمان بينما يتوافر لها اكبر حشد سكانى وتاريخ معقول من التقدم الاجتماعى الذى يستند الى دخل بترولى متواضع ولكنه ثابت منذ امد بعيد كما لم يكن من الممكن ان يسوى آل خليفة حكام البحرين خلافاتهم مع ابناء عمومتهم آل ثانى حكام قطر بينما تطالب كل جماعة بحقها فى قطع صغيرة من الارض تدعى الجماعة الأخرى أحقيتها فيهـا لا لأسباب تتعلق بكبراء الأمة وانما لاحتمال اكتشاف ان المياه المحيطة بهذه الروابى الرملية تغطى مزيدا من البترول .

اما الامارات السبع الأخرى المتصالحة فكانت تشكل خليطا من الرقع فوق الخريطة بوجود اجزاء من أراضى احدى الامارات محاطة بأراضى امارة اخرى وبئر ماء هنا ينتمى الى احدى الامارات ونخلة منعزلة على بعد ميل واحد تنتمى الى امارة اخرى . وقد نشأت هـذه الفوضى على الأرض من أسلوب بريطانيا التقليدى فى تسوية المشكلات قبل ذلك بقرن من الزمان : فعندما تزايدت المنازعات القبلية قرر المقيم البريطانى وضع خريطة دقيقة تحدد تبعية القبائل ومواقعها تماما وهكذا أوفد بعض المستعمرين البريطانيين الذين يسعدهم القيام بمثل هذه الأمور الى مختلف انحاء المنطقة فكانوا كلما صادفوا جماعة من البدو ضاربة خيامها بجوار بئر سألوها عمن يكون شيخها ثم يقومون بعد ذلك بزيارة الشيخ ويسألونه بدوره عن الامارة التى ينتمى اليها حتى يستطيعوا فى النهاية تغطية منطقة من خرائطهم الدقيقة باسم واحد من الامارات السبع المتصالحة المعترف بها . ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب كان مهزلة كبرى وعملا يدل على حب بذل الجهد بالنسبة للرجال الذين قاموا باعداد الخرائط ولكن عملهم أدى الى نشوب مئات المنازعات عبر السنين لأن الحزازات والمطالب العائلية المنسية كانت تنبعث من جديد لترسيخ السيطرة على بقعة صغيرة تافهة من الصحراء قد يكون تحتها بترول .

ولم تكن الخلافات كلها بهذا المستوى من التفاهة اذ كان التنافس بين الدولتين - المدينتين الرئيستين وهما ابو ظبى ودبى - تنافسا حقيقيا الى حد كبير . فقد وجدت ابو ظبى فجاة انها واحدة من اغنى المناطق على سطح الأرض فى الستينات لأن مزيدا من البترول كان يتم ضخه من اراضيها البالغة مساحتها خمسة وعشرين الف ميل مربع من الصحراء . وكان شيخها السابق قد تعود فى البداية ان يحتفظ بأموال بلاده فى صندوق من الصفيح يضعه اسفل سريره . وخلال احدى زياراته الى لندن ارسل طائرة الى بلاده عندما وجد انه فى حاجة الى مزيد من المال . وقد شرح له بعض مرافقيه مزايا استعمال الشيك وحساب البنك . ولكن يبدو انه لم يكن يفهم تماما القواعد الخاصة بهذه المعاملات لأنه كتب بحذر وبمساعدة ما تحويلا بما يحتاج اليه من مال ثم امر بارساله الى ابو ظبى بالطائرة وما ان استولى الشيخ زايد على الحكم بانقلاب تم بدون مجهود وبمساعدة بريطانية مستترة حتى بدات الأمور فى التغير وكان هناك بطبيعة الحال بعض التبذير الواضح واقيمت مبانى كثيرة سيئة البناء لان المقاولين اللبنانيين كانوا يفدون الى البلاد ليؤمنوا لأنفسهم بعض المال الذى يجرى انفاقه بسخاء بالغ الا انه فى الوقت نفسه كان هناك قدر كبير من التطور المعقول للغاية والضرورى جدا للبلاد . اما فى دبى المجاورة فان التقدم بدا قبل ذلك واستمر بحظى أكثر تواضعا وثباتا لأن الشيخ راشد يتصرف كرئيس شركة متوسطة ناجحة أكثر مما يتصرف كحاكم لامارة . وما زالت الامارة تحقق كسبا كبيرا عن طريق انتهاج سياسة فرض ضرائب ثابتة على جميع الواردات قيمتها ٤ر٥٪ وبهـذه الوسيلة أصبح من الممكن استيراد سلع كالساعات والذهب بصورة قانونية الى الامارة بأقل التكاليف واعادة تصديرها بصورة قانونية بعد ذلك . اما ما يحدث بعد ذلك فلم يكن مما يعنى الشيخ راشد . وهكذا قام رخاء دبى على أساس هذا النظام المثمر القائم على التهريب القانونى . وكان من الطبيعى ان يصبح الشيخ راشد منافسا للشيخ زايد الغنى على زعامة الساحل المتصالح كله .

اما الامارات القروية مثل عجمان وام القوين والفجيرة والشارقة وراس الخيمة فكانت تنفق على الخدمات القليلة التى توفرها من الأموال التى تحصل عليها من منح امتيازات التنقيب عن البترول ومن بيع طوابع البريد والعملات وهى اقتصاديات لا تقوم على اساس وطيد الا ان ما كان يشد ازر الحكام هو احتمال ان يصبحوا فى ثراء ابو ظبى بين عشية وضحاها . وازاء هذه الظروف عارضوا كثيرا التخلى عن استقلالهم .

وكان لابد لهم من ان يقفوا هذا الموقف لأنه أصبح من الواضح ان خليط الامارات الصغيرة جدا لا يستطيع ان يقاوم تدخل أى قوة خارجية . وكانت هناك مطالب ومخططات الكثيرين فقد حاولت ايران فى البداية تثبيت سيادتها

على البحرين وعندما حسم هذا المطلب باستفتاء واشرفت عليه الأمم المتحدة تقدمت بمطالب جديدة لاعادة ثلاث جزر صغيرة فى مضيق هرمز الى رعاية ايران كما كان هناك خلاف قديم بين السعودية وابو ظبى حول واحة البوريمى وكانت عمان مشتركة فى هذا الخلاف ايضا لأن اراضيها متاخمة للمكان . واستطاع كل حاكم ان يثبت حقه فى اعادة هذه القطعة من الأرض او تلك .

ولم يكن اقناع هذه المجموعة المتباينة من الحكام والامارات بالمهمة الهينة كما تجلى من مؤتمر بعد مؤتمر فاشل . وكانت احدى العقبات تفسر دائما تفسيرا خاطئا الى حد ما وهى عجز كثير من المشايخ عجزا مطلقا عن ادراك ما يجرى حولهم .

ومن القصص التى رويت وهى محل شك قصة حاكم كهل كان يجلس فى كل اجتماع صامتا وقد عقد يديه وجعل يحملق امامه على امتداد المنضدة الضخمة وكان كل ما يسمع منه هو همس خافت : « اننى لا افهم » وعندما تم التوصل فى النهاية الى نوع من الاتفاق سئل عما اذا كان سيوقع هذا الاتفاق فكانت اجابته مرة اخرى : « اننى لا افهم » واستبد الغضب بالسكرتير الشاب الفلسطينى الجنسية فسأله بحدة : « ما هو بالضبط ذلك الذى لا تفهمه الآن ياصاحب السمو ؟ فاجاب الحاكم : اننى لا افهم كيف استطاعوا ادخال تلك المائدة الضخمة من هذا الباب الصغير » .

وعلى الرغم من هذه العقبات اخذ يبرز بالتدريج ومع مرور الشهور شكل للوحدة فقد اصرت البحرين وقطر على عنادهما واتفقت الامارات السبع المتصالحة فى الخليج الأدنى على الوحدة داخل اطار اتحاد مفكك . وفى النهاية اعلنت ست امارات فقط قيام اتحادها الجديد فى يوليو ١٩٧١ مع بقاء الشيخ صقر حاكم راس الخيمة خارج الاتحاد على أمل أن يكتشف البترول فجأة فى امارته وكان اعلان قيام الاتحاد كافيا لتمهيد الطريق امام البحرين وقطر لكى تعلنا استقلالهما الأمر الذى تم بعد ذلك بشهرين — وأمام بريطانيا لكى تؤكد انها قد كفلت الاستقرار فى الخليج قبل انسحاب قواتها نهائيا . ومن الجلى ان هذا كان بعيدا عن الحقيقة فبعد الاعتماد على بريطانيا فى توفير الحماية وتقديم المشورة طوال مدة تزيد على مائة واربعين عاما لم يكن من المحتمل ان يستطيع اتحاد على الورق ان يملأ الفراغ الذى تخلقه بريطانيا بهذه الطريقة المتعمدة على انه كانت افكار اخرى تجلت بصورة ساخرة ومروعة الى حد ما فى الوقت الذى كان فيه الانتداب البريطانى فى طريقه الى الزوال .

فقد كانت بريطانيا حتى آخر لحظة ملتزمة بمقتضى التزامات المعاهدة بالدفاع عن الامارات المتصالحة فى حالة تعرضها لهجوم . وفى أواخر شهر ديسمبر وبينما كان يجرى شحن المعدات البريطانية لاعادتها الى لندن وكانت القيادة البريطانية قد انتقلت من البحرين الى الطراد بلوراك كان كبار الضباط

يؤكدون انهم ما زالوا على استعداد للعمل وان لديهم خططا طارئة اذا ما اقدمت ايران على اى خطوة واقر احد كبار الضباط بأن بريطانيا ستكون ملزمة من الناحية القانونية والادبية بصد اية محاولة ايرانية للاستيلاء على الجزر حتى منتصف ليلة ٣١ من ديسمبر او على الاقل حتى تنتهى مدة المعاهدة القديمة وتوقيع معاهدة جديدة والواقع أن القوات الايرانية اقتحمت فى اول عملية هجوم تقوم بها منذ سنوات كثيرة شواطىء جزر ابو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى قبل يومين من اعلان قيام اتحاد الامارات العربية رسميا وقبل انقضاء التزامات بريطانيا بأربع وعشرين ساعة . ولا شك فى أن الغزو لم يكن صدمة للبريطانيين الذين كانت قواتهم ما تزال موجودة فى المنطقة . وكان نموذجا للسياسة الواقعية يظهر نية الشاه فى القيام بدور الشقيق الأكبر فى الخليج لأن مطالبته بالجزر الثلاث لم تكن تستند الى اى اساس على الاطلاق وكان هدفه فقد تامين سيطرة الحاميات العسكرية الايرانية على جميع جزر المضيق الست واسرعت امارة الشارقة التى تمتلك جزيرة ابو موسى سريعا الى عقد تسوية مع ايران تنص على دفع اقساط ضخمة للمشيخة الفقيرة من البترول الذى يكتشف فى الجزيرة الا ان استيلاء ايران على الجزر اثار احتجاجات عنيفة لم تكن غير متوقعة فى جهات اخرى . فقد قطعت العراق علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا . وفى ليبيا استخدم العقيد القذافى هذه المسألة ذريعة التأميم المصالح البترولية البريطانية ، كما نشبت اضطرابات فى الامارات نفسها . وقد نجم عن الحادث اضطرابات أخرى بعد ذلك بشهر واحد عندما اختطف حاكم الشارقة الشيخ خالد بن محمد ثم قتل وخلفه فى الحكم اخوه الشيخ سلطان بن محمد ومرة اخرى اكتشف بعض المراقبين يد البريطانيين الماهرة .

ولعله كان من المتوقع لاتحاد الامارات العربية — الذى بادر الشيخ صقر حاكم راس الخيمة بالانضمام اليه بمجرد أن اعلنت الشركة التى كانت تنقب عن البترول فى اراضيه انه ليس لديها آمال أخرى فى العثور على البترول وقد وجد فى مثل هذه الظروف المضطربة انه يتردى من ازمة الى اخرى ولكنه فى الواقع برهن على استقراره بصورة ملفتة للنظر . ويرجع ذلك الى حد كبير الى ترك الأمر لكل حاكم لمواصلة كثير مما كان يقوم به من قبل مع قيام ابوظبى باغداق الأموال لضمان بقاء الجناح المحافظ فى السلطة . وتحويل المنطقة كلها الى دولة واحدة تتمتع برخاء عريض . الا انه كانت هناك تهديدات بطبيعة الحال مصدرها بالدرجة الأولى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل وهى منظمة ماركسية اتخذت من عدن مركزا لقيادتها ، وكرست نشاطها للاحاطة بكل الأنظمة « الاقطاعية » فى الخليج واستبدالها بنوع من الحكم يماثل نظام الحكم فى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية التى زودت المنظمة بمقر آمن كما أمدتها بمزيد من اشكال المعونة العلنية .

بيد انه من المتناقضات ان نشاط « حركة التحرير » اليسارية المتط هذه هو الذى كفل تماسك دول الخليج وبقاءه اذ أدرك الحكام الأقوى كا فيصل والشيخ صباح فى الكويت ان اى تدخل فى شئون الدول الصغرى ب بسهولة أن يفسح الطريق لسيطرة الأنظمة الثورية . ولم تكن لديها اية رغ فى ان يحدث ذلك . وكان هذا السبب حد بعيد هو الذى ادى الى ان اهدا شاه ايران التوسعية الواضحة لم تقابل باى محاولة لكبحهـا او اى اعترا تقريبا . ومن المتناقضات ايضا أن ما كان يشغل تفكير امراء الخليج ومشاي هو المعرفة المتزايدة بما يجرى على طول السـاحل الجنوبى للجزيرة العربية و ادركوا عندما بدات تصل اليهم المعلومات الدقيقة عن الوضع فى عمان ان الحر من اجل بقائهم تدور فى اقليم ظفار المجاور لحدود جمهورية اليمن الديمقراط الشعبية وانهم فى هذه الظروف لا يميلون على الاطلاق الى تهيئة السبيل اما مثيرى المتاعب للاقتراب اكثر من ذلك من أعتاب بلادهم .

وكانت عمان — المعروفة باسم سلطنة مسقط وعمان قبـل « تحررها ا المفاجىء فى يوليو ١٩٧٠ — واحدة من اشد دول العالم عزلة فقد كانت مغلق امام الغرباء مثل التبت تقريبا . ونادرا ما كان يسمح للزوار بدخول البلاد اثنا حكم السلطان سعيد بن تيمور الطويل ، وكانت المحافظة على الأساليب القديمة تتم بمرسوم ملكى ففى مدينة مسقط الجميلة نفسها وهى واحدة من اجمل عواصم العالم بلا ريب كانت ابواب المدينة المحاطة بسـور تغلق فى السـاعة التاسعة مساء وكان على الأشخاص القلائل الذين يكونون خارج بيوتهم فى ذلك الوقت ان يحملوا مسارج « فوانيس » مضيئة ولم تكن أجهزة الاذاعة تستورد مطلقا ، ولم تكن توجد دار للاذاعة فى السلطنة . وكان العمانيون أنفسهـم ممنوعين من تولى المناصب الكبرى فى السلك العسكرى أو المدنى لأن السلطان كان يضطلع بالحكم وحده حاكما مطلقا . ولم يكن يسمح لمن يغادرون البـلاد بالعودة اليها . وكان الحاكم نفسه يمارس عادة جذابة هى مزاولة الرماية من نافذة قصره . ولم يكن راميا بارعا جدا .

وقد ظل هذا الوضع بفترة طويلة من الزمن مناسبا لبريطانيا التى كانت ترتبط بالسلطان بعلاقة تعاهدية قديمة العهد . لكن حركة القوميين العرب وهى حركة يسارية متطرفة أنشأها الدكتور جورج حبش واتخذ لها مقرا فى عدن تمكنت سنة ١٩٦٨ من السيطرة على الثورة الوطنية فى ظفار والتى قام بها بطريقة عفوية حقيقة شعب مضطهد ومحروم . ومنذ تلك اللحظة لم تعد ثورة ظفار ذات طابع محلى أو أهداف يمكن أن يتعاطف معها البريطانيون الا أن محاربة هذه الثورة كان يقتضى رحيل السلطان العجوز لأن حكم القمع الذى يمارسه ورفضه العنيد أن يسمح للقرن العشرين بأن يلمس بلاده كان يساوى فرقة عسكرية تحارب فى صفوف الثوار . وهكذا تم خلع الملك العجوز عن

طريق انقلاب فى القصر تم تخطيطه بحرص وتنفيذه بدقة . ومرة أخرى لايمكن الافتراض ابدا بصورة جدية أنه كان من الممكن تنفيذ هذه الحركة بدون تستر ومساعدة فعالة من جانب البريطانيين الذين يزودون السلطنة بكبار الموظفين المدنيين وكبار العسكريين . وثمة دلالة بسيطة واحدة تكفى لاقناع المتشككين فقبل وقوع الانقلاب بيوم واحد وصل المراسل المحلى لاحدى وكالات الأنباء الى مكتب البرق واللاسلكى فى مسقط برسالة تقول : أنه تمت الاطاحة بالسلطان سعيد بن تيمور بواسـطة ابنه قابوس . وقرأ المسئول البريطانى بالمكتب الرسالة بأناة ثم ردها اليه قائلا : « غدا ، ليس اليوم ، غدا » .

ونقل السلطان سعيد الى لندن فى احدى طائرات النقل التابعة لسلاح الطيران الملكى التى كانت تنتظر فى مكان قريب — فقد كان السلطان العجوز يصر دائما على أن يدافع سلاح الطيران الملكى البريطانى عن مطار « صلالة » بجوار قصره فى مقابل التسهيلات التى يريدونها فى جزيرة « مصيرة » فقد كان يفكر فى احتمال مماثل تماما لما حل به فى النهاية وكان ابنه قابوس رجلا مختلفا عنه تماما . وقد تلقى تعليمه فى مدارس انجليزية وفى كلية ساندهيرست ، وكان أبعد ما يكون عن الطموح أو النشاط وقد قضى معظم الفترة من سن العشرين حتى الثامنة والعشرين يلعب البريدج ويستمع الى تسجيلات موسيقية فى المنزل الذى خصصه له ابوه حيث كان سجينا فى الواقع ومع ذلك فقد كان على استعداد لأن يدع ضـوء النهار يدخل الى عمان لأول مرة وبدأ بتحرير جوارى أبيه واطلاق سراح المسجونين السياسيين الذين أصابهم الوهن والضعف سنين طويلة فى سجن القلعة التى تحمى المدخل المؤدى الى ميناء مسقط .

وقام قابوس بفصل كثير من قدامى الموظفين الذين خدموا أباه ومن بينهم عدد كبير من الضباط ورجال الادارة البريطانيين الذين كانوا يحاولون معالجة الثورة فى ظفار كما لو كانت نوعا من الحرب القبلية الصغيرة فى بعض أنحاء أفريقيا النائية والتى كان كثيرون منهم قد ألفوها خلال خدمتهم السـابقة وكانت ثورة ظفار تماثل ذلك فيما مضى ولكنهـا لم تعد كذلك فقد كانت حملـة على درجة عالية من التنظيم يخوضها رجال عصـابات محترفون يتبعـون تعاليم ماو والقواعد التى وضعها الجنرال جياب . وقد استطاع المتمردون بما يتوفر لهم من مأوى آمن فى حوف عبر الحدود فى اليمن الجنوبية وامداد مستمر من السلاح من روسيا والصين ومجموعة تضم حوالى عشرين مدربا صينيا يقومون بالتدريب فى معسكرات التدريب فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية أن يسيطروا على معظم المناطق الجبلية المطلة على صلالة وأن يحولوا تلك المدينة عاصمة الاقليم الى معسكر محاصر حيث لابد من فحص الطرق كل صباح بحثا عن الألغام كما كان الأهالى يتعرضون بانتظام للهجوم عليهم بمدافع الهاون

وكان سلاح الطيران الملكى يضطر ، التزاما باتفاقه الخاص بحماية مطار صلال في مقابل مرابطته فى جزيرة معبرة الى الاشتباك فى القتال لمنع الثوار مر اجتياح المطار واصابة الطائرات باضرار .

وهكذا بدأ السلطان بمستشارين جدد العمل لكسب الحرب وبدا باستخدام طريق « القلوب والعقول » يعلن العفو عن الثائرين واقامة محطة اذاعة تعلن عن الانجازات التى حققها النظام الجديد فى البلاد . وقد حقق هذا الأسلوب نجاحا ضئيلا جدا لأن الرجال الذين يقاتلون لم يعودوا رجال قبائل وانما أصبحوا رجال عصابات مشبعين تماما بالمبادىء معينين لا بعمان وحدها وانما بالخليج المحتل بأسره . وقد أصبحوا جزءا من الثورة العالمية يعتبرون النضال فى ظفار مجرد خطوة أولى على طريق طويل . وأصبحت مناشدة «ولائهم» أو كبريائهم الوطنى أمرا لا معنى له . ومن ثم فقد كان على السلطان أن يتحول الى وسائل أخرى فبدأ فى بناء جيشه وسلاحه الجوى . وكان أكثر من نصف دخل البلاد المتواضع من البترول ينفق على القوات المسلحة بينما يجرى بناء الطرق وانشاء المستشفيات والمدارس حتى فى أقصى القرى . ولاقت جهود السلطان بعض النجاح لأن الحرب على الأقل لم تمتد الى أجزاء أخرى فى البلاد كما هددت بذلك عدة مرات وأمكن احتواء الثوار فى ظفار نفسها ولكنهم لم يهزموا .

وكان مئات الضباط البريطانيين الذين التحقوا بخدمة جيش عمان الذين تم التعاقد معهم ووحدات سلاح الطيران الخاصة والمرتزقة هم الذين أوقفوا معه الثورة وتمكنوا من احتوائها فى هذا الركن القصى من الجزيرة العربية وكان نجاحهم مسئولا الى حد بعيد عن السلام والاستقرار النسبيين فى بقية الخليج العربى وعن بقاء الحكام التقليديين فى مناصبهم ولو كان الماركسيون قد استولوا على السلطة فى عمان لكانوا بالطبع قد صدروا ثورتهم شمالا وقد اعترف مشايخ الخليج أخيرا بأن نجاح التوازن فى تحقيق ذلك كان مأثرة كبرى ولا ريب فى أن شـــاه ايران كان يدرك أهمية هذه الحرب الصغيرة الضارية والمستمرة لأنه أرسل قوات وطائرات لمساعدة القوات العمانية واغمض حكام الخليج العربى أعينهم عن ذلك .

وكان قابوس وبلاده بلاقيان فى البداية سخرية من جانب العرب الاخرين وكان يوصف بانه « عميل » و « اختراع بريطانى » ثم اكتسب مكانة مع خبرة وأخيرا حصلت عمان على عضوية الجامعة العربية بينما أخذ قابوس نفســه يضطلع بدور بارز بصورة متزايدة فى شئون الخليج وأصبحت دولة عمان التى

كانت مغلقة على نفسها فيما مضى الخط الامامى ف المعركة المستمرة التى تخوضها الامارات الاقطاعية ضد التخريب وهيأت للملك فيصل وزملائه الهدوء الذى ينشدونه على عتبات بلادهم لكى يشاركوا فى المعركة الأوسع ف الشمال .

وقد تمكن الملك فيصل ايضا من ان يحقق سلاما مماثلا على الجانب الآخر من حدود بلاده بعد الحرب التى شملت اليمن الشمالية بعد الاطاحة بالامام البدر واقامة النظام الجمهورى فى صنعاء بمساندة جيش عبد الناصر ولما اصبح الجمهوريون اكثر اعتدالا فى ظل حكم القاضى الايريانى اخذ فيصل بحظر باطراد نشاط المغتربين الملكيين الذين كانوا قد لجأوا الى السعودية واوقف توزيع الأموال على رجال القبائل مقابل الاضطرابات التى كانوا يثيرونها على طول الحدود . وفتحت اليمن الشمالية ابوابها للاستثمارات الأجنبية فتم بناء مطار وبدأ الشعب المتحرر العقل التمتع بعهد من الرخاء والسلام مع تنافس روسيا والصين على تقديم المساعدات الى ان ادرك الغرب ايضا اهمية الموقع والحكومة فبدأ بتزويد اليمن بالرجال والمال .

وكانت مشكلة اليمن الشمالية الرئيسية مع جارتها الثورية فى الجنوب لأنه بعد حصول عدن على استقلالها استولى المتطرفون من اعضاء الجبهة القومية على الحكم بينما لجأ زعماء جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل الى الشمال واصبح زعيمهم عبد الله الاصنج وزيرا فى حكومة صنعاء ولكنه كان يضطلع ايضا بقيادة جيش كبير من المنفيين ولم يكن يخفى نيته فى العودة الى عدن فى وقت ما بالقوة اذ لزم الأمر . وكان النزاع محتوما وكثيرا ما كان يندلع فى شكل اشتباكات على الحدود الى ان نشبت حرب كلية انتهت بطريقة غريبة للغاية فقد اتفقت الدولتان على وقف القتال والاتحاد فى دولة واحدة . ولم يكن مثيرا للدهشة ان هذه الوحدة المقترحة لم ينتج عنها شىء لأنه لم يكن هناك ما يربط المعتدلين فى صنعاء برباط مشترك مع سالم ربيع على وزملائه المتطرفين فى عدن عاصمة الدولة العربية الوحيدة التى تطبق الماركسية علانية وبصورة كاملة فتمتلك الدولة كل شىء بل انها أممت المساكن وبالرغم من انه قد تم قدر كبير من الانجازات الطيبة والمفيدة فى رى الريف واقامة بعض الصناعات الصغيرة فى المدن فقد بقيت اليمن الجنوبية معتمدة تماما على المعونة من الدول الشيوعية وخاصة لأن اغلاق قناة السويس كان معناه ان مائة سفينة صغيرة فقط كانت تزور الميناء كل شهر بدلا من خمسمائة سفينة من عابرات المحيط كانت تزورها كل شهر فيما مضى .

وقد بقيت عدن أيضا مقرا للجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل وكان المهيجون يوفدون من معسكرات تدريب هذه المنظمة خارج عدن الى جميع ارجاء الخليج لانشاء الخلايا وتدريب الكوادر ومحاولة تصدير نوع من الثورة

تغذيها وتدعمها الصين . وكان الهدف الاستراتيجي للحركة هو الاتصال بالعراق لتطويق الخليج « الاقطاعى » فى الشمال والجنوب ولاثارة الثورة فى الدول الواقعة على ساحل الخليج كله . وكان جيش قابوس وسلاحه الجوى والاموال المتدفقة من حكام الخليج هى التى كفلت ان لا تحقق هذه الاستراتيجية سوى تقدم ضئيل للغاية وان اليمن ظلت هى الدولة العربية الماركسية الوحيدة .

وكان للملك فيصل ايضا دور كبير فى ذلك ، لانه ظل يمول عبد القوى مكاوى الزعيم العسكرى لليمنيين الجنوبيين المنفيين الذين بدورهم جعلوا النظام فى عدن مشغولا دائما ومنعوه من احداث قلاقل على الحدود السعودية وفى الوقت نفسه كان الملك يتخذ فى تردد خطواته نحو الوحدة العربية عن طريق استخدام ثروته البترولية ببراعة . فقد كانت الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية قد دأبت حتى سنة ١٩٧١ على التعامل مع الدول العربية على اساس اعتبارهما كتلتين منفصلتين تماما « الحزام الشمالى » الذى يضم دول البحر الأبيض المتوسط وهى الأردن وسوريا والعراق ثم « المجموعة الجنوبية » وتضم السعودية ودول الخليج وكانت الحكمة الدبلوماسية السائدة حينذاك ان الكتلتين لن تستطيعا ان تتحدا . الا ان دبلوماسية البترول السعودية حققت هذا فقد أدى انشاء منظمة الدول العربية المصدرة للبترول الى توحيد جميع منتجى البترول كما لعبت هذه المنظمة دورا كبيرا فى التقارب الاخير بين السعودية ومصر وأدت الأموال الكويتية والنفوذ السعوديين – لأن الملك فيصل ظل اقرب حليف وصديق عربى لأمريكا حتى اللحظة التى قطع فيها البترول – الى توحيد صفوف العرب اكثر من اى وقت مضى ، ومنحهم صوتا قويا فى الشئون العالمية فقد اتحد مشايخ الصحراء وشعوب دول الشمال التى يفترض انها اكثر ثقافة الى حد كبير فى كراهيتهم للمغتصبين الاسرائيليين ومع ارتباط المال بالبترول والسلاح كادت تقوم الأمة العربية الواحدة التى كانت حلم الكثيرين .

وثمة شعب آخر ساهم فى تلك الحركة المؤثرة نحو ضم صفوف العرب وهو الشعب الفلسطينى فقد انتشر مليونين من المشردين الفلسطينيين فى كل مكان ينطق باللغة العربية . وكانوا أكثر تعليما من العرب كلهم كما كانوا واسعى الحيلة وأذكياء وذوى عزم يفتقر اليه كثيرون غيرهم فأصبحوا مدرسين وفنيين ورجال ادارة ومستشارين وذوى خبرة فى المناورات التجارية وقد ظلوا دائما فلسطينيين لا ينشدون مطلقا أن ولاهم الأول أنما هو لبلدهم الذى لم يعد له وجود وقد أثروا فى السياسات وجمعوا الأموال ومكنوا حركة المقاومة من أن تبدأ وتستمر قائمة بينما كانت أيدى أخرى تحاول استئصال تلك الحركة .

٤ ـ الأردن : صراع حسين من أجل البقاء

الأردن فى عام ١٩٧١ وقفت جماعة من الأشخاص فى الشارع الرئيسى بمدينة جرش الرومانية القديمة يتطلعون عبر الحقول المحروثة بعناية الى دبابتين تتدحرجان ببطء فى اتجاه الغابة الواقعة على قمة منحدر . وبدت هاتان الدبابتان على البعد الذى تغلفه غلالة رقيقة من الضباب أشبه بلعبتين للأطفال وعلى حين فجأة بدأت الدبابتان تطلقان القذائف وأخذ الرصاص ينطلق من بندقية آلية على الأشجار وسرعان ما تبدد الوهم بأن الأمر لا يخرج عن كونه لعبة وتردد صوت بضع طلقات متناثرة من نيران مواقع آلية ولكنها لم تعرقل على الاطلاق تقدم الدبابات المتمهل ثم شوهد الرجال وهم يولون الادبار ولكن نيران البنادق حصدتهم وأشاعت الموت بينهم وكان هذا هو الموقف الأخير لرجال العصابات الفلسطينيين فى البلاد وآخر محاولاتهم للتثبت بما كان يعتبر قاعدتهم الرئيسية وتعين عليهم القتال سواء كانوا عرضة للمضايقات أم يخضعون لقيود وضوابط والا فليتخلوا نهائيا عن كل الآمال بالحفاظ على وجود لهم وقد قاتلوا ولكنهم لم يستطيعوا عمل الكثير على مواجهة جيش حديث وهكذا خسروا وارغموا على الخروج من البلاد .

وكانت هذه العملية المنظمة التى قام بها الجيش الأردنى لتطهير البلاد منهم الفصل الأخير من مسرحية بدأت بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة مسرحية أوشكت على انهاء دولة الأردن والاطاحة بالملك حسين من عرشه مأساة شهدت قمة مراحل حركة المقاومة الفلسطينية وتدميرها النهائى لتظهر ثانية فى شكل آخر .

وكانت الأردن قد خسرت على نحو أكبر مما خسرته أى دولة عربية أخرى فى حرب عام ١٩٦٧ مع اكتساح الاسرائيليين للضفة الغربية الخصبة من نهر الأردن والأدهى من ذلك ان الأردنيين أصيبوا بجرح نفسى من جراء رؤيتهم للقوات اليهودية وهى تستولى على القدس الشرقية والأضرحة الاسلامية المقدسة تخضع للسيطرة الاسرائيلية . وتدفق فيضان جديد من اللاجئين عبر الجسور المؤقتة على النهر أوشقوا طريقهم المضنى فوق الاشلاء المتناثرة لمن قضت الحرب عليهم وسرعان ما أصحت مملكة حسين دولتين تضم مليون نسمة من سكان الضفة الشرقية ، هؤلاء البدو القبليين الذين استمدت منهم السلالة الهاشمية قوتها يقابلها مليون فلسطينى بعضهم اندمج فى الاقتصاد وما يزال معظمهم يعيش وسط الأوضاع المروعة لمخيمات اللاجئين . ومن هذه المخيمات انطلق

التحدى لحسين مع سعى حركة المقاومة التى بعث على ظهورها اليأس لتنم اى شىء يقف فى طريقها جانبا ·

وقد نشأت منظمة التحرير الفلسطينية قبل حرب يونيو ١٩٦٧ بزمن بـ بالرغم من أن قوات المقاومة المقاتلة لم تظهر كالشهاب فى سماء العالم العر الا فى عام ١٩٦٨ حيث اكتسبت مجندين وأموالا وتحولت فجاة الى عامل كا على المسرح السياسى وكان السبب وراء هذا الوضع المفاجىء وقوع هجوم اسرائي على بلدة الكرامة تلك المدينة الصغيرة التى يقطنها نحو ٢٠ ألف نسمة واتسع بوفود المئات من اللاجئين عليها · وكان يقطنها على الأغلب المواطنون الذي شردوا من عام ١٩٤٨ ولذا كان من الطبيعى لمن أصبح بلا ماوى عام ١٩٦٧ ا يجد طريقه الى هذه المدينة بالرغم من أنها لم تكن مخيما للاجئين ولكن مدين عربية لطيفة شوارعها نظيفة ومبانيها حجرية وتقع على مبعدة بضع اميـال م نهر الأردن شمالى جسر اللنبى أو ما بقى منه ·

وفى ٢١ من مارس عبرت قوة اسرائيلية معززة جسور النهر المؤقتة التى حلت مكان جسر اللنبى وعبرت أيضا جسر داميا شمالا الذى لم يمسه سو وفى الوقت نفسه هبطت قوات اسرائيلية بطائرات هليوكوبتر وبدأت معركة استمرت خمس عشرة ساعة كذلك بدأت أكثر الأساطير فى العالم العربى فعالية لأن الكرامة كانت الحدث المسئول مباشرة عن النمو المفاجىء لحركة الفدائيين لأنه حينما انتهى كل شىء صورها رجال الدعاية الأكفاء فى حركة المقاومة على أنها انتصار كبير لرجالهم وحدث هذا كطلقة كانت الحاجة ماسة اليها فى ذراع العرب فى كل مكان فى وقت كانت فيه الانتصارات العربية جد نادرة هذا اذا أردنا تهوين الأمر · وكان هناك بطبيعة الحال قدر طيب من الحقيقة فيما قالوه كما كان الشطر الأكبر منه من قبيل التمنيات ·

وكان المبرر الاسرائيلى المباشر للغارة على الكرامة نسف سيارة أوتوبيس مدرسى فى صحراء النقب قتل فيها طفلان وجرح خمسة وعشرون آخرين على الرغم من أن هذا كان مجرد حادث فى سلسلة طويلة من الأحداث التى حملت اسرائيل على اتخاذ قرار بشن هجوم واسع النطاق وكانت الاستعدادات لمثل هذا التحرك واضحة للعيان مثل حادث السيارة المدرسية بعدة أيام اذ عبر الاسرائيليون النهر قبل الغارة بثلاثة أيام وأخذت الصحف فى جميع أرجاء العالم العربى تحذر من غارة وشيكة الوقوع كما نبه الملك حسين الأمم المتحدة الى ما يجرى ومع هذا فان ما لم يدركه الاسرائيليون هو أن الجيش الأردنى أقام استعداداته أيضا بالرغم من أنه كان ما يزال يفتقر الى المعدات وغير منظم وهو على نحو سىء بعد الخسائر التى تعرض لها فى الحرب · ومن هنا بدأت عملية

خلق الأسطورة لأنه لم يذكر سوى القليل جدا عن الدور الذى لعبه الجيش فى كافة التقارير التالية عن المعركة فقد تركز الحديث كله على الفدائيين ومع أن معظمهم قاتل ببسالة فان اسهامهم لم يكن يقاس بما فعله الجنود المحترفون ومع ذلك فقد كان للقتـال المتـلاحم بالايدى واقتناص طائرات الهيلوكوبتر وقذف القنابل اليدوية أو حراسة موضع البنادق الآلية الى أن يتم اكتساحها سحر رومانسى أكثر من الدور الذى لعبه الجندى الاردنى الذى تعينت عليه المرابطة فى المواقع المعدة واطلاق نيران المدفعية المدمرة على الطوابير الاسرائيلية الأمامية وكان هذا بطبيعة الحال هو الذى تسبب فى وقوع معظم الضرر فرجال المدفعية الأردنيون وقادة الدبابات لم يتوانوا عن اطلاق وابل من النيران مما أدى الى سقوط عدد مروع من القتلى الاسرائيليين وذلك لثقتهم فى أن الاسرائيليين لا يمكنهم الاستيلاء الا على مداخل بعينها ولعلمهم بحقيقة ان الكرامة ستكون هدفا محققا استنادا الى عمليات القصف المنتظمة السابقة ولعلمهم أيضـا بأنها مركز النشاط الفدائى · وفى النهاية اعترفت اسرائيل بأن ٢١ رجلا من رجالها قتلوا وجرح ما يزيد عن سبعين شخصا على الرغم من أن المراقبين الأجانب المحنكين الذين زاروا المدينة بعد ذلك ببضعة أيام وشهدوا الحطام الذى خلفه الاسرائيليون وراءهم شعروا بأن اجمالى الرقم أعلى من ذلك بالتأكيد ·

واقتصر الدور الرئيسى الذى قام به الفدائيون المسلحون بأسلحة خفيفة لا يخرج عن كونها بنادق آلية ومدافع اقتصر على الاشتباك مع المظليين الاسرائيليين الذين هبطـوا خلف المدن وحينـذاك أدرك قائد القوات الاسرائيلية المغيرة أن مهمته ليست سهلة وأنه فى حاجة الى النجدة ولم يكن رجال العصابات قد تلقوا بعد هذه المرحلة قدرا كافيا من التدريب على ذلك النوع من المعارك الضارية التى أرغموا على الاشتراك فيها فقد ظلوا خلال عدة أشهر سابقة يعبرون النهر ليلا للقيام بغارات ثم الهرب بسرعة وزرع ألغام ونصب شراك خداعية أو تحويل الليالى الى عبء كريه بالنسبة لسكان المستعمرات الاسرائيلية شبه العسكرية التى يجرى انشاؤها فى الضفة الغربية · وكان هذا نوعا من المعارك جديدا عليهم ومع هذا فقد قاتلوا ببسالة نادرة فى مواجهة قوة نارية متفوقة وتكتيكات أفضل وفى نهاية الأمر تم اجتياحهم بطبيعة الحال وأغلب الظن أنهم فقدوا مايزيد عن مائة قتيل ولكن تضحية من قتلوا كانت تستحق ما حدث فى سبيلها اذ كانوا مسئولين بصورة مباشرة عن وضع عمد حركة المقاومة بمثل هذه القوة المهولة التى اكتسبتها بعد ذلك بقليل ·

وعلى الرغم من الأسطورة التى سرعان ما رسخت كانت معركة الكرامة صدمة وهزيمة لاسرائيل التى تزايدت ثقتهـا فى انهـا لا تقهر · فلم يكن

الاسرائيليون يتوقعون اى مقاومة حقيقية بل انهم اعدوا فعلا سيارات اوتوبيس لنقل رجال الصحافة للكرامة اثناء استيلائهم عليها واعتقدوا انهم سيتمكنون من مواصلة القيام بمهمتهم المتمثلة الخاصة بنسف مساكن المشتبه فى انهم من الارهابيين . مثلما فعلوا فى جنوب لبنان بعد ذلك بسنوات وشعروا بخيبة امل حقيقية نتيجة عجزهم عن تنفيذ مخططاتهم ولعل قلة فقط ادركت ما الذى ستكون عليه طبيعة الحياة فى مستقبل الاسرائيليين اذا واصلوا رفض قبول اى حل وسط .

وفى الاردن كان للكرامة اثر اكبر من ذلك ففى غضون ساعات من وصول انباء الانتصار الى العاصمة ترددت فى انحاء عمان الأناشيد وخرجت فيها مظاهرات صاخبة ووضعت دبابة اسرائيلية مصابة وسط ميدان عام لعرضها على الجماهير . وتحولت جنازة سبعة عشر من الفدائيين الذين قتلوا فى المعركة الى مظاهرة ضخمة موالية للفلسطينيين ولم يتردد كلمة واحدة عن الجيش الاردنى فقد كان انتصارا للفدائيين وهكذا تعين أن يبقى .

اما بالنسبة للملك حسين وحكومته فقد كان هذا بداية المرحلة العصيبة بالنسبة لهم اذ بذل الملك حتى موقعة الكرامة قصارى جهده لاثناء الفدائيين عن شن هجمات عبر الاردن الى الأراضى التى تحتلها اسرائيل ولكن الحدود كانت طويلة ولم يكن فى الامكان حراستها بفاعلية حتى اذا كان الجيش يرغب فى ذلك وفى ذلك الحين كان هناك عدد كبير من الضباط والرجال المتعاطفين قلبا وقالبا مع الفدائيين . وكانوا يطلقون فى معظم الأحيان النيران لتغطية جماعات رجال العصابات العائدين من غاراتهم على الضفة الغربية وفىالوقت نفسه اتاحوا لاسرائيل مبررا جديدا لقيامها بعمل ضد الأردن وكان الملك حسين يعى جيدا الأخطار الكبيرة من وراء ذلك على الرغم من انه لم يستطعان يفعل الا القليل . بل انه حتى ذلك الجزء من مملكته الذى بقى له بعد حرب عام ١٩٦٧ كان مقسما بالتساوى بين الفلسطينيين وسكان الضفة الشرقية ومن الطبيعى ان الفلسطينيين كانوا يؤيدون الفدائيين . وكذلك كانت الحال بالنسبة لكثير من سكان الضفة الشرقية لأنه فى تلك الأيام المريرة التى أعقبت هزيمة العرب كان المواطنون فى انحاء المنطقة كافة على استعداد للتشبث بأى شىء يمنحهم الأمل فى المستقبل وقدرا من الكبرياء المستردة وقامت معركة الكرامة بهذا الدور ولكن الملك ظل يحاول الحفاظ على الفكرة القائلة بأن فى الامكان ان يفصل على نحو ما بين بلاده وهجمات رجال العصابات التى كانت تشن منها . ونعنى ان رد الفعل الاسرائيلى كان انتقاما من نشاطات الفدائيين يقول الملك حسين «أعتقد أنهم يودون سحقنا هنا فى الأردن فلو أن النجاح الكامل حالفهم

وتمكنوا من سحقنا فربما شعورا بالأمان لبضع سنوات قادمة ولكن العملية كلها اخفقت واعتمد جنودنا على انفسهم لأول مرة » والح الملك ايضا بسخاء اكبر مما ابداه الحلفاء الذين فرضوا عليه بقوله « اعتقد اننا اصبحنا جميعا فدائيين الآن » والواقع ان الملك حسين خشى من ان يكون الهجوم الاسرائيلى بداية حرب جديدة مع ورود تقارير المخابرات عن اعداد القوات الاسرائيلية التى يجرى تجميعها . وقد كان هناك نحو ١٥ الف جندى على اهبة الاستعداد فى ذلك اليوم على الرغم من أن قسما منهن فقط هو الذى اشترك فى الهجوم على الكرامة . ولذلك ارسل الملك رسائل للقاهرة يحذر فيها من خطورة الاشتباك الوشيك الوقوع . وعرض عليه ناصر فورا اشتراك الطائرات المصرية فى المعركة ولكن حسين رفض ذلك بحكمة ولم يشرك قواته الجوية الصغيرة فى المعركة .

وطالما تأكد الملك من ان الأهداف الاسرائيلية محدودة حاول ان يقيم من جديد عهد سياسته السابقة مع الفدائيين وأصدر أوامره لجيشه بمساعدة وتشجيع رجال العصابات على عبور الحدود الى الأراضى المحتلة فى الوقت الذى يمنعونهم فيه من اطلاق الرصاص عبر الحدود لأن هذا من شانه دفع الاسرائيليين لاطلاق نيران مدفعيتهم على المدن والقرى الأردنية للرد على ذلك. وصدرت للجيش اوامر بمنع الفدائيين بالقوة اذا لزم الأمر من محاولة شن هجمات بالصواريخ عبر النهر وافضى التغيير الملتزم لهذا التوجيه الى وقوع بعض الاشتباكات بالرغم من ان العلاقات كانت طيبة عادة فى أعقاب معركة الكرامة وكان الفدائيون أبطالا فى نظر عدد كبير من أفراد الجيش الأردنى . ولا شك فى انهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى هذا الوقت وان خسائر مروعة لحقت بهم خلال هذه العملية اذ كانت الدوريات تعبر النهر الليلة اثر الأخرى لازعاج الاسرائيليين ولكن تدريبهم كان ضعيفا وخبرتهم كانت ضئيلة وفرص عودتهم الى الأردن لم تزد عن ٥٠ ٪ واتخذ الاسرائيليون ايضا بعض الاجراءات المضادة الشريرة فالاسرى الذين يتم القبض عليهم يضربون ويعذبون لحملهم على أخبارهم بكل ما يعرفونه وأحيانا كانت جثتهم تترك فى أماكن مكشوفة كتحذير للآخرين وتعين أبعاد الأطفال اليتامى فى مدرسة موسى العلمى الزراعية بالقرب من اريحا عن أحد قطاعات الأراضى عدة اشهر لأن القائد العسكرى للمنطقة الاسرائيلية لم يسمح بنقل جثث ثلاثة فدائيين من فوق شجرة شوكية منخفضة صلبوا عليها على هيئة نسور بعد اطلاق النار عليهم . كذلك استخدم الاسرائيليون المدرسة كدرع واق اذ نصبوا ستة مدافع خلفها تماما وهم يدركون أن المكان معروف جيداً للضباط الأردنيين على الجانب الآخر من النهر وانهم لن يجسروا على اطلاق النيران على بنادق العدو وخشية اصابة

المدرسة ولكن الفدائيين كانوا أشـــد قسوة وكان يتعين على العاملين بالمدرسة والأطفال قضاء الليالى فى المخابىء .

ودعا حسين الى عقـــد مؤتمر قمة عربى أملا فى أن يبعد عنه تبعات الوجود الفدائى الذى ادرك أنه سيتعين عليه تحمله كذلك أراد الحصول على معونة فى مقاومة لمزيد من الهجمات الانتقامية الاسرائيلية اذ انه من المحقق تعرضه لها . ووافق نصف عدد أعضـــاء دول الجامعة العربية على حضور المؤتمر ولكن الملك فيصل أثار صعوبات لأنه كان ما يزال يعلق آماله على تحقيق تجمع اسلامى بزعامته ولم يكن يرغب فى تحويل الانتباه عن هذه الفكرة بعقد مؤتمر لرؤساء الدول العربية وحينما أدرك حسين كنه الأمر بعث برســـالة ساخرة الى حد ما الى الرجل الذى كان يعتبره الوحيد فى أغلب الأحيان خلال السنوات التالية : اذا قال انه اذا كان الملك فيصل يعتقد بأنه قد بذل جهدا يكفى لمعارضة العدو وأنه يجب أن تكون قرارات مؤتمر قمة الخرطوم كافية لجميع الأوقات والمواقف واذا كانت الدول العربية قد قدمت كل ما تستطيعه اذن فان مناشدتنا عقد مؤتمر قمة جديد لم تكن جيدة التوقيت ونحن نعتذر على ما سببته من متاعب .

وبدلا من ذلك شرع الملك حسين فى اجراء سلسلة من المحادثات الثنائية فزار القاهرة أولا ثم بغداد والكويت ودولا أخرى بالخليج . وفى الوقت الذى كان يقوم فيه بتلك الزيارة كانت الأزمة تتبلور فى بلاده لأن الانتصار فى معركة الكرامة جعـل اعداد كبيرة من المجندين تندفع للانضـــمام الى جماعات رجال العصـابات المتعددة والى تدفق جديد للأموال عليهـا من جانب دول الخليج الغنية بل من جانب الفلسطينيين الأفراد الأغنياء ومن بين القرارات الرئيسية التى اتخذها زعماء الفدائيين انشاء « ميليشيا » لحراسة المؤخرة ومن الناحية العملية فان جميع الرجال الذين تطوعوا للخدمة مع الفـدائيين ولم يكونوا صالحين لذلك أو لم تكن هناك حاجة اليهم ثم توجيههم للاشتراك فى هـــذه « الميليشيا » التى لم تكن قوة عاملة طيلة الوقت ولكنها كانت تتكون من رجال - ونساء - كانوا يواصلون القيام بواجبات وظائفهم العادية بعد تلقى تدريبهم ويمكن استدعاؤهم فى حالة الطوارىء وقد حصلوا جميعا على أسلحة احتفظوا بها فى منازلهم وكانت النظرية القائمة هى انهم سيشكلون « المقاومة الشعبية » اذا شنت اسرائيل غارات فى عمق الأردن أو على مخيمات اللاجئين المكتظة حول عمان . وكان من الواضح حتى فى ذلك الحين ان الزعماء الفلسطينيين كانوا يتكهنون بحلول وقت ستثور فيه المتاعب بينهم وبين الملك حسين وانهم يعدون عدتهم لمواجهة هذا الاحتمال ولم يطل لهم الانتظار .

ومن المفارقات ان من بين أسباب الاشتباك شيئا لم يكن لحســين أى سيطرة عليه فقد كان يعانى لعدة سنوات من لغط فى القلب يعاوده بين الفينة والأخرى وتسببت الضـــغوط التى تعرض لها فى هذه الفترة فى معاناته من التعب أكثر من المعتاد . ولذلك ألغى زيارة كان سيقوم بها لليبيا فى اللحظة الأخيرة بناء على نصيحة اطبائه وطار بدلا من ذلك الى انجلترا حيث دخل مستشفى لندن كلينيك لاجراء فحص كامل : ومن ســوء الحظ ان ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل وصل الى لندن بعد وصول الملك بيومين فقط وكانت النتيجة المحتمة هى شيوع فيض من التكهنات والشائعات بأن الرجلين تقابلا وانهما ناقشا مسالة اقرار سلام منفصل بين الأردن واسرائيل وانهما يدبران سويا مؤامرة للقضاء على رجال العصابات وما شابه ذلك من أقوال . وساهمت هذه القصص المتطرفة فى خلق الأزمـــة وكانت بداية المواجهـــة بين الملك والفلسطينيين والتى أوشكت بعد ذلك على تمزيق الأمة وبدت الدلائل الأولى على وقوع متاعب مع ما وصفته السلطات بأنه «هجمات على مراكز البوليس» والواقع كانت هذه اشتباكات بين قوات الأمن والميليشيا الذين كانوا يمثلون السلطة على نحو مطرد فى المخيمات وفى المناطق التى يقطنها الفلسطينيون فى القرى والمدن وكان هذا مولد ما أسماه حسين بعد ذلك بقليل «دولة داخل الدولة» أو نظام الحكم المستقل ذاتيا للفلسطينيين الذين رفضوا الخضوع لأى قانون غير قانونهم لأنهم أو بعضهم اعتبروا أنفسهم الطرف الوحيد الذى ما يزال يقاتل اسرائيل ولذلك اعتقدوا أن لهم الحق فى تلقى معاملة خاصة وفى القيام بدور أسـمى من ذلك الذى يقوم به الأردنيـون الآخرون أو العرب الآخرون ومن المتناقضات ان اسرائيل ساهمت الى حد كبير فى خلق حركة المقاومة بما أتبعته من سياسة بصفة منتظمة تتمثل فى مبالغتها فى رد الفعل مثلما حدث أحيانا كثيرة فى جنوب لبنان وفى الأردن أيضا خلال السنوات التى تخللت الحرب . ففى منتصف عام ١٩٦٨ على سبيل المثال شنت أول غارة لها على مدينة انصلت الأردنية الصغيرة الجميلة انتقاما لعدد من عمليات الفدائيين فى الضفة الغربية . ومن المؤكد أنه كان لرجال العصابات مخيم يتخذ كقاعدة على مقربة من أنصلت ولكنهم لم يذهبوا الى هذه المدينة الا لشراء مؤونتهم أو لزيارة المقاهى ومع هذا قامت الطائرات الاسرائيلية يوم ٤ من أغسطس بقصف المكان وامطاره بقنابل النابالم مما أسفر عن مقتل ٢٨ شخصا واصابة ٨٢ آخرين بجراح وكان من بين المصابين الشيخ فهد الصباح شقيق ولى عهد الكويت والذى قاد من قبل القوات الكويتية فى الأردن ثم انضم بعد ذلك لفتح وكان الاعلان عن أن الشيخ فهد انضم للفدائيين حافزا آخر لحركة المقاومة .

ومع هذا كانت التوترات تتعاظم طيلة الوقت وكان فى وسع الكثيرين داخل الحكومة وخارجها رؤية مسار الأمور ولذلك فكثير ما بدأت مناقشات حامية الوطيس بين هؤلاء الذين أيدوا ما سمى «بتأميم حركة الفدائيين» أى تولى أعمالهم وتاييدها رسميا وبين من أيدوا وضع حد لها كلية ودفع أنصار السبيل الأول بأن الجيش الأردنى سيرى كيف أن العمليات موجهة فقط للأهداف العسكرية وانها موجهة داخل الأراضى التى تحتلها اسرائيل وبذلك تتضاءل الى حد أدنى المخاطرة نظريا بالتعرض لعملية انتقام أما المعسكر الاكثر واقعية الذى رغب فى قمع حركة الفدائيين كلية فقد حذر من أن تأييد رجال العصابات سيجعل من الأردن طرفا فى نشاطاتهم وسيثير هجمات مضادة هائلة وربما تقضى الى استئناف الحرب على أوسع نطاق وسيؤدى فى واقع الأمر الى خلق حكومة مزدوجة فى البلاد .

ومن سوء الحظ أنه لم تتبع أى من السياستين وبدلا من ذلك سمح للوضع بأن يزداد سوءا مع تقديم قادة الجيش فى بعض الأماكن عونا ضخما للفدائيين فى الوقت الذى كان فيه آخرون يمنعونهم من القيام بما يريدونه وفى المدن كان رجال البوليس يتجاهلون فى بعض الأحيان ما يحدث وأحيانا أخرى كانوا يتمسكون بحرفية القانون وكان الأمير الحسن ولى العهد وزعماء القبائل الذين اعتمدت عليهم السلالة الهاشمية بالاضافة الى ساسة الضفة الشرقية الذين أيدوهم فى ضرورة اتخاذ اجراء صارم وقد حاولوا فرض نفوذهم كلما أتيحت لهم فرصة لذلك . وقد لاحت احدى الفرص فى أواخر عام ١٩٦٨ حينما قيل أن مجموعة صغيرة تدعى كتائب النصر هاجمت سيارة بوليس . وشرعت قوات الأمن فى الهجوم على مقار المنظمة فى مخيم الوحدات بعمان وتفجر قتال عنيف وقتل أكثر من ثلاثين شخصا وأصيب عدد أكبر من ذلك كثيرا بجراح ووقعت أضرار كبيرة اذ قامت الدبابات بدوريات فى الشوارع كنذير كئيب بما سوف يحدث وكان هناك خطر حقيقى من أن يتسع نطاق القتال فيشمل جميع حركات المقاومة ولكن حيل دون تحقق ذلك لأن المسئولين فى منظمة التحرير الفلسطينية والزعماء الوطنيين جميعا دعوا الى وقف اطلاق النار كتعبير نادر عن الاعتدال وفى اذاعة فتح من القاهرة أدانت المنظمة الفلسطينية « المتسللين » الذين تسببوا فى خلق المتاعب وتحدث الملك حسين عن مجموعة مأجورة من العملاء وأعداء القضية العربية وأشار الى أنه يجوز أن تكون اسرائيل هى التى نظمت العملية واعتقد رئيس الوزراء بهجت التلهونى على نحو أكثر واقعية أن مثيرى المتاعب جاءوا من سوريا وأيا كان المسئول عن هذه الحادثة التى ربما كانت أيضا من اعداد رجال

المخابرات الأردنية فقد كانت سابقة بعدة حوادث تالية ، وأدت الى عقد اتفاق بين الفدائيين والحكومة وبمقتضى هذا الاتفاق الذى كان أشبه بمعاهدة بين دول مستقلة اكثر من كونه شيئا استقر عليه الرأى بين الحكومة والمحكومين أصبح من غير المسموح به للفدائيين ارتداء زى الميدان او ان يحملوا أسلحة فى المدن او بتفتيش السيارات أو بتسجيل أسماء الرجال العاملين فى الجيش الأردنى ومنحت الحكومة الفدائيين بدورها حرية القيام بعمليات فدائية والسيطرة على قواعدهم .

ولم يراع الفدائيون القيود المفروضة عليهم الا قليلا وكانت عمان فى ذلك الوقت أشبه بمعسكر مسلح منها فى عاصمة دولة . اذ كانت عربات الجيب المحملة بالفدائيين تجوب الشوارع ونفيرها يدوى فى الآذان وركابها يلوحون بلا مبالاة ببنادق الكلاشينكوا وبالمدافع الآلية فى وجوه المارة . وكان الجنود من البدو الذين يقومون بالحراسة فى عدة نقاط رئيسية يرقبون ما يجرى وكان حسهم قد تبلد على الرغم من أن الشواهد أثبتت بسرعة أنهم كانوا مرتاحين لما يرونه وظل رجال العصابات يقومون بتفتيش السيارات وفحص الوثائق فى نقاط التفتيش بعمان أو فى الطريق الى وادى الأردن وجرت فى مقار الجماعات المتعددة اجتماعات ومؤتمرات ومناقشات مستمرة مع اتخاذ الحراس المسلحين أماكنهم على نحو ظاهر ومع استعراض الأسلحة والذخيرة بطريقة ملفتة للأنظار . وكان هذا الوضع لا يمكن أن يستمر طويلا مثلما أدرك الملك ذلك ومن ثم فقد أخذ استعداداته وطرد الوزراء الموالين للفدائيين وأعاد تعيين خاله رسول الكيلانى رئيسا للمخابرات ذات المنصب الرئيسى فى النظام الأردنى .

وأتيحت فرصة زمنية قصيرة لكى تلتقط الحكومة الأردنية أنفاسها حينما بدأ الفدائيون التناحر بعضهم مع بعض واطلاق جماعات مختلفة الرصاص فى القطاعات التى تسيطر عليها فى المخيمات المتعددة ولكن فترة الهدوء المؤقت كانت قصيرة وعلى الرغم من أن الملك حسين أجرى محادثات مع ياسر عرفات زعيم منظمة فتح بعد توليه رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية بفترة وجيزة فقد كان واضحا ان ثمة مواجهة أكيدة ستحدث ومع هذا بذل الملك كل ما أوتى من جهد لتجنب ذلك بل أنه بدا أحيانا من الضعف والتردد بحيث يعرض مركزه للخطر . وقام بتعيين رئيس وزراء آخر عبد المنعم الرفاعى المعروف بموقفه الموالى للفلسطينيين واشترك فى حوار متصل مع عرفات وغيره من الزعماء المعتدلين وكان الأشخاص الوحيدون الذين رفض الملك حسين بحزم الاجتماع بهم رجال من أمثال الدكتور جورج حبش ونايف حواتمه زعماء المنظمات الأشد تطرفا . ولكنه رحب بالاجتماع بالآخرين جميعا واستمرت المحادثات والمفاوضات بلا انقطاع

ولكنها لم تتمخض عن شيء ما اذ واصل الفدائيون القيام بعملياتهم وظلوا يجوبون شوارع عمان زهوا واختيالا مع أدنى حد من المراعاة أو بالأحرى عدم مراعاة قوانين البلاد كلية بينما زادت اسرائيل الأمور سوءا بعنف ردها على هجمات رجال العصابات . وقصفت الطائرات الاسرائيلية النفاثة قناة الغور الشرقية مرتين ، تلك القناة الحيوية التى تحمل مياه نهر اليرموك لمسافة ٩٦ ميلا الى حقول وادى الأردن الشمالى وفى كل مرة كانت تعوق عملية اصلاح ما اتلفته باطلاقها النيران .

ومما أضاف الى أعباء الملك أن ثمة شعورا بالخوف ظل قائما فيما يتعلق بدور وعمل فرقتين عربيتين فى الأردن لكل من العراق وسوريا اذ كانت للعراق قوة قوامها نحو ١٥ ألف جندى كما أرسلت سوريا وحدات من المدفعية قادرة على قصف أهداف بعيدة فى المنطقة التى تسيطر عليها اسرائيل ولم يكن التهديد الذى يشكله السوريون كبيرا وقد حرص الجيش الأردنى على تغطية مواقعهم ولكن الوحدات العراقية كانت مواقفها وتصرفاتها مختلفة فلو أنهم شاؤا مساندة الفدائيين فى أى اشتباك مع الحكومة لأمكنهم الحاق الخراب بالبلاد . وفى بغداد نشر مجلس قيادة الثورة بيانا يطلق فيه على الفدائيين اسم « قوة ثورية حقيقية » ولم يعد فى الامكان اعتمادهم على الجيش العراقى اينما كان موقعه لأن الجيش ينتمى الى الأمة العربية بأسرها ، ولم تكن الأردن فيما يبدو فى هذا الصدد جزءا من هذه الأمة .

وتمكن الأردنيون والفلسطينيون على نحو ما من عبور عام ١٩٦٩ بدون أن يقع أى اشتباك كبير الى ان اثارت تنظيمات جديدة نشرتها الحكومة فى مستهل عام ١٩٧٠ رد فعل مرير من جانب الفدائيين وتجدد القتال . وقد صدرت القيود التى فرضتها الحكومة الأردنية على حمل وتخزين أسلحة بعد عودة الملك حسين مباشرة من اجتماع ماسمى « بدول الجبهة الخمس » فى القاهرة بهدف حمل الفدائيين على ما يبدو على الاعتقاد بأن حكومة الأردن تلقى تأييد الرئيس ناصر فى محاولاتها الحد من نشاطاتهم . ورفضت جماعات رجال العصابات الاثنتى عشرة أو نحو ذلك العاملة فى الأردن الموافقة على المرسوم وقتل نحو ثلاثين شخصا أثناء محاولة رجال الأمن تطبيقه ثم دعا الفدائيين الى الغاء الاجراءات وانسحاب وحدات الجيش الأردنى من المدن وانهاء العمليات العسكرية ضد الفدائيين والحصول على الحق فى تسليح الجماهير العربية وتراجع الملك بعد أن أخذته الدهشة فيما بدا من الموقف المتحد للفدائيين وقال ان هذه الاجراءات ليست مواجهة ضد الفدائيين وأنها على أى حال مجرد تذكرة بالقوانين والتنظيمات القائمة . وأشار حسين الى أن الفدائيين « الشرفاء » يؤيدون هدفه الخاص

بفرض القانون والنظام فى المدن وأن بعض الجماعات الصغيرة هى التى اثارت المتاعب وكانت هذه محاولة لبث بذور الخلاف ولكن الملك فشل فى تحطيم الجبهة المتحدة ضده على الرغم أنه حقق ما اراد بخصوص نقطتين فى اتفاق جديد وقع عليه ياسر عرفات فى أواخر شهر فبراير وقضى الاتفاق الجديد بحظر اطلاق النيران فى المدن وأمر رجال العصابات بعدم استخدام عضويتهم فى أى منظمة لتحقيق كسب شخصى . اذ كان من المألوف فى عمان فى هذه الفترة أن يقوم الشباب الذين يرتدون أزياء داكنة اللون بجمع الأموال لصالح حركة المقاومة ويحملون فى أيديهم صندوقا لجمع التبرعات رغم أنف نزلاء الفنادق فى الوقت الذى يلوحون فيه ببندقية فى اليد الأخرى وحققت عملية جمع التبرعات مرتين يوميا نجاحا كبيرا .

وفى مقابل تأكيدات رجال العصابات للملك بفرض انضباط أفضل وانهاء « عمليات الاستفزاز » وافق على استبعاد الكيلانى من منصبه فى المخابرات الذى تردد أنه استغله لاثارة المتاعب بهدف خلق مواجهة نهائية مع الفلسطينيين كما وافق أيضا على السماح لحركة المقاومة بحراسة نفسها ثم حدث فى شهر ابريل أن أبدى الفدائيون مظهرا جديدا لقواتهم حينما قاموا بتحويل مظاهرة سلمية احتجاجا على زيارة مساعد وزير الخارجية الأمريكية جوزيف سيسكو الى عملية شغب عنيفة مناهضة للأمريكيين واقتحم نحو عشرة آلاف شخص سفارة الولايات المتحدة فى عمان وأحرقوا المركز الثقافى وهكذا اضطر سيسكو الى الغاء زيارته وقد استبد الغضب بالملك من جراء اعتقاد أمريكا الواضح أن الحكومة الأردنية لا تسيطر بصورة كاملة على البلاد وأنها عجزت عن ضمان أمن أى زائر ودفعه هذا الى أن يأمر باستدعاء السفير الأمريكى كما شعر بمهانة أيضا نتيجة تلقى القصر الملكى بعض الأحاديث التليفونية الصريحة ابان أعمال الشغب .

واندلع القتال من جديد فى شهر يونيو وأسرت الجبهة الشعبية نحو ثمانين شخصا كانوا ينزلون بفندق انتركونتيننتال وهددت بتفجير قنابل وضعوها فى الطابق الأردنى ما لم يتوقف الجيش عن قصف معاقل الفدائيين فى مخيمات اللاجئين حول المدينة . واستمرت المعارك طيلة أسبوع مع اصابة كلا الجانبين بخسائر فادحة فى الأرواح بالاضافة الى مقتل عدد من المدنيين من بينهم أجانب الى أن تم التوصل الى اتفاق آخر بين الملك وعرفات وتلا هذا اجراء تغيير آخر للحكومة وابعاد الشريف ناصر بن جميل عن منصب قائد الجيش وكانت هذه المحاولات كلها لاسترداد عطف الفدائيين ولكن هذا لم يكن كافيا اذ لم يكن لدى رجال العصابات أدنى استعداد لقبول سلطة الحكومة بأى شكل من الأشكال وكانوا يعتبرون أنفسهم دولة منفصلة وان لم يكن بالمسئوليات التى

يفرضها وضع الدولة . وكانوا يريدون أن يفعلوا ما يريدون وحينما يريدون وحينما يريدون وكان بعضهم وأبرزهم أعضاء الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية الشعبية حريصين على الاطاحة بالسلالة الهاشمية واقامة دولة « ثورية » في الأردن حرصهم على استعادة فلسطين .

ولم يكن من الممكن أن تستمر الأمور على هذا المنوال من يوم لآخر مع اندلاع لهيب القتال فى أجزاء عدة فى البلاد وقيام الفدائيين بزيهم الرسمي بسرقات مسلحة واطلاق النيران بصفة مستمرة وعمليات خرق القانون بصفة عامة بصورة تكاد تكون فوضوية . وأعد الملك عدته للقيام بعمل وبهدوء تحركت الوحدات المدرعة على مقربة من عمان وأعدت المواقع وتم جلب قوات اضافية وحينما شهد الفدائيون ما يجرى أدركوا أن الملك يستعد فى النهاية للمواجهة وأعلنوا بصوت عال ان ثمة محاولة وشيكة للتضحية بهم مع تجاهل عجزهم عن السيطرة على رجالهم حتى اذا رغبوا فى ذلك وجاء فى بيان لمنظمة فتح اذا كانت الحكومة ترغب فى مواجهة فسوف تضطر ثورتنا الى القيام بعمل ما ولكن هذه المواجهة ستكون الأخيرة وستحدد جماهيرنا الثورية المسلحة النتيجة : « النصر الحتمى » .

وجاءت بداية النهاية فى الأول من شهر سبتمبر فقد كان الملك حسين يتجه بسيارته من قصر الحمراء خارج المدينة الى المطار لمقابلة ابنته عليا ترافقه سيارات جيب محملة بقوات خاصة ورجال أمن فى ست عربات وبينما الموكب يتجه الى طريق المطار الواقع وراء قصر بسمان وسط عمان اذا بصواريخ تنطلق من التل على الجانب الآخر . ونجا الملك من محاولة اغتياله مثلما نجا من عدة محاولات سابقة ولكن هذا الهجوم وضع نهاية لأى محاولة حقيقية من جانب الحكومة الأردنية للتعايش مع الفلسطينيين وكانت هى الحرب منذ ذلك الحين فصاعدا . ومع هذا لم يكن هذا قرارا اتخذه الملك من جانبه وحده فالفدائيون المسئولون عن اطلاق الرصاص على موكب الملك كانوا يعرفون ما يعملون وراودهم الأمل فى اثارة رد الفعل الذى تحقق لهم لأنهم كانوا رجال نايف حواتمة زعيم الجبهة الشعبية الديمقراطية ومن بين تعاليم فلسفتهم أنه يتعين الاطاحة بالملك لقد ساورهم الاعتقاد بأنه لا يمكنهم أن يأملوا فى مواصلة الكفاح من أجل استعادة فلسطين الا اذا أطاحوا بنظام الحكم الأردنى وأقاموا دولتهم فى الأردن .

ولكى يوضح رجال العصابات بجلاء ان هذا لم يكن مجرد تحرك للكر والفر قامت به عصابة صغيرة من اليائسين المنشقين فقد قاموا بعملية أخرى

فى نفس الوقت الذى كانوا يهاجمون فيه الملك . اذ قامت مجموعة أخرى على مسافة تزيد قليلا عن الفى ياردة من موقع العملية الأولى بفتح نيران مدافع الهاون على مطار عمان مما أسفر عن مقتل مهندس أرضى لبنانى واصابة احدى طائرات شركة طيران عالية بأضرار فادحة . ورد الجيش على ذلك الهجوم بفتحه نيران المدفعية على مواقع الفدائيين فى المخيمات مما أسفر بالتأكيد عن مقتل عدد من المدنيين وان كان أقل بكثير مما زعمه رجال العصابات ثم وقع بعد ذلك حادث الاختطاف الجماعى الذى نفذته الجبهة الشعبية فقد حاول الفدائيون اختطاف طائرة تابعة لشركة العال فى رحلة لها الى لندن ولكن حرس الطائرة منعوهم من أن يفعلوا هذا وقتلوا الرجل المسئول عن هذا باتريك ارجويللو والقوا القبض على شريكته بعد ان حصل مقدما على مبلغ خمسة آلاف جنيه استرلينى ثمنا لهذه العملية بينما كانت ليلى خالد فتاة فلسطينية مخلصة للقضية وان كانت الرؤيا أمامها مشوشة وقد اشتركت قبل ذلك فى عملية اختطاف ناجحة لطائرة تابعة لشركة الخطوط العالمية واتجهت بها الى دمشق وفى الآونة ذاتها التى تجرى فيها محاولة اختطاف طائرة شركة العال تم اختطاف طائرتين احداهما تابعة لشركة الخطوط السويسرية والأخرى تابعة لشركة الخطوط العالمية وأرغمت على الاتجاه الى غار خانة ذلك القطاع النائى من الصحراء شمال عمان المعروف باسم مطار داوسون نسبة لطيار بريطانى كان أول من استعمله . وأعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين انها ستنسف الطائرتين ومن فيهما من ركاب اذا لم يتم اطلاق سراح سبعة من الفدائيين المحتجزين فى أوربا بالاضافة الى اطلاق سراح عدد كبير آخر مسجون فى اسرائيل وكدلالة على نواياهم قاموا على نحو مختال بزرع الغام حول الطائرتين من جميع الجهات .

وفى مطار داوسون حيث هبطت الطائرتان بمعاونة الضوء الكاشف لسيارة لتحديد ممر الهبوط كان الفدائيون من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يحرسون ركاب الطائرة وكان يحيط بهم بدورهم أفراد وحدة أردنية مدرعة الى ان أرغم الفدائيون فى الصباح التالى لحادث الاختطاف الأردنيين على التراجع و كانت هذه اهانة أخرى محسوبة وخطورة نحو الحرب التى بدات تلوح نذرها . وصرح الفدائيون بأنهم سينسفون الطائرة فى التو واللحظة اذا لم ينسحب القائد الأردنى مسافة سبعة كيلو مترات الى الوراء بدلا من ذلك الحصار الذى ضربه حول الطائرتين على مسافة ٥٠ مترا وانسحبت الدبابات والعربات نصف المجنزرة وسط ستار من الرمال الحمراء وتراجع قائدها ببطء وهو يشعر بالمرارة لأنه انهزم قبل أن يبدأ .

واحدث تصرف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين انقساما فى صفوف حركة المقاومة لأنه بالرغم من ان الكثيرين راوا فى عمليات اختطاف الطائرات تعبيرا رائعا عن قدرات الفدائيين ووسيلة ملائمة لعرض قضية فلسطين أمام انظار العالم اعتبرها آخرون وصمة عار وتصرفا سيضر أكثر مما ينفع وكان ياسر عرفات من هذا الفريق الأخير على الرغم من أنه حاول كالعادة اتخاذ موقف وسط والتوصل الى اجماع فى الراى . ونجم عن ذلك انه لم يستطع ممارسة سلطانه وتركت حرية التصرف للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

وشارك الملك حسين عرفات رايه فى المسالة برمتها بينما كان من الطبيعى ان شعوره حيالها اكثر عمقا لأنه لم يعتبرها وصمة عار فى جبين الفلسطينيين والعرب فحسب ولكنها ايضا اهانة بالغة له شخصيا . فقد استغل الفدائيون بلاده مرة اخرى لتحقيق اغراضهم وليفعلوا ما بدا لهم فى دولة ذات سيادة . ومع ان الموقف كان يتجاوز قدرة الملك على تقبله لكنه لم يكن هناك ما يستطيع عمله فرجاله قد احاطوا بالطائرتين ولكنه لم يكن فى وضع يسمح له بالتفاوض مع مختطفى الطائرة وهى مهمة تكفلت بها الحكومات الغربية من خلال الصليب الأحمر . ومما اضيف الى شعوره بالمهانة ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قامت عقب عملية اختطاف الطائرتين بثلاثة ايام باختطاف طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية لكى تكون لديها رهائن تستطيع عن طريقهم فرض اطلاق سراح ليلى خالد المحتجزة فى احد سجون لندن وهبطوا بالطائرة مرة ثانية فى مطار داوسون الذى اعيدت تسميته بمطار الثورة . وكان المختطفون واثقين تماما من نجاحهم فى مهمتهم مما جعلهم يعدون مقدما أختام كاوتشوك للتوقيع بها على « تأشيرات سفر » لركاب الطائرات التى استولوا عليها . وهكذا استخدموا شكليات الدولة داخل الدولة بالاضافة الى تصرفهم دون ان يولوا اى اعتبار للقانون .

وشعر العشرون الف جندى من البدو فى الجيش الأردنى بنفس المهانة التى شعر بها ملكهم . وبدأ عدد كبير منهم يتولى بنفسه تنفيذ القانون بمهاجمة رجال العصابات وقواعدهم حينما وجدوا . وحاول الملك منعهم وظل يبحث عن امثل الطرق التى يمكنه اتباعها وهو فى وضع يائس داخل جدران قصره خارج عمان حيث ادرك من المحاولات الأخرى التى تعرض لها انه يكون من الخطورة البالغة عليه أن يتخذ طريقه الى مكتبه المعتاد فى قصر بسمان فى المدينة وكانت كل النصائح لا تخرج عن منطوق واحد وهو : اقض على رجال العصابات قبل ان يقضوا عليك ، وهكذا قال له أفراد عائلته وقادة جيشه . ومع هذا ظل الملك متردداً فقد كان يعلم رد الفعل الذى ستثيره أى محاولة سافرة لسحق

رجال العصابات فى العالم العربى وكان يعنى النتائج السياسية المترتبة على مثل هذه الخطوة بوضوح اكثر مما كان يعيها مستشاروه العسكريون او اقرباؤه وظل يامل فى ان يبقى على بعض خطوط الاتصال مفتوحة مع رجال العصابات « الشرفاء » ، وكان يعنى بذلك رجال منظمة فتح ، ولكنه لم يكن يقصد بالتاكيد رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اوجماعات مماثلة وفى الوقت نفسه كانت هناك صعوبات عملية تعترض سبيل التصرف لأن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانت ما تزال تحتجز ركاب الطائرات الثلاث التى تم الاستيلاء عليها وظلوا يحتجزونهم عدة ايام وسط الصحراء وقيظها نهارا وبرودتها ليلا كما كان الوضع مستحيلا داخل الطائرات بعد ان اصبح هواؤها فاسدا والحمامات مسدودة وفى ظل هذه الظروف قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعقد مؤتمر صحفى وسمحت لمجموعة من اسراها بالوقوف وسط الصحراء والتحدث مع مجموعة من الصحفيين والمصورين الذين حضروا المؤتمر وحينما تدافع المصورون لاتخاذ مواقع صالحة للتصوير صاح المتحدث باسم الجبهة المسئول عن الاجراءات المتبعة بسام ابو شريف من خلال مكبر الصوت الزموا اماكنكم ان لدى مقاتلينا أوامر باطلاق الرصاص اذا لم تستجيبوا للأوامر فلا تتجمهروا انكم غير متمدنين .

وبينما كان أبو شريف يستمتع بلحظة مجده القصير كان فى الامكان رؤية تلاميذ المدارس الانجليز يجلسون فى طائرة شركة الخطوط البحرية البريطانية بينما تم عزل الركاب اليهود الأكبر سنا فى مؤخرة شركة الخطوط العالمية .

وتعرضت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى ذلك الوقت لضغط متزايد من جانت عدة دوائر اذ أدان المصريون تصرفهم منذ البداية ودعت العراق الى اطلاق سراح الرهائن لأسباب انسانية بعد أن كانت قد اثنت على تصرف رجال العصابات فى البداية وصرحت اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية أيضا بأنه من الضرورى اطلاق سراح الركاب وذهبت الى حد وقف عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى اللجنة المركزية التى كانت تضم فى ذلك الحين منظمات الفدائيين العشرين الكبرى جميعا التى لها قواعد فى الأردن .

وما لم يدركه أحد خارج الأردن فى ذلك الوقت هو أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والطائرات المختطفة لم تكن وحدها هى الشغل الشاغل لحكومة عمان اذ أن التحركات الأولى نحو اقامة دولة فلسطينية كانت قد بدات بالفعل وكانت اهمية هذه التحركات بالغة لأنها تمنح شكلا للأمور التى كان الفدائيون يأملون فى التوصل اليها . وفى هذه المرة كانت الجبهة الديموقراطية بزعامة

خواتمة هى التى اقدمت على المبادرة حينما انشأت حكومة خاصة بها فى مدينة اربد الواقعة فى الشمال وهى « حكومة » طبقت بأمانة النموذج الماركسى مع تشكيل مكتب سياسى لادارة شئون المدينة وتوزيع السلطة المحلية على الكومبونات وجازف عضوان فى الجمعية الوطنية بحظهم مع رجال العصابات الذين طردوا رجال البوليس وبداوا فى بناء دفاعات حول هذه المدينة الاردنية الصغيرة البعيدة تماما عن خط المواجهة مع اسرائيل .

وكانت اربد المدينة التى يقطنها ١٥٠ الف نسمة تزدحم بأعداد كبيرة من الفلسطينيين الذين كانوا على اتم استعداد لتصديق ما قاله لهم رجال الجبهة الديموقراطية ومع هذا كان فى وسع رجال العصابات فى هذه المرة دعم دعاواهم عن وحشية الجيش الأردنى بتقديم دليل مؤثر على نحو مروع فقد جلبوا جثتين لفدائيين عاشا فى اربد وعرفهما الكثيرون . وكانت اعين الرجلين قد انتزعت وايديهما مقيدة بأمعائهما . وكان المتهم هو الجنود البدو طبقا لما قالته الجبهة الديموقراطية واجتاحت الجماهير لما رأته وللخطب النارية التى القاها مثيرو الشغب مما جعل حشدا من آلاف المتظاهرين يقتحمون مركز البوليس بينما احتل آخرون مركز الحامية الصغيرة الذى جلا عنه الجنود حينما راوا ما يحدث . ثم أنشأوا لجانا شعبية وسرعان ما عين شخص أسمه أبو القصى نفسه فى منصبه المفوض الرئيسى وقد امكنه بعد ذلك بقليل وبما لديه من مقدرة بأن ينشىء محكمة ثورية أصدرت احكامها بالاعدام على تسعة ضباط جيش . وغادر الجميع المدينة التى تحولت فى غضون أسبوعين الى ما وصفه احد المدافعين عنها بزهو « أول دولة عسكرية سوفيتية » ولو تحقق النجاح لرجال الجبهة الديموقراطية لأصبحت اربد نموذجا يحتذى بالنسبة للبلاد كلها .

واخذ الفدائيون يستعدون للحرب فى مخيمات عمان وفى الزرقا وعجلون وجرش ولم يكف اكثرهم تطرفا من امثال حبش وحواتمه وأنصارهما عن القول « بأن طريق الثورة العربية يمر عبر عمان » . وقد أوضحوا بجلاء شديد انهم على وشك وضع هذا الأمر موضع التنفيذ فى نفس الوقت الذى كان الملك يحاول فيه اتخاذ قراره وبينما كان رئيس وزرائه عبد المنعم الرفاعى ما يزال يعتقد ان فى وسعه انقاذ شىء ما من الحطام . وبدا ان الرفاعى لا تصله صورة حقيقية عما يجرى فى بلاده لانه واصل التفاوض مع ياسر عرفات الذى كانت أمامه فرصة ضعيفة فى ذلك الحين مما لا يسمح له بممارسة سلطانه شأنه شأن الملك حسين تماما ومع هذا توصل الرفاعى وعرفات فى ١٥ من سبتمبر الى اتفاق نهائى « حمله رئيس الوزراء الى الملك للحصول على موافقته وفى قصر الحمراء

اقام الملك بدراسة الوثيقة بدون أن يبدو أى انطباع ثم قال لرئيس وزرائه انه سيدرسها بعناية ويطلعه على رأيه بعد ذلك وحالما غادر عبد المنعم الرفاعى القصر دخله ثلاثة من كبار العسكريين هم زيد بن شاكر قائد الفيالق المدرعة واثنان من كبار ضباطه . وكان الرجال الثلاثة يحملون مدافعهم الرشاشة على اكتافهم ويتمنطقون بحزام مغلق به مسدس داخل جراب على خلاف العادة وما يسمح به البروتوكول وكان هناك بضع مئات من القوات ينتظرون خارج القصر لمرافقة زعمائهم وهم يركبون عربات مدرعة ونصف مجنزرة .

ولابد من ان الملك قد استعاد فى ذهنه حادثا وقع قبل ذلك ببضعة ايام فقد نما الى علمه ان هناك طابورا من القوات المسلحة يتحرك فى اتجاه عمان مخالفا الأوامر الصريحة ولذلك ارسل شقيقه الأمير محمد ليأمرهم بالعودة ولكنهم رفضوا الخضوع لأوامر الأمير ومن ثم اضطر حسين الى الذهاب اليهم بنفسه وبعد الكثير من الحديث العنيف والجدل امكنه اقناع الرجال بالعودة الى قاعدتهم وانتظار الأوامر . وحينما هموا بالعودة بسياراتهم وقد تجهمت وجوههم لاحظ الملك ان هناك صديرية للثديين ترفرف من فوق هوائى جهاز الاستقبال فى احدى الدبابات وتساءل لماذا يرتفع هذا ؟ واجابه احد قادة الدبابات الشبان من البدو لانك حولتنا الى نسوة » .

ولابد من ان الملك قد ادرك ساعة ئذ ذلك اليوم نفسه وهو قابع فى قصر الحمراء أن الوقت قد حان لاتخاذ قراره وطبقا لما قاله أحد المعاونين بالقصر الذى كان موجودا به فى ذلك الوقت فقد أوضحوا للملك وان لم يكن على نحو سافر بانه اذا كان الملك يشعر بعجزه عن اعطاء الأوامر التى ينتظرها الجيش فهناك آخرون يمكنهم اعطاء هذه الأوامر وكان هناك احتمال حقيقى هذه المرة بانه من الممكن ان يحل آخر محل الملك . ولم يكن سيرغم على التخلى عن عرشه اذا كان بالامكان الابقاء عليه ولكنه لو لم يكن قد اتخذ قراره بالقتال لكان زيد ابن شاكر أو الشريف ناصر قد أعلن نفسه وصيا على العرش نظرا لمرض مؤقت الم بالملك ثم حاول اقناع الحسن ولى العهد الصارم بتولى العرش مكانه .

ولكن لم يكن أى من هذه الأشياء ضروريا آنئذ اذ ان الملك بعد أن شهد تطور الأحداث وحالة الفوضى التى شاعت فى البلاد اقتنع فى النهاية بانه لا سبيل امامه سوى القتال . وعقد اجتماعا عاجلا دعا اليه اقرب مستشاريه وهم رجال حملوا اسم المستشارين الخصوصيين وأقاموا فى القصر حتى يكونوا على مقربة منه دوما وكان على رأسهم وصفى التل رئيس الوزراء السابق واللاحق الذى سيفقد حياته كنتيجة لأحداث الأيام القلائل التى تلت ذلك

الأجتماع مباشرة وكان زيد الرفاعى رفيق الصبا للملك والذى اصبح رئيس… الديوان الملكى احد المتشددين الآخرين المقيمين بالقصر . وكانوا فى انتظار لحظ… العمل واستعدوا لهذه اللحظة مع كبار ضباط الجيش الذين ارغموا الملك ع… اتخاذ قراره وتم فعلا اختيار اسماء الشخصيات التى ستشكل منها الحكو… العسكرى وأعدت القرارات التى ستترجم النوايا الى أفعال .

وكانت الخطوة الأولى هى تعيين رئيس وزراء جديد وقد بدا فى البداي… انه من المستبعد اختيار هذا الرجل لشغل ذلك المنصب . فقد كان محمد داو… العسكرى الطويل القامة الأشيب الراس والذى شغل من قبل منصب كب… ممثلى الأردن فى لجنة الهدنة المشتركة فلسطينى من القدس صرح ذات مر… بانه سيتفهم تماما وسيوافق على انضمام ابنه للفدائيين . وكان المقصود بطبيعة الحال ان لا يكون هذا الرجل العسكرى الرقيق المهذب اكثر من مجرد رئيس وزراء صورى وكان الهدف من وجوده هو استغلال خلفيته الفلسطينية للقضاء على فعالية النقد الذى سيوجه للتحركات التى توشك البلاد على مواجهتها وكان من المتوقع ان يكون لهذا الاختيار اثره لو امكن للجيش الأردنى ان يفعل ما يشعر به زعماؤه وان يقضى على الفلسطينيين خلال يومين ولكن ثبت ان هذا الاختيار العشوائى لداود رئيسا للوزراء قد قصر من أجل هذا الرجل المسكين ودفعه الى انهاء حياته بماساة .

وهكذا بدات العملية ولم يكن هناك ثمة ما يحول دون هذه المواجهة النهائية التى كانت تختمر منذ فترة جد طويلة . وظل راديو عمان يذيع المرسوم اثر المرسوم بتوقيع المشير حابس المجالى الحاكم العسكرى للبلاد الذى عين حديثا وكان يسيطر سيطرة فعلية على البلاد من خلال التطبيق المشدد للأحكام العرفية وبينما كان صوت المذيع الخالى من الانفعال يعلن عن الاجراءات التى ستتخذ شرعت الوحدات المدرعة التى تحركت فعلا من الحدود الى داخل البلاد فى التقدم نحو عمان . واتخذت القوات مواقعها حول محطة الاذاعة وحول فندق انتركونتيننتال الذى تحول نزلاؤه بعد ذلك بقليل الى أسرى مرة اخرى . وكان فى الامكان طوال يوم الأربعاء سماع صوت طلقات المدافع الثقيلة بينما كان الجيش يحاول اخماد مقاومة قواعد الفدائيين شمالى العاصمة وأخذ رجال العصابات أيضا استعداداتهم فى أرجاء البلاد كافة ووضعت المتاريس فى الشوارع واغلقت الشوارع الجانبية بأكوام من الأحجار الضخمة التى جمعت على عجل كما حفرت الخنادق .

وطارت آخر طائرة تغادر عمان قبل اندلاع القتال على أوسع نطاق فى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم . وكان من بين ركابها المتحدث الرئيسى

باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين غسان كنفانى الذى ادت سلسلة الأحداث التى بدات انذاك الى موته فيما بعد . وحالما غادرت الطائرة المطار سارع العاملون فيه الى التوجه الى منازلهم واتخذ رجال البوليس وقوات الجيش مواقعهم استعدادا للمعركة حول السور الخارجى للمطار فى الوقت الذى تحولت فيه عمان الى مدينة صامتة تنتظر مصيرها . ولم تمر فى الشوارع اى سيارة طيلة الليل ولكن الرجال المراقبين للأحداث كانوا متيقظين وعلى اهبة الاستعداد عند كل مفترق طريق وفى كل موقع ممتاز وهم على يقين من ان تصفية الحساب النهائية توشك ان تتحقق وكانوا مصيبين فيما ذهبوا اليه .

وبدا الجيش هجومه فجر يوم الخميس وتقدمت الدبابات الى الامام لاطلاق وابل من القذائف على مخيم الوحدات مقر قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وايضا على مكاتب الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين فى جبل عمان وكان من بين الخطوات الأولى الاستيلاء على مطابع جريدة الشرارة التى تصدرها الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين وتدميرها وفى البداية كان الضباط الاردنيون فى مقار الجيش يتبادلون النكات ويجلسون فى استرخاء مع ورود التقارير الاولى بما يفيد ان كل شيء يجرى كما كان متوقعا ثم حدث تغيير اذ ابدت المقاومة صلابة عود اكثر مما كان متوقعا مع تحول المنازل جميعها فى عدة مناطق الى معاقل للفدائيين وبرهن الجيش عن عجزه عن ان يفعل كل ما وعد به زعماؤه ولا ريب فى انه كان فى وسع الدبابات التحرك الى المخيمات واخضاع المدافعين عنها من مسافة مترين لكنه لم يجسر على ذلك لانه يعنى ترك الفدائيين يسيطرون على مناطق فى مؤخرته وكان سيفضى أيضا الى مذبحة أكبر وبدلا من ذلك تعين حمل المدافعين على الفرار من المنازل الواحد بعد الآخر او فى حالات متطرفة كانت المنازل تدك بطاقة واحدة من مدفع لا يرتد وكان هذا عملا صعبا يبعث على اليأس وبطيئا جدا بالنسبة للنجاح السريع الذى يعمل الجيش على تحقيقه لتجنب النتائج السياسية المترتبة على الأمر كله .

وعلى الرغم من انه بدا من الخارج أن التعزيزات كلها فى عمان فان الأحداث شمالى البلاد كانت أكثر أهمية اذ أعلن الفدائيون فيها عن انشاء مناطق محررة وتتضمن حرمن وعجلون وأربد والرمته وهذه المدينة الأخيرة ذات أهمية خاصة لانها تشرف على الطريق الرئيسى المفضى من سوريا الى داخل البلاد وكانت هذه المناطق المحررة تشمل المخيمات الرئيسية التى تضم ١٥ الف جندى عراقى فى البلاد ومن الطبيعى ان رجال العصابات راودهم الأمل بعد ذلك التأييد الشفهى القوى من جانب بغداد من أنه سيكون بوسعهم

دعوة هؤلاء الأصدقاء لتقديم المساعدة ولكن العراقيين لم يفعلوا اى شىء فى ذ[لك] الحين بالرغم من انه تعين على الأردنيين توزيع عدد كبير من دباباتهم حو[ل] القاعدة العراقية فى المفرق لمحاولة منعهم اذا قرروا الاشتراك فى خوض [...] المعمعة وثبت ان السوريين اكثر تشددا وقد اتصلوا فعلا ببغداد لعرض اقترا[ح] بتدخل عسكرى مشترك فى الأردن ومن حسن حظ حسين أن العراقي[ين] لم يوافقوا على ذلك لان عددا من التحذيرات وصلتهم من الدبلوماسيين فى العرا[ق] بما يفيد ان اى عمل منسق من هذا القبيل سيؤدى حتما الى تدخل اسرائي[ل] ومن المرجح الى حد كبير ان يستثير الأمريكيين ويحملهم على الرد عليه وتمثلت السياسة العراقية فى نهاية الأمر فى بذل ما فى وسعهم لمد يد المساعدة دون ان يتورطوا هم انفسهم فى الأمر ولذلك اتفقوا مع اللواء الأربعين الأردنى المدرع الذى كان فى واجهتهم على الانسحاب واعدوا سلسلة من الاشارات الضوئية الخفيفة التى تبين ما يفعلونه خلال فترة انسحابهم تحت جنح الظلام ولم تكن هذه الأنوار اشارة للأردنيين فقط بل كانت اشارة ايضا للسوريين المنتظرين الذين تحركوا لاحتلال المواقع التى جلا عنها العراقيون قبل أن يدرك الأردنيون ان الأمر جاوز مجرد الانسحاب الذى تم الترتيب له . وفى صباح يوم الأحد الموافق ٢٠ من سبتمبر وجد العميد عطا الله غاضب نفسه يواجه مجموعة ضخمة من المدرعات السورية .

وفى الوقت نفسه لم تتمخض بعد المباراة البطيئة اليائسة حول العاصمة عن انتصار حاسم وعزلت عمان عن العالم العربى واخذ الزعماء العرب يحثون باطراد على وقف اطلاق النار ونظرا الى تحركات القوات البحرية والبرية الروسية والأمريكية وتعبئة اسرائيل لقواتها على نحو ملفت للأنظار فقد بدا احتمال اشتعال الموقف بصفة عامة فى الشرق الأوسط احتمالا وشيكا وما من شك فى أن حسين ظن ان هذه هى نهاية مملكته ولذلك اصدر أوامره الى جميع نساء واطفال عائلته بالتوجه الى العقبة فى الجنوب وقال لقادة جيشه انه يتعين عليهم الاحتشاد حول عمان استعدادا لمعركة أخيرة اذا لحقت بهم الهزيمة فى الشمال نظرا لتاكده من هذا الأمر . وتحرك سلاحه الجوى الصغير المكون من طائرات من طراز هنتر من المفرق الى مطار معروف باسم « هده » بعد أن اطلقت القوات العراقية النيران على الطائرات العائدة من رحلاتها الاستطلاعية وكان هذا أسوأ الأيام التى شهدها حسين ، ومما زاده سوءا ذلك الفيض من الرسائل التى كان يبعث بها الرئيس ناصر وجميعها تنتقد بشدة تصرفات الملك وتطالبه على نحو امر وبصفة متزايدة بالسفر الى القاهرة لكى يحضر مؤتمر القمة الذى كان يعقده الزعيم المصرى . ولكن الملك كان حريصا فى هذه المرحلة

على دحر الغزو السورى باكثر من حرصه على رأب الصدع فى علاقاته بالعالم العربى ولذلك ارسل الى القاهرة بدلا منه رئيس وزرائه محمد داود وفى القاهرة لقى داود الهادىء استقبالا بالغ السوء ولم يتركه المصريون ينتظر فحسب بل القت عليه ابنته محاضرة علنية مهينة اتهمته فيها بخيانة الشعب الفلسطينى .

وقبع محمد داوود مكتئبا فى حجرته بفندق هيلتون النيل ثم أمضى ساعات فى كتابة خطاب طويل .

وكان ما تركه فى غرفته خطاب استقالته ثم غادرها ولجأ الى السفارة الليبية وطار الى طرابلس بعد ذلك ببضعة أيام ومات عام ١٩٧٢ كرجل محطم ارغمته مقتضيات احساسه بالواجب على مواجهة موقف مستحيل .

وفى عمان لم يترك التجاء محمد داوود الى السفارة الليبية أى أثر على الاطلاق نظرا لأن اليوم الذى بدأ بداية سيئة للغاية بالنسبة لحسين قد تحسن فجأة وفى الواقع كانت هذه هى نقطة التحول فى المعركة لأنه أمكن رد الهجوم المبدئى من جانب اللواء ٨٨ المدرع السورى ورفع هذا النجاح غير المتوقع الروح المعنوية للقوات الأردنية وأفسح لها الوقت الكافى لتحريك بعض وحدات المدفعية لاتخاذ مواقعها . ولكن القوات الأردنية لم تتمكن من صد الهجوم السورى المضاد الذى أعقب ذلك والذى اشتركت فيه أيضا أكثر من ٢٠٠ دبابة من اللواء ٩١ المدرع ومن فرقة الدبابات ١٥٢ المستقلة ولكن الأردنيين اصابوا المغيرين بخسائر مخيفة فى الأرواح وتمكنوا من التقهقر على نحو منظم الى خط دفاعى على طول سلسلة الجبال الممتدة جنوبا وشرقا من أربد . واقترحوا البقاء فى هذه المنطقة لأن الـ ١١٠ دبابة التى تبقت لدى قوات « غاصب » كانت هى الحماية الوحيدة المتوفرة الى أن ظهر عامل جديد : فبينما تم الاشتباك فى معركة ثانية فى اليوم التالى قطعت طائرات الهنتر الأردنية مسافة الخمسة والسبعين ميلا من مطار « هـ ٥ » بسرعة فائقة وبدأت تدمر الدبابات السورية باستخدام الصواريخ بدقة متناهية مما أسفر عن تدميرها الواحدة اثر الأخرى بلا أدنى مقاومة اذ كان الجدل والخلاف يسودان سوريا ورفض الفريق حافظ الأسد أن يدخل سلاحه الجوى المعركة ونجم عن ذلك وكان السلاح الجوى الأردنى كان يقوم بنزهة دون أن يلقى أى مقاومة .

ولكن النزهة التى لم تكن فى عمان فى هذا اليوم فقد كان القتال يدور من شارع الى شارع وفى مخيمات اللاجئين كان كل كوخ موقعا كامنا لأحد القناصة ولم تكن القوات المستخدمة من البدو قد تلقت تدريبا على خوض مثل هـذا

النوع من الحروب ولذلك لحقت بها خسائر كبيرة كما كان هناك دائما خطر قائم يتمثل فى ان الضباط أو الرجال أدركوا فجأة أنهم انما يطلقون الرصاص على أصدقاء لهم وأقارب وسرعان ما حولوا اتجاهاتهم • وقد حدث هذا بكل من الأردنيين والفلسطينيين ولكن الفدائيين هم الذين كسبوا العدد الأكبر من المجندين وأمكنهم بعد الحرب أن ينشئوا لواءا جديدا كاملا فى جيش التحرير الفلسطينى يتكون من أولئك الذين فروا من القوات الأردنية • وكان هذا الأمر يتعلق بالمستقبل وكان ما يعنى المرء حينئذاك أن حسين أخذ يحقق انتصارات فى الشمال الى درجة أن العقيد غاصب كان يستعد فى صباح يوم الأربعاء الموافق ٢٣ من سبتمبر لشن هجوم مضاد • وقبل أن ينبثق أول شعاع لفجر ذلك اليوم تسلق الجنود ظهر دباباتهم وحينما حلت ساعة الصفر تحركت المعدات وتقدمت الموجة الأولى ولكنهم لم يجدوا أحدا يهاجمونه فقد انسحب السوريون خلال الليلة الماضية وأمكن رؤيتهم فحسب وهم يقفلون عائدين من الطريق الذى جاءوا منه • وأصدر العقيد غاصب أوامره بتعقبهم بحذر ولكنها كانت هى النهاية لاى تهديد خطير من جهة الشمال • وبدا من الواضح أن السوريين ارغموا على الانسحاب وبعد ذلك لم يكن هناك احتمال فى اشتراكهم فى الحرب كذلك كانوا قد واجهوا معارك دموية مما قد يجعلهم يفكرون مرتين قبل استئناف العمليات • وخسروا فى المعركة أكثر من سبعين دبابة وعددا مماثلا من العربات • وكان هذا ثمنا باهظا مقابل عمل لم يجلب عليهم أى مكافأة من العالم العربى أو حتى من جانب الفدائيين الذين اعتبروه أبعد ما يكون عن جهد مخلص •

كذلك لم يكن الضغط كله واقعا على سوريا اذ لم يكف الزعماء العرب عن بذل جهودهم كافة لاقناع حسين أيضا بالتخلى عن الحرب وكان رئيس الأركان المصرى الفريق صادق قد طار قبل ذلك الى عمان لمحاولة التوسط فى الأمر ولكنه لم يحقق الا نجاحا ضئيلا • ثم وصل الى عمان وفد خول للسلطات أكبر مما كانت لصادق بكثير وعلى رأسه الرئيس السودانى النميرى وكان حسين قد شعر حين ذاك بقوة كافية للمطالبة بشروط صعبة : اذ طالب بموافقة الفدائيين على أربع نقاط هى :

١ — نقل رجال العصابات قواعدهم بعيدا عن المدن فى مقابل انسحاب الجيش أيضا •

٢ — ضرورة قصر نشاط رجال العصابات على منطقة الحدود مع اسرائيل •

٣ — يتم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعى الوحيدة لحركة الفدائيين •

٤ — ضرورة طاعة رجال العصابات للقوانين الأردنية •

وأمكن لحسين تقديم أربعة زعماء أسرى لرجال العصابات وافقوا على هذه الشروط على الرغم من انهم قالوا بعد ذلك : ان موافقتهم كانت بالاكراه وتحت التهديد • وحتى لو لم تكن كذلك فانها لم تغير من الأمر شيئا لان عرفات نفسه لم يستشر وسرعان ما تبرأ من الاتفاق الجديد • واستمر القتال مستمرا فى الوقت الذى عاد فيه الفريق النميرى الى القاهرة للتشاور ثانية مع الرئيس ناصر • وروع الاثنان من الصورة التى كوناها عما يحدث فى عمان وهى صورة مؤلفة من دخان ونيران ومعارك شاهدها الزعيم السودانى لفترة وجيزة وعن بعد ومن قصة مشوهة عن الأعداد الكبيرة من القتلى بثتها اذاعات رجال العصابات والافتقار الى وجود أى معلومات حقيقية عما يجرى نظرا لأن الاتصالات من عمان كانت ما تزال مستحيلة ولأن الصحفيين فى المدينة عجزوا عن الخروج من فنادقهم •

وعاد الفريق النميرى الى عمان فى ٢٤ من سبتمبر وأجرى مزيدا من المحادثات مع الملك حسين • وفى هذه المرة كان عرفات متلهفا أيضا لمقابلة بعثة السلام ووجه دعوة من خلال الاذاعة لكى تسعى لمقابلته فى المنزل الذى يقيم فيه فى جبل « ويبك » وتمكن الرئيس النميرى من التوجه الى هناك معرضا نفسه لمخاطرة كبرى وبعد أن أطلق عليه الجانبان النيران خلال رحلته وحصل على موافقة عرفات على وقف اطلاق النار الذى كانت الحاجة ماسة اليه • وعلى الرغم من أن الدبابات الأردنيـة لم تكن قد تسللت الى قلب المدينة وأن الفدائيين ظلوا صامدين فى أجزاء من اربد فقد كان اللواء الأربعون المدرع المنتصر قد أغلق الحدود الشمالية مع سوريا بحيث كان من المتعذر وصول أى تعزيزات أو امدادات للفدائيين من هذا الطريق • كذلك بدا من الواضح أنه اذا استمر القتال فسوف تستنفد قوى رجـال العصابات فى عمان تدريجيا نتيجة للثقل الكبير للقوة النارية للأردنيين بالمقارنة بالمعدات الخفيفة نسبيا التى كانت كل ما يملكونه •

وبعد الموافقة على الهدنة مباشرة خرج عرفات من مقره وقد حلق لحيته وكانت قد نمت وطالت وارتدى زى الدشداشه الطويل وغطاء الرأس الذى يرتديه المسئول الكويتى بدلا من الكوفية وزى العمل الذى يرتديه عادة • وبهذا التخفى الغريب وغير الضرورى على الأغلب استقل طائرة من مطار عمان وبرفقته أعضاء آخرون فى مهمة السلام فى طريقهم لحضور مؤتمر دعى الى انعقاده على عجل فى القاهرة • وفى هذا الاجتماع قدم عرفات تقريرا مروعا عما حدث

في عمان وفى بقية أجزاء الأردن زاعما أن نحوا من ٢٠ ألف شخص قد قتلوا وجرح آلاف آخرون وشرد مثلهم كما زعم ان المصابين ما يزالون يعانون من جراح لم تداوى ومن العطش والجوع . وكانت قصة مبالغا فيها للغاية . ولكن الرئيس ناصر وآخرون معه سلموا بصحتها . وفى اليوم التالى استخدم النميرى تقييم عرفات كأساس لما ساقه من وصف فى مؤتمره الصحفى الذى عقده . وفى عمان ادرك الملك حسين ومستشاروه المشـغولون بمحاولة دعم مواقعهم فى العاصمة وفى جميع أنحاء البلاد أنهم سيصبحون الأطراف المنبوذة من العالم العربى . ولذلك طار حسين على عجل الى القاهرة لمحاولة طرح قضيته .

ولم تكن هذه بالمهمة السهلة اذ كان معظم الزعماء العرب المجتمعين فى القاهرة مؤيدين للفدائيين ومعارضين للملك بشدة . واقترح العقيد القذافى القاء القبض عليه حالما بلغه أنه يتجه الى القاهرة وقال « أنه مجنون كما كان أبوه مجنونا . وهو يرثه فى هذا . وعائلته كلها مجانين فاحجزوه فى مستشفى الأمراض العقلية » . واحتج الملك فيصل على هذا القول واقترح ناصر وهو يبتسم دعوة الأطباء للكشف على الجميع وتطوع بأن يكون أول من يتم الكشف عليه ودمدم القذافى غاضبا ولكنه لم يتحدث عن هذه النقطة بعد ذلك .

ثم حينما وصل حسين جاء الدور على الملك فيصل كى يشعر بالانزعاج . اذ وجد نفسه يجلس بين حسين وعرفات وكان كلاهما يحمل مسدسا فى وسطه . وانتقل على عجل الى مكان آخر وظل يرقب الخصمين عن كثب أثناء المحادثات ليرى أى علامة على قرب وقوع مبارزة بالمسدسات على الطراز الغربى .

ولم تحدث أى مظاهرة مادية على استخدام العنف كما هى العادة حينما يبدأ العرب الحديث وسرعان ماحلت محل الأحاديث العاطفية المثيرة مناقشة حامية الوطيس بشأن التوصل الى اتفاق جديد بين الطرفين المتحاربين وتوقيع هدنة تحكم علاقتهم فى المستقبل . وتم التوصل الى اتفاق جديد بعد أكثر من ست ساعات وتبادل حسين وعرفات الأحضان بعد أن كانا أعداء الداء فى الصباح .

والواقع ان الاتفاق الجديد لم يكن مناسبا لحسين كذلك الاتفاق الذى طرحه الرئيس النميرى قبل ذلك بأربعة أيام لانه لم يصر على اطاعة الفدائيين للقانون الأردنى أو على ضرورة عدم تجاوز عملياتهم الحدود مع اسرائيل . ومع هذا فقد انتهى القتال واستغله الجيش بعد ذلك لانهاء الوجود الفدائى كله فى الأردن على الرغم من ان حسين أو عرفات لم يدركا ذلك آنئـذاك . ووصل

الى عمان فريق الاشراف على الهدنة بقيادة رئيس وزراء تونس الباهى الأدغم وتشكل الفريق من اثنتى عشرة دولة عربية بقيادة العقيد المصرى أحمد حلمى . وكانت مهمتهم كبيرة لأنه لم يكن من اليسير على كل من الجانبين نسيان الشعور بالمرارة الذى ساد الأيام العشرة التى استغرقتها مدة القتال . وظل رجال العصابات يحاولون الاستيلاء على مواقع الجيش أو البوليس المنعزلة مع سعى العسكريين الدائب للقضاء على مواقع الفدائيين متذرعين أحيانا بحجة اطلاق بضع رصاصات فى الهواء ترحيبا بعودة شخص ما لشن هجوم جديد .

وكان الوقت عصيبا وعلى الرغم من أن السلام عاد الى ربوع البـلاد فقد ادرك كل من زار الأردن خلال الأسابيع والأشهر التالية للحرب الأهلية مدى ضعف السلام . اذ كان الجنود ينتشرون فى كل مكان والمتاريس فى أماكنها فى الشوارع فى انحاء العاصمة كافة والحشود من القوات على استعداد للتحرك وكان من الواضح ان الفدائيين لا يعتبرون أنفسـهم قوة مهزومة وكانوا على استعداد للقيام بجولة أخرى اذا لم يسمح لهم بأن يفعلوا مابدا لهم . وكانت الشكوك مريرة لدى جميع الأطراف وثمة استقطاب واضح تماما للبلاد بين بدو وفلسطينيين . كذلك بدا واضحا ان الملك حسين كان ما يزال خاضعا لتأثير المتشددين فى عائلته وفى القيادة العسكرية وهى نقطة تأكدت حينما قام بتعيين وصفى التل على رأس حكومة مدنية لأن التل كان معروفا بأنه لعب دورا رئيسيا فى أحداث شهر سبتمبر وانه خصم لليساريين طيلة عمره ومن ثم فانه وضع الفدائيين فى قائمة اليســاريين ومن بين الخطـوات الأولى التى اتخـذها انه حدد موعدا نهائيا لتنفيذ احدى نقاط اتفاق القاهرة وهى : ضرورة مغادرة الفدائيين عمان ومدنا أخرى الى « مناطق مناسبة » عينتها الحكومة الأردنية لمعسكرات التدريب وقواعد الفدائيين وساورت الفدائيين الشـكوك وثبتت صحتها فيما بعد . فان ضباط الجيش الذين وقع عليهم الاختيار للعمل فى المناطق التى يسـمح لرجال العصـابات بالعمل منها انما اختيروا فى هـذه المناطق نفســها لكى يتيسر لهم شن هجـومهم بعيدا عن المراكز السـكانية المكتظة وليس لمصلحة الفدائيين . وبالرغم من هـذا فقد التزم الفدائيون بتطبيق الاتفاق حرفيا وكان فى الامكان مشاهدة سيارات النقل المحملة بالأسلحة والذخيرة والرجال تنسحب بعيدا عن عمان مع اقتراب الموعد النهائى . وأكد العقيد حلمى ان كل شئ يسير على ما يرام . وفرض رئيس الوزراء وصفى التل على الفور حظرا على حمل الأسلحة فى المدن وهو تحرك كان يستهدف شـل فعالية قوات الميليشيا التى كانت ما تزال نشيطة .

وقبل انتهاء العام كان الجيش الأردنى قد وجد مبررا للتحرك ضد الفدائيين المتمركزين فى جرش زاعما ان اتخاذهم مواقعهم فى المدينة ذاتها يعد خرقا للاتفاق وارغم رجال العصابات على الرحيل عنها وقتل فى هذه الأثناء ما يربو عن مائة منهم ولجأ الباقون الى معقلهم الأخير فى تلال عجلون وشن الجيش هجومه النهائى فى ١٣ من يوليو عام ١٩٧١ وكان هذا التحرك يستهدف فى الظاهر الاستيلاء على تلال رأس التينه ورأس العكر اللتين تسيطران على الطريق الرئيسى المفضى من جرش الى عجلون كما كان المقصود من الهجوم فى الواقع هو طرد الفدائيين من الأردن تماما . وقد حققت المحاولة نجاحا كاملا أو ليس أقل أسباب هذا النجاح أنه تم استخدام قوات البدو وأنهم لم يبدوا أى رحمة للفلسطينيين . وفى عدد كبير من الاشتباكات التى استمرت من ١٣ الى ١٩ من يوليو لم يتم اقتياد احد الى السجون وفى حالات أخرى لابد وأن الفدائيين ابتهلوا الى الله فقد كانوا ولا محاولة يتمنون أن يطلق عليهم الرصاص - وهرب عدد كبير من الفدائيين الى وادى الأردن وعبروا الحدود الى اسرائيل لتسليم أنفسهم بدلا من الاستسلام للجنود من البدو . وجاء فى نبأ من اسرائيل ان أكثر من ٨٠ شخصا عبروا الحدود . وبالرغم من هذا كله أسر الأردنيون ألفى فدائى على أقل تقدير وتم ترحيل عدد كبير منهم بعد ذلك وقتل مئات آخرون .

وطرح وصفى التل تصور الحكومة للموقف فى عمان بعد ذلك ببضعة أيام وقال ان ألفين من الفدائيين تقريبا يحتلون الجبال المطلة على طريق جرش وأن الطريق بين جرش وعجلون ذو أهمية للأغراض المدنية والعسكرية ولذلك بدأت المحادثات مع الفدائيين حتى يتم الاتفاق على مناطق جديدة يقيمون فيها بعيدا عن التسبب فى أى ازعاج للمواطنين أو للجيش أو لطرق المواصلات أو للزراعة .

وتم الاتفاق على منطقة مناسبة تماما للفدائيين ولاسيما فيما يختص بطرق الاتصال والامداد . ولكن الفدائيين استخدموا عنصر التسويف .

واستطرد رئيس الوزراء يقول « ثم بدأنا نلحظ أن الفدائيين يشرعون فى تحصين مواقعهم فى المناطق المفروض أنهم أخلوها . ومع بداية الشهر الحالى شرع الفدائيون فى الهجوم على قوافل الجيش والمسافرين . وبدأوا يقصفون طريق جرش - عجلون الحيوى يوميا تقريبا . واحتل الفدائيون بصورة كاملة المنطقة بأسرها التى تبلغ مساحتها ٨٥٠ كيلو مترا مربعا وعاش سكانها فى ظل الارهاب والوحشية . وتصاعدت عمليات التخريب والهجمات وبلغ متوسط القتلى يوميا ثلاثة أشخاص بين القوات المسلحة وخمسة بين

المدنيين . ولابد لى من ان أعترف بأن الحكومة اضطرت أحيانا لحجب التفاصيل والأرقام المحددة على نحو اكبر لهذه الهجمات حتى لا يستفز الجيش . وفى النهاية طلبنا من الفدائيين الجلاء عن تل التينه والعكر الرئيسيين . ولكن الفدائيين بدلا من ان يغادروا هذه المناطق شرعوا فى تعزيز مواقعهم هناك . وفى الساعات الأولى من يوم الثلاثاء تحركت قوات الجيش الى هناك وارغمتهم على الرحيل عن النقطتين . ولم يستغرق الأمر كله سوى بضع ساعات . ثم اتصلنا بالفدائيين وأخبرناهم بأن هذا مجرد نموذج لما نستطيع أن نفعله بهم . ثم طلبنا منهم مرة ثانية الانتقال الى المناطق التى تم الاتفاق عليها منذ شهرين . وبدلا من الاستجابة الى ذلك قرر الفدائيين توسع نطاق القتال . وقد أمضينا يوم الأربعاء كله ونحن نحاول اقناعهم . ثم أعلن ياسر عرفات الحرب علينا يوم الخميس وقد اصدر أوامره الى جميع الفدائيين بفتح نيرانهم على الجيش الأردنى وذلك من خلال رسالة وقعت فى أيدينا . وبدأت العملية فى ساعة متأخرة من يوم الخميس . اذ شنوا هجوما على مركز بوليس « اشتفينا » الذى يعتبر موقعا هاما لقربه من القيادة العامة للفرقة الثانية للجيش الأردنى . واضطر الجيش الى الرد عليهم والتصرف بسرعة ..

وكانت الصورة التى رسمها التل مزخرفة تماما ومقصودا بها الاستهلاك الخارجى والداخلى . وقد أدت الغرض منها : فهذه الهجمات الأخيرة من جانب الجيش كانت علامة النهاية للحركة الفدائية فى الأردن . فمنذ ذلك الوقت فصاعدا خلت البلاد من أى أثر لأى فدائى بل أنه حتى خلال حرب ١٩٧٣ لم يسمح لهم بالعودة وظلت فى الأردن احدى وحدات جيش التحرير الفلسطينى ولكنها مجموعة موالية للحكومة اختير ضباطها بعناية وهى موزعة كذلك بحرص وتخضع للمراقبة .

وتحولت عمان من أكثر مدن العالم العربى تسيبا الى أكثر مدنه امنا وفتحا للأبواب أمام كل راغب فى الدخول الى مكان آمن تماما يمكن للمواطنين فيه أن يتركوا أبواب دورهم بدون مزلاج فى الليل . وأفضل مدينة فى العالم تصلح لاختباء أى شخص حريص على أن يظل بمنأى عن أنظار الفلسطينيين . وفى النهاية أضحى الملك حسين الحاكم المطلق فى بلاده من الناحيتين الواقعية والنظرية . وتعين على الفلسطينيين أن يفعلوا ما يؤمرون به او أن يرحلوا واصبح الجيش هو القوة الوحيدة المرابطة على الحدود الطويلة مع اسرائيل. وفى واقع الأمر ان هذه الأيام السوداء من شهر سبتمبر والتى هبطت بمطامح الفدائيين الى أدنى نقطة قد أسهمت فى نجاح العرب عام ١٩٧٣ اذ أنه لو كان

قد سمح لرجال العصابات بأن يظلوا نشيطين فى وادى الأردن لتحركت اسرا...
ضدهم بلا ريب · ولو حدث هذا لوجد حسين ورجاله أنفسهم فى وض...
لا يسمح لهم بتشكيل التهديد الذى كان يصدر منهم فى حرب اكتوبر ، ...
يشغلون تشكيلا اسرائيليا كبيرا فى الضفة الغربية فى وقت كانت الحاجة ...
الى كل جندى فى سيناء أو الجولان شديدة ·

وتمخضت أحداث هذه الأيام اليائسة الأخيرة حول جرش وعجلون ...
١٩٧١ عن نتيجة أخرى · اذ أدت مباشرة الى مولد جماعة جديدة للفدائيـ...
أكثر تنظيما وشجاعة وكفاءة من أى تنظيم آخر سبقه · وكان رجال الملـ...
مسئولين عن القضاء على المقاومة الفلسطينية فى بلدهم ولكنهم كانوا مسئولـ...
أيضا عن انشاء هذا التنظيم المهلك « أيلول الأسود » ·

٥ – الفدائيون ومسعاهم من أجل سياسة محددة

ظهرت منظمة أيلول الأسود الى حيز الوجود نتيجة لمشاعر الكراهية واليأس التى أشاعتها فى النفوس تلك الوسائل القاسية التى تخلو من الرحمة التى اتبعها جنود الملك حسين ، ووصف البحث فى البداية بأنها « ليست أكثر من حالة ذهنية » ولم تعمر هذه المرحلة طويلا فسرعان ما اكتسبت المجموعة الجديدة رجالا ومالا وسلاحا وهدفا · وكان هدفها الأصلى هو الثأر ، فالرجال وكذلك السيدة الوحيدة الذين قاموا بتشكيل أيلول الأسود قاموا بذلك لاحياء ذكرى أبو على أياد الذى قتلته القوات الأردنية فى المعارك الأخيرة التى نشبت حول عجلون وللأخذ بثأر جميع الفدائيين الذين قضى عليهم رجال الملك بلا شفقة ابان هذه الأيام الأخيرة للوجود الفدائى فى الأردن ·

وكان أبو على اياد ، **واسمه الحقيقى محمد** مصطفى شاهين أحد الشخصيات العظيمة فى حركة المقاومة التى أشاعت الشعور بالثقة فى أنصاره وبثت مشاعر الخوف فى قلوب أعدائه وكان ضخم الجثة كعملاق حيث كان طوله يزيد عن ست أقدام أصلع الرأس له ضحكة مدوية وعلى احدى عينيه رقعة تغطيها وكان يطلق على نفسه « الرد الفلسطينى على ديان » وكان أحد كبار القادة العسكريين فى فتح وقد شغل فى النهاية منصب رئيس أركان عرفات · وكان فى وسعه مغادرة الأردن مع الزعيمين الكبيرين الآخرين ولكنه فضل البقاء والقتال الى جانب رجاله · وشوهد آخر مرة فى آخر يوم من حياته وهو يلقى بالقنابل اليدوية على القوات الأردنية المتقدمة بعد أن قتل عشرات من الفدائيين حوله تحت ساتر من نيران مدافع الهاون والمدفعية · وقد صرعه وابل من النيران · وحينما تفحص الضباط الأردنيين جثث القتلى من رجال العصابات تعرفوا عليه على الفور · وقد أسهم النموذج الذى ضربه وروحه المعنوية العالية وتفاؤله وشجاعته فى الابقاء على حركة المقاومة حية فى آخر معقل لها · وحتى يبرهن الأردنيون على أن كل شىء قد انتهى حملوا جسد أبو أياد على عربة نصف مجنزرة وجروها وسط قرى المنطقة كلها حيث كان ما يزال من المعتقد اختباء الفلسطينيين فيها وهم بهذا كانوا يأملون فى أن يثبط مشهده على هذا النحو من همة من تبقى من الفدائيين ويحملهم على الاستسلام وكان تقديرهم فى هذا مصيبا الى حد ما · ولكن هذا التصرف الوحشى كان له أثر آخر لم يضعوه فى حسابهم اذ سرعان ما انتقل خبر ما حدث الى بيروت حيث كان زعماء الفدائيين يحاولون تنظيم صفوفهم بعد طردهم من الأردن ، وعلى الرغم من انهم حاولوا

كتمان الخبر عن شقيقة ابو على اياد الا انه بلغها واقسمت ان تأخذ بثاره ود
جميع من راعهم المثل ضربه شقيقها وهو حى الى تخليد موته .

ووجد هذا النداء استجابة سريعة من جانب عدد كبير من الأعض
الشبان فى منظمة فتح الذين راعتهم الخلافات والتناحر على المناصب والا
الى الزعامة الفعالة بين الحرس القديم الذى يتزعم منظمتهم وعقدوا العزم
انشاء شبكتهم وكان هدفهم الوحيد من انشائها فى البداية هو الانتقام
الشخصيات البارزة فى الحكومة الأردنية الذين اعتقدوا أنها المسئولة عن مقت
ابو على أياد وعن القضاء على حركة رجال العصابات فى الأردن . ولم تك
لديهم اى أموال بل فقط بنادق الكلاشينكوف أو المسدسات التى وزعت عليه
بصفتهم أعضاء عادين فى فتح ولم تكن لديهم أى فكرة عن الحصول على تأشيرا
سفر وتذاكر سفر أو سبل التخفى التى قد يحتاجون اليها لتنفيذ أغراضهم
ومن ثم ولوا وجههم شطر مصدر امداد معروف لأحدهم هو جهاز الرصد (شبكة
المراقبة) أو فرع المخابرات فى فتح والذى كان يرأسه فى ذلك الحين محمد يوسف
النجار (أبو يوسف) ويليه فى القيادة حسن سلامة . وتم اطلاع هذين
الزعمين على ما يحدث ، كذلك تمت استشارة صلاح خلف (أبو اياد) نائب
عرفات ، وتقرر دعم هذه الجماعة المنشقة الجديدة واستخدامها كنموذج يحتذى
بالنسبة للحركة كلها ، وحدث انقسام فى اللجنة التنفيذية لفتح فى ذلك
الحين مع حرص عرفات على أن يظل للمنظمة وجود علنى واصرار آخرين على أنه
قد حان الوقت لممارسة المنظمة عملها سرا من أجل البقاء . وتزعم النجار وسلامة
وخلف الجماعة التى أرادت التخلى عن الأساليب القديمة للمكاتب المعروفة
والتعامل مع الحكومات . وكانوا الزعماء المقاتلون لرجال العصابات الذين
لاتعنيهم السياسات سوى فى القليل ويغفلون أو لا يعنيهم أن تلحق تصرفاتهم
الضرر بالدول التى تستضيفهم طالما كان يمكنهم ايذاء اسرائيل أو الاسهام
فى تعزيز القضية الفلسطينية وآمنوا بأن القدر قد قدم لهم الأدوات التى
يحتاجون اليها فى يسر كبرهان على أن التكتيكات التى دعوا اليها هى الأصوب .

وتعين أولا السماح للشبان الذين أقسموا على الانتقام لمصرع أبو اياد
بأن يشقوا طريقهم وأن ينفذوا على أقل تقدير جزءا من الهدف الذى قاموا فى
سبيله بتشكيل منظمتهم وعلى هذا تقرر اغتيال وصفى التل وتم تقديم المال
اللازم والأسلحة وتذاكر السفر حالما أذيع نبأ عزم رئيس وزراء الأردن
وصفى التل على السفر الى القاهرة وتم تشكيل مجموعة انتحارية حصلت على
تأييد من الزعماء الذين سيطروا بهدوء على الحركة الجديدة . وفى ٢٨ من
نوفمبر عام ١٩٧١ أصبحت حركة أيلول الأسود معروفة للعالم حينما قتل

وصفى التل على درجات سلم فندق شيراتون بالقاهرة وسط وابل من الرصاص
الذى انهمر عليه وقد التف حوله حرسه الخاص ورجال الأمن المصريون الذين
شلت الدهشة حركتهم فعجزوا حتى عن أن يستخدموا أسلحتهم . والقى القبض
وبسرعة على الشبان الأربعة المسئولين عن اغتيال وصفى التل ولكن لم يكن فى
الامكان معاقبتهم فى غمار ذلك المناخ السائد فى مصر وفى العالم العربى وقد
أطلق سراحهم بكفالة فى النهاية وقضوا بضعة أشهر فى القاهرة ثم صدر أمر
بابعادهم فى هدوء الى دمشق . وهكذا انتهى دورهم على عجل لأنهم كانوا
مجرد الأدوات اللازمة لجذب اهتمام العالم بحركة أيلول الأسود وارضاء
للأعضاء الأوائل فيها على اعتبار ان الهدف من قيام حركتهم قد تحقق . واضحى
الهدف الحقيقى للمجموعة منذ ذلك الحين فصاعدا هو الارهاب من أجل الارهاب
وشن عمليات دموية مشهورة لعرقلة أى خطوات تتخذ نحو اقرار السلام الذى
لن يحقق العدالة للقضية الفلسطينية وكان هذا يعنى أى نوع من السلام على
الاطلاق بالنسبة للمتطرفين من شباب المقاومة . وكانت هذه نتيجة أخرى غير
متوقعة أيضا اعتبرها من اصبحوا زعماء لأيلول الأسود « مكافأة » لهم على
جهودهم : اذ أن عملياتهم الأولى أو بعبارة أخرى « النجاحات » التى تحققت
وفقا لمعيارهم الخاص دفعت آخرين الى تقليد وسائلهم وعلى الرغم من أنه ما من
حركة أخرى كانت بمثل كفاءة أو بسالة حركة أيلول الأسود فى ذلك الوقت
فان شن عمليات مشابهة خدم نفس الفرض الخاص باعاقة اى تحرك يستهدف
اجراء مفاوضات والحفاظ على اهتمام العالم بالقضية الفلسطينية .

ان سياسة أيلول الأسود الانتحارية هى نسخة أخرى من ذلك العهد
القديم لمنظمة فتح التى شنت أولى عملياتها فى الأول من شهر يناير ١٩٦٥ .
وفتح التى تعد حروفها هى الحروف الأولى بصورة عكسية لحركة التحرير
الوطنية الفلسطينية باللغة العربية وحركة التحرير الوطنية الفلسطينية باللغة
الانجليزية هى من خلق عرفات الزعيم البالغ من العمر ٤٦ عاما وهو من مواليد
القدس ويجمع فى شخصيته موهبة نادرة فى الدبلوماسية مع نفس القدر من
حب العمل ، أنه رجل بالغ الشجاعة شخصيا ولديه استعداد فذ للتوفيق
بين الجماعات المتحاربة والتوصل الى اجماع فى الرأى بين أكثر الآراء تباينا .
وترجع قوة عرفات بوجه خاص الى أنه قد وضع حجر الأساس لمنظمة فتح
واقام صلات وثيقة بالثورة الجزائرية واكتسب بسرعة العقيد القذافى الى جانبه
حينما تولى هذا الشاب الغريب الأطوار الحكم فى ليبيا ، وفى الوقت نفسه
عمل على تأمين تدفق مستمر من الأموال من الكويت ومدافع من روسيا وعون
عملى من سوريا فى البداية . وكانت منظمة التحرير الفلسطينية هى الجماعة

الرئيسية الموجودة خلال الأيام الأولى لكفاح المقاومة . وقد تم تأسيسها ١٩٦٤ خلال اجتماع للمجلس الوطنى الفلسطينى فى القدس فى العام مع اللجنة التنفيذية المكونة من أربعة عشر عضوا برئاسة محام ذى ل طنان هو أحمد الشقيرى الذى ألحق الضرر بالقضية كثيرا بحديثه عن « اليهود فى البحر » وصدرت عنه تهديدات مخيفة أخرى شبيهة لهذه العبارة كانت مستحيلة التحقيق . وتمت لمنظمة التحرير الفلسطينية السيطرة جيش التحرير الفلسطينى المعروف باسم « القوات النظامية للحركة » وك تتلقى المعونات المالية التى التزمت بها دول عربية شتى حينما كانت هذه الد تدفع نصيبها من المعونة .

وأبعد الشقيرى عن منصبه بهدوء بعد معركة الكرامة . فبعد انقض ثلاثة أشهر فحسب على هذه المعركة التى صورت فى قالب الاسطورة ، نج عرفات خلال انعقاد المؤتمر الوطنى الفلسطينى فى القاهرة فى اجتذاب قد من التأييد كان كافيا لاتخاذ قرار باستبعاد الشقيرى ، وقد جعل هذا الا عرفات بالاضافة الى سيطرته العامة على « العاصفة » الجناح العسكرى لفتح فى وضع مكين . اذ كان رئيسا للجناحين العسكرى والمدنى لمنظمتى الفدائيي الرئيسيتين منظمة التحرير الفلسطينية ومالها من سيطرة على أموال وجيش التحرير ووضعها المنظم باعتبارها « حكومة الحركة فى المنفى » ، ومنظمة فتح التى تعد بلا منازع أقوى جماعات رجال العصابات والتى تحصل أيضا على أموال هائلة تمنحها اياها الحكومات والأفراد الذين رأوا أن منظمة فتح هى أكثر الجماعات الآخذة انتشارا ونشاطا وأفضلها تنظيما وكان لعرفات رأى واقعى تماما فى الدولة وفى حركة المقاومة وفى مركزه ولذلك عمل بسرعة وبفعالية على دعم قبضته . ومن أبرز خطواته أنه تمكن من السيطرة الشخصية على الصندوق الخاص الذى أسهمت فيه الكويت بغرض منح معاشات لعائلات الفدائيين الذين يقتلون فى العمليات وأنه ضمن حصول شقيقه دكتور فتحى عرفات على الأموال والمعدات الكافية لادارة الهلال الأحمر الفلسطينى أو بمعنى آخر « الفيلق الطبى العسكرى » لفتح وأن يضمن أيضا خضوع قيادة الكفاح المسلح الفلسطينى أو « البوليس العسكرى » للحركة لقيادته شخصيا . ومن خلال تقديم عرفات معاشات وتوفيره مواقع للمستشفيات وخدمات طبية أمكنه دائما تقديم خدمات شخصية وقد تمكن من خلال تأمينه دفع مرتبات مجزية وتقديم أفضل معدات وأحسن عناصر المجندين الممكنة لقيادة الكفاح المسلح الفلسطينى تمكن من السيطرة على خدمات جيش خاص صغير ولكنه ذو فعالية وقدرة على اتخاذ العمل المباشر اذا ما رأى العمل أمرا ضروريا .

وعلى الرغم من ان عرفات أصبح الزعيم بلا منازع منذ عام ١٩٦٨ وما بعده فانه عجز عن فرض سلطانه على جميع الجماعات المتعددة كما برهنت الأحداث بعد ذلك . اذ حاول أن يجمع الجماعات المنشقة تحت مظلة « العاصفة » فى الوقت الذى كان اسمها – العاصفة – يجتذب خيال الجماهير العربية ، وحينما كانت أكثر الجماعات فعالية ولكن عددا كبيرا رفض التعاون وعلى رأسهم منظمة « شباب الثأر » و « أبطال العودة » و « جبهة التحرير الفلسطينية » والتى اندمجت جميعا لتكون منظمة واحدة هى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش الذى شكل من قبل حركة الوطنيين العرب ذلك الحزب ذا الميول الماركسية الذى حقق نجاحاته الرئيسية فى اليمن الجنوبية .

وبعد عامين من تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى عام ١٩٦٧ وقع انشقاق فى صفوفها حينما انفصل عنها نايف حواتمة صديق حبش الصدوق الذى كان يليه فى مراكز القيادة وقام بتشكيل الجبهة الديمقراطية الشعبية على أثر خلاف ايديولوجى فى الظاهر من ذلك النوع الشبيه بنزاعات رجال الكنائس فى العصور الوسطى حول عدد الملائكة الذين يمكنهم الرقص على سن دبوس . ولكنه كان فى الواقع خلافا شخصيا لأن كل من حبش وحواتمة كان يتمتع بشخصية قوية ولديه آراء محددة جدا ، وعلى الرغم من أنهما يرفضان الالتزام بفكرة « عبادة الشخصية » فان تقبل الرأى العام للشخصية له أهمية فى العالم العربى مثلها أهمية فى أى مكان آخر . وقد ضم حواتمة عددا من كبار الشخصيات فى الجبهة الشعبية وسرعان ما أوضح بجلاء أن هدفه لا يقتصر على استعادة الأراضى السليبة من فلسطين فحسب ، بل يتمثل ايضا فى اعطاء دفعه للثورة العالمية وقد شاركه حبش رأيه هذا حيث صرح ذات يوم بأنه يعتبر كوريا الشمالية أقرب الدول من فكرة المثل الأعلى للدول فى العالم ولكنه كان أشد حذرا فى طريقة معالجته للأمور . وكان رجال الجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين هم الذين حاولوا التعجيل بخلق الأزمات مع أنظمة الحكم الحاكمة فى مناسبتين احداهما فى الأردن عام ١٩٧٠ والأخرى فى لبنان عام ١٩٧٣ .

ونشأت جماعات أخرى سرعان ما تلاشت فى أغلب الأحيان – كالصحف اللبنانية – لأنها كانت تخدم مصالح معينة أبعد ما تكون عن القضية . وكانت احداهما تدعى جماعة العمل برئاسة دكتور احسان السرطاوى وبتمويل من مصر . وكان زعيمها على استعداد دائم للحديث مع الصحفيين الزائرين وكان هناك بعض الأعضاء يقومون بحراسة مقر الجماعة فى عمان ، ولكن العمل الحقيقى الوحيد الذى قامت به ضد قوات الحكومة الأردنية على الجانب الأردنى من النهر

أو ضد فدائيين آخرين فى عمان . وكان أحمد جبريل الضابط السورى السابق وهو عضو آخر انفصل عن جورج حبش وقام بتشكيل القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وهى جماعة أكثر فعالية قامت بتنفيذ بعض المهام النافعة داخل الأراضى التى تحتلها اسرائيل ثم اتجهت فى النهاية لتنفيذ مهام انتحارية .

أما الجماعتان الرئيسيتان الأخريان اللتان ظلتا تنافسان فتح فهما الصاعقة طليعة الثورة الشعبية - التى أسسها حزب البعث السورى عقب حرب عام ١٩٦٧ وظلت خاضعة لسيطرة حكومة دمشق . ومع نشوب حرب عام ١٩٧٣ كانت الصاعقة برئاسة زهير محسن بالفعل جزءا من الجيش السورى وتتلقى أوامرها مباشرة من المخابرات العسكرية السورية وأصبحت أداة فى يد السياسات السورية وقامت بعمليات ضد الجيش اللبنانى أكثر من تلك التى شنتها ضد اسرائيل .

وظلت فتح رافعة أعلامها وسط خضم هذا كله فهى منظمة ذات فعالية متماسكة ومتجددة باستمرار جعل وجودها من منظمة التحرير الفلسطينية قوة كبرى فى العالم العربى وعضوا اضافيا فى الجامعة العربية ومبررا دائما لسياسات ياسر عرفات . ذلك لأن عرفات هو الذى حدد للفلسطينيين دورا مشابها الى حد كبير للدور الذى تبناه الرئيس السادات بالنسبة لمصر . أى الاستعداد للحرب والقتال بالنسبة للفدائيين - فى الوقت الذى يتم فيه السعى الى تحقيق هدف التوصل الى تسوية عن طريق المفاوضات ولم يكن هذا هو هدف عرفات دائما : اذ اعتقد فى البداية ان حرب رجال العصابات قد تنتشر على نطاق واسع بحيث تقنع اسرائيل بالتفاوض ثم ساوره اعتقاد بأن عمليات الفدائيين قد تكون هى الوسيلة لاشراك الدول العربية فى حرب جديدة ومن ثم يتحقق له استعادة الاراضى المحتلة على الأقل ولكنه أدرك فى النهاية ان الفلسطينيين بوجودهم المستمر وبشنهم بضع عمليات سيمكنهم من احتلال مقعد فى مؤتمر السلام . وهكذا استسلم عرفات مع حلول عام ١٩٧٣ لذلك المرض الذى يصيب كافة الساسة وأصبح على استعداد لأن يرضى بما هو ممكن .

وكان الكفاح طويلا لمجرد البقاء . لأن حركة المقاومة لم تواجه فى الأردن فقط بجهود مستميته لاستئصال شأفتها من الوجود تماما ولكن فى سوريا أيضا لأنها كانت تخضع لقيادة مشددة ولم يكن لها وجود تقريبا فى مصر . أما فى العراق فكان وجودها محتملا حينما كانت تخدم مصالح بغداد ثم يتجاهلونها أو يتم اخضاعها فى أوقات أخرى أما فى ليبيا فلم تلق سوى العون

الشفوى والقليل فيما عدا ذلك . ولكى يضمن الفدائيون بقاءهم تعين عليهم ايجاد قاعدة لهم يشنون منها عملياتهم وتكون متاخمة لاسرائيل وكانت لبنان هى المكان الممكن الوحيد لأسباب جغرافية بعد أن أصبح من المستحيل اتخاذ الأردن قاعدة لهم ولكنه كان اختبارا أثار كثيرا من الجدل القديم حول دور الفدائيين وفائدتهم فى الصراع وحقوقهم فى الدول العربية اذا كانت لهم ثمة حقوق .

وكانت لبنان من بين اوائل ضحايا الاجراءات الاسرائيلية المضادة حينما قامت قوة اسرائيلية محمولة جوا بطائرة هليكوبتر بالاغارة على مطار بيروت الدولى وامرت الركاب بمغادرت الطائرات التى تستعد للاقلاع وباخلاء المبانى الواقعة فى نهاية المطار واقامت متاريس ثم نسفت ثلاث عشرة طائرة ومخزنا للبترول والحقت أضرارا بمهابط الطائرات وأماكن ايوائها . وكان هذا الضرر البالغ الذى قدرت تكاليفه بما يزيد على ٥٠٠ مليون جنيه استرلينى « ردا انتقاميا » على عملية قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى أثينا قبل ذلك بيومين حينما أطلق رجلان من رجالها هما محمد محمد عيسى وعمره ٢٥ عاما وماهر حسين اليمانى وعمره ١٩ عاما أطلقا الرصاص وألقيا بقنابل يدوية على طائرة بوينج ٧٠٧ اسرائيلية كانت فى طريقها الى نيويورك مما أسفر عن مقتل مهندس اسرائيلى وأدان العالم كله الهجوم على مطار بيروت بل أنه حتى الولايات المتحدة صوتت فى مجلس الأمن الى جانب قرار بلوم اسرائيل ، ولكنه لم يلحق فى الواقع ضررا كبيرا بلبنان ، اذ أن اللبنانيين بما يتصفون به عادة من فطنة تجارية كانوا مؤمنين بصورة كاملة على أسطولهم الجوى وأمكنهم نتيجة الضرر الذى لحق بالمطار التزود من جديد بأحدث أنواع الطائرات ليتحول ذلك الأسطول الجوى الى أفضل شركة خطوط جوية فى الشرق الأوسط وعلى الرغم من ان الغارة كانت أعنف الغارات التى تعرضت لها المنطقة حتى ذلك الحين فانها لم تكن سوى بداية لسياسة اسرائيلية محسوبة لتوجيه ضربات انتقامية مهولة كلما قام رجال العصابات بشن عملية تلحق أضرارا باسرائيل أو بمصالحها. وأوضح الساسة المتشددون فى تل أبيب ان حكومات الدول التى توجد بها قواعد للفدائيين ستكون هى المسئولة عن نشاطات الفدائيين وفى هذا محاولة واضحة لارغام اللبنانيين على تغيير النشاط الذى يمارسه رجال العصابات من هذه الدولة الصغيرة التى لا يمكنها الدفاع عن نفسها .

وقد حقق مخطط الاسرائيليين عبر السنين لارغام آخرين على التصرف نيابة عنهم نجاحا كبيرا وان كان على حساب عدد كبير من الضحايا اللبنانيين والفلسطينيين واهدار دماء كثيرة وكان السبب فى اضطراب الأحوال فى لبنان

ووقوع أضرار مالية مروعة . وفى النهاية نجحت اسرائيل لبرهة قصيرة من الحد من الهجمات المباشرة التى تتعرض لها عبر الحدود اللبنانية ولكن نجاحها هذا أفضى الى ارتفاع عدد حوادث « الارهابيين » التى قاموا بتنفيذها بعيدا عن الأراضى الاسرائيلية .

وكانت لبنان قد أصدرت فى شهر مارس عام ١٩٦٨ قانونا يفرض حظرا على « تسلل عناصر لبنانية أو عربية تعيش فى لبنان الى الأراضى التى تحتلها اسرائيل » ومن الواضح ان الدولة تبينت الأخطار التى قد تنجم عن مثل هذه التحركات ولكن لم يكن فى وسعها ان تفعل سوى القليل حيال هذا . اذ لم تكن المشاعر متعاطفة فحسب مع رجال العصابات فى هذه المرحلة ولكن الجيش اللبنانى الصغير كان عاجزا من الناحية المادية عن حراسة الحدود مع اسرائيل بفاعلية . وصدر القانون ولكن لم يبذل أى جهد لتنفيذه . وعلى الرغم من ان هذا العام شهد عددا كبيرا من عمليات الفدائيين فان عام ١٩٦٨ كان فى الواقع عام تعزيز واستعداد من جانب رجال العصابات على نحو أكبر . ففى الأردن بدأوا انشاء قواعد لهم فى وادى الأردن وفى مخيمات اللاجئين حول عمان وفى لبنان أنشأوا مكاتب ومراكز للتدريب والتجنيد فى الخمسة عشر مخيما للاجئين المنتشرة فى طول البلاد وعرضها وبناء مخيمات أمامية فى منطقة العرقوب التى تمتد على طول حدود لبنان وسوريا واسرائيل وأيضا على طول الحدود الجنوبية .

وفى العام التالى افسحت الاستعدادات الطريق أمام حملة مكثفة تمثلت فى شن ما يزيد على ٢٠٠ عملية شهريا فى المتوسط من أنواع مختلفة ضد اسرائيل وكان بعضها لايزيد عن كونه مجرد غارات تستهدف الازعاج أو تلحق أضرارا بمجارى المياه أو غيرها من المنشآت بينما استهدفت غارات أخرى قتل الجنود والمدنيين واصابتهم بجراح . ومع هذا تركز القتال الرئيسى للفدائيين عام ١٩٦٩ فى لبنان مثلما حدث فى عدة سنوات أخرى اذ اندلعت النيران حينما فرضت الحكومة حظرا على مظاهرة كان من المقرر أن تقوم فى مدينة صيدا الواقعة فى الجنوب ومركز اليساريين والمتعاطفين مع الناصرية للاحتجاج على تزايد المضايقات التى يتعرض لها الفدائيون أثناء قيامهم بغاراتهم . وقامت المظاهرة بالرغم من ذلك الحظر وحاولت قوات الأمن فض المسيرة بالقوة ونشبت معركة حامية ، وسرعان ما انتشرت وشملت سائر الأنحاء فى البلاد .

واستقال رشيد كرامى رئيس الوزراء من منصبه بعد بضعة أشهر قضاها فى الحكم الذى تولاه فى اعقاب الغارة الاسرائيلية على المطار . واعترف بأن هناك جانبين فى لبنان أحدهما يؤيد نشاط الفدائيين أيا كانت النتائج

المترتبة عليه والآخر على العكس منه يدين وجهة النظر هذه . ويقال أنه اذا انحازت الحكومة الى جانب او لآخر فان هذا خليق حتما باشاعة الانقسام فى البلاد .

وكان راى كرامى واقعيا . ففى كل مرة ينشب فيها القتال فى لبنان بين الجيش والفدائيين كما حدث فى أحيان كثيرة على نحو مخيف عبر السنين كانت البلاد تتحول الى فئات مستقطبة اذا استمر القتال يوما أو يومين . وكان هذا الاستقطاب يجرى بوجه عام بين الأحزاب الاسلامية واليسارية ضد المسيحيين واليمينيين ليس لأن المسيحيين لا يتعاطفون مع الفدائيين ولا لأن المسلمين لا يتعاطفون مع بلادهم ولكن كنتيجة للنظام اللبنانى التقليدى الذى يتعين بمقتضاه تقسيم كل شىء وفقا لقواعد « طائفية » كما يرجع أيضا بطبيعة الحال الى أن الأغلبية الساحقة من الفقراء فى لبنان من المسلمين وأن « الأغنياء » أغلبهم من المسيحيين .

كذلك كان نفوذ سوريا فعالا لأن سوريا تكره وجود لبنان وقدرته على التمتع بقسم كبير من التجارة التى شعرت سوريا بأنها حق لها وذلك بصرف النظر عن الحكومة التى تملك مقاليد السلطة فى سوريا . وحزب البعث بصفة خاصة لايكن أى مشاعر حب للحكومة اللبنانية لأن من بين أهدافه المعلنة انشاء « سوريا الكبرى » ، أى دولة جديدة مكونة من منطقة الهلال الخصيب كلها ومن بينها لبنان بطبيعة الحال . ومن ثم فكلما نشبت متاعب فى لبنان سارع الفدائيون من قوات الصاعقة الى تفجير الأوضاع بناء على أوامر مباشرة من الحكومة فى دمشق التى احتفظت دائما بقبضتها على المنظمة .

ويمارس السوريون نشاطا فعالا كشأنهم دائما فى الأزمة الأولى من الأزمات الكبرى التى كتب على لبنان أن يتعرض لها نتيجة لتصرفات رجال العصابات وان كانوا لم يتدخلوا هذه المرة على نحو مباشر . فقد رأوا ان أهدافهم تتحقق بدون أن يظهروا بوجه سافر مع استمرار أزمة الحكومة اللبنانية وعجز أى وزير عن تشكيل وزارة وتعرض منصب رئيس الجمهورية نفسه للمساءلة حينما أدلى شارل حلو بحديث انحاز فيه بشدة الى جانب من آمنوا بضرورة خلو لبنان من أى نشاط فدائى . وقد انتقده زعماء آخرون فى الحكومة لتخليه عما أسموه « دور رئيس الجمهورية المعتاد كحكم » على الرغم من أن رؤساء الجمهورية اللبنانيين الأقوياء أكدوا وجودهم فى عدة مناسبات بوسائل تتجاوز هذه المهمة البالغة الضآلة .

ولقد أسهمت اسرائيل فى بقاء البوتقة اللبنانية فى حالة غليان مس... بقصفها بصفة منتظمة قرى الحدود مما أسفر عن تحول عدد من اللبنانيين ال... لاجئين فى بلادهم وبما شنته من ضربة جوية كبرى أعلنت عنها رسميا ... مواقع الفلسطينيين فى جبل الشيخ فى شهر أغسطس وبذل الفدائيون والجن... كل من جانبه قصارى جهودهم للابقاء على القضية حية ايضا بالمناوشة المتبادل... بينهما الى أن نشبت مواجهة جديدة بينهم فى شهر سبتمبر حينما قتل جندى... وجرح أربعة آخرون فى حادث وقع بمخيم نهر البارد للاجئين بالقرب من طرابلس... حينما حاولت السلطات هدم مبنى يقيم فيه الفدائيون دون ترخيص لهم بذلك ... وأذاع الجيش انذارا للمخيم مطالبا بتسليم الرجال المسئولين عن هذا الحادث... وكان الرد الوحيد هو حالة استعداد متزايدة من جانب رجال العصابات وقوات... الميليشيا التابعة لهم واقامة دفاعات جديدة . وبعد ذلك بشهر نجح الرجال... الاسرائيليون المتخفون فى نصب صواريخهم فى قلب بيروت ذاتها وأطلقوها... على مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية فى الوقت نفسه الذى أغارت فيه قوة... اسرائيلية على احدى قرى جنوب لبنان قيل ان رجال العصابات يقيمون فيها... ونسفت المنازل وحمل معها عدد من الأسرى .

وفى ٢٠ من اكتوبر تصاعدت الأزمة المخطط لها وبرزت الى الوجود وتحولت الى قتال ثان واسع النطاق ، قصف الجيش اللبنانى خلاله قواعد الفدائيين فى مخيمات اللاجئين واستولت أحدى الجماعات اليسارية بقيادة ماركس مجلى هو فاروق المقدم على طرابلس وأغلقت الحدود مع سوريا وانتشر القتال فى طول البلاد وعرضها وفرض حظر التجول فى المدن الكبرى وأعلن العراق أن جيشه فى خدمة الفدائيين « على النحو الذى يرونه مناسباً لصد الهجمات التآمرية عليهم » تماما مثلما فعل فى الأردن ولكنه كان بلا أثر تقريبا .

واغارت سوريا فى هذه المرة الى جانب الفلسطينيين على نحو سافر فهى لم تغلق الحدود فحسب ، بل سمحت لرجال الصاعقة وجيش التحرير الفلسطينى بالعمل من أراضيها وتم الاستيلاء على قرى الحدود داخل لبنان والمتاخمة للحدود السورية لتأمين ما أصبح معروفا باسم « طريق عرفات » وهو طريق امدادات يبدأ من سوريا عبر قرية دير العشائر حتى مواقع رجال العصابات فى العرقوب وعلى طول الحدود الجنوبية ، وشن رجال العصابات هجمات مباشرة انتحارية على القلعة القديمة فى مدينة راشيا ، وهى قلعة حصينة مبنية من الحجارة حوصر فيها القائد الفرنسى وحاميــة ذات مرة لمدة ثلاثة أســابيع خلال تمرد الدروز عام ١٩٢٦ وزار عرفات بنفسه عدة مرات القرى التى استولى عليها رجاله على

الرغم من انه اتخذ من دمشق مقرا له الى أن طار الى القاهرة للاجتماع بالقائد العام اللبنانى العميد أميل البستانى وتمخض الاجتماع عن وقف اطلاق النار والتوصل الى اتفاق يقضى بتنظيم العلاقة بين اللبنانيين والفدائيين لسنوات قادمة .

وطبقا لهذا الاتفاق سيطر الفدائيون بصورة كاملة على مخيمات اللاجئين فى لبنان وسمح لهم أيضا باقامة قواعد فى منطقة العرقوب لكى يقع الانتقام الاسرائيلى على كاهل رجال العصابات أنفسهم وليس على السكان اللبنانيين كما كان يحدث فى الماضى اذ أن هذه المنطقة جبلية مقفرة ليس بها سوى بضــع مستوطنات وفى مقابل ذلك تعهد رجال العصابات بمراعاة القانون اللبنانى وعدم السير فى شوارع المدن الكبيرة أو الصغيرة بزيهم الرسمى أو بأسلحتهم والواقع ان هذا الاتفاق كان مشابها الى حد كبير لتلك الاتفاقيات التى أبرمت من قبل فى الأردن وعلى الرغم من أنها كانت أكثر فعالية قليلا لكنها كانت تعانى من العيب الجوهرى نفسه المتمثل فى محاولة تنظيم مصلحتين متعارضتين على نحو مباشر ولكن اجتماع القاهرة أثمر عن تسوية الأزمة على الأقل وبعد انقضاء سبعة اشهر على لبنان بدون حكومة عاد كرامى ليرأس وزارة تمثل معظم الأحزاب والاتجاهات فى البلاد كما تضم على نحو له مغزاه الزعيم الاشتراكى والنصير القوى للفلسطينيين كمال جنبلاط فى منصب حيوى هو منصب وزير الداخلية .

وقد قتل ١٥٠ شخصا على اقل تقدير خلال سلسلة من المعارك ادت الى توقيع اتفاق القاهرة مما خلف وراءه المزيد من الشعور بالمرارة لدى كل من الجانبين أخذ يتفجر بتوالى السنين . ومع هذا فقد ساد شعور جديد بالتفاؤل بين اللبنانيين بوجه عام بأن بلادهم ستترك فى سلام لتواصل طريقها التقليدى فى جمع الأموال بل انه حتى الجماعات اليســارية والحركيين من الشباب فى الجامعات شعروا بأن روح التعاون بين الجانبين قد تكون علامة بداية لعهد جديد وان اراقة الدماء لم تحل مشكلة الفدائيين فحسب لكنها وضعت لبنان ايضا على طريق اكثر ديموقراطية . وقد كشف الفيلم المفضل فى ذلك الوقت عن شىء ما من مشاعر اللبنانيين . وكان هذا هو فيلم « زد » قصة سياسى شاب مثالى اغتاله نظام حكم فاسد وسعى المدعى العــام النزيه لتعقب المتهم بلا هوادة ولا رحمة بصرف النظر عن رتبته او مركزه وطبق اللبنانيون القصة مباشرة على بلادهم واخذوا يهتفون بجنون حينما احتج بشدة الجنرال المغرور المسئول أساسا عن عملية القتل على القبض عليه وحملق فيه المدعى العام فقط وقال : « اسمك ورتبتك ورقمك » ورأى النظارة فى هذا سقوط المكتب الثانى الذى كان يتدخل آنذاك فى جوانب الحياة اللبنانية كافة وتأكيدا لمشــاعرهم وهم

يخرجون من الفيلم وقد شعروا باكتئاب نتيجة الانتصار الحتمى فى نهاية الار
فى الفيلم للعسكريين وللقوى التى يمثلونها وكانت هنـاك خارج الباب حلقة
مترقبـة من بنـادق الفرقة رقم ١٦ من رجال البوليس المتخصص فى بيروت
لمكافحة أعمال الشغب كانوا يرتدون بيريهات حمراء تستعد للانطلاق فى حال
ما اذا تسلطت مشاهد الفيلم بقوة على اى من المتفرجين .

وكان التغيير الذى حدث فى لبنان يسير ببطء ولم ينجم عن اتفاق القاهرة
او عما وصفه جنبلاط بانه « روح جديدة فى البلاد عقب ما وصل الى حد الثورة
فى بعض المناطق » سوى القليل اذ شهد مطلع عام ١٩٧٠ المزيد من الاشتباكات
الكبرى مع الفدائيين وقيام حزب الكتائب المسيحى اليمينى هذه المرة بدور
بارز واصبح من المـألوف فى ذلك الوقت ان يرى المرء عددا من رجال الأعمال
يرتدون ملابس انيقة داكنة الألوان يرقبون الطرق من فوق اسطح منازلهم او
مكاتبهم وقد حملوا تحت اذرعهم بنادق آلية او شبه آلية وكان اسوا حادث
شهدته البلاد آنذاك هو كمين متعمد اعده المقاتلون من الكتائب لموكب جنائزى
يحمل جثمـان فدائى قتل فى بيروت لاعادته الى مسقط راسه فى سوريا على
طول طريق دمشق الرئيسى . فخلال سير الموكب عند منعطف قريب من قرية
كحـال انهمر وابل من الرصاص على سيـارات الجيب المكشوفة التى كان
الفدائيون يركبونها مما أسفر عن مقتل ثلاثة عشر شخصا وأدرك بيير الجميل زعيم
الكتائب خطـورة الموقف على نحو متأخر ومن ثم ندد بالحادث وحذر من ان
الفوضى لا تخدم سوى اسرائيل وسرعان ما تمت اعادة النظـام مع وعد من
الجانبين بالالتزام بشدة باتفاق القاهرة .

وظل الفدائيون قادرين على نحو ما خلال هذا كله على شن عمليات ضد
اسرائيل وارسال مجموعات صغيرة عبر الحدود للقيام بمهمات تخريبية وغارات
على نمط « اضرب واهرب » وايضا لشن هجمات بالصواريخ من داخل لبنان
المستعمرات الاسرائيلية مما ادى الى صياغة نص فى الدستور الجديد منعه
بشدة ونتيجة لذلك شنت اسرائيل اولى غاراتها الانتقامية البرية الضخمة
جنوبى لبنان واحتلت جزءا من العرقوب لمدة ست وثلاثين سـاعة فى محاولة
استهدفت طرد قواعد رجال العصابات والواقع انها لم تحقق شيئا له قيمة
عسكرية فضلا عن انها لم تؤد الى تعزيز مكانتها الدولية بأى حال من الأحوال
وفى الوقت نفسه فان الجنرال موشى ديان حذر من ان « نفس الدمار الذى
حل بمدن تقع على طول قناة السويس والضفة الشرقية من نهر الأردن سيحل
بالجانب الآخر من الحدود اللبنانية . اذ استمرت هجمات رجال العصابات
ولكنها استمرت بطبيعة الحال وان كان على نطاق اخذ فى التضاؤل تدريجا .

وتوضح الاحصائيات التى اعدها الفدائيون انفسهم ان عام ١٩٦٩ شهد قمـة
نشاطاتهم داخل اسرائيل وفى الاراضى المحتلة وبالمقارنة بذلك بعد ثلاثة اعوام
فقد انقضت بعض الأشهر دون القيام بأى عمليات على الاطلاق وفى اشهر اخرى
تم شن ما يقل عن اثنى عشر هجوما ومن بين اسباب ذلك فيما يتعلق بلبنان
الوضع الأمن المتحسن كثيرا عما كان عليه فى الماضى على الحدود الجنوبية فقد
شقت اسرائيل طريقا يبلغ طوله ٢٥ كيلو مترا لمساعدتها دوريات الحراسة
والدبابات على الانتشار السريع ويحيط بالطريق سور من شبكة كهربية مما
جعل التسـلل أمرا أكثر مشـقة وكانت تتاخم الطريق منطقة ممهدة بعناية
ورمالها ناعمة مما يوضح اى أثر للأقدام .

وساعد هذا على حل المشكلة بالنسبة لاسرائيل وليس بالنسبة للبنـان
نظرا لمواصلة اسرائيل ضغطها فى محاولة منها كى تجعل من اللبنانيين « حراس
يعليش » لمصلحتها . وذلك من خلال قصفها المتكرر لقرى الحدود وغاراتهـا
المنظمة واحتجاجاتها الشفهية المستمرة . وطبقا لتقديرات الحكومة اللبنانية
بلغ مجموع العمليات الاسرائيلية ضد لبنان عام ١٩٦٩ خمس عمليات اسفرت
عن مقتل خمسة مدنيين وجندى واحد وعدد من الفدائيين ونسف عدد من
المنازل وشهد عام ١٩٧٠ اثنتى عشرة عملية اسفرت عن مقتل ٣٢ مدنيا وعشرة
جنود ونحو اربعين فدائيا وفى عام ١٩٧١ كانت الأمور هادئة نسبيا الا ان لبنان
تعرضت لغارتين اسرائيليتين افقط قتل فيها اربعـة مدنيين ثم عاد الضغط
على لبنان ثانية عام ١٩٧٢ مع شن غزوات عدة على نطـاق واسع قبل ذلك
الاحتلال الذى اسىء التخطيط له لأجزاء من جنوب لبنان لمدة ثلاثة أيام وعلى
الرغم من انه قد تم على نحو يفتقر الى الكفاءة الا انه شجع الجيش اللبنانى على
التحرك ثانية الى منطقة العرقوب وبذلك حال دون قيام اسرائيل بأى نشاط
آخر فى المنطقة .

ولم تضع النهاية الفعلية للهجمات على الأراضى الاسرائيلية من لبنـان
حدا للمسألة بالنسبة للحكومة فى بيروت لأن اسرائيل اضافت ملحقا لسياستها
المعلنة وزعمت أن لبنان ستعتبر مسئولة عن العمليات التى يقوم بها الارهابيون
الفلسطينيون ايا كان الموقع الذى تحدث فيه وبررت اسرائيل ذلك بالحقيقة
المعروفة القائلة بأن للفدائيين مكاتب وقواعد فى مخيمات اللاجئين فى البلاد .
على الرغم من انه ما من احد طاف بخياله قط أن تحدث اشيـاء مثل مذبحة
الألعاب الأوليمبية فى ميونيخ او عمليات اختطاف الطائرات المتعددة التى كان
يجرى الاعداد لها فى أى من هذه الأماكن أو ان فى وسع الحكومة اللبنانية أن
تفعل شيئا من ذلك . وكان لابد ان يتضح هذا للاسرائيليين من خلال تجربتهم

الشخصية لأنهم حينما تولوا الأمر بأنفسهم وقاموا بشن غارة عن طريق الجو
على مخيم البداوى فى شمال لبنان كانوا ينوون قتل دكتور جورج حبش وعدد
من كبار مساعديه او اختطافهم بعد ان أفادت المخابرات الاسرائيلية انهم
يزمعون عقد اجتماع فى المخيم المذكور ولكنهم عندما اقتحموا المخيم لم يجدوا
أثر لحبش او لأى أحد غيره من كبار الفدائيين وكان الأسير الوحيد الذى
شأنه والذى تمكن المغيرون الاسرائيليون من العثور عليه هو أحد الأتراك المساكين
الذى كان يتلقى تدريبات ليقوم بنشاطات فى بلاده فى نهاية الأمر وأسهمت
اسرائيل فى تطبيق قانونها عليه الى حد انها اصدرت الحكم عليه بالسجن بتهمة
الانتماء الى منظمة غير شرعية .

كذلك لم تحرز اسرائيل اى نجاح فى محاولتها المشهورة لاغتيال زعماء
رجال العصابات فى قلب بيروت ذاتها . حدث هذا فى ١٠ من ابريل عام ١٩٧٣
حينما وصل ٣٠ اسرائيليا بطريق البحر للانضمام الى عشرة اسرائيليين
متخفين كانوا موجودين فعلا فى المدينة للهجوم على أعلى قيادات فتح وأيلول
الأسود ايضا حسب اعتقادهم . ومرة اخرى فشل الاسرائيليون فى مهمتهم
حقا انهم قتلوا ثلاثة من كبار الشخصيات الفلسطينية ولكنهم لم يكونوا هم
أنفسهم الرجال الذين كانوا يتعقبونهم وكان القتلى هم يوسف النجار المسئول عن
العلاقات مع السلطات اللبنانية وكمال عدوانى الصيد الثمين لأنه كان معنيا
بالقيام بالعمليات مباشرة وكمال ناصر الرجل البدين المسالم الذى كان المتحدث
الرسمى باسم الحركة وبعبارة أفضل كان معروفا باسم « شاعر البعث » وكان
ياسر عرفات وصلاح خلف اللذان كانا مجتمعين بالثلاثة الآخرين قبل الحادث
بساعة واحدة هما الهدفين الحقيقيين ولكنهما غادرا لبنان متجهين الى دمشق
استجابة لمكالمة تليفونية غامضة قبل وصول الاسرائيليين بساعة ومع هذا
نجحت المجموعة المغيرة فى قتل عددا آخر من بينهم رجلان من رجال الأمن
اللبنانى كانا اول من هرع الى مسرح الحادث وحارسان شابان من الفدائيين
وجدا خارج المبنى السكنى الذى كان يشغله الفلسطينيون وسيدة ايطالية
متقدمة فى السن كانت تقطن فى الدور نفسه وزوجة يوسف النجار كذلك .

وادان العالم كله الحادث كما كان متوقعا ولكن كان له ايضا أثر جانبى
وضعت اسرائيل فى حسابها أن الأيام ستظهره وكان ايضا عاملا هاما بصفة
مستمرة فى غاراتها على لبنان اذ لم يسارع الجيش وقوات الأمن اللبنانى
بالذهاب الى مسرح الحادث حين وقع الهجوم بل لم يشتبكوا قط مع الاسرائيليين
ولذلك كان من الطبيعى أن يتم تبادل الاتهامات بين الأطراف المختلفة المعنية .
واستقال رئيس الوزراء صائب سلام ووجد أمين الحافظ المرشح لتشكيل

الوزارة نفسه عاجزا عن ان يفعل شيئا ازاء ذلك ومن ثم انسحب قبل ان يتولى
المنصب . ثم نشب القتال وكانت الشرارة التى اشعلت نيران القتال فى بيروت
فى هذه المرة والتى كانت اعنف مواجهة مباشرة على الاطلاق فى العاصمة اللبنانية
هو ان الجبهة الديموقراطية الشعبية بقيادة نايف حواتمه قد القت القبض
على جنديين لبنانيين وطالب الجيش باعادتهما وحدد موعدا نهائيا لذلك . ومن
المرجح ان هذا الوعد النهائى ذاته خرق ايضا . وايا كان السبب الرئيسى فقد
تحولت بيروت على وجه السرعة مرة اخرى الى سلسلة من المعسكرات المسلحة
وكان من الممكن رؤية الرصاص وهو ينطلق فى الهواء ويترك وراءه اثرا بالاضافة
الى سماع قصف المدفعية من عدة جهات وكان المطلب الرئيسى للعسكريين
ـ على الرغم من انه لم يتم التصريح به علنا قط ـ هو ضرورة جلاء الفدائيين
عن المخيمات القريبة من المدينة ولا سيما القريبة من المطار وانه يجب على
الفدائيين ان يحملوا معهم جميع اسلحتهم الثقيلة بحيث لا تبقى سوى قيادة
الكفاح المسلح الفلسطينى بأسلحتها الخفيفة للحفاظ على النظام فى المخيمات
ورفض رجال العصابات الانصياع لهذين المطلبين لأنهم كانوا يعلمون انهم اذا فعلوا
هذا فسيجدون انفسهم مرة اخرى فى الوضع الذى وجدوا عليه انفسهم
فى الأردن عام ١٩٧١ حينما كان فى امكان الجيش الأردنى القضاء عليهم فى المناطق
الفسيحة بعيدا عن المراكز السكانية وكان الفدائيون يعتبرون الجماهير التى
تكتظ بها المخيمات درعا فعالا يقى رجالهم ومعداتهم على الرغم من أنه ثبت
خلال الأيام التالية وكما حدث تماما فى مخيم الوحدات فى عمان ان العسكريين
لا يردعهم كثيرا وجود اعداد كبيرة من المدنيين فى المكان .

ولقد مارس الجيش اقصى قدر ممكن من ضبط النفس ولم يرسل دباباته
الى المخيمات كما كان فى وسعه ان يفعل بسهولة . ولكن حدث ان اجريت
عملية قصف على نطاق واسع اسفرت عن وقوع عدد كبير من القتلى ودخل
السلاح الجوى المعركة بحيث امكن لسكان العاصمة اللبنانية الحيارى والذين
هم فى معظم الأحيان فى اسوأ حال من الخراب والدمار ومما تحدثه رؤيتهم
للطائرات وهى تهاجم مواقع فى داخل بيروت ذاتها والواقع ان القوة النارية
الهائلة التى اطلقتها الطائرات من طراز هنتر وميراج على معاقل الفدائيين وعجز
رجال العصابات عن مقاومة الهجمات هو ما دفع ياسر عرفات الى السعى
لاقرار السلام وذلك بالموافقة على وساطة عدد من الدول العربية .

وقد تحققت الغلبة للحكومة اللبنانية وان كان بفارق بسيط فى هذه
الجولة من الصراع المستمر بين واجب اللبنانيين الذى يحتم تأمين أمن الشعب
اللبنانى ووحدة أراضيه وحاجة الفلسطينيين الى الاحتفاظ بقاعدة لعملياتهم

وبعرض محنتهم على أنظار العالم بصفة دائمة . وليس هناك شك كبير فى ال
لولا حرب اكتوبر لعجل شىء ما بنشوب مواجهة أخرى وربما نهائية بين الجانبين
فقد كان الاتفاق الجديد الذى ابرم علامة كبداية النهاية فعلا لنشاط الفدائيين
من الأراضى اللبنانية وافضى الى عودة القيادة العليا لرجال العصابات للانتشار
بعيدا عن لبنان ومع هذا ادى ذلك الى تجميد المشكلة ولكنه لم يحلها وقد نجح
عرفات فى الحفاظ على الابقاء على الحركة خلال كل تلك المحن التى شهدتها
فىالأردن ولبنان . وعلى الرغم من الهجمات الاسرائيلية وعدم مبالاة قسم كبير
من العالم العربى وكان هذا أكبر أسهام له . فقد حرص ياسر عرفات وهو
ينتقل من عاصمة لأخرى ويجمع الأموال من هنا ويحل الخلافات هناك ويقوم
دوما بدور الدبلوماسى وأحيانا بدور الثورى حرصا على اسماع صوت
الفلسطينيين تلك الغالبية العظمى من المعتدلين من ابناء شعبه فى اى اجتماع
للعرب وفى مجالس العالم كلما امكنه ذلك . ولم تكن المنظمة التى يراسها فى عام
١٩٧٣ هى نفسها التى تسلم قيادها عام ١٩٦٨ اذ تعين التخلى خلال تلك
السنوات الفاصلة بين التاريخين عن الاهتمام بالغارات الخاصة بعبور الحدود
وسلوك طريقة اضرب واهرب وأيضا التخلى عن عمليات التخريب وازعاج
الاسرائيليين بصفة عامة وحينما نشبت حرب اكتوبر كان لا يزال فى جنوب
لبنان اعداد كبيرة من الفدائيين القادرين على شن هجمات بالصواريخ على
المستعمرات الاسرائيلية شمالى الجليل أو شن بضع غارات لمساعدة السوريين
الذين كانوا يقاتلون على جبل الشيخ كذلك كان لجيش التحرير الفلسطينى
ايضا وحدات مقاتلة على طول قناة السويس وفى مرتفعات الجولان ولكن
مظاهر القدرة القتالية لم تخرج فى ذلك الحين عن كونها رمزا للارادة المستمرة
والقدرة على المقاومة وتعبيرا عن قدرة عرفات على الأمر بشن عمليات عسكرية
ولم يكن لها أى أثر عملى باستثناء تعزيز مركزه بصفة المتحدث الرئيسى باسم
الفلسطينيين .

وكان هناك عدد كبير يعتقد ان استراتيجية عرفات خاطئة وتكتيكاته
ساذجة وكان على راس هؤلاء جماعة ايلول الأسود والرجال المتشددون من
أعضاء فتح الذين تولوا زمامها . وكان هؤلاء أساسا من الثوريين من المستوى
المتوسط الذين جاءوا من قطاع غزة وبالرغم من ان عرفات نفسه هرب اليها
ومعه عائلته عام ١٩٤٨ وتدرب كأحد رجال العصابات فى غزة فانه لم يكن
واحدا منهم وأصبح صلاح خلف زعيمهم بعد مقتل يوسف النجار وقد جمع حوله
مجموعة صغيرة من الرجال كانت فلسفتهم بسيطة يقول برنامجهم : ان حرب
رجال العصابات التقليدية لم تحقق اى شىء بل أتت بالنتيجة العكسية فى الواقع

وتسببت فى طرد الفدائيين من الأردن وفى فرض قيود مشددة عليهم فى لبنان .
وقد آمنوا بان فى الإمكان الحاق الأضرار باسرائيل من خلال الارهاب الموجه
بعناية والذى يمكن ان يترك أثرا كبيرا على الاقتصاد الاسرائيلى كما يمكن
استخدامه لمنع التوصل الى أى حلول وسط مما يخشاه عدد كبير من
الفلسطينيين وعلى هذا تم اقرار العمليات العديدة التى قامت بها ايلول
الأسود وفى الآونة نفسها دخل جهاز الرصد حربا خفية مع جهاز المخابرات
الاسرائيلى (موساد) اسفرت عن مقتل عشرين عميلا اسرائيليا وفلسطينيا
فى قبرص ومدريد وبروكسل وروما وفى اماكن اخرى عديدة . ومن بين
المنجزات الرئيسية لهذا كله وضع اسس جديدة للفلسطينيين فقد كان ينظر
اليهم فى الماضى كشعب ليس على استعداد لمواصلة اى عملية ارهابية بداها
شعب ما يفتقر الى القسوة وعدم الرحمة وجاءت ايلول الأسود فغيرت هذا
كله فقد استهدفت احدى عملياتها تحقيق هذه الغاية فقط . وهى تلك
العملية التى شهدتها الخرطوم وقتل فيها دبلوماسيان أحدهما أمريكى والآخر
بلجيكى بعد أن استولت مجموعة من الارهابيين على السفارة السعودية هناك
وكان الغرض من هذا الهجوم هو أن تبرز فقط وببساطة حقيقة أن فى وسع
منظمة أيلول الأسود أن تقتل وستقتل . وتلا تلك المهمة غير المتقنة فى بانجكوك
حينما استسلم رجال أيلول الأسود لذلك الخليط البالغ حد القوة من التهديدات
والوعود من جانب السلطات التايلاندية . وأيا كان ما حدث فى الخرطوم حتى
لو كانت الاستجابة الى جميع مطالب المهاجمين قد تمت فقد تعين اعدام شخص
ما اذ كان على جماعة أيلول الأسود أن تعيد اقامة عمد الثقة بها ومن ثم أتبعت
ذلك الأسلوب القاتم لتحقيق هدفها .

وقد وجد صلاح خلف فى النهاية انه قد خلق وحشا لم يعد فى امكانه
السيطرة عليه اذ قلدت جماعات أخرى الوسائل التى تتبعها جماعة أيلول
الأسود وحينما أصبحت السياسة الرسمية هى وقف العمليات لمنح المفاوضات
فرصة لم يكن لأى شخص ما من القوة ما يمكنه من وقف الجماعات المنشقة وكان
على رأس هذه الجماعات تلك التى يتزعمها دكتور وديع حداد نائب جورج حبش
فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكان حداد هو الذى نظم عمليات الاختطاف
الجماعية للطائرات عام ١٩٧٠ كما كان مسئولا عام ١٩٧٣ عن اختطاف الطائرة
اليابانية الضخمة وعن المذبحة التى وقعت فى مطار روما . وحاول زعماء آخرون
للفدائيين فى أحدى المراحل الحد من نشاطاته ولكنهم وجدوا ان الكوادر فى
حركة المقاومة تؤيد حدادا وتعارض المعتدلين الذين يستمدون قوتهم من الحرس
القديم ومن سيطرتهم على الأموال ووسائل الدعاية . وهكذا استعرض حداد

وجماعة أو جماعتان أخريان استغلال الطرق الوحشية وان كانوا لم يتقيدوا بخطة موضوعية بعناية بل كان هدفهم هو مجرد اثارة المتاعب أملا فى جعل اقرار السلام أمرا أشد صعوبة وأن يجعل اسرائيل متعنتة على نحو يتعذر معه التوصل الى تسوية أو حمل الدول العربية على الدخول فى صراع جديد مع اسرائيل وطبقا للمنطق الذى ينتهجونه فان هذا كان أقرب الى الصواب لأن رؤيا المجندين الفلسطينيين الشبان لحركة المقاومة كانت واضحة دائما بصدد أمر واحد هو أنهم يقاتلون لاستعادة أرض فلسطين كلها وليس الأراضى التى احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ فقط . وكان هدفهم يتمثل فى اقامة دولة علمانية جديدة يعيش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون جنبا الى جنب على الرغم من أن هذه الدولة ستكون فلسطينية بالطبع وليست اسرائيلية . وهكذا واصلوا القتال لتحقيق مثلهم الأعلى بينما كان عدد كبير من قادتهم يفكرون فى هدف ثان اذ لم يكن تعنيهم عودة فلسطين للفلسطينيين فحسب بل أن بعضهم كان يعتقد بلا شك ان هناك عائقا ماديا أمام تحقيق هدفهم هذا . ولكنهم كانوا يؤمنون بالثورة العالمية أى النضال المستمر لطبقة البروليتاريا ولم تكن قضية فلسطين بالنسبة لهم أكثر من مجرد الأداة المفيدة التى يملكونها وكان نايف حواتمة أحد هؤلاء ولذلك أوعز الى البعثيين العراقيين من أجـل خدمة أهدافه . وكان حبش يفكر على نحو مشابه ولكنه بعد أن تعرض لنوبتين من جراء مرض القلب لم يعد من الناحية الصحية قادرا على توجيه مسار حركته وهكذا تولى زمام الأمر كله وديع حداد ومجموعة من الشباب الأهوج من حوله .

وخلال هذا كله كان هؤلاء الفلسطينيون النشـطون فى حركة المقـاومة هم القادرين على أسماع أصواتهم والواقع أنهم لم يكونوا يشكلون سوى أقلية صغيرة من الشعب الفلسطينى وكان هناك مئات الآلاف ما يزالون يعيشون فى اسرائيل نفسها وفى الأراضى التى تحتلها اسرائيل أو فى دول عربية أخرى وكان لهم أيضا الحق فى المشاركة فى تقرير مستقبلهم واعتقد عدد كبير منهم ان من تخلف فى الأراضى المحتلة يشكل الجزء الأفضل والأكثر شجاعة فى الكفاح ضد اسرائيل . فقد صرح رشيد الشوا عمدة مدينة غزة المعزول بأن الوسيلة أمامنا لمقاومة الاسرائيليين هى البقاء هنا فهم سيحبذون ابعادنا ولكننا لن نذهب وسوف نهزمهم على هذا النحو .

وكان الملك حسـين هو الرجل الوحيـد الذى بدا أنه يعى حقيقـة ان للفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الحكم الاسرائيلى الحق كالآخرين فى أن يتم

تمثيلهم وسماع صوتهم باحترام وكانت لديه مبررات قوية لمناصرة قضيتهم وقد كان على الأقل هو الشخص الذى على اسـتعداد لحث العالم على تذكر ان حركة المقاومة لا تضم الفلسـطينيين جميعا وان حركة المقاومة لا تتحدث باسـم الفلسطينيين جميعا . ولكى يتذكر الناس أن هناك آخرين يدينون بالولاء نظريا على الأقل للعرش الهاشمى فقد كشف الملك عن خطته الخاصة بانشاء مملكة عربية متحدة . وبدا أن أفكار حسين التى أعلنها من شهر مارس عام ١٩٧٢ غير ضارة على الاطلاق بحيث لا تبرر تلك الضجة التى أثارتها اذ حرص حسين على القول بأن مقترحاته لن تنفذ الا بعد تحرير المناطق التى تحتلها اسرائيل وسرعان ما أيدته جولدا مائير وربما على نحو بعث على احراجه باصدارها بيانا جاء فيه : « انه لم تجر أى مشاورات مسبقة بين الأردن واسرائيل قبل الاعلان عن المشروع وكانت خطة الملك تتمثل أســاسا فى انشاء اتحاد فيدرالى يضم ضفتى نهر الأردن ويخضع لسيادته ولكن مع منح قدر كبير من الاستقلال الذاتى لكل اقليم . وسوف ترحب المملكة العربية المتحدة بأى منطقة عربية أخرى محتلة حاليا ترغب فى الانضمام اليها بعد التحرير . وفى ذلك اشارة واضحة الى قطاع غزة وسوف تجرى ادارتها بعد ذلك على هذا النحو : ستصبح عمان العاصمة الفيدرالية وعاصمة الضفة الشرقية على السواء بينما ستصبح القدس عاصمة الفلسطينيين وسيكون الملك رئيسا للدولة وسيتولى السلطة التنفيذية المركزية ويعاونه فى ذلك مجلس فيدرالى من الوزراء وستصبح السلطة التشريعية منوطة بالملك من خلال مجلس أمة يمثل فيه أعضـاء من كل اقليم بالتسـاوى وسيحكم كل اقليم حاكم عام بمعاونة مجلس وزرائه وسيتولى البرلمانات الاقليمية اختيار هؤلاء الحكام وسيكون لكل اقليم محاكمه المستقلة وسيتمتع بالاستقلال الذاتى بوجه عام وسيكون لمواطنى كل من الضفتين حقوقا متساوية وسيجرى تشكيل القوات المسلحة من بين أبناء الضفتين بالتساوى .

ولقد كان الأمر بسيطا للغاية وهو على أى حال مخطط مبدئى للمستقبل حيث أكد الملك أنه سيجرى الاستفتاء عليه فى الغالب تحت اشراف الأمم المتحدة ومع هذا بدأ المشروع وكأنه مؤامرة فى نظر الكثيرين فى العالم العربى وكانت هناك بعض الشواهد التى تعزز هذا اذ أكدت الأنباء المتسربة من خلال الرقابة العسكرية المشددة فى اسرائيل الأنباء المتكررة عن عقد اجتماعات بين الزعماء الأردنيين والرسميين الاسرائيليين أو ربما بين الملك نفسه وبين ايجال آلون المسئول عن المقترحات الخاصة بالتوصل الى تسوية مع الأردن من شأنها السماح لاسرائيل بالاحتفاظ بسلسلة من المستعمرات المسلحة التى تسيطر على المرتفعات الغربية المطلة على النهر فى نفس الوقت الذى يتم فيه اعادة المنطقة كلها الى

الادارة الأردنية وبدا ان حسين على استعداد للسير قدما فى الأمر بمفرده بعيد يبرم اتفاق سلام مع اسرائيل يشمل الضفة الغربية والتوصل الى بعض الترتيبات بشأن القدس وترك مصر وسوريا تفعلان ما تريدانه بمفردهما وبغض النظر عن تاكيد حسين بأن مشروعه ليس سوى نقطة تصلح للحديث بشأن المستقبل فقد نظر اليه باعتبار انه تخطيط مبدئى لعملية خيانة للفلسطينيين والعرب على السواء خارج نطاق الأراضى المحتلة وكان الأمر يبدو مغايرا فى أعين من يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى اذ كان رشيد الشوا أحد الشخصيات البارزة الموالية للملك وهو على استعداد تام للسير بغزة فى طريق ارتباطها بالضفة الغربية كذلك كان هناك آخرون أيضا من المشاهير أو غير المشاهير من الفلسطينيين يرون على حد قول دكتور حاتم أبو غزالة من نابلس : « لقد كنا موضع تجاهل فى ظل حكم الملك الهاشمى وكانت الضفة الشرقية تستاثر بكافة انواع التطور ولكننا سنرتبط باى دولة عربية اذا كان هذا يعنى طرد الاسرائيليين سواء اكانت هذه الدولة العربية هى الأردن أم الكويت أم اليمن الجنوبية . فاى شئ عربى أفضل من اسرائيل » .

غير ان حلم حسين باقامة مملكة عربية متحدة لم يؤد الى تحطيم الطريق المسدود ولكنه الضرر بقضيته فحسب وادى الى بروز موجة جديدة من النقد الموجه الى حكومته . وكان كل ما نجح فى تحقيقه هو طرح القضية الفلسطينية فى مناقشة مفتوحة مرة أخرى وتركيز الاهتمام على غموض العبارة التى يستخدمها العرب والمتحدثون باسم الأمم المتحدة غالبا على السواء وهى « استعادة حقوق الشعب الفلسطينى » فما هى هذه الحقوق ؟ لا احد يعلم على وجه التحديد ولكن نتيجة للخطوة التى اقدم عليها الملك فان عددا متزايدا من المواطنين يفكر فيها وشرع الفدائيون انفسهم فضلا عن الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة فى محاولة تحديد ما تعنيه العبارة تماما ومن سوء الحظ انهم لم يستقروا على الراى حتى موعد نشوب حرب اكتوبر وهكذا لم يكن فى أمكانهم التحدث بصوت متحد أو واضح ولكن حقيقة أنهم يفكرون فيما يريدون وما الذى يمكنهم عمله تمثل تقدما فى ذاته .

٦ ـ سوريا وليبيا رجال جدد فى مقاعد الحكم

كانت سوريا هى الدولة الوحيدة التى بدا انها تعرف تماما ما هى حقوق الفلسطينيين وهى الدولة العربية الوحيدة التى دخلت الحرب من اجلهم عام ١٩٧٠ وترددت انباء بأن الرئيس نور الدين الأتاسى قال للزعيم المصرى جمال عبد الناصر فى مؤتمر القاهرة الذى فرض السلام والذى أودى بحياة عبد الناصر لقد صرحت بقولك : انك لن تسمح قط بتصفية حركة المقاومة الفلسطينية حسنا انها تخضع للتصفية حاليا وقد حاولنا انقاذها فما هو الخطا فى هذا ؟

ولم يكن الأمر بطبيعة الحال يمثل تلك البساطة تقريبا التى تظاهر بها الرئيس الأتاسى كذلك لم يكن السوريون متحدين كما كان يبدو والواقع ان القرار بارسال الدبابات السورية الى الأردن قد اتخذته جماعة من حكومة دمشق المزقة فى ذلك الحين تحت قيادة صلاح جديد مساعد سكرتير عام حزب البعث الحاكم والذى كان زعيما لما عرف بانه الجناح « المدنى » فى الحكومة وان كان هو نفسه يحمل رتبة لواء وذلك طبقا للطابع الخاص للمسرح السورى المعقد وتولى جديد القيادة المباشرة لقوة الغزو السورى فى قرية درعا على الحدود بمعاونة دكتور يوسف زعين رئيس الوزراء السابق وخليفة فى القيادة القطرية للحزب وقد عارض سياسات وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد ورئيس الأركان اللواء مصطفى طلاس مع تأييد مجموعة من كبار الضباط له . ولم يكن بامكان سوريا شن حملة مناسبة وهذه الانقسامات قائمة فى صفوف القادة ولذلك شعرت الأردن بالارتياح حينما ادركت حقيقة الأمر . وكان السبب الرئيسى الذى مكن رجال الملك حسين من صد الغزو السورى ان اللواء الأسد القائد السابق للسلاح الجوى رفض ان تشترك طائراته فى المعركة بحيث امكن للسلاح الجوى الأردنى الصغير ضرب الدبابات السورية بلا ادنى تدخل .

وكان هذا القرار الذى اتخذه اللواء الأسد يعكس جوهر تفكيره فهو لم يؤمن قط بأن بوسع رجال العصابات الفلسطينيين الحاق ضرر بالغ باسرائيل ولم يجد ما يبرر اشتباك دولتين عربيتين فى قتال لصالحهم ولم يكن الأسد راضيا عن نظام الحكم الأردنى بصفة خاصة ولكنه لم يكن يهتم بالمثل بالرجال الذين يتربعون على قمة منظمة التحرير الفلسطينية كذلك كان غير راض على نحو اكبر عن الوضع الذى وضع فيه رفاقه فى الحكومة السورية انفسهم اذ بدا من الواضح انذاك أن الاجراء الذى اتخذه صلاح

جديد بارسال المدرعات كان يستهدف دعم مركز سوريا فى العالم العر[بى]
بقدر ما يستهدف تقديم مساعدة فعلية للفدائيين ولا شك فى ان جديد كا[ن]
يفكر فى التفوق على العراق مثلما كان يفكر فى احتياجات الفدائيين فى الاردن.

وكانت هذه المنافسة المستمرة بين العراق وسوريا عاملا هاما ل[...]
سياسات الحكومتين مع محاولة كل منهما التفوق على الأخرى املا فى كسـ[ـب]
الأصدقاء والتأثير على الأحداث فى العالم العربى وزعم كل منهم ان لديه النو[ع]
الحقيقى للبعث ذلك الخليط الغريب من المثل العليا والمطامع والسياسا[ت]
الصعبة على حد قول ميشيل عفلق المسيحى اللبنانى وصديقه صلاح البيطا[ر]
المدرس بدمشق ولذلك فحينما تعهدت العراق بارسال جيشها لمعاو[نة]
الفدائيين فى الأردن ثم قررت بحكمة ان لا تفعل ذلك شعرت سوريا بانها
مرغمة على التصرف على الرغم من انها لم تقدم اية وعود . ونجم عن
عدم تحرك العراق ومحاولة سوريا غير المتحمسة التدخل تغييرات عميقة
شهدتها الدولتان وهى بمساهمتها فى تولى اللواء الأسد السلطة فى دمشق
مهدت الطريق لاعادة تنظيم الجيش السورى وبذلك استعدت لحرب اكتوبر.

وكان العداء بين الأسد وجديد يرجع الى خلاف شخصى ومذهبى فقد
كان جديد راديكاليا فى حزب راديكالى فعلا وتولى بجدية مهمة البعث فى نشر
القومية العربية اما الأسد فكان اساسا شخصيا عسكريا رقى مع تجاوز
آخرين نظرا لقبوله سياسات البعث ولانه علوى اى واحد من نصف مليون
عضو فى طائفة مسلمة شيعية غريبة ومنشقة داخل دولة تضم ستة ملايين
سنى متزمت وكان جديد من العلويين ايضا ويؤمن بصواب ترقيته لرجال
يعتقد ان لهم ولاء قبليا كذلك قدر ان رفاقه من العلويين قد لا يشكلون
تهديدا له نظرا لأن عقيدتهم التى لا يدين بها سوى الأقلية لن تمكنهم من
احتلال المركز الرئيسى فى البلاد ولكنه كان مخطئا من الناحيتين . اذ كان
للأسد انصاره الشخصيون داخل الجيش لأن العلويين يشكلون كتلة قوية
فيه ، وهم ينتسبون الى عائلات فقيرة مما جعلهم جنودا من الوجهة التقليدية
وعلى هذا اصبحوا موجودين فى سلك الضباط باعداد غير متوازنة كذلك كانت
اراء الأسد العملية اقرب الى اراء اغلبية زعماء البلاد من مشاعر جديد
المتطرفة ولهذا كله امكن للأسد تنفيذ واحد من الانقلابات غير الدموية القليلة
فى تاريخ سوريا الملىء بالخلافات .

والواقع ان قد حاول الأسد الحفاظ على نظام حكم الدكتور الأتاسى
وكان اداة رئيسية فى تسوية الخلافات حينما نشب اول صراع عام ١٩٦٩
وقد حاول مرة اخرى فى اواخر عام ١٩٧٠ اثناء انعقاد مؤتمر خاص بالحزب

الحفاظ على نظام حكم الأتاسى ولكنه فشل وبعد انقضاء أسبوعين فى جدل
قرر الأعضاء تأيد صلاح جديد والجناح المدنى وتمت على عجل صياغة
الاوامر الخاصة بطرد الأسد وارسلت لمحطة الاذاعة والى الجريدة الرسمية
فى البلاد ولكن الرسميين الذين حملوا الرسائل منعوا بادب من دخول المبانى
بواسطة القوات التى تحيط بها والقى القبض على صلاح جديد ونور الدين
الأتاسى وواحد او اثنين من اتباعهما وتولى اللواء الأسد السلطة دون أن
تطلق طلقة واحدة وكان هذا دليل على الأسلوب الجديد الهادى بالرغم من
فعاليته البالغة للزعيم السورى ذلك انه استخدم الذخيرة التى زوده بها
صلاح جديد نفسه للاطاحة بمنافسه . فقد شن جديد هجوما بالغ القسوة
على القوات السورية فى مؤتمر الحزب متهما الضباط بعدم الكفاءة والانحراف
عن خط حزب البعث وكان المقصد بهذا بطبيعة الحال هو التنديد بالأسد
واللواء طلاس حليفه واخذ الأسد مذكرة دقيقة بما قيل وقراها بالتفصيل فى
اجتماع لكبار ضباط السلاح البرى والجوى والبحرى . وكشفت ايضا انهم
يزمعون ارسال ملحقا عسكريا فى رومانيا وانه سيجرى تعيين شخصية
مدنية مسلمة سنية مكانه ولم يبعث على الدهشة ان الضباط وعدد كبير
منهم من العلويين تصرفوا على النحو المفروض فقد تعهدوا بتأييد الأسد
وارسلوا قواتهم لتامين توليه السلطة .

وسرعان ما حصل الفريق الأسد على تأيد القاهرة وموافقة بغداد
الضمنية وطار الى دمشق العقيد الليبى معمر القذافى دون ان يعلن عن زيارته
ليلقى نظرة سريعة على الزعيم الجديد وليقرر انه وافق عليه وليعلن تأييده له
على الملأ وقد افاد هذا الأسد الى حد ما فى ذلك الحين على الرغم من ان
الزيارة بدت فى نظر بعض السوريين بمثابة تعطف لا مبرر له مما اثار الضغينة
فى نفوس الكثيرين ومع ذلك لم يسمح الأسد بأن يؤثر هذا عليه وتحرك بسرعة
لتعزيز قبضته . ووضع دستورا مؤقتا جديدا وقرر اجراء انتخابات للبرلمان
وعمل على تأمين وضع رجاله فى جميع المراكز الرئيسية وفيهم شقيقه العقيد
رفعت الأسد الذى تولى قيادة فرقة ضاربة ترابط على ابواب دمشق . ثم
قامت القيادة القطرية للحزب وقد انتقى الأسد اعضاءها بعناية بتعيينه
رئيسا للجمهورية فى مستهل عام ١٩٧١ وايد هذا التعيين مجلسا للشعب
ـ او برلمان ـ اختير أعضاؤه بحرص شديد ثم اكده استفتاء حصل فيه على
تأيد ٩٩٪ من الناخبين ولم يكن هذا بالانجاز السيىء بالنسبة لرجل عسكرى
بسيط ولكن تعين على الأسد أن يواصل التعبير عن ميله للسياسات ولتطويع
الجهاز السياسى السورى المعقد . ومنذ اللحظة التى شعر فيها الأسد بانه
يسيطر بأمان على السلطة شرع فى تنفيذ سياسته التى تتمثل فى اعادة تزويد

القوات السورية بالمعدات والاعداد لجولة اخرى مع اسرائيل وكانت رؤيته واضحة فيما يختص بأن اسرائيل لن تتخلى عن الأراضى عن طواعيه وكان ر وسعه بصفته جنديا محترفا ان يفهم تماما الحجة التى يسوقها الاسرائيليون من ان امنهم يعتمد على الاحتلال المستمر لمرتفعات الجولان وسيناء وكان يتفق مع هذا القول اساسا ومن ثم ينبثق المنطق بانه لا يمكن اخراج اسرائيل الا باستخدام القوة . واذا وضعنا فى الاعتبار رايه فى فعالية الفدائيين الذى اوضحه بجلاء ابان الحرب الأهلية فى الاردن فقد كان من الطبيعى ان يركز جهوده على قواته النظامية والأسلحة التقليدية مع حثه روسيا دواما على امداده بالمزيد من الطائرات والدبابات والمدافع والصواريخ ومن الاقوال الصحفية الشائعة فى العالم العربى ان السوريين سيحصلون على كل شئ باستثناء النصيحة .

وفى الوقت نفسه قام الأسد بعملية تطهير هادئة بين قواته وطرد عددا كبيرا من الضباط الذين كانوا قد ترقوا بسبب ولائهم للحزب فحسب ووضع فى مكانتهم رجالا مؤهلين فى مهنتهم وقد حرص على ان لا يتحيز للعلويين على حساب السنيين وخرج عن أسلوبه المالوف لتهدئة مشاعر الزعماء الدينيين ملبيا مطالبهم – حينما نشر الدستور الدائم بضرورة أن يتضمن شرطا ينص على ان رئيس الدولة مسلم على الرغم من انه اعترض على الاقرار بأن سوريا دولة اسلامية رسميا . واعطيت دفعة للتنمية الاقتصادية بفضل مساعدة الروس واستكمل العمل قبل الحرب مباشرة فى بناء سد الفرات الذى له اهمية بالنسبة لسوريا مثلما لسد أسوان بالنسبة لمصر وكانت سوريا خلال السنوات المتخللة للحرب دولة متحركة لديها احساس حى بشخصيتها وتعيش وسط جو صاخب على الرغم من ان الأسد هو الذى كانت لديه وحده فكرة كاملة عما سينتهى اليه الأمر كله لأنه كان يدرك دائما أن هناك حربا جديدة ستقع حتما ولذلك وضع سياسته الخارجية والداخلية ايضا على هذا الأساس .

ومن الخطوات الأولى التى اتخذها تمسك سوريا بفكرة اقامة اتحاد فيدرالى للجمهوريات العربية وهو تحالف ضم مصر وليبيا والسودان وأعلن كل من الرئيس ناصر والعقيد القذافى والفريق النميرى عن انشائه خلال مؤتمرهم الذى عقد فى طرابلس عام ١٩٦٩ وحينما اعلن رسميا عن انشاء الاتحاد الفيدرالى فى نهاية الأمر شهر ابريل عام ١٩٧١ كان يتكون من مصر وليبيا وسوريا اذ ان السودان كانت معنية بمتاعبها الداخلية اكثر من اهتمامها بالتحالفات العربية ولذلك اضطرت الى الانسحاب . وكان الاتحاد الفيدرالى الجديد المفكك الذى شكله الرئيس السادات يناسب الأسد تماما حيث

بمنحه مركزا اكبر داخل العالم العربى ويعزز تحالفه مع مصر والذى جعله حجر الزاوية لسياسته لأسباب عسكرية فضلا عن انه يثير تعاطف المتطهرين فى حزب البعث المخلصين لفكرة القومية العربية ولاشك فى ان الأسد لم يكن راغبا فى اى تدخل فى طريقة ادارته لشئون سوريا ولم تكن لديه اية نية لتحويل الاتحاد الفيدرالى الى اى كيان يتمتع بقوة حقيقية وقد ايده فى هذا الهدف الرئيس السادات الذى اعتنق نفس الراى فى الوقت الذى يعلن فيه العكس اما العقيد القذافى من الناحية الأخرى فكان مؤيدا للوحدة الحقيقية الأمر الذى يعد سببا آخر يبرر تعاظم كراهية الزعيم السورى لزميله رئيس الدولة ومع ذلك ظهر سبب جديد لتوتر العلاقات بين الدولتين حينما قام القذافى بارسال مائتى جندى ليبى للقتال فى سوريا كفدائيين اذ كان قد فتح فى ليبيا مكاتب لتجنيد الفدائيين وحينما لم يتقدم لها متطوع واحد اكتفى بتحويل بعض قواته النظامية الى رجال عصابات وكان الفلسطينيون يخضعون فى سوريا دواما لرقابة مشددة لأن الأسد لم يكن يريد ان يفرض عليه توقيت المعركة او مداها كما انه لم يكن يريدها من خلال تصرفات رجال العصابات الذين لا يخضعون للانضباط وكان يتعين موافقة المخابرات العسكرية السرية على اى عملية كما تعين على الفدائيين الذين يتحركون داخل البلاد الحصول على تصريح مرور خاص ولذلك لم يبعث على الدهشة قط أن « متطوعى » العقيد القذافى وجدوا انفسهم يجلسون بلا عمل فى سوريا لمدة عام بدون ان يسمح لهم بالقيام بأى غارة عبر الحدود .

وليس معنى هذا انه وجد هناك حظر على عمليات الفدائيين جميعها فى سوريا بل كان العكس هو الصحيح لأن الأسد أمن بضرورة بعث الحياة فى مهمته واحيانا كان ينتقد مصر حليفته ، لتمسكها الشديد بوقف اطلاق النار الذى وافق عليه الرئيس ناصر فى اغسطس عام ١٩٧٠ وقد حرصت سوريا على عدم الموافقة على هذه الهدنة كما انها لم توافق على القرار رقم ٢٤٢ الذى يمثل اساس جهود مصر جميعا على درب المفاوضات ومن الواضح ان هدف الأسد والزعماء السوريين كان يتمثل فى القضاء التام على اسرائيل كدولة على الرغم من انهم لم يذكروا ذلك علنا ابدا ولو سارت حرب اكتوبر كما كانوا يتمنون لتوغلت الدبابات السورية فى الجليل ولما توقفت بالتأكيد عند مجرد تحرير الأرض المحتلة . ولا ريب فى ان القذافى ايضا تصور ان الهدف العربى النهائى هو ازالة اسرائيل من الوجود ولكن القذافى لم يستشر فقد برهن على انه شخص طائش لا يعتمد عليه ومن المحتمل ان يذيع اى شىء قيل سرا له ولذلك تعين عدم اطلاعه على اى شىء ومن بين عجائب الاتحاد الفيدرالى الذى اقترن قيامه بضجة كبيرة الشخصيات والأساليب المختلفة تماما

للزعماء الثلاثة المعنيين فهي جميعا شخصيات عسكرية ولكن لا شيء بجمعها فيما عدا ذلك فالسادات شخصية وطنية مخلصة وعضو سابق في جماعة الاخوان المسلمين وسياسي عملي اريب ومجرب . والأسد شخصية معتدلة وواقعية في كل شيء باستثناء رغبته في طرد اسرائيل من الاراضي السورية التي استولت عليها وهو رجل ليست لديه معتقدات يؤمن بها بقوة على الرغم من انه تأكد على نحو متزايد من انه اصلح رجل لتحقيق هذا الهدف والقذافي مختلف تماما عنهما فهو اصغر سنا بكثير يتقد طموحا وايمانا في قدرة وقناعه بانه هو وحده القادر على رؤية الحقيقة وانه الشخص الذي كتب عليه ان يقود الأمة العربية . وكان القذافي اكثر الظواهر اشارة في العالم العربي خلال سنوات ما بين الحرب على الرغم من ان نفوذه اقل من الاثنين الآخرين على نحو من المفارقة . وقد ندد بتصرفاته زعماء آخرون ووصفوه بانه طفل في أحيان كثيرة او ربما وصفوه بانه طفل فظيع على الرغم من ان قلة آمنت بآرائه بجدية . ورغم كل ما لديه من اموال فقد عجز عن اعداد الاوضاع كما يشتهي .

وقد تولى معمر القذافي الحكم في ليبيا في شهر سبتمبر عام ١٩٦٩ حينما اطاح انقلاب قام به الضباط الأحرار على غرار ما فعل ناصر كما هو واضح بنظام حكم الملك ادريس البالغ من العمر ٧٩ عاما وهو عرش اتسم بعدم الفعالية والتردد في معظم الأحيان منذ عام ١٩٥٠ وكانت ثورة الجيش امرا تخشى وقوعه دواما مجموعة الساسة الفاسدين الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية والذين كانوا يشكلون الديوان الملكي المسيطر على البلاد ولذلك تم تعزيز قوات الامن الداخلي باسلحة حديثة وسيارات مدرعة . وحينما حلت الواقعة لم تطلق سوى بضع طلقات رصاص اثناء سيطرة المتآمرين من الجيش على محطات الاذاعة وغيرها من الاهداف التقليدية في طرابلس وبنغازي والبيضا . وتم نزع سلاح قوة الدفاع في برقة التي كان من المعتقد انها تدين بالولاء الشديد للملك بما انها شكلت من ابناء طائفة السنوسيين وحددت اقامتها في الثكنات ولقي البوليس في طرابلس نفس المعاملة وكانت المعارضة جد ضئيلة وسرعان ما سيطر مجلس قيادة الثورة على البلاد رافعا شعار « الوحدة ، الحرية ، الاشتراكية » وبدا في البداية ان العقيد سعد الدين بوشويرب هو الزعيم وقد عينه رفاقه من المتآمرين في منصب رئيس الأركان . ولكن ذلك كان مجرد ستار سرعان ما ظهر ان الرائد القذافي الذي قاد الحركة في بنغازي هو القوة الحقيقية وراء المسألة ورقاه رفاقه الى رتبة عقيد وعين قائدا واصبح بالفعل رئيسا للدولة . وفي الوقت نفسه تم تشكيل حكومة جديدة لتقوم بدور الذراع التنفيذية لمجلس القيادة

مع تولي محمد المغربي الفلسطيني الذي كانت له علاقة بحركة الوطنيين العرب بقيادة حبش منصب رئيس الوزراء .

واتضح بعد ذلك ان الضباط الأحرار الذين قاموا بالانقلاب بلغوا نحو ثمانين ضابطا على الرغم من ان اثني عشر منهم فقط اصبحوا اعضاء في الجهاز الحاكم . وفضل الباقون ان يظلوا في مواقعهم في اجزاء شتى من البلاد حيث مارسوا حق الاعتراض – الفيتو – على القرارات التي لا يرضون عنها . وكان زملاؤهم يستشيرونهم في احيان كثيرة . والواقع ان وجود هؤلاء الأشخاص الأقوياء في خلفية الأحداث هو الذي كبح جماح القذافي بعد ذلك ومنعه من تنفيذ بعض آرائه المتطرفة بل انه ادى احيانا الى لجوئه الى خيمته عابسا حينما لا يتحقق له ما يريده . وكان هناك في بداية نظام الحكم الكثير مما يتعين القيام به بحيث لا يسمح لأي شخص بالاصرار على التمسك باهوائه الشخصية لان ليبيا برزت كاحدى الدول العربية الثورية بعد ان ظلت رهينة المعسكر الاقطاعي لعشرات السنين بغير فعالية بل ان رد فعل الحرس القديم ساعد على دعم الثورة لأن اول تصرف اقدم عليه عمر الشويلحي كبير مستشاري الملك تمثل في سفره الى لندن لمحاولة تنفيذ معاهدة الدفاع الانجلو – ليبية الموقعة عام ١٩٥٣ وانصت مايكل ستيورات وزير الخارجية البريطاني في ادب في الوقت الذي اوضح فيه ان بريطانيا لا تنوي التدخل . ومع هذا كانت مجرد حقيقة استقبال الشويحلي في لندن كافية لشن حملة مناهضة لبريطانيا في ليبيا وهي حملة آثارها بعناية محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة الأهرام القاهرية الذي رافق اول وفد مصري طار الى طرابلس . وكانت مصر والعراق قد حصلتا من قبل ذلك باربعة اعوام على مجموعة ضخمة من الأوراق البريطانية الخاصة بخطط الطوارىء في المنطقة من الرقيب بيرس الان الذي كان مسئولا عن السجلات في وزارة الحربية في لندن . وكان الان في حالة عوز شديد وزوجته مريضة ولذلك باع الوثائق من السجلات الى الملحقين العسكريين لمصر والعراق . وكانت جريدة الأهرام التي يراس هيكل تحريرها قد نشرت فعلا عددا من الوثائق بعد القبض على الان مباشرة وبعد وقوع الانقلاب الليبي باسبوع عادت للحديث عن الموضوع نفسه وتحدثت بالتفصيل عن خطة بريطانيا للتدخل في ليبيا في حالة ما اذا تعرضت لهجوم خارجي ولا شك في ان التفاصيل التي طرحتها الجريدة كانت حقيقية ولكنها مستمدة من خطة وضعت من قبل ذلك بعدة اعوام وليست لها اى علاقة بالوضع عام ١٩٦٩ وعلى الرغم من هذا فقد ادت المهمة المطلوبة منها واشعلت الوقود في المشاعر المعادية للبريطانيين في ليبيا .

ولقد حرص نظام الحكم الليبى الجديد خلال الأسبوع الاول لوجوده على الاحتفاظ بسرية شديدة مع اغلاق الحدود وقصر المعلومات الوحيدة على النشرات والتعليمات الصادرة من الاذاعة الوطنية . وظهر بعد ذلك ان هذا كان يرجع الى وجود بعض المقاومة فى بنغازى . وتعين على القذافى المعروف لزملائه فقط وليس لأحد غيرهم بأنه الزعيم الحقيقى للثورة – تعين عليه مواجهة هذا الموقف قبل ان يتولى منصبه على راس الحكومة الجديدة . ولم يثر الملك ادريس نفسه اى متاعب فقد كان يستجم فى احد مناطق عيون المياه المعدنية بتركيا حينما وقع الانقلاب وقد اعلن على الفور انه لن يعود الى بلاده الا اذا دعى الى ذلك بينما تنصل من محاولة عمر الشويلحى لاعادة الملكية بالقوة الخارجية . وكان التصرف الوحيد الذى اقدم عليه الملك فى الواقع هو الانتقال من تركيا الى اليونان ثم استقر بعد ذلك فى فيلا بالقرب من الاهرامات بالقاهرة وكان فى هذا ما يبعث على المفارقة فى ضوء الحكم الذى صدر باعدامه فى ليبيا واخيرا مشروع اندماج ليبيا الكامل مع مصر وكان فى الامكان رؤيته فى احيان كثيرة وهو يتجول داخل المدينة فى سيارته الرولزرويس العتيقة كما تنازل ولى العهد حسن الرضا عن العرش ودعا الجميع الى تأييد نظام الحكم الجديد واعلن انه ايده شخصيا .

وتحدث القذافى فى اول بيان علنى له يوم ٨ من سبتمبر عن « الملكية الفاسدة التى اشاعت فى البلاد المحسوبية والرشوة والزيف » وكان هذا الوصف معنفا للغاية للادارة السابقة . كما ألمح الى موقفه الشخصى والى اعتقاده الغامض بانه شخص متميز اختارته العناية الالهية اثناء حديثه عن المهمة المنوط به تنفيذها وقال فى بساطة وعلى نحو ركيك يتجاوز البلاغة العربية المعتادة فى مثل هذه المناسبات « هذا هو قدرى » .

وحدد القذافى بعد ذلك ما كان يعنيه بشعار الحرية،الاشتراكية والوحدة. وقال ان الحرية يجب ان تكون سياسية واقتصادية واجتماعية ، والاشتراكية تعنى العمل الجماعى للوصول الى مجتمع العدل والكفاية والوحدة « أمل غال وعزيز على النفس سعت الأمة العربية الى تحقيقه منذ أجيال » . وهكذا اخذ القذافى يفكر ويتكلم بالفعل عن الوحدة خلال اسبوعين من توليه الحكم او عن ذلك « الدعم التاريخى الحاسم ضد مؤامرات الامبريالية والصهيونية » ومن الأمور التى لها مغزى انه كرس قسما من أحاديثه لهذه الفكرة اكبر مما خصصه لأى فكرة اخرى .

واخذ نظام الحكم يجعل وجوده محسوسا فى الداخل واوضح مرسوم صدر فى بداية العهد الطريق الذى تتجه اليه ليبيا لأنه قرر تحديد جميع

الاشارات فى انحاء البلاد كافة باللغة العربية ولذلك تعين رفع جميع الملاحظات المكتوبة باللغة الأجنبية من الشوارع مما اوقع القلة من الزوار التى سمح لها بدخول البلاد آنذاك فى حيرة وارتباك . ونص مرسوم آخر على ضرورة ان يملك الليبيون جميع الشركات بنسبة ١٠٠٪ وكانت هذه خطوة اولى لطرد جميع الايطاليين من البلاد وقضت خطوة اخرى بانشاء لجان عسكرية لتقصى ما يجرى فى القاعدتين الجويتين هويلس والعضم وكان هذا مقدمة مؤكدة لاجراء مفاوضات مع امريكا وبريطانيا بشان الغاء امتيازاتهم وقضت اوامر اخرى بوقف جميع اعمال التنمية التى اقرها نظام الحكم السابق حتى يتسنى للضباط الشبان المسئولين حاليا الاطمئنان على عدم وجود رشوة او اسراف .

ونجح القذافى فى اول اختبار له بعد توليه الحكم بثلاثة اشهر تماما حينما تمكن بنجاح من طرد اثنين من وزرائه الأقوياء هم العقيد آدن حواز والعقيد موسى احمد بعد القاء القبض عليهما . وقد تمت دعوة الاثنين المسئولين على الترتيب عن وزارتى الدفاع والداخلية للانضمام الى الحكومة بعد استيلاء الأحرار على الحكم ولم يشتركا فى الانقلاب . ففى الوقت الذى كانا يقومان فيه بدور ضباط اتصال بين الوزارة المدنية اساسا ومجلس قيادة الثورة العسكرى عملا على اقامة عمد مراكز قوة لهما وظلا يحثان على اتباع سياسات لم تلق موافقة القذافى ولم تكن هناك على الاطلاق ذرة من الصدق فى الزعم بانهما كانا يدبران لشن ثورة مضادة اذ كان هذا مجرد مبرر لعزلهما .

وبعد ذلك بفترة وجيزة امكن للقذافى تعزيز سلطته على نحو اكثر فعالية بالاعلان عن ان نائبه عبد السلام جلود استكمل بنجاح المفاوضات بشان انسحاب القوات الأمريكية والبريطانية الكامل من جميع القواعد الليبية وكان هذا الوجود الأجنبى فى البلاد يثير مشاعر الكراهية فى ليبيا خلال سنوات ما قبل الثورة حينما اصبحت الآراء الخاصة بالتأميم وسيادة الدولة على اراضيها معروفة ومفهومة على نطاق اوسع نتيجة للسياسات المتبعة فى مصر والجزائر المجاورتين . وكان نشر التعليم الشيء الوحيد الذى نجحت فيه حكومة الملك ادريس الى اقصى حد هو الذى اعطى دفعه لهذا الاتجاه . ولما كانت ليبيا نفسها قد عجزت عن توفير عدد المدرسين المطلوبين فقد تمت الاستعانة بهم من مصر وتبعا لذلك تم تدريس العديد من عقائد المذهب المصرى فى المدارس الليبية . وقد ضمن هذا الموافقة عن طواعية على « الاشتراكية الاسلامية » . التى نادى بها القذافى واسهم فى تشكيل راى عام انه على استعداد للموافقة عليه والترحيب بجهوده لتاكيد السيادة الليبية كما كان القذافى اكثر الزعماء حديثا عن « استعادة حقوق الفلسطينيين » وهو شيء يشعر به بعمق بالتاكيد وان كان من المشكوك فيه .

مشاركة الليبيين المهتمين بانفسهم والذين يكرهون الاجانب للعقيد القذافى فى
اهتمامه بنفس الدرجة . ومع ذلك فقد كان فى هذا ما يبرر اعادة تنظيم القوات
المسلحة وتطويرها . تلك الأولوية الأولى لاى زعيم يستولى على السلطة على اثر
انقلاب عسكرى . وفى اوائل عام ١٩٧٠ ابرمت ليبيا مع فرنسا اتفاقا بشأن
امدادها بالطائرات من طراز ميراج .

وادت هذه الصفقة الى اثارة قدر كبير من الجدل على الرغم من ان الطائرات
الليبية لم تمارس عملها قط . اذ انتقدت امريكا وبعض الدول الغربية الاخرى
وعلى راسها بريطانيا آنذاك فرنسا لخرقها الحظر الذى فرضته على ارسال
اسلحة لدول خط الجبهة فى صراع الشرق الاوسط ودفعت بأن بيع طائرات لليبيا
هو فى الواقع لمصر لأنها الدولة الوحيدة القادرة على استخدام الطائرات وتشغيلها.
ورد الفرنسيون على هذا القول باشارتهم الى ان التسليم لن يتم الا على فترة
طويلة وسيتعين تدريب الطيارين وليس لدى مصر من الرجال المؤهلين ما يكفى
لقيادة الطائرة التى حصلوا عليها فعلا ناهيك بقيادة اعداد اخرى غيرها كثيرة .
وكان هذا بطبيعة الحال تحركا ينسجم تماما مع الدبلوماسية الفرنسية فى المنطقة
التى كانت تهدف الى تحقيق الحد الأقصى من المكاسب لفرنسا بدون ان تفكر كثيرا
فى النتائج المترتبة على هذا . ومن المؤكد تماما ايضا ان عددا من المصريين كانوا من
بين اوائل الطيارين الليبيين الذين ذهبوا الى فرنسا للتدريب على استخدام
طائرات الميراج . ومع هذا تلاشت الضجة ولم يقع اى ضرر فى النهاية بسبب
سياسة فرنسا التى تستهدف مصلحتها الذاتية .

وفى الوقت نفسه اتجه القذافى الى ممارسة سيطرة اقوى على توجيه شئون
البلاد وكان اسلوب القذافى ينحصر حتى ذلك الحين فى السماح للوزارات باتخاذ
القرارات التى ترسلها بدورها الى مجلس قيادة الثورة للتصديق عليها وهو امر
لم يكن مضمونا دائما . ومن ثم عين القذافى نفسه فى يناير عام ١٩٧٠ رئيسا
للوزراء ووزيرا للدفاع وعين اربعة ضباط وزراء فى الحكومة . وبرز عبد السلام
جلود كالشخص الثانى فى البلاد بلا منازع . ثم اصبح بعد ذلك رئيسا للوزراء
ولكن ليس قبل وقوع عدد من الاشتباكات بينه وبين القذافى . اذ ان جلود ليس
فى مثل تعصب القذافى فى مراعاته للتعاليم الاسلامية المشددة ويحب شرب الخمر
احيانا او زيارة ملهى ليلى فى الوقت الذى يعد فيه القذافى من الزاهدين شخصيا
وينفذ الشريعة بحذافيرها ولا يزال يعيش فى الثكنات العسكرية وحينما انتقل
جلود للاقامة فى فيلا جميلة وان كانت متواضعة فى طرابلس ذهب اليه القذافى
واجبره على مغادرتها .

وكان القذافى معنيا بالشئون الداخلية باكثر من اهتمامه بالمسرح العربى

الأرض الى حين وفاة ناصر بطله . هذا على الرغم من انه زار عدة دول واحيانا
كان يقدم نصائح لم تطلب منه . وقد اصدر اوامره بمصادرة جميع ممتلكات
اليهود والايطاليين فى البلاد وطرد افراد الجاليتين من البلاد تماما . وكان عدد
الايطاليين منهم ٢٥ الف ايطالى . وكان ينزع فى ذلك الحين ايضا الى اكتشاف
مؤامرات ويعتبر ذلك المبرر المفيد المعتاد للتخلص من خصوم نظام الحكم على الرغم
من ان القذافى بالغ فى ذلك قليلا واكد ان تشاد المجاورة قد عقدت العزم على
الاطاحة به . واتهم « جيش من المرتزقة تدعمه وكالة المخابرات الأمريكية »
بالاستعداد لغزو ليبيا عن طريق تشاد وكانت هذه ذريعة لقطع علاقاته مع هذه
الدولة التى يقاتل فيها الرئيس تومبا لباى والفيلاق الأجنبى الفرنسى لاخماد
عصيان مسلح قام به المسلمون فى الشمال .

غير ان وفاة ناصر غيرت كل شىء لأن ناصر كان بطل القذافى والرجل الذى
سار على نهجه والزعيم الذى رضى بالنمو فى ظله . وكان ناصر يدلل القذافى حيث
قال ذات مرة « انك تذكرنى بنفسى حينما كنت شابا » ولكنه استغله لاطلاق
بالونات اختبار ولانتقاد الفلسطينيين حينما كان يشعر انه امر ضرورى او لموازنة
مناورات دول عربية اخرى. وفى مقابل ذلك ابدى القذافى تأييدا مخلصا بل انه اثنى
حتى على موافقة مصر على وقف اطلاق النار على القناة فى نفس الوقت الذى كان
يقول فيه باستحالة التوصل الى اى تسوية عن طريق المفاوضات مع اسرائيل
كما منح مصر عملة صعبة كانت مصر فى مسيس الحاجة اليها ولكن خلو المسرح
السياسى من ناصر غير الموقف بشدة . اذ شعر القذافى بانه هو نفسه يجسد
روح الثورية الشابة التى تكتسح العالم العربى وانه الخليفة الذى يستحق
خلافة بطله وليس هؤلاء الساسة القدامى والمحنكين فى المؤسسة المصرية . وكان
مثل هذا الطموح فى حاجة الى منبر يمكن منه اعلانه ولم يكن القذافى قادرا على
اجتذاب اهتمام عالمى او دولى باستثناء اجتذاب مشاعر الشك فيه . فى الوقت
الذى لم يزد فيه عن كونه حاكم دولة معظمها ارض صحراوية جرداء ولا يزيد
عدد سكانها عن مليونى نسمة اغلبهم اميون وفيها احتياطات ضخمة من البترول
يتعين ان تستغلها الشركات الاجنبية . وكان فى حاجة الى قاعدة لقوته وقرر ان
الاتحاد الفيدرالى المقترح فى « ميثاق طرابلس » الذى وضعه ناصر والنميرى وهو
شخصيا سيحقق له ما يريده ولا سيما ان سوريا اعلنت ايضا عن استعدادها
للانضمام اليه . وكان من الواضح دواما ان الرئيس السادات سيكون رئيس
اى دولة فيدرالية ولكن القذافى اعتقد ان فى وسعه احتلال المركز التالى فى القيادة
وسيمكنه من خلال هذا المركز ممارسة نفوذه فى طول العالم العربى وعرضه .

ولكن الطريق كان طويلا بين فكرة الوحدة وتنفيذها الفعلى وجاءت الضربة

الأولى حينما ارغم الرئيس النميرى على التراجع عن الاندماج المقترح . ومع هذا قال القذاق لنفسه ان مصر وسوريا وليبيا افضل من لا شيء وقد بذل قصارى جهده لاعطاء دفعة للاتحاد الفيدرالى . وكان الاتحاد يعنى بالنسبة له اتحادا فيدراليا حقيقيا وليس تحالفا على الورق فقط بينما كان كل ما يريده السادات والأسد بالتاكيد هو تحالف مفكك للغاية. وكان الأسد قد عقد العزم على الاحتفاظ بصلات ثنائية وثيقة مع مصر حليفه الضرورى حينما يشرع فى استعادة اراضى بلاده بالحرب . وكان السادات مثله سعيدا لحفاظه على صلاته بسوريا حتى لا يتكرر ثانية ذلك الوضع الذى انطوى على كارثة وادى الى نشوب حرب عام ١٩٦٧ ولم يكن كل منهما يرغب فى مشاركة القذاق لهم فى مجالسهم متقدا وناصحا ومدافعا عن « الاشتراكية الاسلامية » فى الوقت الذى كان كل ما يعنيهم هو السياسات العملية ومن المكن. وكان كل ما يريدانه من القذاق هو امواله واذا كان من المتعين منحه بعض اللعب الفيدرالية لاسكاته مقابل ذلك فان هذا الأمر يصبح كافيا تماما .

ولكنه لم يكن كافيا للقذاق الذى سرعان ما ادرك انه يخدع وان الاجهزة الفيدرالية التى يجرى انشاؤها لن تكون لها اى قوة فى الواقع ولذلك احيا الخطة التى طرحها على الرئيس ناصر فى البداية عام ١٩٦٩ بعد توليه السلطة مباشرة وتتمثل فى : الدمج الكامل للدولتين . وبدا ان الأمر ينطوى على منطق للوهلة الأولى . فمصر بسكانها الثلاثة والثلاثين مليونا فى حاجة الى المجال الليبى وامواله وكلا الامرين فى وسع ليبيا توفيره كما كانت ليبيا المتخلفة والتى تفتقر بشدة الى الأيدى المدربة وفى حاجة الى الخبرة والتكنولوجيا التى يمكن لمصر تقديمها كذلك كان هناك المسعى الجوهرى نحو الالتحام القائم دوما فى العالم العربى والذى تمخض قبل ذلك عن الوحدة القصيرة الأجل لمدة ثلاثة اعوام بين مصر وسوريا والتى انتهت على نحو بالغ السوء الى درجة انه ينذر بكارثة وكان هناك منطق جغراق هذه المرة على اقل تقدير اذ ان مصر وليبيا دولتان متجاورتان بينما تفصل بين مصر وسوريا ارض معادية وكانت هناك بالمثل عوامل جعلت الوحدة المقترحة امرا مستبعدا جدا وعلى راسها عدم الثقة العميق من جانب الليبيين حيال المصريين وما يستتبع هذا من شعور المصريين بالاحتقار الشديد لليبيين المتخلفين. وقد تاكد هذه المرة تلو الأخرى اذ لم يجد القذاق معنى للاتجاه الى مصر طلبا لتعويضه عن الاشخاص الذين طردهم خلال نوبة حماسه الأولى الخاصة بتطهير ليبيا حينما ارغم الايطاليين وغيرهم من الأجانب على الرحيل . وقال القذاق آنذاك انه لن يستبدل اجانب بأجانب آخرين قط واقسم بانه يعتبر المصريين اخوة وليسوا غرباء . ومع هذا فقد اعتنق مواطنوه رايا عمليا للغاية ولم يكن فى وسعهم التفرقة بين سلوك المصرى ومن سبقوه . فالمصريون يصطحبون زوجاتهم وعائلاتهم

للمطاعم وترتدى نساؤهم المينى جيب والرجال مغرورون ومستبدون. واصبحت الخلافات والمعارك القبلية التى تنشب بين المصريين والليبيين امرا يوميا مالوفا وقد حالت شبكة البوليس السرية التى انشاها فتحى الديب كبير المسئولين المصريين فى ليبيا دون تصاعد مثل هذه الحوادث . وفى النهاية اصبح فى ليبيا اكثر من ١٠٠ الف مصرى حلوا محل ٢٥ الف ايطالى الذين طردوا وهى صفقة اعتقد الليبيون انهم كانوا الجانب الخاسر فيها .

وكان هذا الوجود المصرى يعنى التدفق المستمر للأموال من ليبيا الى القاهرة بالاضافة الى المعونات الرسمية التى وافقت الحكومة الليبية على دفعها وهكذا تدعم نفوذ القذاق مرة ثانية اذ لم يكن احد يجرؤ على اثارة عداء الممول . وادرك القذاق بسرعة ان المال هو سلاحه الوحيد الفعال على الرغم من انه ورفاقه لم يبسطوا ايديهم قط مثلما كان متوقعا . وعلى العكس من ذلك تاجل تنفيذ عقود فى الوقت الذى كان فيه اعضاء مجلس قيادة الثورة ينتهجون نهج القذافى وتم تجنيد جيش من المراقبين وكثيرون منهم ليست لديهم سوى معلومات بدائية عن مهامهم للتحقق من دوران عجلة العمل. وكان اسلوب القذافى يتمثل فى الاعلان للعالم الطلبات التى تتلقاها ليبيا من الخارج طلبا للمعونة ولكن مع تقديم القليل جدا . وبدا ان الحكومة الليبية هى التى روجت للقصص عن منح ضخمة قدمتها ليبيا لجميع انواع القضايا كوسيلة لتعزيز مركزها فى العالم العربى وربما لتشجيع من كانت تسعى الى التاثير عليهم ليتقدموا بطلباتهم ولا جدال فى ان الفدائيين لم يحصلوا قط على ما طلبوا الحصول عليه كما ان جميع الأموال المقدمة الى حركة المقاومة تتم بواسطة ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية الذين ارغموا على التعهد بعدم منح اى من المساهمات للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين او للجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين او لأى منظمة «شيوعية يسارية» اخرى. وعلى الرغم من تعامل القذافى مع موسكو وطلبه اسلحة وخبراء من الروس وحصوله فعلا على فريق من خبراء البترول الروس وشرائه دبابات روسية فانه لم يفتر قط عن معارضته للشيوعية . تلك العقيدة المتعارضة بوضوح مع تعاليم الاسلام التى يعيش القذاق وفقا لها. ومن المنطقى تماما ان القذاق ابدى كراهية للشيوعيين العرب او لمن يعتبرهم شيوعيين اكثر مما ابدى كراهيته للروس . ومن ثم فلكى يصبح طالب العون الليبى صالحا للحصول عليه يجب ان يكون معاديا للشيوعية وللامبريالية والصهيونية بل ان فرصتهم افضل اذا كانوا مسلمين .

وكان من الطبيعى وفقا لهذا المعيار ان تكون قائمة المعونات المالية الليبية طويلة وتتدرج من المنشقين المسلمين فى الفيلبين الى الجيش الجمهورى الايرلندى. وكانت مصر وسوريا وفتح اكبر الأطراف المستفيدة من هذه المعونات على الرغم

من انه كان هناك آخرون فى العالم العربى ايضا اذ ظلت المعارضة للملك الحسن فى المغرب تحصل بصفة منتظمة على معونة مالية واغلب الظن انها حصلت ايضا على بضع شحنات من البنادق والغريب ان اليمن الجنوبية الماركسية حصلت على معونة لأن القذافى كان يعلم ان امواله ستستخدم لشراء اسلحة للهجوم على اليمن الشمالية او السعودية او لتخريب ذمم القبائل ، وهى قضايا حبيبة الى نفسه . وعلى الرغم من ان الملك فيصل كان مسلما صالحا فان هذا لم يعفيه من اللوم فى نظر القذافى فقد كان الملك يمثل عقبة وبقايا اقطاعية ولذا تعين الاطاحة به.

كما تضمنت هذه القائمة ايضا الأمبراطور الأثيوبى هيلاسلاسى وعلى هذا اصبحت جبهة التحرير الارتيرية ضمن قائمة من يحصلون على عون القذافى وكذلك المتردون فى تشاد الذين كانوا يقاتلون – من وجهة نظر القذافى – دفاعا عن معتقداتهم ضد « الوثنيين » الذين يحكمون البلاد . كذلك كانت باكستان دولة تستحق العون منه على أساس التضامن الدينى فى نفس الوقت الذى اصبحت فيه السودان صالحة لاحتلال مكان فى القائمة حالما بدا الرئيس النميرى ضرب الشيوعيين فى بلاده . وقد حقق القذافى اكبر مكاسبه بمساعدته للرئيس الأوغندى عيدى امين المقابل الافريقى له . اذ كان عيدى امين الذى تولى الحكم بانقلاب عسكرى مثلما فعل القذافى تماما قد تلقى تدريبه كجندى مظلات فى اسرائيل وظل يعتمد على المعونة الاسرائيلية فى اوغندا اساسا لأن نظام الحكم السابق لميلتون اوبوتى فعل ذلك . وقد طار الى تل ابيب طلبا للمزيد من المعونة الاقتصادية والعسكرية كما طلب من بين اشياء اخرى مساعدة الاسرائيليين له فى الاستيلاء على ميناء تانجا التنزانى ولكن الاسرائيليين ردوه خاوى الوفاض . اذ كانت سياستهم فى افريقيا تتمثل فى كسب الأصدقاء بأقل التكاليف الممكنة وكانوا على استعداد لارسال فنيين وبضع دبابات قديمة استولوا عليها من المصريين أبان حرب يونيو عام ١٩٦٧ وكان هذا كل ما يمكنهم تقديمه اليه ولذلك طار عيدى امين الى طرابلس حيث لقى استقبالا اكثر حرارة . وتمكن عيدى امين المسلم الذى ينحدر من قبيلة كاكوا الصغيرة شمالى اوغندا من اللعب على وتر التضامن الاسلامى حينما قابل القذافى وسرعان ما حصل منه على وعد بتقديم مبلغ ١٠ ملايين من الجنيهات فى مقابل تعهده بطرد جميع الاسرائيليين من بلاده . ثم قام بمحاولة ماكرة فى النهاية اراد بها التودد الى من يحصلون منه على عون اذ صرح قبل مغادرته طرابلس انه حريص على بناء مسجد جديد انيق فى عاصمة كمبالا على الرغم من انه عاجز لسوء الحظ عن جمع المال المطلوب .. وفهم القذافى ما ألمح له عيدى امين ووعد بدفع المبلغ ولكنه راى انه من الافضل ارسال فاتورة الأموال له مع بدء العمل فى المسجد ثم دفع ما يحتاج اليه من مبالغ المرحلة فى اثر

الأخرى بدلا من تسليمه المبالغ المطلوبة فورا . واشارت كافة الدلائل أن كلا من الرجلين الغريبى الأطوار قد اتبع احدهما الأسلوب الذى اتبعه الآخر .

وكان القذافى خلال تصرفاته الغريبة كلها والتواءات وانعطافات سياسية يسعى فى الواقع لتحقيق هدفه . الوحدة العربية لقتال اسرائيل ودمج بلاده مع مصر لتوفير قاعدة قوة له يمكنه منها ترويج آرائه بفاعلية اكبر وتحويل بلاده الى نموذج يحتذى فى منتصف القرن العشرين لجميع الدول الاسلامية وتنفيذا لهذه الفكرة وايضا لمكافحة موجة من الجرائم التى اجتاحت طرابلس وبنى غازى اصدر مجلس قيادة الثورة اوامره بأن تصبح الشريعة – ذلك القانون الاسلامى – الأساس الوحيد لاقرار العدالة فى البلاد . وكان هذا يعنى العودة الى فرض عقوبات مثل قطع يد السارق . واوضح القذافى ان اطباء مؤهلين سينفذون مثل هذه الأحكام فى المستشفيات بدلا من تنفيذها بالسيف كما كان يحدث فى الماضى وبدا انه يغفل تماما عن الراى القائل بأن هذا قد يعتبر وسيلة ابشع من الوسيلة الأصلية . كذلك لم يقدر تأثير مثل هذه القوانين فى مصر الدولة التى صمم على الاتحاد معها . وكالعادة انتشرت فى القاهرة النكات حول موضوع الزنا والرمى بالحجارة .

وكانت هذه أمور ثانوية بالنسبة للقذافى ومجرد تقديم على الدرب الثورى. وظل الاندماج مع مصر اهم ما يشغل باله ولكنه واجه صعوبات فى هذا الصدد اذ بعد ان اعلن السادات والقذافى عن نيتهما وافقا على انشاء عدد من اللجان لوضع مشروعات للوحدة ولتمهيد الطريق امام الاندماج الكامل ومن الواضح ان السادات السياسى كان يضع فى ذهنه ان افضل وسيلة للتخلص من مشكلة هى احالتها الى لجنة ومع تشكيل سبع لجان لابد وانه اعتقد انه تخلص من هذه المسألة لسنوات قادمة . ولكن كانت لدى القذافى كالعادة آراء اخرى اذ ظن حقيقة انه من المفروض ان تتخذ الأجهزة عدة قرارات وتضع توصياتها ولما لم يحدث شىء من ذلك شكا علنا وطار عدة مرات الى القاهرة للتشاور مع السادات . وكان السادات فى كل مرة يحاول خداعه بتقديم مبرر جديد له وطرح بعض الحجج تأييدا للمعدل البطىء فى سير الأحداث وفى كل مرة كان القذافى ينحى الدبلوماسية جانبا ويذكر السادات بما وافقه عليه علنا ويحذر من انه سيقطع جميع معوناته المالية عن مصر اذا فشل الاتحاد المرتقب الا اذا سعى السادات جاهدا لتحقيقه كما اتفقا من قبل. واضطر السادات الى الاستسلام فبلاده فى حاجة ملحة الى المال ومركزه آنذاك لم يكن مأمونا على نحو يمكنه من سرد القصة علنا وببساطة كى يدرأ عن نفسه أى لوم لاعاقة محاولة جديدة للوحدة العربية ذلك المفهوم الذى يدين العرب جميعا له بالولاء الشفوى على الأقل .

وقفزت الى ذهن القذافى فكرة جديدة ابان احدى زيارته هذه للقاهرة فقد ذهب لزيارة محمد حسنين هيكل الذى كان قد عاد لتوه من بكين حيث رافق وفدا مصريا . واعجب القذافى ايما اعجاب بما سمعه عن الصين وظل يتناقش حول الاوضاع السائدة هناك لمدة خمس ساعات فى مكتب هيكل بالاهرام ومع صحفيين آخرين وكان اكثر ما جذب اهتمام الزعيم الليبى تلك الوقائع المتعلقة بالثورة الثقافية والتى حملها المصريون لدى عودتهم من بكين وكان بوسع القذافى ان يفهم هذا الأمر وان يستخدمه وكان من بين المشكلات الكبرى فى ليبيا العجز عن هز اجهزة الحكومة المدنية لتنهض من جو الكسل الذى تعلمته فى عهد الملك ادريس. كذلك لم يستطع الموظفون التخلى عن عادة الحصول على رشاوى مقابل قيامهم بما يتعين ان يكون من صميم واجباتهم العادية . ورأى القذافى التجربة الصينية وسيلة عظيمة لايقاظ البيروقراطيين فى بلاده والذين اشار من قبل الى انهم يعنون بشرب القهوة اكثر من الاهتمام باى شىء آخر . وهكذا عاد القذافى الى مجلس قيادة الثورة للدعوة لفكرته الجديدة مع كل الحماس الذى استطاع التعبير عنه . ولكنها وجدت مقاومة فقد خشى عدد كبير من رفاقه ان تتمخض عن انهيار القانون والنظام بصفة عامة بدلا من زيادة معدل الكفاءة وامكنهم ايضا التكهن بأن خصوم حكومتهم سيجدون الفرصة سانحة لهم بممارسة نشاطهم وكانوا يعلمون انه ما تزال هناك بضعة جيوب للمقاومة وفى النهاية تحقق للقذافى ما يريده كالعادة وبدأ الثورة الثقافية فى ليبيا على الرغم من انه فى الوقت الذى كان فيه القذافى يناشد جماهير الشعب ان تتولى السلطة فى يدها كان اعضاء آخرون فى مجلس قيادة الثورة يضمنون ان ذوى النشاط فى الثورة الجديدة سيصبحون موظفين موثوقا بهم فى نظام الحكم . وفجأة وجد عدد كبير من رجال البوليس السرى انفسهم زعماء للجنة شارع او قرية انشئت لتطهير الفساد الذى احدثه مسئولون سابقون وكانت هذه الحركة التلقائية التى اشاعها القذافى فى حقيقتها خاضعة للسيطرة الاكبر شأنها فى ذلك شأن اى دولة ديكتاتورية اخرى.

وقد حققت هذه الثورة الثقافية فائدة كبرى . ووضع القذافى خمسة مبادىء للثورة :

١ – ضرورة الغاء كافة القوانين وسن عقوبات جديدة تتناسب مع كل حالة بدون الاشارة الى اى سابقة .

٢ – تطهير ليبيا من هؤلاء « المرضى سياسيا » .

٣ – توزيع الأسلحة على الجماهير .

٤ – القيام بثورة فى كل وزارة .

٥ – اتباع تعاليم النبى والقيام بثورة فى المدارس والمكاتب والجامعات.

وعمل الأخ معمر على توسيع نطاق هذه الأفكار . اذ قال « دمروا الكتب المستوردة والآراء الرجعية . دمروها سواء أكانت من الشرق أم من الغرب . ويجب السماح فحسب للتفكير السليم النابع من كتاب الله بالبقاء . وليس هناك مكان للتفكير الا فيما يعبر عن القومية العربية والاسلامية والاشتراكية والتقدم. ولتحرقوا وتدمروا أى شىء يجانب الحقيقة » . وفيما يتعلق بالثورة داخل الحكومة حث القذافى قائلا « فلتدوسوا باقدامكم البيروقراطيين البرجوازيين الذين يغلقون مكاتب الحكومة فى وجوهكم ويريدون أن يعيشوا كطفيليات على حسابكم » .

ولكن هذه العبارات الملهبة للمشاعر عند ترجمتها لم تكن بالغة التطرف بلغتها العربية ولم يتحقق الكثير من الناحية التطبيقية . وكانت التغييرات التى رفعت معدة بعناية فقد جرى على سبيل المثال تعديل للشخصيات فى محطات الاذاعة والتليفزيون حتى يمكن اعطاء الفرصة للشباب الذين يتمتعون بحماس ثورى . وكان الأثر الملحوظ الوحيد لذلك هو أن برامج الاذاعة الليبية تحولت الى اذاعة الخطب القديمة للرئيس ناصر ولا سيما تلك الخطب الداعية الى الوحدة العربية . وتم تطهير الجامعة أيضا من قلة من الحرس القديم . وفى المدن والقرى فى جميع انحاء الدولة غير المكتظة بالسكان وجد الاداريون الذين كانوا يعيشون حياة هادئة بعيدا عن السلطة وجدوا انفسهم تحت ضغط جديد . وكانت هذه وسيلة فعالة لاعطاء دفعة للادارة الليبية كان القذافى يعتقد بحق انها فى حاجة اليها وحرص الأعضاء الآخرين فى مجلس قيادة الثورة على أن لا تؤدى مبالغة الزعيم الى التطرف عند التطبيق العملى .

وقد ساد البلاد هذا النظام الليبى الغريب للمراجعة والتوازن منذ تولى الضباط الأحرار الحكم وحين كان زملاء القذافى من أعضاء مجلس قيادة الثورة يرون أنه يقطع شوطا بعيدا بسرعة كبيرة لم يترددوا فى ضمان حماية البلاد من النتائج المترتبة على تصرفه . وحينما قرر القذافى ان مجلس قيادة الثورة جهاز معرقل أو غير متحمس لم يتردد فى الذهاب الى خيمته للتأمل حتى اتفقوا على تلبية رغباته وقد هدد بالاستقالة بل أنه استقال بالفعل فى ثلاث مناسبات . لقد كان نظاما غريبا ولكنه كان فعالا لا سيما وأن الثمانين ضابطا الآخرين من الضباط الأحرار والذين ما يزالوا فى مواقعهم فى كافة أنحاء البلاد كان لهم حق الاعتراض (الفيتو) . وقد حاول القذافى التغلب عليهم بالحيلة ذات مرة بقطعه الاتصال بين جيش أو قاعدة حيوية وأخرى لارغامهم على ارسال برقياتهم عبر المقر الرئيسى . وما كان من زملائه السابقين الا أن قادوا سياراتهم بعيدا

عن اعمالهم وعقدوا اجتماعات صـــغيرة قبل ان يصـــدروا احكامهم المقررة بالتحذير · وقد مارس القذافى هذه الخدعة مرة واحدة · وبصفة عامة لم يكن هناك انقسام فى الرأى الا فى الشئون الداخلية · بينما كان القذافى ومجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار جميعا يفكرون بنفس الأسلوب · فهم يؤيدون جماعات المقاومة الفلسطينية « الصالحة » على نفس النحو الذى ايد فيه نظام الحكم الأردنى المكروه تلك الجماعات وهم مخلصون لفكرة هزيمة اسرائيل ويتطلعون الى مصر باعتبارها « الثورة الأم » لاسيما حينما كان البطل ناصر مايزال على قيد الحياة ويبدون مشاعر الود والتأييد لجميع أنظمة الحكم التى تشاركهم آراءهم ومثلهم العليا .

ولقد كان فى الامكان أن تتغير الأوضاع ويتعلق أغرب التغييرات الشاملة من جانب ليبيا بالسودان جارة مصر العربية الكبرى الاخرى · ففى عام ١٩٧١ الذى كان حاسما فى تاريخ السودان قدم القذافى خدمة كبرى وساهم فى بقاء الرئيس نميرى فى الحكم بينما نشب صراع سافر بين الدولتين عام ١٩٧٢ فى اعقاب تدهور مطرد للعلاقات بينهما نجم عن انشغال النميرى الطبيعى بالأحداث فى بلاده · وكان القذافى يؤمن بانه ما من شئ يجب أن يسبق فى أهميته تحقيق المثل الأعلى الكبير للوحدة العربية والاستعداد للمعركة النهائية مع اسرائيل على حد قوله فى خطبه انئذاك على الرغم من ان الأحداث التى وقعت بعد ذلك ألقت ظلالا من الشك على هذه المشـــاعر · وهـــكذا حينما أعطى السـودانيون الأولوية لشـــئونهم لجأ القذافى فى البـداية الى التأمل ثم تصرف بحيث أدرك بنفسه أنه كان سيفضى حتما الى وقوع أزمة مع حليفه السابق وشريكه المقترح فى الاتحاد الفيدرالى للدول العربية · وليس الثبات على المبدأ بأحد فضائل الزعيم الليبى شأنه شأن الوعى السياسى أو الدبلوماسية أو الحنكة .

٧ ـ السودان هل هو عربى أو أفريقى ؟

فى مايو عام ١٩٦٩ قام العقيـد جعفر نميرى البالغ من العمر ٣٥ عاما ومجموعته الخاصة من الضباط الأحرار بانقلاب فى الخرطوم لاعادة الاستقرار الى السودان، والقضاء على سلسلة الحكومات الفاسدة التى داب رؤساؤها على التشاجر والنزاع منذ تحقق الاستقلال عام ١٩٥٦ · وعلى نحو ما حدث فى ليبيا بعد ذلك باربعة أشهر ، كانت الثورة تكاد تكون بيضاء وكان هدفها الأساسى، مثلها فى ذلك مثل كافة الثورات ، الاستيلاء على محطة الاذاعة ، التى سقطت فى أيدى المتآمرين دون مقاومة · وبعد أن تم لهم ذلك ، بدات البيانات والأنباء تتوالى : وقد جاء فى واحد من هذه البيانات أن العقيد النميرى الذى رقى الى رتبة لواء ، قد اختير رئيسا لمجلس الثورة الذى يضم تسعة أشخاص ، كما عين ايضا قائدا أعلى للقوات المسلحة · وكان نميرى نفسه يرجع عدم استقرار السودان الى فساد الأحزاب السياسية ، التى كانت تتصرف لصالح الأفراد وليس لصالح الشعب باسره · وقال : ان الحكومات المتعاقبة فشلت فى الصمود فى وجه الامبريالية ، وفشلت فى صد التغلغل الصهيونى فى أفريقيا ، وفشلت فى حماية حدود الدولة .

وتم تعيين بابكر عوض الله ، رئيس المحكمة السابق ، رئيسا للوزراء ، واصبح العضـو المدنى الوحيد فى مجلس قيادة الثورة ، وقد أمر فى الحال بالقبض على الرئيس السابق اسماعيل الأزهرى ، ورئيس الوزراء السـابق محمد أحمد محجوب ، وفصل عدد من كبار الضباط فى الجيش والبوليس واعادة تنظيم معظم الوزارات . وكان من المتوقع ان تتلقى القوات المسلحة، التى ادت الى تولى الحكومة الجديدة للسلطة ، وعودا بوضع أفضل ، وزيادة فى المرتبات ، وتحسنا فى أوضاعها ، وتزويدها بمعدات واسلحة جديدة . لقد كانت ثورة مقررة، وكان على الحكومة التى شكلتها هذه الثورة أن تكون حكومة مستقرة كما ستثبت بعد ذلك حكومة العقيد القذافى . غير انه كان هناك اختلاف هام واحد بين السودان والدول العربية الأخرى : اذ كان فى السودان أكثر الأحزاب الشيوعية تطورا وافضلها تنظيما وأوفرها عضوية فى الشرق الأوسط أو أفريقيا · وكانت هذه الحقيقة لها تأثيرها العميق على كل ما حدث على مر السنين ، وادت فى آخر الأمر ، بصورة غير مباشرة ، الى خروج السودان عن المجرى الرئيسى للحياة العربية ، وتحوله صوب افريقيا اكثر منه نحو جيرانه فى الشمال .

ومن المؤكد ان هذا لم يكن واضحا لا عندما تولى نميرى الحكم ، ولا فى

الشهور الأولى لحكومته ، ذلك لأن الخرطوم فى تلك الآونة كانت مهتمة بالمسائل الفلسطينية وبالفدائيين تماما كاهتمام ليبيا فيما بعد ، وكانت حريصة على الوحدة العربية كحرص مصر عليها ، وكانت ثورية للدرجة التى قد يتمناها العراقيون أو السوريون • وكان ضباط الجيش ، أولا وقبل كل شى ، مصممين على تحقيق النظام والدوام لبلادهم ، واسترداد مكانة الحكومة ، التى تلاشت وانهارت تقريبا نتيجة للادارة السابقة ، التى كان أعضاء الجمعية التأسيسية فيها يبيعون المصالح علنا وكان مجلس الوزراء يرفض أحكام المحكمة العليا ، وكانت الدولة تحت قبضة الأحزاب الدينية المتحاربة المتعددة التى كانت تسعى دائما لتحقيق انتصار جزئى أكثر من سعيها لتحقيق مصلحة عامة . وذلك لأنها كانت تعتمد فى العادة على ولاء الشعب فى مناطق معينة. حقا لقد كانت حكومة نميرى ترغب فى تحسين مصائر الشعب ، كما أكد رئيس الوزراء فى أول خطاب أذيع له بالرغم من انه أوضح أن الطريق الى تحقيق الرخاء والنزعة الوطنية الجديدة وهو بالضرورة سبيل يسارى بقوله : « ان حكومة الثورة تدرك ان الاستقلال ليس الا وسيلة لانعاش الشعب ، وتحقيق آماله فى الوصول الى مستوى معيشة متقدم • ولايمكن تحقيق هذا الا عن طريق انتهاج سياسات ايجابية وتخطيط علمى لمواجهة المشكلات والتحديات • ان حكومة الثورة ستعمل على تحقيق المساواة العادلة ، ووضع السلطة كاملة فى أيدى أولئك الذين يبدون اهتماما حقيقيا بالدولة ـ بما فيها من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ورأسمالية وطنية بعيدة عن الامبريالية » •

وقال السيد عوض الله : « ان الحكومة الجديدة ستؤيد حركات التحرير ، وستحارب التمييز العنصرى والتغلغل الصهيونى فى افريقيا » . وكان التأكيد فى ذلك الوقت على عروبة السودان ، وكانت الاشارة الى افريقيا وموقف الدولة ازاء افريقيا شبه الصحراوية لا تزيد على كونها انحناءة احترام للشعائر الدينية التى يتعين على اى سياسى سودانى القيام بها . وكانت المقاومة الفلسطينية هى حركة التحرير الوحيدة التى يشار اليها بالاسم ، وكانت مصر هى الدولة الصديقة الوحيدة التى يشار اليها اذ ذاك ، وكانت الجامعة العربية ، وليست منظمة الوحدة الافريقية ، هى التى تلقى تصفيق الاستحسان . وفى مايو عام ١٩٦٩ لم يكن هناك اى جدال ـ فى ان السودان دولة عربية ، ولا فى اعتزامها ان تظل عربية ، وان على أولئك الذين يعترضون على هذا الموقف ان يتحملوه على مضض . وكان الاستنتاج هو ان شعب الجنوب ، الذى كان يخوض حربا مريرة ضد سيطرة الشمال لأكثر من عشرة اعوام ، لا يزيد على كونه مجرد اقلية متمردة ، مجموعة تقف فى طريق

انتماء السودان التام الى اسرة الدول العربية . ولم يكن السيد عوض الله يرى انه من الضرورى التفوه بكلمة واحدة عن احتمالات التقارب او بذل المساعى نحو اية تسوية للنزاع فى اول خطاب له بالرغم من انه كان من الواضح تماما ان الاقتتال فى الجنوب هو المشكلة الرئيسية للدولة . ويرجع الفضل الى الرئيس نميرى ورفاقه فى ادراك حقيقة هذا الاضطراب ، وحتمية انهاء الحرب بشروط تنطوى على تنازل الطرفان الى حد بعيد ، ولكنها تضمن احلال السلام دون تمزق للدولة .

ومن بين مشكلات السودان التى تتعلق بحجم الدولة ، (تمتد ١ر٤٠٠ ميلا من الشمال الى الجنوب و ١ر٢٠٠ ميلا من الشرق الى الغرب) ان هذه الدولة التى تعتبر من اكبر دول القارة الأفريقية كافة لابد لها من ان تشكل جسرا بين المسلمين العرب والوثنيين او البانتو المسيحيين (مجموعة كبيرة من الشعوب الزنجية فى افريقيا الاستوائية والجنوبية) . ولكنها كانت رابطة لا جدوى وراءها من الناحية العملية ، نظرا للفرق الشاسع بين شعوب الشمال والجنوب فهى لا تشترك حتى فى لغة واحدة ـ فثمة ١١٠ لهجة مختلفة مستخدمة ، منها ٥٠ لهجة فى الجنوب ـ مختلفة تمام الاختلاف وبالنسبة للعرب الذين يحكمون فى الخرطوم ، كان المكان الطبيعى الذى يتجهون اليه طلبا للعون او اسداء النصح فى الشمال يتمثل فى مصر ، التى شاركت زمنا طويلا فى تحمل اعباء الحكم ، اما بالنسبة للجنوب فكان الميل الطبيعى لأوغندا او اثيوبيا . وربما يكون هناك نوع ما من الذكريات المتعلقة بالأجناس ، وهو ما يعد استرجاعا تشوبه المرارة لعصور تجارة الرقيق ، ومن المؤكد ان الحكام العرب كانوا يتصرفون كأنهم اسياد لهم ، وان شعبهم فى الجنوب ينحدر من سلالة اقل مستوى . وقد طرات تغيرات طفيفة واعتبرت المنطقة بمثابة منطقة صالحة لتربية الماشية ، وليس هناك ما يدعو الى انفاق المال لتحسين أوضاع الشعب . كذلك لم تبذل اية محاولة للسماح لأهل الجنوب بادارة شئونهم الخاصة . بل كان رجال الحكم يرسلون من الخرطوم، وكانت سلطتهم لا ترتكز على موافقة اولئك الذين يخضعون لحكمهم ، وانما على القوات التى يمكنهم نشرها ـ وهى مكونة ايضا من وحدات عسكرية من العرب دائما ـ وكان جيش الاحتلال اذ ذاك كثيرا ما يستعمل العنف والقسوة الى درجة انه كان يستخدم القمع دون رحمة ازاء بعض الثورات المحدودة ، او النشاط الاجرامى بقمع ، ولم يكن غريبا على الجنود أن يستخدموا تلك الوسائل التقليدية فى العقاب التى غالبا ما استخدم منها سلطات الاحتلال السابقة الى حد اشعال الحرائق فى قرى بأسرها ، اذا ما اشتبه فى انشقاق عدد ضئيل من سكانها .

وكان من المحتم فى مثل هذه الظروف ان تتحد الاقلية المقهورة فى محاولة للتخلص من نير حكومة متـعاطفة . ووقعت اول محاولة للتمرد فى المديرية الاستوائية فى اوائل ١٩٥٥ . وبدا القتال المنتظم فى عـام ١٩٦٣ ، فى المديرية الاستوائية ايضا التى تقع على حدود الكونغو (زائير) وفى أعالى النيل وبحر الغزال . ونشات فى هذه المناطق السوداء الثلاث حكومتان متنافستان واحدة فى المنفى وهى حكومة النيل المؤقتة ومقرها كمبالا ، والثانيـة جبهة تحرير ازانيا ، وكانت هى الجناح العسكرى لتلك الحركة المعروفة باسم انيانيا ، التى تتولى السلطة الحقيقية ، وكانت ملتزمة بتحقيق الاسـتقلال التام لكل المنطقة .

وكان فى اسـتطاعة الآنيانيا ، التى تسـتمد الآمان من تاييد الشعب واخلاصه ان تتحرك بحرية فى الظروف الملائمة للعمل الثورى ، كالسمك فى النهر على حد تعبير ماوتسى تونج ومن ناحية اخرى كانت القوات السودانية التى كان عليها ان تتحرك بأعداد وفيرة حاملة معها كل ما تحتاج اليه ، بمثابة اهداف سهلة تفتقر الى حفة الحركة . وكان المدنيون فى نهاية الأمر ، وبصورة متزايدة ، هم الذين يتحملون وطأة القتـال العظمى ، وقد فر ، فى الوقت من الأوقات ، ما يزيد على ٢٠٠٫٠٠٠ من اللاجئين عبر الحدود الى اوغندا وزائير هربا من فظائع الجيش السودانى ، وتوقفت الحيـاة بالفعـل فى المديريات الثلاث ، وكانت القوات خلال الفصول المطرة ترابط فى جوبا ، عاصـمة الاقليم ، وفى المدن الأخرى المحصنة ، بينما كانت الآنيانيا تتنقـل كما تشاء فى انحاء المنطقة كافة وعندما يبدا الجفاف كانت القوات تبدا فى التحرك ببطء ، مشكلة الحرائق والدمار فى المنازل او القرى التى تعتقـد ان المتمردين قد استخدموها ـ الأمر الذى يعنى فى الواقع تدمير كل قرية صغيرة او مجمـوعة اكواخ تمر بها ـ وبالرغم من الاستنتاجات الكثيرة لعدد القتـلى فى معركة الاستقلال الطويلة لجنوب السودان ، فانه لم تتوفر اية احصاءات دقيقـة لعـددهم . وعلى اية حال ، فمن المؤكد ان عـدد القتـلى بلغ عشرات الآلاف غالبيتهم من اهالى الجنـوب تقريبا ، ذلك لانه بالرغم من استبسال الانيانيا فى القتـال ، فقد كانت تفتقر الى الأسـلحة والذخيرة وكان من الضرورى ان تتالف حملتها من القيام بهجمات صغيرة بهدف الازعاج ، وشن غارات خاطفة. وكانت بارعة فى القيام بذلك ، فبعد ان تمت تسوية مشكلة السـودان ، واندمج ضباط الانيانيا فى القوات السـودانية ، وكان احدهم عضوا فى مجموعة تلقت تدريبها على ايدى الضباط البريطانيين . وكانوا يطرحون مشكلة تدبير كمين فى منطقة معروفة ، حيث كان من المتوقع ان ترسل قوة العدو الكشافة فى المقدمة ، ويتمثل التدريب البريطانى العادى فى ان يفسح الطريق للكشافة

دون التحرش بهم ، ومهاجمة الجزء الرئيسى من قوات العـدو . وقد عرض ضابط الآنيانيا السـابق كمينا محكما للغاية ، ادخل عليه تعديلا واحدا لم يفطن المدربون البريطانيون الى ضرورته من قبل : فقد خصصوا عددا قليلا من رجاله لعمل كمين فرعى للقضاء على كشافة العدو بمجرد سماعهم لاصـوات المعركة الرئيسية . وكانت مثل هذه التفاصيل الدقيقة هى التى مكنت الآنيانيـا من البقاء والصمود طويلا ، وهى التى جلبت عليهم كذلك كراهية الجنود السودانيين العرب النظاميين .

وكان من بين اولى الخطوات التى اتخذها الرئيس نميرى عنـدما تولى الحكم ، الاعلان عن منح حكم ذاتى محدود للجنوب ، واعتماد مبلغ من المـال لبرنامج سريع لتعليم وتدريب اهل الجنوب تمهيـدا لتوليهم مراكز هامة فى الدولة . وبدت جبهة تحرير ازانيا على استعداد للتفاوض من اجل التوصـل الى تسوية وفقا لهذه الشروط ، غير ان الآنيانيا رفضت الموافقـة على شىء ما دون الاستقلال التام ، واستمر القتال . ولم يكن ذلك مفاجأة،لأن اهل الجنوب كثيرا ما استمعوا الىوعود الحكومات السابقة،لكنهم لم ينالوا شيئا من ورائها . ونادت مجموعة من اهل الجنوب فى خطاب مفتـوح نشر فى احـدى صحف الخرطوم ـ وكان هو ذاته نقطة انطلاق لتصميم الرئيس نميرى على حل المشكلة ـ بالكف عن الاعتقالات التعسـفية ، وطالبوا باجراء محاكمة عادلة للمتهمين ، ومعاملة المشتبه فى خروجهم على القانون بموجب القـانون الشرعى ، والكف عن تعذيب المشتبه فى امرهم واصدار أوامر الى رجال البوليس للقيام بالتحريات كما كانوا يفعلون فى انحاء أخرى من البلاد . وقد عرض الخطاب ، بالرغم من لهجته المتحفظة ، صورة مخيفة لما كانت عليه الحياة بالنسـبة لغالبية الأربعة الملايين نسمة الذين يعيشون فى الجنوب .

وسرعان ما بدا الرئيس نميرى فى اجراء محادثات فى كمبالا مع ممثـلى المتمردين ، ذلك ان رغبته فى التوصل الى تسوية كانت تزكيها رغبتـه فى اقامة علاقات وثيقة بين السودان والدول العربية . وكان نميرى ، باعتبـاره جنديا عمليا له تجربة سابقة فى الجنوب ، يدرك ما يرفض الآخرون الاعتراف به وهو انه بالرغم من ان حملة الانفصال فى الجنوب كانت تعتبر بمثابة حركة وطنيـة حقيقية جاءت نتيجة للتصرفات السيئة للحكومات السابقة ، فقد ظلت حيـة بفعل المصالح الأجنبية . وكانت اسرائيل هى الدولة الرئيسية التى كان يعنيهـا استمرار قيام الثورة . ذلك انه باستمرار القتال يمكن لاسرائيـل ان تحول بصورة ايجابية دون قيام السودان بدور فى اية مواجهة جديدة تقع بين العرب

واسرائيل ، وعن طريق الاستنزاف الاقتصادى تظل الدولة فقيرة وعاجزة عن تقديم اية مساعدة للدول العربية الأخرى ، ولا سيما لمصر . ثم كانت الطائرات المحملة بالأسلحة تصل اليهم من وقت لآخر ، بالاضافة الى الأموال الضخمة . كما قدمت اليهم المشورة فيما يختص بالتكتيكات العسكرية فضلا عن تدريب عدد قليل من ضباط الآنيانيا على حرب العصابات . وبغض النظر عن هذه المساعدات ، فان المتمردين الذين وصل عددهم فى احدى المراحل الى ١٠ر٠٠٠ جندى ، ظلوا فى حالة سيئة من الاستعداد العسكرى على نحو لا يمكن تصوره ، فالملابس بالية ، وليس هناك أجهزة اتصال ، وغالبا ما كانت الداورية تحظى ببندقية واحدة بينما ـ استعمال السهام والنبال كان اكثر شيوعا . اما الأسلحة التى كانت فى حوزتهم فهى تلك التى اشتروها عقب انتهاء تمرد سيمبا فى الكونغو ، وغالبا ما كانت فى حالة رديئة . وكان المتمردون يشعرون بتقدير بالغ للمساعدات التى كانوا يتلقونها من اسرائيل ، ولا يعيرون انتباها على الاطلاق للانتقادات القاسية التى توجه الى الدول فى الشمال العربى .

وكانت حكومة الرئيس نميرى تسعى فى الوقت نفسه وفى حذر الى اتخاذ سياسة خاصة ، بصرف النظر عن النزعة العربية الصادقة التى بدت واضحة منذ البداية . وكان فى مقدمة ما اتخذته من اجراءات الاعتراف بالمانيا الشرقية ، وتوضيح أنه لن يسمح لألمانيا الغربية باى تمثيل دبلوماسى كما وعدت الحكومة السابقة . وحظر تشكيل أية أحزاب سياسية بالرغم من انه كان هناك خمسة أعضاء فى الحكومة ينتمون الى الحزب الشيوعى ـ بصفتهم الشخصية ، وليس باعتبارهم ممثلين للحزب . ولم يؤد حظر تشكيل أحزاب الى الكف عن ممارسة النشاط السياسى ، وواصل الحزب الشيوعى ، بصفة خاصة ، وهو أكبر حزب فى أفريقيا عمله كالمعتاد ، وكانت له دراية بالعمل فى الخفاء . وقد تغاضت الحكومة عن هذا الأمر ، لأن الشيوعيين فى ذلك الحين لم يكونوا يشغلون تهديدا بالنسبة لها ، وكان الحزب الأقوى والأكثر خطورة يتمثل فى حزب الأمة ، ولاسيما ، فى أصله ، قبيلة الأنصار .

وقد لعب حزب الأمة فى ظل الحكومات السابقة كافة دورا هاما . وكان السعى الى حله ، أسوة بالأحزاب السياسية الأخرى ، كالسعى لتحريم ديانة بأسرها . وما كان يمكن لهذا أن يحدث ، وقد ظل أعضاء الحزب البالغ عددهم ثلاثة ملايين عضوا يطيعون قادتهم الذين لجأوا الى معقلهم التقليدى فى جزيرة أبا ، فى النيل الأبيض واحتموا فيه . وكان لابد من حدوث أمر ما يؤدى الى انهيار قوة حزب الأمة ، الذى كان يتزعمه الامام الهادى عبد الرحمن المهدى ،

الذى يتمتع بقوة هائلة تتمثل فى زعامته الروحية ومركزه السياسى على السواء . ولذا فقد جعل الرئيس نميرى من محاولة اغتياله ذريعة يبرر بها قمع الحركة بالقوة ، واحكم الأنصار الذين كانوا يدركون تماما ما ينتظرهم ، اغلاق مناطقهم ، ورفضوا السماح للمسئولين فى الحكومة بالدخول ، ومن ثم ساهموا فى اسقاط أنفسهم بأنفسهم . وتم ذلك عندما بدأ الرئيس نميرى وعدد من وزرائه القيام بجولة فى البلاد فى أواخر مارس عام ١٩٧٠ ، ففى الوقت الذى اقتربت فيه السفينة من مدينة كاوا التى تقع على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى الخرطوم ، وجد الرئيس والوفد المرافق له أن ٨٠٠ من المسلمين قد استولوا على المرفأ ومنعوا أهالى المدينة من الاقتراب . وصرح نميرى فيما بعد بأنه أصدر أوامره الى وحدة من الجيش كانت فى حراسته بعدم اطلاق النار . ذلك لأن «مواطنين بسطاء ضللوا تحت شعار الدين والطائفية» سيقتلون بلا رحمة. والغيت الزيارة وتوجه نميرى ومن معه الى كوستى وتقع على بعد ٥٠ ميلا أعلى النيل . وقامت من جديد مظاهرات عدائية ، ولهذا أرسل نميرى مجموعة من كبار الضباط الى جزيرة أبا لمطالبة المهدى بالكف عن اثارة المتاعب . وعلى سبيل الرد ، قامت جماعة المهدى بضرب الضباط ، الذين عندما تمكنوا من الهرب ، ذكروا أن الكثيرين من الأنصار يمتلكون بنادق حديثة وأسلحة أخرى . وعاد نميرى الى الخرطوم لحضور اجتماع لمجلس قيادة الثورة تقرر فيه القيام بمعركة فاصلة مع جماعة المهدى . وتم وضع اجراءات أمن مشددة فى الخرطوم وأم درمان وتحركت وحدات الجيش فى مواجهة جزيرة آبا التى تشكل مساحة منبسطة من الارض طوله ٣٠ ميلا وعرضه ثلاثة أميال ، وكان مسرحا لاعلان محمد أحمد عبد الله أنه المهدى المنتظر ، كما شهد اعلان الثورة على الحكم المصرى ـ التركى فى السودان . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا القطاع مقرا للطائفة .

وتجمع الجيش على الضفة الغربية للنهر ، الذى يؤدى الى الجزيرة عن طريق ممر مرتفع واسقطوا المنشورات التى تدعو الأنصار الى الاستسلام ، غير ان الرد الوحيد الذى تلقوه ، هو اطلاق النار ـ وبعد ان تم ترحيل النساء والأطفال البالغ عددهم ٨٠٠ فردا ، بدا الجيش قصفه لمقر طائفة الأنصار ، حيث واجه ٣ر٠٠٠ رجلا مسلحين بطريقة موقفا حاسما . وشهدت الخرطوم نفسها ، فى الوقت نفسه اشتباكات خطيرة ، اسفرت عن مقتل ما يقرب من ٤٠٠ من المدنيين وحوالى ٤٠ من الجنود ورجال البوليس ونظم الحزب الشيوعى (الذى كان ما يزال محظورا) ـ فى مواجهة المعارضة المتفرقة المتواصلة من جانب الأنصار الذين يقيمون فى العاصمة ـ مظاهرة سلمية منظمة تأييدا للحكومة شارك فيها ما يربو على ٦٠ر٠٠٠ شخص .

وقد منيت قوات المهدى فى جزيرة آبا بهزيمة ساحقة عقب اشتباك قصير ، وقبل المهدى نفسه الاستسلام بعد مهلة لساعات قليلة طلبها لتسوية بعض الأمور . وطبقا لرواية الحكومة السودانية فان المهدى تمكن من الهرب من الجزيرة فى ذلك الوقت ، وانه لقى مصرعه صباح اليوم التالى عندما كان يحاول عبور الحدود الى اثيوبيا . وفى جزيرة آبا قتل ما يزيد على مائة من اتباع المهدى بسبب مقتل اثنين فقط من الجنود السودانيين . وقد نجمت معظم الخسائر عن قصف المدفعية ، وقيام طائرات الميج بالغارات الجوية وقد كانت روسيا قد سلمت اليهم طائرات الميج منذ اسابيع قليلة . وكان الطيارون من الروس المدربين الذين وفدوا لتدريب قوات السلاح الجوى السودانى ابدائية .

وقد كان نميرى مضطرا الى التحرك ضد المهدى لكى يحتفظ لنفسه بالسيطرة ، وكان يختلق المبررات للقيام بذلك . بيد انه كانت ثمة دلائل قوية تشير الى اصابع خارجية قد تدخلت فى هذا الأمر ، فقد عثر الجيش فى جزيرة آبا – ونشر الصور التى تثبت ذلك – على ١٥ مدفعا من طراز برن و ١١٣ مدفعا رشاشا و ٢٢ مدفعا مضادا للدبابات و ٥٦ مدفعا اوتوماتيكيا و ٢٤ بندقية . وكان من الواضح انهم زودوا بها لاستخدامها من اجل ما تحدثه من ضوضاء . ولا يمكن لأحد ان يتصور انه يمكن الاستيلاء على دولة بأسرها بمثل هذه الأسلحة . واتهم نميرى « القوى الرجعية المحلية ، والامبريالية ، والصهيونية العالمية ، وعملاء اسرائيل والمخابرات المركزية الأمريكية ، والاخوان المسلمين ، ودول عربية اخرى رجعية ، واثيوبيا » . وقال ان المانيا الغربية قامت بدور الوسيط . لقد كانت الأسماء التى عددها الرئيس نميرى بمثابة قائمة شاملة ، ويبدو من المحتمل ان اسرائيل كانت تدرك ما يجرى ومستعدة تماما لانفاق القليل من المال من اجل خلق مشكلات لحكومة ما تتقرب من دول « المواجهة » العربية ، وتقدم دليلا دائما على سياستها المعادية لاسرائيل على نحو مرير . وكان من المحتمل ايضا تدخل المملكة العربية السعودية بدعوى ان حكومة نميرى « ملحدة وشيوعية » ، ويقال : ان الخطط التى وضعت لكى يتحدى المهدى سلطة الحكومة قد تمت أثناء موسم الحج .

وعندما تم القضاء على خطر المهدى ، قام نميرى باتخاذ خطوات خشية ان يعيد التاريخ نفسه . فقام بنفى صادق المهدى ، وهو رئيس وزراء سابق وابن شقيق الزعيم الراحل الى القاهرة ، واقيمت حامية فى جزيرة ابا ذاتها حتى لا تعتبر دويلة داخل الدولة ، ومعقلا لقضية منافسة . غير انه لم يكد يتخلص نميرى من تحدى اليمين حتى بدات تلوح دلائل تثير القلق من متاعب من قبل اليسار ، ذلك لأن الشيوعيين الذين كانوا يؤيدون الحكومة باخلاص ،

ظنوا انه لا بد من مكافاتهم على ذلك ، فأخذوا يلحون من اجل الاعتراف بهم ، ومن اجل تطبيق سياسات اكثر تطرفا من السياسة التى كان مجلس قيادة الثورة على استعداد لانتهاجها ، ولذا تم كخطوة اولى ابعاد عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب الى القاهرة « ليلحق بصادق المهدى » .

وفى كافة المشكلات الداخلية ، كان نميرى يحظى بتأييد مباشر من جانب ليبيا ومصر ، اللتين وقعتا معه ميثاق طرابلس الذى نص على التعاون الوثيق بين الدول الثلاث ، وانبثقت عنه لجان تعمل من اجل التكامل المالى والعسكرى والاقتصادى فى الوقت الذى اتفق فيه الزعماء الثلاثة على الاجتماع كل اربعة اشهر لاستعراض الأحداث . وشهد اجتماعهم الثالث ، الذى عقد فى الخرطوم فى الذكرى الأولى للانقلاب الذى ادى الى تولى نميرى لمقاليد الحكم فى السودان ، عرضا ضخما للأسلحة الجديدة – التى تم عن مصدرها حضور وفد عسكرى سوفيتى خاص احتل مكانه فى مقاعد التكريم فى الصفوف الأولى فى الاستعراض حيث استمر العرض ثلاث ساعات . وأوضح الرئيس نميرى ، فى خطابه الذى القاه فى ذلك اليوم ، انه تعلم شيئا عن السياسة خلال عامه الأول لتولى السلطة . ولموازنة الشخصية العربية المهيمنة على الموقف بأسره – مع وجود القذافى وناصر الى جواره – خرج نميرى عن الأسلوب الذى كان يتبعه واخذ يتحدث عن الدور الذى لعبه السودان كدولة افريقية . « ان الشعب السودانى يؤمن بأن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع من خلاله النضال الافريقى الانتقال من الماضى المظلم الى مستقبل اكثر اشراقا . ومن ثم فقد ادان الحكومات الامبريالية والعنصرية فى جنوب افريقيا ، وروديسيا والمستعمرات البرتغالية . « وفى الوقت نفسه ، اكد بشدة على ضرورة استرداد فلسطين « التى تعد جزءا من الوطن العربى » ، وقد استخدم العبارات شديدة اللهجة لادانة « الكيان الصهيونى » و الاستعمار الأمريكى الجديد والامبريالية » .

وكان الاقتراح الوحيد الملموس الذى اعلن عنه اثناء الاحتفالات التى استمرت ثلاثة ايام بمناسبة الذكرى الأولى للثورة السودانية يتمثل فى تأميم البنوك فى الدولة ، وكذلك بعض المؤسسات الأجنبية . ومع الوجود الواضح للشيوعيين فى عدد من الاجتماعات ، بدا الرئيس نميرى وكأنه يعمل على استرضاء الحزب اليسارى فى البلاد ، وامتصاص غضب الحزب الشيوعى القوى بعد نفى سكرتيره العام . وكان نميرى ، فى واقع الأمر ، لا يزال يفكر فى الطريق الذى يسلكه ، وكانت سياساته فى ذلك الوقت تقوم على الأمر الواقع فيما يختص بالمشكلات الداخلية يفكر فيها يوما بعد يوم ويقررها وفقا لما يصلح

تماما . ومن ثم كان التساهل الواضح مع الشيوعيين بعد الاجـراء القاسى الذى اتخذه مع محجوب متوازنا مع الافراج عن عضـو بارز من الاخـوان المسلمين ، وهو عبد الرحمن حمدى . ومن المؤكد ان هدف نميرى كان يتمثل فى اقامة دولة اشتراكية ، ولكنها اشتراكية على النمط المصرى ، وليست على غرار اشتراكية دول الكتلة الشرقية . وفى الوقت نفسـه ، وكما اعلن الرئيس مرارا كانت ثمة حاجة الى « بناء استقلال اقتصـادى » لاحـداث ثورة فى الصناعة والزراعة والتوسع فى التعليم .

وكان من الواضح انه اصبح للسودان اخيرا حكومة تضـع لنفسـها الأولويات وتبذل ما فى وسعها لتحسين الأمور لمواجهة مجالات العجز الهائلة ، ونقص العمال المهرة والحرب المدمرة فى الجنوب وجيوب الانشقاق بين السكان. وقد قام نميرى قبل قيامه بجولة لزيارة ست دول فى أوروبا الشرقيـة بهدف تعزيز مكانته دوليا ــ باجراء مقارنة حقيقيـة بين الصعوبات التى تواجـه السودان وتلك التى مرت بها يوغوسلافيا ، التى كان عليها أيضا أن تتغلب على مشكلات التخلف والفرقة بين الشعب . وكان نميرى يتطلع كذلك الى مصر للحصول على المساعدة والتوجيه عمليا ومعنويا ، وكان من أوائل الزعماء العرب الذين وافقوا على قبول الرئيس ناصر لمشروع روجرز ، الأمر الذى ادانه الكثير من الدول العربية « الثورية » ووصفته بانه « خيانة » . وبالرغم من ذلك فان نميرى لم يساوره اى شك فى حكمة الزعيم المصرى ، وسرعان ما اغلق محطات الاذاعة الفلسطينية التى تذيع من الخرطوم عندما وجهت النقد الى ناصر . وكان السودان فى ذلك الحين الحليف المخلص لمصر ، والذى يرى ان ناصر لا يمكن ان يخطىء . وعقب ذلك ، وبنفس السرعة ، سمح للاذاعات بالعمل من جديد . وكان نميرى فى ذلك يمارس أسلوبه المعتاد فى تقرير سياسات اليوم يوما فيوما ، بالاضافة الى العمل على تحقيق التوازن بين جميع الأطراف ومع ذلك فقد ابدى كذلك مرونة اثناء زيارة رسمية للصين استغرقت اسبوعا كى يظهر للروس والدول التابعة لهم امتنانه لما قدموه له من مساعدة ، بيد ان العالم الاشتراكى لا يقتصر فقط على الروس . لقد تعلم العقيـد الشاب الكثير فى مجال السياسة والدبلوماسية وكان على النقيض من حليفة العقيد القذافى، الذى يرفض دائما ان يتعلم اى جديد ، وتمسك فى اصرار برايه فى كلمة حل وسط كلمة حقيرة .

ولقد نشبت عقب ذلك ، الحرب الأهلية فى الأردن ، وحقق نميرى شهرة عن طريق قيادته لبعثة الوسـاطة التى توجهت الى عمان لمحاولة انهـاء القتال. والواقع ان هذا الوفد سرعان ما تحول من المصالحة الى التأييد الصريح

للفدائيين ، وبالرغم من ان نميرى ابدى شجاعة شخصية فائقة فى عمان اثناء القتال ، فان تقديره للموقف كان بمثابة خطأ جسيم . فقد سلم بتقديرات ياسر عرفات للخسائر بنحو ٢٠ر٠٠٠ وتحدث عن « المجازر » التى قامت بها القوات الأردنية ، وتضمن المؤتمر الصحفى الذى عقده فى القـاهرة عندما اصطحب معه عرفات من عمان تضمن الكثير من المغالاة والتشويه حتى انه خدم ما هدف اليه من اقناع الملك حسين بحضور مؤتمر القمة العربى الطارىء الذى عقد فى القاهرة حتى يرد على الاتهامات التى وجهت اليه والى حكومته.

ولم يكن الرئيس نميرى ، بالرغم ممـا حققه من مكـانة متزايدة على المسرحين الدولى والعربى ، قد توصل بعد الى تسوية مشكلاته الداخلية ، وبدا الاختيار الهام يلوح فى الأفق بالفعل فى نهاية ١٩٧٠ ، فقد فرضت فجأة حالة تأهب جديدة فى العاصمة فى ذلك الوقت ، واتخذت القوات مواقع رئيسية ، وشوهدت الدبابات فى الشوارع ، واتخذت نفس الاحتياطات التى اتبعت من قبل فى المعركة مع المهدى واتباعه . اما الهدف هذه المرة فكان يتمثل فى اليسـار المتطرف وليس اليمين المتطرف. واثبت اليسار فى هذه المرة،انه اقل استعدادا. بلا مدافع ، ولا حصون ولا تأييد شعبى واضح . وتمكن الرئيس نميرى من تنفيذ اجراءاته دون اية مقـاومة واضحة ، بالرغم من انه كان من العسير تنفيذها ، ذلك لأنه كان قد صمم على القيام بعملية تطهير عامة للشيوعيين فى الحكومة . فتخلص فى بداية الأمر من ثلاثة من الشيوعيين فى مجلس قيادة الثورة وهم : العقيد بابكر النور ، واللواء هاشم عطا ، واللواء فاروق عثمان حمد الله ، وكلهم اعضاء فى حركة الضباط الأحرار برئاسة نميرى ، والتى اطاحت بحكومة اسماعيل الأزهرى السابقة . وكانت التهمة الموجهة اليهم هى تسرب أسرار مشاورات مجلس قيادة الثورة لضباط الحزب الشيوعى وخاصة محجوب ، الذى كان قد سمح له بالعودة الى الخرطوم من القاهرة للاشتراك فى المباحثات بهدف تشكيل جبهة وطنية تحظى بتأييد الشيوعيين . ولم تسفر المفـاوضات عن تحقيق اى نجـاح ، ذلك لأن محجوب والحزب الشيوعى اصروا على تمثيل شيوعى علنى ، واعتقدوا انه من الممكن ان تتوفر لهم فى السودان فرصة طيبة لجعل الحكومة يسارية الى الحد الذى يمكنهم فى الواقع من اقامة دولة شيوعية . ورأى الرئيس نميرى هذا الخطر ماثلا ، وبات من الواضح أن خطته لاقامة اتحاد فيـدرالى كامل بين ليبيـا ومصر وسوريا والسودان ــ وهى الفكرة التى نجمت عن ميثاق طرابلس الأصلى للتعاون بين هذه الدول ــ لن تصادف نجاحا طالما يحتفظ الشيوعيون بمراكز سلطة . وكان الشيوعيون انفسـهم قد عقدوا العـزم على الاعتراض بكل ما استطاعوا من قوة ، على اية ارتباطات مع دول مثل مصر او ليبيا . وكلتاهما

مصرة على عدم تحقيق اية مكاسب شيوعية فى بلديهما او فى الشرق الاوسط ، بالرغم من قبولهما للمعونات من الاتحاد السوفيتى . كذلك كان الشيوعيون قادرين على استغلال عدم الثقة فى مصر من جانب الكثير من السودانيين ، الذين ربطوا بينها وبين – بريطانيا باعتبارها الدولة « الاستعمارية » السابقة . وكان بذل جهد قوى لاقامة قاعدة شعبية جديدة ، هو الأمر الوحيد الذى يمكن نميرى من المضى قدما فى تحقيق خططه ، وبدا نميرى تحقيقا لهذا الهدف اتخاذ اجراءات صارمة ضد الشيوعيين .

وفى الوقت نفسه الذى تم فيه طرد ثلاثة من اعضاء مجلس قيادة الثورة، اعتقل محجوب ، واحيل ١٣ من كبار ضباط الجيش الى التقاعد ، وتم القاء القبض على عدد من الشيوعيين المعروفين ، ومرة أخرى ، وحتى يبدو نميرى كما لو كان يتصرف بطريقة تتسم بالانصاف ، اعلن ان « عناصر مخربة » تنتمى الى الأخوان المسلمين قد تم اعتقالها – وبدى واضحا هذه المرة ان اجراءات الحكومة ،بداية لحملة ضد الشيوعية – وقامت مظاهرات فى الجامعات ، واضرابات ومظاهرات فى عدد من النقابات وبخاصة عمال السكك الحديدية. واصدر الحزب الشيوعى نفسه – الذى ادى رفضه التفرق او الكف عن ممارسة نشاطاته الى تفاقم الأزمة – بيانا من الخرطوم ينفى فيه كافة الاتهامات التى وجهت اليه ، ووجه بدوره الاتهامات ، ووزعت فى المدينة منشورات تحمل توقيع « الضباط الأحرار » وبدا مركز نميرى اكثر اهتزازا عما كان فى اى وقت منذ توليه الحكم . واتهم الشيوعيون علانية الحكومة السودانية باتباع « خط يمينى يتم وضعه فى مصر » وقالوا ان المخابرات المصرية وراء اجراءات قمع الحزب الشيوعى .

وقد اشار الحزب فى نقده المفصل لأعمال حكومة نميرى الى الارتفاع الشديد فى تكاليف المعيشة ، وعدم السماح باجراء اية مناقشات حول اقتراح الانضمام الى اتحاد يضم مصر وليبيا والسودان ، والى فشل الجهود الرامية الى تسوية الأحداث فى الجنوب لقد كانت قائمة فشل بغيضة ، وواجه الرئيس نميرى بعض الصعوبات فى الرد على الاتهامات التى وجهت اليه . ولجأ الى لهجة يشوبها الغموض فى تفسير ما قامت به الحكومة من اجراءات ، وتحدث فى حشد فى الخرطوم عن « العملاء والرجعيين الذين فسقوا وفسدوا وجردوا انفسهم من كل انتماء وطنى » . وتحدث مرة اخرى عن « الذين يبدون حماسا ثوريا زائفا » والذين بداوا يضعون المعارضة النظرية موضع التطبيق ، غير انه فى مواجهة النقد الذى وجه الى خططه الرامية الى الاتحاد مع مصر وليبيا كان مرغما على التراجع . وقال انه لن يتم تشكيل اتحاد فورى ، وانما كان مجرد

اتفاق على عدد من الامور ، وطريقة عمل لترتيب عقد مؤتمرات قمة سريعة بين رؤساء الدول المعنية – واضاف انه بعد بناء اقتصاديات الدول الثلاث وقواتها المقاتلة ، يمكن تقرير موضوع التحالف الوثيق « وحينئذ تقع المسئولية على الجماهير ، التى لها وحدها الكلمة الأخيرة » . وكانت هذه صورة مختلفة تماما عن الصورة التى سبقتها .

وبالرغم من ذلك ، لم يتخل نميرى عن خطه السابق ، ولكنه خفف من حدته فقط ، وحاول الاستمرار بطريقة اكثر حذرا . فلم يكن هناك اى تساهل مع الشيوعيين ، فعلى سبيل المثال الغيت ، بعض المنظمات الفرعية التابعة للحزب والتى كانت تضم منظمات خاصة بالعمال ، والطلبة ، والمراة ، وجناح الشباب التابع للحزب . وتم ابعاد الشيوعيين من مناصب الحكومة ومن القوات المسلحة . واصبح من الواضح ان نميرى كان يهدف الى تدمير المنظمة. وكانت المشكلة التى تواجهه تتمثل فى انه لا يجد البديل الذى يحل محلها . ففى الشهور الاولى من توليه السلطة ، تحرك ضد الجماعات الدينية التقليدية التى كانت تسيطر على سياسات السودان من امد طويل ، واستغل تأييد الشيوعيين فى ذلك الوقت للقضاء على حزب الأمة ، والاخوان المسلمين ، والأنصار انفسهم . اما الآن ، وقد قرر التخلص من الشيوعيين ، فليس لديه اى حلفاء ، وباءت محاولات تشكيل قاعدة شعبية – على غرار الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر – بالفشل . ذلك انه لم تكن لدى نميرى مبادىء سياسية متماسكة منطقيا لعرضها فى ذلك الوقت ، كما كان يفتقر الى مثل تلك الجاذبية الشخصية التى كانت تلك الجاذبية التى غفرت للزعيم المصرى عجزه المائل فى صياغة برنامج للاشتراكية العربية . ولذا كان يتعين على نميرى مواصلة التحرك يوما بعد يوم ، محاولا بقدر الامكان التخلص من الشيوعيين وفى الوقت نفسه تشكيل نوع من التحالف السياسى ، ولم يحالفه النجاح فى اى من المجالين.

ولقد تحدث بعد ذلك ان وقع فى ١٩ من يوليو ١٩٧١ الانقلاب المضاد الذى كان متوقعا : فقد اصدر الرائد هاشم عطا ، احد اعضاء مجلس قيادة الثورة الثلاثة الذين طردوا من قبل ، اوامره بتحرك الدبابات والقوات نحو الخرطوم، وبمحاصرة القصر الجمهورى ، والقاء القبض على نميرى اثناء اجتماعه ببعض مستشاريه . وبالرغم من كافة الدلائل التى تشير الى الشعور بالاستياء ، وتزايد عدد رجال المخابرات المصرية « التى كانت تساند » الحكومة ، لم يكن نميرى او غيره يحلمون بأن ثورة جديدة توشك ان تقع . لقد حقق المتآمرون مفاجاة تامة ، وكما اعلن الرائد عطا بعد ذلك ، كان كل شىء قد انتهى خلال ٤٥ دقيقة .

وكشف الرائد فى اول حديث اذاعى له عن انه هو وقادة الانقلاب ، مع العضوان اللذان تم ابعادهما من مجلس قيادة الثورة من قبل : العقيد بابكر النور والرائد عثمان حمد الله - وكان الاثنان منفيين فى لندن عندما تم الاستيلاء الجديد على السلطة ، غير انهما سرعان ما شرعا فى العودة الى الخرطوم ، وهى خطوة ساقتهما الى ان يلقيا حتفهما مباشرة ، مما شكل حادثا من اكثر الاحداث مدعاة للخجل فى تاريخ بريطانيا الحديث واعطت العقيد القذافى فرصة لاظهار تفانيه لمفهوم التعاون بين بلده والسودان . واوضح الرائد عطا ، عندما تحدث عشية الانقلاب ، ان ثورته ، كثورة نميرى ثورة عربية تماما .

وقال « اننا نؤكد ان السودان سيقدم كل موارده من اجل تصفية العدوان الامبريالى الصهيونى على الأرض العربية ، وحماية ظهر شعب مصر . وانه سيقدم كل ما تطلبه الثورة الفلسطينية من اجل استعادة ارضها وبناء دولتها الديمقراطية . كما انه يرفض اى حل لا يقبله شعب فلسطين متمثلا فى المنظمات الفدائية الديمقراطية . وان السودان لن يفرض نفوذه على حق الفلسطينيين فى تقرير مستقبلهم » . كما حدد الرائد عطا بوضوح موقف السودان على المستوى الدولى فى المستقبل ، « ان السودان يؤيد حركات التحرير فى افريقيا ويسعى الى اقامة علاقات طيبة مع جيرانه من الدول الافريقية وفقا لميثاق منظمة الوحدة الافريقية . ان السودان سيسير على نفس الطريق الذى تسلكه الجبهة المناهضة للاستعمار فى العالم اجمع والتى تكن الصداقة للدول الاشتراكية الصديقة وعلى راسها الاتحاد السوفيتى العظيم .

وكان من الواضح أن الشيوعيين يسيطرون على الحكومة الجديدة فى السودان ، وكان محمد محجوب ، شقيق عبد الخالق محجوب ، عضوا بارزا فى مجلس قيادة الثورة ، الذى تشكل من سبعة أعضاء جدد . وبالرغم من ذلك، كان الهدف من اول بيان صدر هو ازالة المخاوف من ان الانقلاب المضاد انما هو انقلاب شيوعى وجاء فى البيان ان مجلس قيادة الثورة سيحكم من خلال « جبهة ديمقراطية ، تضم كل القوى التقدمية » . وبالرغم من ذلك ، اعترف بمحجوب باعتباره اقوى المدنيين فى الدولة ، بينما كان الثلاثة البارزون فى مجلس قيادة الثورة هم أولئك الذين اتهمهم نميرى من قبل بمساعدة الشيوعيين. وسارعت العراق الى استكمال هذا العمل ، وكانت اول دولة فى العالم تعترف بالحكومة السودانية الجديدة ، بارسال وفد الى الخرطوم للتهنئة - وقد صاحب هذا الوفد سوء الطالع ، تماما كما حدث بالنسبة للزعيمين الشوريين الآخرين اللذين غادرا لندن فى الوقت نفسه تقريبا . وسارعت موسكو كذلك - والتى كانت تؤيد فيما يبدو انتماءات الرجلين الجديدين - الى الثناء على « حركة

التصحيح » فى الخرطوم . وكانت الأحزاب الشيوعية فى الشرق الأوسط شديدة الابتهاج وبشكل واضح للأنباء التى انهالت من الخرطوم حول الغاء قرارات الرئيس نميرى كافة ، واعطاء الحزب الشيوعى والمنظمات التابعة له الصفة القانونية ، والافراج عن المعتقلين السياسيين ، واعادة الضباط ذوى الميول اليسارية الى القوات المسلحة . ووصلت الشيوعية الى اقصى ما بلغته الحركة الشيوعية فى العالم العربى فى فترة ما بين الحروب .

لقد كان الانقلاب بمثابة تذوق قصير الأجل للسلطة . فلم يكن الرئيس السادات يرغب فى وجود دولة شيوعية على حدوده الجنوبية ، وكان العقيد القذافى معاديا - للشيوعية بدرجة شديدة نظرا لمعتقداته الدينية . فهل يمكن ، والحالة هذه ، ان يفعلا اى شىء ؟ لقد ثبت فى نهاية الأمر ان فى وسعهما القيام بشىء ، وهذا ما حدث ، كان السادات يرسم الطريق ، بالرغم من ان الشهرة كانت من نصيب القذافى . والحقيقة ان اوامر السادات لقادته العسكريين « لاعادة الموقف الى ما كان عليه » هى السبب فى عودة نميرى . لقد كان هناك راس جسر للجيش المصرى ، ذلك ان الاكاديمية العسكرية كانت قد نقلت من القاهرة ، عندما بدات غارات العمق الاسرائيلية ، واتخذت لنفسها موقفا شمالى الخرطوم . فكانت هناك وحدة تتمتع باكتفاء ذاتى ، ومزودة بكافة المدربين والمصريين وطلبة الكلية الحربية ودبابات وعربات مدرعة لاستخدامها فى اغراض العروض العسكرية . وكانت صيانة هذه العربات المدرعة تتم بطريقة متقنة ، كذلك كان مخزون الذخيرة متوفرا . وجرت مشاورات على عجل بين كبار الضباط المصريين والسودانيين المخلصين للرئيس نميرى ، فى الوقت الذى تجمعت فيه قوة عمل مصرية فى صعيد مصر ، واستقلت طائرات نقل روسية من طراز انتنوف وتوجهت الى الجنوب . وما ان وصلت اول القوات المصرية الى احد المطارات التى كان المدربون والطلبة بالكلية الحربية قد استولوا عليه مع القوات السودانية التى تدين بالولاء للرئيس نميرى ، حتى تحركت وحدات اخرى نحو الخرطوم . وبعد ثلاثة أيام فقط من تحرك الرائد عطا ، انتهى كل شىء . وجرى قتال عنيف حول القصر الجمهورى ومحطة الاذاعة ، مع الحرس الجمهورى ، الذى انتشر بين المتمردين ، مما شكل اشرس مقاومة لمواجهة الانقلاب المضاد .

وقد ساعدت التعليمات التى اذاعها اللواء خالد حسن عباس ، وزير الدفاع السودانى ، وقد كان فى طرابلس عندما وقع الانقلاب ، فى اقناع القوات الموالية - لنميرى بالتحرك ، وقوى اللواء من عزيمة القوات عندما قال أن القوات السودانية التى تعمل فى قناة السويس وقوامها ٢ر٠٠٠ جندى فى

طريقها الى الخرطوم لمعالجة الموقف ، بالرغم من انه فى حقيقة الامر لم يكن على ثقة من ولاء هذه الوحدات ، وفى الواقع ان القوات التى ارسلت كانت قـوات مصرية .

كذلك قام اللواء عباس بدوره فى اتجاه آخر كان له اكبر الفضل فى احباط التمرد المسلح . فقد شارك مع الليبيين الذين كان فى ضيافتهم فى عملية حرمان حكومة اللواء عطا من الرجل الذى كان سيشغل منصب رئيس الوزراء الجديد ، وعضو بارزا آخر . وكان الرجلان العقيد بابكر النور واللواء فاروق حمد الله فى المنفى فى لندن ، عندما ابعدهما نميرى من مجلس قيادة الثورة ، وكانت قد تمت اتصالات مع السودانيين المنشقين فى المنفى والقيادة العربية الموحدة لحزب البعث العراقى ، الذى كان فى ذلك الوقت فى حرب دائرة مع بقيـة العالم العربى ، ولا سيما مع مصر وحلفائها ، ومن ابرزهم النميرى . وفى واحد من بياناته الاولى عين الرائد عطا بابكر النور رئيسا لمجلس قيادة الثورة الجديد ولهذا السبب قام هو وحمد الله بحجز تذاكر على طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانيـة فى رحلة عادية من لندن الى الخرطوم . ولم يكن الأمر سرا فقد اعلن عنه من قبـل ـ وتمكن احد الصحفيين من حجز مكان على الطائرة نفسـها . وكانت الطائرة فى رحلتها العادية من لندن الى الخرطوم ستحلق فوق ليبيـا ، حيث كان اللواء عباس يذيع نداءاته الى قواته للدفاع عن حكومة الرئيس نميرى ، غير ان هـذا لم يكن سببا كافيا فيما يبدو لكى تغير الطائرة طريقها ، ومع ذلك وعندما كانت الطائرة تخترق المجال الجوى الليبى ، صدر اليها الأمر بالهبوط فى بنغازى وعلى الفور غير القائد اتجاهه وطلب الحصول على تصريح من برج المراقبة الجـوى فى مالطة للهبوط هناك ، غير انه لم يجب الى طلبه ، ولم يكن ذلك مفاجأة ، لان الليبيين ـ او المصريين ـ كانوا قد وصلوا مؤخرا الى الجزيرة لمسـاعدة شعب مستر دون منتوف فى ادارة المطار بعد قيامه بطرد « الفنيين البريطانيين » ، وعقب ذلك مباشرة وجه المراقبون الجويون الليبيون تحذيرا الى الطـائرة وانذروها بالهبوط ، وقالوا : ان المقاتلات الليبية فى طريقها للتأكد من هبـوط الطائرة . ولم يجد القائد الذى يحمل مسئولية سلامة جميع ركابه ـ بدا من الانصـياع للأمر . وفى بنغازى هبط النور وحمد الله من الطائرة ـ وتم السماح بعد ذلك للطائرة بالعودة الى لندن . وقدمت بريطانيا الى ليبيا احتجاجا فاترا ، بينمـا رفض سير اليك دوجلاس هيوم دعوة الى قطع العلاقات الدبلوماسية فى مجلس العموم . وكانت ثمة دلائل تشير الى ان الحكومة البريطانية ، او أجهزة معينـة من الحكومة ، كانت تدرك جيدا ما الذى سيحدث عندما كانت الطائرة تتجـه الى ليبيا . ولم يكن لدى بريطانيا او حلفائها مثل امريكا ، رغبة فى رؤية حكومة شيوعية او شبه شيوعية فى السودان ـ التى تعد بمثابة الرابطة الحيـوية بين

العرب والأفارقة . وكانت حكومة وطنية معتـدلة مثل حكومة الرئيس نميرى تناسب التحالف الغربى تماما ، وتستحق القليل من المخاطر كى تبقى مثـل هذه الحكومة فى الحكم ـ وخاصة اذا ما كان هناك لديها رصـيد من النيـة الطيبة . وهذا ما حدث تماما ، فقد سـاعد القبض على الرجلين اللذين تم تعيينهما فى مناصب عليا فى حكومة الثورة على اضعاف معنويات الرائد عطـا ورجاله ، بينما كانت اذاعة اللواء عباس ، بالاضافة الى انباء ترددت حول قرب وصول نجدة مصرية ، لعبت دورا فى اقناع المخلصين لنميرى بالتحرك . ولعبت بريطانيا دورها الصغير ، ونالت مكافاة عليه بالحصول على معاملة « تفضيلية » فى المجال التجارى عندما عاد نميرى الى الحكم آمنا . وما أن تولى نميرى لمقاليد الحكم مرة اخرى حتى ارسلت ليبيا الرجلين اللذين كانا قد اعتقلا فى بنغـازى الى الخرطوم وتم اعدامهما رميا بالرصاص بعد محاكمات صـورية ، قدمت بريطانيا خلالها مرة اخرى نداءات فاترة ومرائية للصفح عنهما .

ولم يكتف النميرى بقتل هذين الرجلين فحسب ، بل قتل تسعة ضباط آخرين رميا بالرصاص فى حركة التطهير التى اعقبت عودته ، وشـنق ثلاثة من اعضاء الحزب الشيوعى البارزين بالاضـافة الى انه تم اعتقـال ما يربو على ١٠٠٠ شخص من أعضاء الحزب ، ألقى بأغلبيتهم فى السجون لسنوات قادمة . ولما كان نميرى قد اهين بشـدة نتيجة لما حدث، فقد اصبح اكثر اصرارا عما كان عليه من قبل على تخليص البلاد من الرجال الذين اعتبرهم مسئولين عن الكثير من متاعب الماضى . كذلك لم تكن معاملته خلال الأيام الثلاثة التى شـهدت استيلاء عطا ورجاله على الحكم فى صالحهم . فقد تم حجزه فى غرفة صـغيرة بالقصر الجمهورى ، ولم يقدم له اى طعام ولا شراب ، ولم يكن يـسمح له حتى بالذهاب الى دورة المياه . وعندما بدات القوات الموالية فى اليـوم الثالث ، هجومها على القصر ، تمكن نميرى من الهرب مرتديا جلبابا فوق زيه العسـكرى المعتاد ، ووضع على راسه عمامة ، وزحف على حائط ، مواجها نيران الأسلحة الخفيفة ، وقدم نفسه لأول مجموعة جنود شاهدها تهاجم القصر . وخلال ساعات توجه الى دار الاذاعة ليؤكد للشعب انه فى امان ، وليصدر اوامره الأولى للحكومة العائدة بأن « فتشوا عن اى شيوعى ، اقبضـوا على كل فرد منهم . انهم جميعا خونة » .

وتمكن عبد الخاق محجوب فى بداية الأمر من الهـرب ، وترددت انباء تفيد انه لجا الى سفارة بلغاريا ، التى اتهمت بالاشتراك فى التخطيط للانقلاب ، غير انه بعد ثلاثة أيام من عودة حكومة نميرى ، تم القبض على محجوب ، واقتيد الى نميرى فى غير ابطاء لاجراء حوار رهيب قبل التوجه الى المحكمة للمثول امام

محكمة عسكرية شكلت على عجل . وبدا اللواء عباس استجوابه : « ما الرئيس
الذى تتقاضاه من الحزب ؟ » .

اجاب محجوب « ١٦٠ جنيها ســـودانيا » .

« كم تدفع ثمنا لما تستهلكه من الويسكى » ؟

« انا لا اشرب الويسكى انما اشرب اى مشروب متاح » .

ثم قال عباس « انك تعيش طوال حياتك عالة على الناس ، ما الذى قدمته لبلادك ؟ ما القضايا التى ساهمت فى ايجاد حل لها ؟ » .

واجاب محجوب بطريقة مؤثرة : « الشـــعور بالوعى .. لقد بذلت ما فى وسعى لنشر الوعى بين الشعب » .

عبـاس : « ما الذى كنت تنوى القيام به فى هذه الدولة » ؟

محجوب : « اقامة نظام ديمقراطى تقدمى » .

عبـاس : هل تعرف شيئا عن احتياجات هـذه الدولة ، ما الذى تعرفه ؟ انت لا تملك سوى الثرثرة حول نظريات مستوردة .. هل تعرف تعداد السكان عندنا ؟ كم عدد المسلمين فى هذه الدولة » ؟

محجوب : « اننى اعرف بعض الحقائق » .

عبـاس : « اية حقائق ؟ انت لا تعرف سوى كيف تقتل الأبرياء » ..

وتناول الرئيس نميرى التحقيق بصورة اكثر واقعية واقل جدلا :

عبد الخالق : اود ان اعرف دور الحزب الشيوعى فى الانقلاب .

محجوب : « من وجهة النظر السياسية ، كانت هنـاك مرحلتـــان . مرحلة الوثائق المكتوبة قبل ١٦ من نوفمبر » ؟

ـ « ولماذا قبل ١٦ من نوفمبر » ؟

محجوب : « قبل ابعاد بابكر النور وحمد الله وغيرهم من الحكومة » .

نميرى : اود ان أعرف دور الحزب الشيوعى فى الانقلاب .
ما الذى كنت تهدف اليه » ؟

محجوب : « اجتمعت اللجنة المركزية وقررت ايجاد سلطة جديدة ، « الجبهـة الديمقراطية » التى ستحل محل الحكومة القائمة ، وقررنا فى ٣٠ من مايو ١٩٧١ الدعوة الى القيام بثورة ، واصـــدرت اللجنة المركزية منشورا تطالب فيه بذلك » .

سأله الرئيس نميرى عقب ذلك :

هل دعوتم فى المنشور الى المقاومة المسلحة حتى تتم الثورة » ؟

محجوب : « العمل السياسى يعد ضروريا لازالة الحكم القائم . لابد وأن يكون لدينا حكم اكثر تقدما واكثر ديمقراطية من الحكم الحالى » .

نميرى : ما الذىتعنيه بحكم ديمقراطى ؟ » .

محجوب : « اتمنى ان تكون اكثر راديكالية واكثر يســارية . له معانى كثيرة تختلف عن الشـــيوعية » .

نميرى : « انك تدعو يا عبد الخالق الى الديمقراطية بينما انت اكبر دكتاتور يرفض مقابلة اتباعه لأنك سكرتير الحـزب ، انك تتخلى عنهم وقت الشدة ـ انت دكتاتور . ان الديمقراطية فى الســودان تعنى النزول الى الشارع ، والريف والقرى ، والتعرف على مشكلات الشعب ومناقشة ايجاد حلول لها ، وتنفيذ هذه الحلول ، لقد ابلغنـــا اصـــدقاؤك انك تتعـــالى عليهم ، وتأبى الجلوس معهم . الست مغرورا ؟ لقد نسيت الخبز والملح ، واكلت الكافيار ، وشربت الفودكا . ما هو دورك فى الاطاحة بهذا الحكم » .

محجوب : « مساعدة القوات المسلحة الثائرة بعقد اجتماعات دائمة مع اللجنة المركزية » .

نميرى : لقد حاولت ان تفضى بهذا البلد الى نهاية مؤلمة » .

وقطع اللواء عباس الحديث قائلا : « اتود ان تعـــرف راى الناس فيك يا عبد الخالق محجوب ، يا سكرتير الحزب الشيوعى ؟ » .

محجوب : «اود ان انهى هذا التحقيق ، هذا كل ما فى الأمر » .

وسئل محجوب عن المصادر التى يتلقى منها الحزب التأييد

فاجاب :

« للحزب الشيوعى الســودانى سمتان ، واحدة محلية ، والأخرى دولية ، باعتباره جزءا من الحركة الشيوعية الدولية ، اما بالنسبة للعراق ، فان حزب البعث يرغب فى ابرام معاهدة مع اية حكومة ، وحاول ذلك مع السودان » .

نميرى : « من أين تحصل على المساعدات » .

محجوب : « اننى لا احصل على اية مساعدات » .

نمـيرى : « على اى شيء يعتمد الحزب ؟ » .

محجوب : « على الاعانات والتبرعات » .

نمـيرى : « من اين تحصل على المال اللازم لنفقاتك الخاصة ؟ »

محجوب : « ليست لى نفقات خاصة » .

نمـيرى : « ان حزبك ينفق الكثير . لقد قلت انك توزع منشورات كل يوم ان كمية صغيرة من الورق تساوى ١٨٥ قرشا سودانيا » .

محجوب : « من التبرعات وبوسائل اخرى » .

وعند هذا الحد ، قدم الرئيس نميرى ورقة كتب عليهـا كلمات وأسماء وقرارات بخط محجوب .

نمـيرى : « هذه قائمة بأسماء الوزارة الجديدة ، بالاضـافة الى قرارات ومقترحات . من الذى كتب هذه الورقة ؟ » .

محجوب : « لقد كتبتها أنا خلال بعض اجتماعات ، للمناقشة ، ولم يتخذ فيها قرار نهائى » .

وتم شنق محجوب ، وكذلك شنق شفيع الشيخ نقيب العمال ، ويوسف جارانج ، وفى الوقت الذى استمر فيه اعتماد الشـيوعيين والمتعاطفين مع الشيوعيين ، اعلن نميرى انتهاء الحزب الشيوعى فى السودان . واعلن الحزب من جانبه ، حتى يثبت انه لم ينته بعد ، تعيين محمد ابراهيم نجود ، سكرتيرا عاما جديدا للحزب ، واعلن أن عددا من قادته البارزين اسـتطاعوا الهرب من مطاردة نميرى . وبطبيعة الحال ، لم يكن فى استطاعة الحزب من الناحية العملية القيام بأى دور حقيقى ، غير انه بات واضحا على مر السـنين ان الكثيرين من خلاياه السرية ظلت باقية ، وان الجروح التى تسببت نتيجة للانقلاب الفاشل والانقلاب المضاد الشرس لن تلتئم بسرعة .

وظهر نميرى فى اعقاب التمرد بمظهر جديد ، تخلص من أخطـاء الماضى ، واستعد لاتباع سياسة جديدة فى البلاد . والقى بجميع اخطاء الماضى على عاتق الشيوعيين الذين كانوا يخربون ثورته ، وارجع كل النقائص الى خطـأ الذين كانوا يتبعون أهداف حزبهم أكثر مما يسعون لصالح البـلاد ، والآن وقد تمكن من هزيمة عطا وزمرته ، يمكن للثورة الحقيقية ان تـسـتمر . وقرر نميرى ، حتى تواصل البلاد طريقها من جديد اجراء استفتاء على الرئاسة . وكان هـو المرشح الوحيد لها . وقد أتاح له ذلك الفرصة والمبرر للقيام بجولة تفقدية فى

انحاء البلاد كافة ، وقام بدافع هدف وتصميم جديدين على بناء قاعدة شـعبية لحكومته ، بزيارة مدن وقرى من الحدود المصرية حتى الجنـوب الذى كان لا يزال منشقا . وهناك القى الاوم على يوسف جارانج لتمسـكه بالحكم الذاتى الذى امر به ، وفى أماكن أخرى ، اعلن أن الدول الشـيوعية هى التى ضللت السودان بعقد اتفاقيات تجارية ، وان الخبراء السوفيت هم الذين ارتكبوا كل الاخطاء فى الخطة الخمسية التى أدت الى نشأة العقبات ومظاهر العجز المختلفة . وتمكن نميرى من تنظيف سـجل أعمـاله من أخطاء الماضى كافة . والاكثر من هذا وبصورة ملحوظة ، استطاع ن يقنع الشعب بهذا أيضا . وبطبيعة الحـال ثبت اقدام نميرى كرئيس للجمهورية باغلبية ٩٨٫٦٪ من الأصـوات ، وهى نتيجة لا معنى لها تماما كأى نتيجة لانتخاب مماثل ، غير ان ثمة دلائل تشـير الى انه أصبح له اتباع من افقر قطاعات الشعب ، الفلاحين وصـغار المزارعين والتجار والعمال . وكذلك الحال بالنسبة للجيش ، كان مؤيدوه من ذوى الرتب الصغيرة ، لقد كان ضباط الصف هم الذين قادوا قوات الثـورة المضادة التى اعادت السـلطة لنميرى . أما الاماكن الوحيدة التى عجز الرئيس فيما يبدو عن تكوين اتباع له فيها ، فتمثلت فى قيادة الجيش والادارة المدنيـة من ذوى المناصب العليا . ولقد افتقر ضباط الجيش ـ باستثناء جمـاعة قليلة ـ الى الولاء الشخصى لنميرى ، وبات من المتوقع أن يتخذوا موقفا سـلبيا فى حالة وقوع انقلاب جديد،مثلما فعلوا من قبل تماما . وخشى البيروقراطيون،الذين افزعتهم عمليات الاعتقال التى كانت تتم بلا تمييز ، واطلاق الرصـاص من حين لآخر بصورة تعسفية فى اعقاب عودة نميرى ، من اتخاذ اية خطوة بدون تعليمـات واضحة من اعلى.وكان العدد القادر على اصدار تعليمات قد أصبح محدودا للغاية . وركز الرئيس نميرى ، فى ظل الحكومة الجديدة التى شكلها ، السـلطة فى يديه ، فحل مجلس قيادة الثورة الذى كان يحكم منذ ١٩٦٩ ، وشـكل حكومة على غرار النظام الرئاسى ، وشغل منصب رئيس الوزراء فيها الى جانب رئاسته للجمهورية ، وتولى الرائد عباس وزير الدفاع الذى يبلغ من العمـر ٣٥ عاما ، والذى يعتبر محـل ثقة نميرى ، منصـب النـائب الأول لرئيس الجمهورية وآبيل آلييه من الجنوب منصب النائب الثانى للرئيس ليوضـح ان الحكومة تهتم بمعالجة المشكلة من الناحية الواقعية .

وسرعان ما اصبح واضحا ان نميرى لا يغير من شكل حكومته فحسب ، وانما يغير من اتجاهها كذلك . ففى عام ١٩٧١ بدا السـودان فى التحـول عن الشمال العربى والتطلع الى أفريقيا . وسواء أكان اللواء نميرى قد قرر ذلك أم انه فرض عليه، فقد دعم حكومته وتخلص من خصومه من اليمين واليسار ، ولكن عليه أن يبنى شيئا ليحل محل الأساس السياسى الســابق . وكان هدفه

يتمثل فى تشكيل « اتحاد اشتراكى سودانى » على غرار الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر ، فى محاولة للوحدة الوطنية ، ولكن ليست الوحدة وانما التوحيد هو الذى كان ينبغى ان يتم تحقيقه أولا ، ولهذا السبب ، كان لابد من انهاء الحرب فى الجنوب ، ورأى نميرى المشكلة الرئيسية التى تواجهه ، وشرع فى حلها باخلاص وسرعة منقطعة النظير . فقام أولا بتفقد العمليات العسكرية وسعى الى شق طريق للمواصلات بين الجنوب وبقية انحاء البلاد ، وداخل المنطقة نفسها ، وفى الماضى كان لكل قطار يمر من جوبا او اى باخرة تقطع الرحلة الطويلة من الخرطوم كان عرضة للهجوم ، وكانت كل دورية تخرج الى الريف تعتبر غنيمة فى ارض العدو . لقد غير نميرى الموقف بالاستفادة من السلاح الجوى الذى شكل حديثا ، بالاستعانة بعدد ضخم من طائرات الهليكوبتر التى تم شراؤها من روسيا ويديرها المصريون . وبتغييره للتكتيكات المتبعة من دوريات تشق طريقها بصعوبة على الأقدام وبعثات تستخدم عربات مزودة بمحركات من الصعب توجيهها ، الى حملات سريعة التحرك ، تهاجم رجال حرب العصابات اينما وجدوا ، استطاع نميرى ان ينقل الحرب الى العدو فى داره ومنع اخطاء الماضى من احراق القرى ومن المجازر التى لا تفرق بين احد . وتمثل الدليل فى نجاح السياسة الجديدة فى انه كان على المتمردين ان يسعوا الى الاحتماء فى الدول المتاخمة ، حيث كانت غالبا ما تتعقبهم القوات السودانية — غير ان العمل العسكرى لم يكن كافيا ، كان لابد من شن هجوم دبلوماسى وتعمير اقتصادى . وقد اضطلع نميرى بالجانب الدبلوماسى ، وقام بزيارة للدول الافريقية شارحا استراتيجيته الجديدة ، وعزمه على منح الجنوب الحكم الذاتى ، بالرغم من ان السودان لا يزال دولة موحدة وكلل جهوده بتبادل الزيارات مع الامبراطور هيلاسيلاسى ، الذى كان يوجه اليه نقدا لاذعا فى الماضى والذى وافق على بذل مساعيه الحميدة فى اقناع الزعماء الافريقيين الآخرين بوقف تدفق الامدادات لأهل الجنوب ، فى مقابل تعهد السودان بالكف عن تأييد معارضة الأمبراطور الخاصة المتمثلة فى جبهة تحرير اريتريا وفى الوقت نفسه، انعقد مؤتمر فى الخرطوم لتطوير الجنوب وبحث وسائل توطين مئات الآلاف ممن فروا . وشارك فى المؤتمر خليط من منظمات الأمم المتحدة ، بما فيها منظمة الأمير صدر الدين خان المندوب السامى للاجئين ، والمنظمات الخيرية الدولية والصليب الأحمر ، ومختلف الدول الاوربية ، والمجلس العالمى للكنائس . والواقع أن كثيرا من الحاضرين كانوا يقدمون مساعدات مباشرة للمتمردين . وكانت الكنائس ، عن طريق بعثات التبشير فى أوغندا والكنغو ، نشيطة بصورة عملية فى توصيل المال والمعونة الطبية ، وغالبا الأسلحة ، الى قوات الجنرال جوزيف لاجو المعروفة باسم انيانيا . ولم يكن سرا أن وسيلة الاتصال بالمتمردين داخل جنوب السودان

كانت تتمثل فى الذهاب الى محطة معينة من محطات البعثات التبشيرية بالقرب من شلالات بور تشيسون . وقد تمكن اللواء نميرى فى هذا المؤتمر ، من اقناع الحاضرين على اختلاف انواعهم، بأن السودان جاد هذه المرة فى تسوية مشكلة الجنوب بطريقة انسانية ونزيهة — وقد خلقت الخطوات التى قام بها بالفعل آبيل آلييه نائب الرئيس ، مثل اعادة بناء مصانع النسيج وبناء مصانع لتنقية التبغ ومؤسسات لغزل القطن ، انطباعا حسنا ، ولكون نائب الرئيس نفسه من الجنوب اقنعت الحاضرين فى نهاية الأمر ، بتوفير الفرصة للنميرى . وكانت عاقبة ذلك ، ان المساعدات للمتردين تقل تدريجيا ، وكانت ثمة ضغوط متزايدة على القيادة حتى تتوصل الى تفاهم مع الحكومة . وجرت مباحثات فى لندن بين ممثلى الطرفين ، وتوصل اهل الجنوب ، وعلى نحو بطىء ، الى ان هناك احتمالا حقيقيا للنجاح. وفى مارس ١٩٧٢ بذل جهد متواصل وعقد مؤتمر صلح واسع النطاق فى اديس ابابا تحت اشراف ووساطة هيلاسيلاسى ، وكان آبيل آلييه يراس الوفد السودانى ، فى حين كان ماديخ كارانج يراس ممثلى الآنيانيا . وخلال اسبوع من المباحثات، تم التوصل الى اتفاق كاد يعتبر مفاجأة للجميع . ونص الاتفاق على منح درجة كبيرة من الاستقلال الذاتى الاقليمى ، ودمج رجال الآنيانيا فى القوات السودانية ، وتحصين الجنوب بوحدات من الجيش والبوليس تتشكل اساسا من اهل الجنوب ، واصدار عفو عام ، ووقف اطلاق النار فورا . وكما جرت العادة ، كان الجزء الذى لم ينشر هو اهم ما فى الموضوع: الأمر الذى اعتبر بمثابة تنازل كبير من جانب الخرطوم ، ودليل على قوة المتمردين . ذلك أن الآنيانيا نجحت فى الاصرار على ان يتخلى الرئيس نميرى عن خطته للدخول فى اتحاد فيدرالى مع مصر وليبيا وسوريا ، وان عليه أن يتعهد بعدم الدخول فى اية أحلاف عربية جديدة دون موافقة شعب الجنوب — الذى كان من المفهوم ضمنيا أنه لن يوافق على مثل هذه الأمور — وكان الدافع الى ذلك واضحا بالنسبة للمتردين : لقد كانوا يناضلون ضد سيطرة العرب على شمال البلاد ، ولم تكن لديهم اية رغبة فى وجود ما يدعم هذه الأقلية العربية واتجاه السودان بصورة متزايدة الى الشرق الأوسط وتحوله عن افريقيا التى لا جدال فى أنهم ينتمون اليها . أما بالنسبة لنميرى فقد كان الأمر مجرد تصديق على أمر كان يشعر بوجوده بصورة متزايدة : وهو ان مستقبل السودان يكمن فى دوره كجسر يربط بين المنطقتين ، وليس فى الانتماء الى ايهما . وكانت وحدة الدولة أهم من اية اعتبارات عاطفية أو ايديولوجية ، ذلك انه بدون الوحدة لا توجد دولة . وبالرغم من أن نميرى استمر فى اعتبار نفسه كعربى ، فقد كان هو ووزراؤه يؤمنون بأنهم سودانيون أولا وانه نظرا لموقع دولتهم ، فانهم يعدون أيضا أفريقيين — وكان ذلك بمثابة تغير ملحوظ ، وانجاز هائل بالتأكيد . وكان

تمرد جنوب السودان يقيد حركة ثلاثة أرباع الجيش عدة سنوات ، ويكلف الدولة سنويا ١٥ مليون جنيه على الأقل . ويعتبر ذلك عددا ضخم من الرجال والأموال فى دولة تناضل نضال المستميت لتحسين مصير شعبها ، وتسعى الى تنمية اقتصادية فى حالة من الفوضى ، وتستقل بنفسها عن اية دولة او كتلة . وكان نميرى قد ارتكب عدة اخطاء قبل عام ١٩٧١ ، وبعده بقليل ، غير ان ما حققه من التوصل الى سلام مع الجنوب غفر له اخطاء الماضى كلها .

وكان لابد ، بطبيعة الحال ، من بذل بعض التضحيات ، التى كانت احداها بصفة خاصة ، تعد صعبة بالنسبة لنميرى . فلم يكن اللواء خالد عباس، نائب الرئيس ووزير الدفاع ، الرجل الذى لعب دورا كبيرا فى عودة الحكومة فى العام السابق فلم يكن ليوافق على انتهاج حكومته لسياسة عدم الانحياز الجديدة . وكان يرى انه من الممكن تسوية مشكلة الجنوب عن طريق استخدام الأساليب العسكرية ، وكان يؤيد ضمه الى الدولة بالقوة . كذلك كان اللواء عربيا مخلصا ومؤمنا فى اصرار بالاتحاد المزمع للدول العربية ، الذى وافقت السودان مبدئيا على الانضمام اليه . وكان يعتبر الثمن الذى يطلبه اهل الجنوب للسلام اغلى بكثير مما كان ينبغى دفعه . وكان من الواضح ان اللواء عباس لن يبقى فى الحكم اذا ما صمم الرئيس على المضى فى تنفيذ اتفاق السلام ، وكان من المؤكد ان نميرى يصر على ذلك فقد ادى هذا الأمر الى استقالة عباس، الخطوة التى سببت ذعرا فى مصر اكثر مما سببه فى السودان — وكانت القاهرة تعلم ان المفاوضات جارية لانهاء الحرب . وادركت ان حماس نميرى للاتحاد قد فتر ، غير انها لم تكن تعلم شيئا عن شروط اهل الجنوب الا بعد ان استقال اللواء عباس . وقام الرئيس السادات بايفاد الدكتور مراد غالب وزير خارجيته الى الخرطوم لحثهم على اتخاذ الحذر ، غير ان الوقت كان قد فات . فقد تم توقيع الاتفاقية ، وكان نميرى قد التزم بالابتعاد عن أية أحلاف عربية ، ولم تعد الدولة اسلامية بصفة رسمية . وبدلا من ذلك ، فقد سادها السلام ، الأمر الذى اعتبر غنما اكبر بكثير .

وسرعان ما اتضح الدليل على ذلك عندما تدفق الآلاف من اهل الجنوب الذين فروا الى الدول المجاورة عائدين الى ديارهم . فلم تكن هناك ديار تأويهم ، ولا طعام يكفيهم ، ولا اية تسهيلات ، وادى ذلك الى مجاعة واسعة النطاق ، ولم يحل دون وقوع الكارثة سوى المساعدات الفورية من مختلف المنظمات الدولية . ومع ذلك فقد كان الوضع حرجا ، وبالرغم من تدفق الامدادات فقد تكدست هذه المساعدات فى جوبا ، ولم تكن ثمة طريقة لنقلها الى داخل البلاد حيث كانوا فى اشد الحاجة اليها . وساد الجو لمدة اسبوع او اسبوعين شعورا

بالتخلص من الأوهام صاحبه الاعتقاد بأنها مؤامرة شمالية متعمدة . ومن حسن الحظ فان نميرى ادرك الخطر ، واسرع الى بذل جهود مكثفة للاغاثة ومنح الحكم الذاتى لأهل الجنوب ، وبذلك امكن تفادى الخطر ، واخيرا تم اقرار السلام .

وهكذا تغير الموقف داخل البلاد، وكان لابد من أن يكون لمثل هذه الثورة نتائج بعيدة المدى فى الشئون الداخلية والخارجية على السواء . وكانت العلاقات مع روسيا قد تدهورت الى حد انها قطعت عقب الانقلاب الفاشل فى العام السابق ، وبعد طرد السفير البلغارى والمستشار السوفيتى ، والغاء العقود ، واستدعاء الفنيين . واتجه نميرى الى الغرب والصين لتحقيق توازن جديد، ومع ذلك ، فقد كان على الزعيم السودانى ان يواجه تغيير اكبر فى علاقاته مع الدول العربية فلم يعد ، كما كان من قبل ، عضوا معترفا به تلقائيا فى كثير من الاجتماعات والمؤتمرات العربية ، وولت ايام تصدره للشهرة العربية عندما قام بدور بارز فى الحرب الأهلية فى الأردن . ولم يعد نميرى ولا السودان ينتميان للعرب بمعنى الكلمة ، ولكنهما اصبحا ثانويين ، لا ينتميان لشىء او لآخر . وكان ذلك فى البداية بمثابة تعديل شاق ، غير ان نميرى قبله ثمنا للسلام ، وبمرور الوقت ، وجد انه من الأسهل ان يضع افريقيا موضع الاعتبار الأول . وتشير التكهنات بصورة كافية ، الى ان السبب فى التغير الأخير هو العقيد القذافى ، الرجل الذى كان من المفروض ان يكون احد شركاء السودان فى الاتحاد . ففى صيف ١٩٧٢ حاول اتباع ميلتون أوبوتى الرئيس الأوغندى المخلوع ، القيام بعملية غزو داخل البلاد ، التى يحكمها حاليا عيدى امين . وبداوا من تنزانيا التى كانوا قد لجأوا اليها بعد منح الرئيس جوليوس نيريرى صديق اوبوتى القديم ، حق اللجوء السياسى لأوبوتى ، ومن ثم ، وبطبيعة الحال ، زعم أمين ان قوات تنزانيا ساعدت فى عملية الغزو ، وكان من شأن اى نجاح مبدئى تحققه ان يشين الأوغنديين اذا ما اعترفوا انه من عمل مئات قليلة من رجال حرب العصابات المسلحين بأسلحة خفيفة ، وكانت تلك هى حقيقة الأمر . وكان جيش امين جيش قبلى فى حالة من الفوضى ، وليس اهلا للثقة ويفتقر الى الانضباط ، ومعدا لأى شىء تقريبا فيما عدا القتال ، لذلك فقد ناشد صديقه ونصيره الجديد القذافى تقديم المساعدة . وقد سانده القذافى عندما رفضت اسرائيل الاستمرار فى تنفيذ مشروعاته المندفعة ، وردا على ذلك — قام امين بطرد كافة الاسرائيليين من دولته ، واصبح مؤيدا بصوت مرتفع للقضية العربية . ولهذا السبب وحده كان القذافى ميالا الى تقديم المساعدة، غير انه اعتقد ان الفرصة سانحة لتوسيع نطاق نفوذه ، والثأر من بريطانيا ،

التى تصور انها وراء محاولة لاسقاط امين ، واثارة متاعب بصفة عامة فى منطقة يشعر بانها صالحة للاستغلال . وهكذا ارسل خمس طائرات نقل تحمل ٢٧٧ شخصا و ٢٢ ضابطا من ليبيا الى اوغندا . ولسوء الحظ ، نسى القذافى طلب السماح لها بالتحليق فوق السودان – وزعم فيما بعد انه بعث ببرقية ولكنها لم تصل فى الوقت المناسب ، بالرغم من انه حتى لو كان طلب السماح لها لما اختلف الأمر عما حدث . وعلى الفور اصدر نميرى اوامره الى الطائرات بالهبوط فى الخرطوم ، حيث وضعت تحت حراسة مشددة ، واحسن الجيش السودانى استقبال الرجال والضباط الليبيين ، بينما كان الواضح تماما انه ليس هناك مجال لتلقى اية مساعدة من السودان للوصول الى اوغندا . وكان نميرى قبل ذلك ببضعة اسابيع ، قد زار تنزانيا من أجل تدعيم علاقاته بنيريرى وهو زعيم معروف باعتباره راديكاليا ومتزنا ومتعاطفا مع القضية العربية . على حين عرف امين بانه انتهازى ومهرج ومن السهل ان تؤدى صداقته الى متاعب .

واشتد غضب القذافى ، ولكن نميرى كان عنيدا ، وكان على الطائرات ان تعود وبصورة مخزية الى ليبيا . وتمكنت بعد ذلك وفى نهاية الأمر ، من الوصول الى اوغندا عن طريق آخر ، وشعر الجنود الليبيون بالملل طوال الشهور التى اقاموها فى هذه الدولة . واوضح نميرى موقفه : اولا انه افريقى وان العلاقات الوثيقة مع زعماء محترمين مثل نيريرى اهم بكثير من العلاقات الطيبة مع القذافى . واصبح اتحاد الدول العربية بالنسبة للسودان ، مسالة مقضيا عليها ، واصبحت الجهود الرامية الى تحرير انجولا او موزمبيق من الحكم الاستعمارى ، لها نفس اهمية محاولات العرب لارغام اسرائيل على الانسحاب من الأراضى المحتلة ، واصبح الاستقرار الداخلى افضل من المطالب والهتافات فى المجال الدولى .

٨ ـ الخوارج : العراق فى مرحلة الانتقال

كان الوفد الذى ارسله العراق لتهنئة الرائد عطا على نجاح الانقلاب الذى قام به ضد الرئيس نميرى مثالا نموذجيا لنظام الحكم البعثى فى بغداد . وكان العراق باندفاعه وخلافه مع بقية العالم العربى ، وتخبطه فى سياسته وتراجعه فى اغلب الأحيان عن مواقف اتخذها من قبل ، وتغيره لوجهة نظره او اعترافه بانه كان على خطأ ، انما يمثل رجلا شاذا غريب الاطوار خارجا على العالم العربى ، وان العراق دولة تنفرد بنفسها حتى انها غالبا ما تجد نفسها تسير فى الطريق الخطأ . كما كان فى بعض الأحيان يبدو متطرفا ينتهج اساليب العنف واراقة الدماء ، كما لو كان يصبو للزعامة ويبدو وفى احيان اخرى يبدو ، كما لو كان ينقلب على نفسه ، وعندما كان العراق لا يجد ما يدعو الى الخلاف بينه وبين الدول العربية الأخرى ، كان يتحول الى الاهتمام بخلافاته الداخلية . ولم يبد العراق اى ثبات على المبدأ فى شيء سوى سياسته تجاه اسرائيل ، وبلا تردد على الاطلاق . فلم يسبق لأى حكومة فى بغداد أن وافقت على قرار مجلس الأمن الصادر برقم ٢٤٢ ، او عبرت عن اعتراضها على وجود دولة صهيونية ، وبالرغم من انه لم يشترك فى حرب ١٩٦٧ ، الا انه كان اول من انضم الى مصر وسوريا عام ١٩٧٣ ، وكان فى ذلك الوقت حازما فى رفض قبول وقف اطلاق النار ، الذى ارغم الرئيس السادات على قبوله ، ووافق عليه الرئيس الأسد على مضض ، ان دولة المتناقضات هذه كانت شديدة الحماس فى تأييدها للفلسطينيين ، غير انها لم تفعل اى شيء لمساعدتهم فى عام ١٩٧٠ فى الوقت الذى كان فيه جيشها من اقدر الجيوش على ذلك ، وكانت عاصمتها ذات يوم مركزا اسلاميا للفن والعلم والثقافة ، ثم تسامح حكامها بعد ذلك فى ان تصبح مرادفا للوحشية وضياع العدالة . انها تعلن انها تدافع عن حقوق الأقليات ، بيد أنها تعامل سكانها اليهود معاملة سيئة .

وكثيرا ما كان العراقيون يبدون كما لو كانوا ينصرفون أولا ثم يفكرون بعد ذلك . ومن المؤكد انهم على هذا النحو اعترفوا بحكومة عطا التى لم تدم طويلا فى السودان . وكان العراقيون يهدفون ، باعترافهم السريع بالزمرة العسكرية التى لم تعرف الاستقرار ، الى التأكد من وجود صديق واحد على الاقل بين الدول العربية ، بالاضافة الى ابداء حماسهم الثورى . وحقيقة أن اية حكومة تتريث حتى تتبين حقيقة الأمور قبل أن تلزم نفسها ، لم يكن ذلك يعتبر بمثابة حكمة بالنسبة للعراقيين ، وانما فرصة لأن يكونوا اول من ينزل الى ساحة الميدان ، بينما يكشف جبن الآخرين . وهكذا انهالت الرسائل من بغداد تحمل

الاعتراف الكامل وتعرض تزويد الثورة السودانية الجديدة « باقصى حد من المساعدات » . وكان طارق العنى ، من السفارة العراقية فى الخرطوم ، اول دبلوماسى اجنبى يستقبله الرائد عطا . ولعدة ساعات كانت وكالة الانباء العراقية فى الخرطوم هى المصدر الوحيد للمعلومات لما يجرى فى السودان ، ذلك لانه قد تم السماح لمراسلها هناك بارسال تقاريره عن طريق اتصال لاسلكى بين السفارة العراقية وبغداد . واوفد العراقيون ، عقب تأييدهم الشفوى السريع للحكومة الجديدة ، بعثه على مستوى عال الى الخرطوم ، تشكلت من اعضاء القيادة العربية الموحدة لحزب البعث العراقى من بينهم محمد سليمان، وهو سودانى كان منفيا فى العراق . استقلوا طائرة من طراز انتونوف ٢٤ الى جدة ، حيث تزودت بالوقود قبل التوجه الى الخرطوم . غير انها تحطمت على بعد اميال قليلة من المطار ، ولقى سليمان وعشرة آخرين مصرعهم ، وبعد مضى اثنتى عشرة ساعة ، عاد الرئيس نميرى الى الحكم .

وكان هذا الحادث المؤسف احد الامثلة على اسلوب العراق فى الاستجابة المتهورة للأحداث الخارجية وهناك امثلة كثيرة ، جاءت نتيجة للانقسامات العميقة داخل البلاد . ذلك ان لدى العراق من المشكلات اكثر من غيره . فقد كانت هناك الحرب الطويلة فى شمال البلاد ، حيث يواصل الاكراد ، تحت زعامة الملا مصطفى البرزانى ، نضالهم من اجل الحصول على الحكم الذاتى ، وهناك النزاع بين الأجنحة المتباينة لحزب البعث ، والمناورات من اجل السلطة من جانب افراد كثيرين ، ومن جانب قادة الجيش ، والنضال من اجل تحسين الاقتصاد ، والخلاف القائم دائما مع حزب البعث المنافس فى دمشق ، ونزاع الحدود مع الكويت ، واستياء الشعب الذى خابت آماله ، ويعبر عن استيائه بمظاهرات وعمليات شغب تقوم بقمعها بوحشية قوات الأمن التى تشكل قاعدة القوة الوحيدة للجناح الحاكم . ولم يكن العراق سعيدا ولا مستقرا فى السنوات التى اعقبت حرب يونيو مباشرة بالرغم من انه بدا كما لو كان قد اجتاز فى خاتمة المطاف مرحلة الانقلابات أو محاولات القيام بانقلاب ومؤامرات مضادة بدات بالاطاحة بالملكية فى ثورة دامية فى عام ١٩٥٨ .

وتولى الرئيس احمد حسن البكر السلطة فى يوليو ١٩٦٨ ، عقب شهور من القلاقل نتيجة لفشل سياسات الحكومة الزراعية ، وعجزها عن التوصل الى تسوية مع الأكراد ، وقمعها الجائر لمظاهرات الجامعة والاضطرابات الشيوعية . لقد كان انقلابا ابيض ، وبالرغم من ان الحكومة كانت قد سارعت الى اظهار قوة بطشها فان الاستيلاء الفعلى على السلطة تم بدون طلقة واحدة. فقد احاطت الدبابات والقوات بالقصر الجمهورى ، وبعد مكالمتين تليفونيتين ،

وافق عبد الرحمن عارف على الاستسلام وسافر الى المنفى فى لندن . ولم يستمر اول رئيس للوزراء عينه الرئيس البكر واتباعه من العسكريين اكثر من اسبوعين ، ثم استقرت الحكومة بصورة معقولة مع تولى البكر لرئاسة الوزراء، بالاضافة الى رئاسة الجمهورية يسانده اللواء حردان التكريتى ، الرجل العسكرى القوى فى الحكومة . وسرعان ما تحققت له الشعبية مع صدور قرار الضريبة التصاعدية على الدخل والغاء ضريبة الدفاع التى كانت تفرض على اشد طبقات الشعب فقرا ، ودعم موقف الحكومة بالافراج عن عدد من البعثيين اليساريين الذين كانت الحكومات السابقة قد اعتقلتهم . وسرعان ما اعترفت دولة الكويت المجاورة بالحكومة الجديدة ، وكانت الكويت دائما حساسة لما يحدث على حدودها ، كذلك اعترفت بها كافة الحكومات العربية الأخرى ، بالرغم من ان الكثيرين كانوا يرون أن التغيير الذى طرأ ليس سوى مجرد تغيير فنى ، الأمر الذى لا يستحق اعترافا رسميا جديدا . واتسم السوريون وحدهم بالفتور ازاء حكومة البكر ، بالرغم من ان الرئيس شخصيا خرج على طريقته ليؤكد لهم « شعوره الأخوى » . اما بالنسبة لما سيحدث بعد ذلك ، فمن الأهمية بمكان ان نرى الأسلوب المنطوى على الرياء الذى تحدث فيه البكر عن مصر عندما قال : « ان دولتينا تربطهما على الدوام اواصر اخوية ، وان اى انشقاق بين بلدينا سيفضى بالعراق الى الفناء والعزلة » .

وتم تشكيل مجلس قيادة للثورة من خمسة اشخاص ، وتم وضع مشروع دستور ، واصدار عفو عام عن كل المتمردين الأكراد ، وفى الوقت نفسه تم القيام بعملية تطهير لكل الذين يعتقد انهم ينتمون الى المعارضة ، وفى الشمال ، استمر القتال ضد رجال البرزانى . وكان دائما يتم اكتشاف « الجواسيس » كما تم احباط « الانقلابات اليسارية » ، فى الوقت الذى كانت فيه حكومة الرئيس البكر غير المستقرة تعتمد فى حكمها وبصورة متزايدة على القوة . ولم تتوفر سوى تقارير موضوعية قليلة عما يجرى فى البلاد ، غير أن الكثيرين ممن زاروا بغداد فى تلك الآونة تحدثوا عن قمع حرية الكلمة وعن نشاط رجال البوليس وعلى رأسهم جهاز الحنين ساعد الأمن لحزب البعث . وقد قيل ان هذه المجموعة هى المسئولة عن مقتل ناصر هانى ، السفير العراقى السابق واحد الوزراء السابقين ، ونشبت فى ذلك الوقت معارك متزايدة مع الأكراد الذين صودرت صحيفتهم فى بغداد ، ووجه الحزب الشيوعى ضده اتهاما الى الحكومة « بشن حملة ارهاب وقتل » ، وقتل عدد من المضربين فى الاشتباكات مع قوات الحكومة. ثم جاءت حملة الاعتقالات التى اقنعت حتى اكثر المتعاطفين مع العرب بأن حكومة العراق انما هى حكومة قمع ووحشية : واتهم السيد

عبد الرحمن البزاز ، الذى شغل منصب رئيس الوزراء ، وكان واحدا من اكثر السياسيين العراقيين بروزا « بالتجسس لصالح أمريكا والمصالح الصهيونية » . وتم اعتقال اللواء عبد العزيز العقيلى وزير الدفاع السابق بتهمة سخيفة مماثلة ، وتمت مصادرة ممتلكات ٨٦ شخصا ، بما فى ذلك منازل ثلاثة من الوزراء « تورطوا فى شبكات تجسس صهيونية » .

وتلا هذه الواقعة يوم الخزى والعار الذى فرضه العراق على نفسه ، ففى ٢٧ من ينـاير ١٩٦٩ ، تم اعدام اربعة عشر جاسوسا شنقا فى بغداد والبصرة ، وعرضت جثثهم فى ميادين عامة ليكونوا « عبرة لغيرهم » وكان تسعة من بين الأحد عشر الذين اعدموا فى بغداد من اليهود وكان احدهم زعيما للطائفة اليهودية فى الدولة . وتعالت أصوات السخط ، بطبيعة الحال ، فى انحاء العالم المتمدين كافة . حتى ان الدول العربية الصديقة سمحت لنفسها بتوجيه النقد ليس فقط لأن عمليات الاعدام التى اعقبها العرض الهمجى للجثث جاءت فور وقوع الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت،مما ادى الى ادانة واسعة النطاق . وذكرت صحف القاهرة ان توقيت الاعدام لم يكن « مناسبا » ذلك لأن اسرائيل حينذاك كانت فى موقف دفاعى من الناحية الدبلوماسية ، فأصبح العرب فى موقف يرغمهم على تبرير ما فعلته حكومة بغداد . اما بالنسبة للعراقيين فانهم لم يبالوا بالأمر : بل على العكس ، كانوا فيما يبدو يتعمدون الاستهزاء بالعالم والراى العام العربى ، ذلك لانه عقب ذلك بثلاثة اسابيع ، تم اعدام ثمانية اشخاص آخرين فى بغداد شنقا وعرضت جثثهم . واعدم اربعة غيرهم فى ابريل ، وخمسة عشر آخرون فى اغسطس وثلاثة فى سبتمبر ... وهكذا استمرت الحال ، مع تناقص العدد نتيجة لعدم الاعلان بصورة صحيحة الا عن عدد صغير من اجمالى عمليات الاعدام . لقد كان العراق فى ذلك العام مسرحا لاختفـاء الرجال ، كما ان اصدقائهم كانوا يخشون الاستفسار عما يحدث لهم ، وكانت الاعتقالات تتم لأسباب تافهة كما كانوا « ينتحرون » فى السجون ، وتعرض المسئولون السابقون للاغتيال بطرق غامضة ، كما اختفى السياسيون . وكان العراق ابان العام الأول من حكم الرئيس البكر ومؤيديه العسكريين والمتشددين فى حزب البعث ، اشبه بدولة يحكمها الارهاب وحده، ولم تكن اية دولة عربية على الاطلاق ، وكان من الملاحظ انها لن تفلت من الانزلاق المخيف نحو الدكتاتورية ، غير انها نجت منه نتيجة لقوى خارجيـة . فبالنسبة لأية دولة تواجه مشكلات داخية عميقة ، يكون من المفيد على الدوام ان تكون هناك الى حد كبير بؤرة خارجية للكراهية او حتى للضغينة ، وهذا ما توفر لحسن الحظ بالنسبة للعراق ، بالاضافة الى الجهود الراميـة الى تسوية الحرب الاهلية مع الاكراد ، مما ادى فى النهاية الى تمكين الحكومة من

نسيان الفكرة المتسلطة عليها عن المؤامرات التى تدبر ضدها ، والمساعى التى تستهدف الاطاحة بها ، والمضى قدما فى ممارسة مهام الحكم .

وكانت ايران هى التى عجلت فجأة بأول ازمة تقع بين حكومة الرئيس البكر ودولة خارجية . فقد قرر الايرانيون من جانب واحد الغاء معاهدة تحكم حقوق الملاحة فى شط العرب ، النهر الذى يشكل الحدود بين البلدين على بعد ٦٤ ميلا شمال منبع الخليج . ولم يكتف الشاه بالغاء المعاهدة ، وانما نشر جنوده على طول الحدود مع العراق ، وارسل قواته البحرية لحراسة قوارب الصيد الايرانية ، وامر بطلعات جوية لطائرات السلاح الجوى لتحويل الأنظار عن عبدان . وكان الشاه يدرك أيضا اهمية القوة الموحدة بالنسبة لدولة لها عدو خارجى ، بالرغم من ان دافعه الأساسى كان يتمثل فى اطماعه فى ان تصبح ايران الدولة المسيطرة فى الخليج . وكان العـراق يسعى كذلك الى تكوين اصدقاء وحلفاء فى منطقة الخليج لهدف عملى اكثر من الشاه : فقد كان العراق يهدف الى بناء ميناء بحرى فى مكان ما على الجزء الصغير الخاص بها من شاطىء الخليج ، وكان يرغب فى تامين الملاحة من والى هذا الميناء حتى تم بناؤه ، دون الاعتماد على المساعى الحميدة لأية دولة اخرى لحراسة الممرات المائية : وهكذا اصبح المسرح معدا لمواجهة بين الدولتين مع توافر اطماع متعارضة ومتشابهة ، بالرغم من ان الشاه الذى كانت لديه حكومة اكثر استقرارا ، كان قادرا على اختيـار اللحظة التى يثير فيهـا الأزمة ، وهى اللحظة التى كان العراقيون فيها فى حالة من الفوضى ، واجمع العالم على انه يستطيع الافلات من اى شىء تقريبا . لقد اساء التقدير مرة ، وادت الخطوة التى اتخذها الى توحيد العراقيين الذين رفضوا الاذعان لمطالبه بشأن السيطرة التـامة على الخليج ، وبدلا من ذلك حشـدوا قواتهم الخاصة على طول الحدود ، وبدأو مواجهـة طويلة الأمـد ، ومناوشـات متعـددة على الحـدود ، انتهت بصـورة مؤقتـة خـلال حـرب ١٩٧٣ فقـط . ولم يكن البـاعث على الـرد العـراقى السريع الشـعور بالكبرياء الوطنى فحسـب ، او بالحاجة الى امتصاص كراهية الشعب عن طريق تحويله الى اتجاه آخر ، وانما جاء الدافع نتيجة لتحريض من روسيا ، وبالرغم من ان العلاقات العراقية السوفيتية الرسمية كانت ما تزال فى الغيب ، فان روسيا كانت قد اختارت بالفعل حكومة بغداد كمقدمة لحملتها فى الخليج من الشمال ، كى تحل محلها فى مواجهة القوة الايرانية المتزايدة ، التى كانت على صلة وثيقة بالغرب . ذلك لأن موسكو كانت أسرع بكثير من الدول الغربية فى تقدير امكانيات الخليج ،وكان الجميع يدركون احتياطى البترول الهائل هناك ، ويرون الأهمية الاستراتيجية لمضايق هرمز ، تلك القناة الضيقة التى تربط الخليج بالمحيط الهندى ، ولابد

لكل ناقلات البترول من ان تمر من خلالها . وبالرغم من ذلك ، فان الدول الغربية فيما يبدو لم تقدر ما ينطوى عليه الموقف من مخاطر ممكنة ، على حين استطاع الروس ان يقدروا ذلك .

وما ان اعلنت بريطانيا قرارها الخاص بترك الخليج، حتى بدا خطر عدم الاستقرار والقلاقل واضحا ، بالرغم من ان بريطانيا وامريكا كانتا فيما يبدو تعتقدان ان مخلفات الحكم البريطاني وقوة الشاه العسكرية المتزايدة كافيتان لمنع اية قلاقل خطيرة . واذا ما نفذت هذه السياسةبدقة تامة فانه يكون من غير المحتمل ان يبقى على الاطـــلاق اتحاد الامارات العربية ، دول الخليج المتصالحة ، ولواجهت المملكة العربية السعودية متاعب على ابوابها . وكان قرار بريطانيا بالبقاء فى عمان هو الذى حال دون التغلغل الماركسى فى بقية دول الخليج . وارغمت بريطانيا عن طريق الاطاحة بالسلطان سعيد بن تيمور وتولى السلطان قابوس وبتشجيعها الحاكم الجديد على خوض غمار حرب شاملة فى ظفار ، ارغمت الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل على تركيز كل قواتها وعتادها فى ذلك الجزء النائى من شبه الجزيرة العربية . ولو لم تدخل الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى المحتل المعركة هناك ، لكانت قد اكتسحت عمان وانتقلت الى الدول المتصالحة . ولقد رات روسيا الموقف بصورة اكثر وضوحا ، واغرقت المساعدات على اليمن الجنوبى ، قاعدتها العلنية فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة العربية ، ثم اختارت العراق بعد ذلك كقاعدة عسكرية فى الشمال ، وبهذا حاصرت المملكة العربية السعودية ، الهدف الحقيقى وكان السوفييت قد اقاموا علاقات ودية مع العراق فور اعلان ثورة ١٩٥٨ الاصلية ، غير أن الروابط تدعمت بدرجة كبيرة فى عام ١٩٦٩ عندما تم توقيع اتفاقية جديدة تنص على تقديم مساعدات سوفيتية لتطوير حقول بترول الرميلة فى الشمال ، اكبر المشروعات الاقتصادية العديدة التى اهتمت بها روسيا . وفى عام ١٩٧٠ تم استكمال اثنين وستين مشروعا هاما بمساعدة السوفييت ، بالاضافة الى عدد كبير من مشروعات اقل اهمية . وكان الاتحاد السوفيتى الشريك التجارى للعراق ، وربما كان الاول لو ادرجت قيمة صادرات الاسلحة الروسية .

وهكذا كان العراق فى وضع منفرد لاقامة افضل علاقات مع روسيا حتى كاد حزب البعث يعامل كشقيق للحزب الشيوعى السوفيتى فى الوقت الذى كان يبدو فيه فى حالة خلاف مع الشيوعيين داخل الدولة . وبالرغم من كافة الجهود ، لم يكن العراق قادرا على اقامة علاقات طيبة مع الدول العربية الاخرى . ومن ثم سرعان ما رفض العراق موافقة الرئيس ناصر على مشروع

روجرز فى يوليو ١٩٧٠ ، ولم يكتف بمجرد الاعراب عن معارضته والاكتفاء بهذا الحد : ولكن حكومة بغداد وعلى طريقتها الخاصة ، سارعت الى اتخاذ خطوات لتصعيد الخلاف الى ازمة . وناشد راديو بغداد « كافة القوات والدول العربية » الاتحاد والعمل معا ضد تنفيذ المشروع ، وبدون الاشارة الى مصر او الاردن بالاسم ، حذر الحكومات التى وافقت على المشروع وانذرها بان « تتذكر ما حدث فى الماضى للحكومات الرجعية التى استسلمت للضغوط الاجنبية ضد المصالح العربية » . حتى انها لم تكتف بهذا التحذير الصامت ولكنها اذاعت تغطية حية لمظاهرة جماهيرية ضد مشروع روجرز فى بغداد ، اشاد فيه المذيع مهللا ، الى المسيرات التى تحمل لافتات تدين قبول المشروع باعتباره « خيانة عظمى » او « استسلاما علنيا لاسرائيل » . ثم قام العراق بعد ذلك ، لمجرد التأكد من ان الدول العربية ادركت مدى عمق شعور العـــراق ازاء هذا كله ، بارسال مبعوثين الى مختلف العواصم لابلاغهـــا بالامر . وفى القاهرة ، على الاقل ، كان الاستقبال صريحا وواضحا ، وسرعان ما بدات حملة دعاية مضـــادة .

وكما جرت العادة ، ذهب العراق الى مدى ابعد : ففى قمة نقده العنيف للموافقة على « مشروعات الخيانة » ، اعلن فى بغداد ان ١٢٫٠٠٠ من القـــوات العراقية فى الاردن وضعت تحت تصرف قيادة اللجنة المركزية لحركة المقـــاومة الفلسطينية،وانه سيسمح للفلسطينيين بفترة اذاعية فى راديو بغداد لتعويض الاذاعات التى كانت تذاع من القاهرة والتى أمر ناصر باغلاقهـــا ، نظرا للنقد الذى وجهه الفلسطينيون لمشروع روجرز . وبدا هذا العرض فى ذلك الوقت عرضا مامونا تماما ، حتى وان كان يتسم بالمغالاة الى حد ما . ومع ذلك لم يكن هناك فيما يبدو ، احتمال كبير فى ان يطلب من العراقيون تقـــديم اية مساعدة للفدائيين الذين يحاربون اسرائيل بطريقتهم الخاصـــة . ولكن كان هناك احتمال قوى ، لم تقدره الحكومة العراقية حق قدره ، تمثل فى انه ربما طلب رجال حرب العصابات من الوحدات العراقيـــة المرابطـــة فى الاردن ، المساعدة ضد جيش حسين . وهذا ما حدث تماما بعد شهر او نحو ذلك : عندما نشبت الحرب الاهلية فى الاردن ، وتطلع الفلســـطينيون الى القـــوات العراقية المرابطة فى الاردن للوفاء بوعد حكومتها ، لكن شـــيئا لم يحدث . وقامت المدفعية العراقية باطلاق عدة طلقات قليلة لاقناع السلاح الجوى الاردنى بالبقاء على الارض فى المفرق ثم انسحبت بعد ثلاثة ايام عندما قررت حكـــومة بغداد عدم الاشتراك فى النزاع ، وتمثل كل ما فعله العراق فى تسهيل مهمـــة الدبابات السورية فى الاستيلاء على المواقع التى جلت عنها . وكانت خطـــوة

مشينة بعد الكلام المنمق الذى اعلنته بغداد بالمقارنة بموقف السوريين الذى لم تكن ملامحه قد تحددت بعد .

ولم يستطع العراقيون تحديد موقفهم حتى عندما بدا تطور الاحداث التى ادت الى نشوب الحرب . ففى ٨ من سبتمبر ، عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعمليات الاختطاف الجماعية ، لقيت ترحيبا باعتبار ذلك « جهدا شجاعا جديدا يدل على أن المصالح الامبريالية والصهيونية فى متناول يد محاربينا » ثم بعد ذلك بأربعة أيام أصدرت بغداد نداء الى اللجنة المركزية لحركة المقاومة والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تناشدها الافراج عن الطائرات المختطفة لاعتبارات انسانية ، وتفادى اى مبرر للتدخل الاجنبى . « وكان ذلك بعد اسبوع واحد فقط من استدعاء عبد الكريم الشيخلى وزير خارجية العراق لسفير الأردن فى بغداد لتحذيره من أن الحكومة العراقية والقوات العراقية المرابطةفى الأردنستتخذ كافة الاجراءاتاللازمة لحماية رجالحرب العصابات ما لم يكف الملك عن اتخاذ جميع « الاجراءات الاستثنائية » . وكان حردان التكريتى ، نائب الرئيس ، اشد صراحة حين قال : ان القوات العراقية « ستلقن درسا لن ينسى » لكل من يحاول الحاق الأذى برجال حرب العصابات. ولم يحدث اى شىء من هذا القبيل ، ولم تطلق رصاصة واحدة ، ولم تتخذ اية خطوة تنطوى على التهديد ، وبالرغم من انه كان يتعين على الأردنيين توزيع بعض القوات لمراقبة العراقيين فى الأيام الأولى للحرب ، الا انهم سرعان ما تبينوا ان ليس هناك خطر ما من هذا الجانب ، وأصبحوا قادرين على توجيه انتباههم كله الى الخطر الحقيقى الا هو التدخل السورى .

وعندما توقف القتال ، لم يخف الفدائيون شعورهم بالخديعة ، واعلن متحدث فلسطينى ان العراقيين لم يفشلوا فى تنفيذ وعودهم بالمساعدة فحسب وانما سمحوا للقوات الأردنية بالتحرك داخل حدودهم لمهاجمة الفدائيين . وادى هذا الى تنصل بغداد وردها المطول الجدير بالملاحظة : الذى جاء فى صورة بيان يقول : « ان كافة المساعدات المادية والمعنوية والعسكرية الممكنة قد قدمت للفدائيين . وقد زاد اشتراك العراق فى الجبهة الشرقية الى ٦٠ر٠٠٠ جندى وقد أرغمت التكاليف الباهظة التى تطلبها ذلك الحكومة على الغاء عدد من مشروعات التنمية . وعلى اية حال ، فان الوعود بتأييد رجال حرب العصابات لا تعنى بالضرورة دخول المعركة الى جانبهم ضد الأردنيين . واختتم البيان بالاشادة بالعراق الذى تصرف بحكمة وواقعية عندما لم ينضم الى المعركة ، لأن ذلك ربما كان من شأنه الانتهاء الى تدخل امبريالى خارجى .

وبطبيعة الحال ، شهدت وسائل الاعلام فى مصر يوما مشهودا : ورددت صحيفة الأهرام قصصا حول القوات العراقية العائدة الى بغداد ، وزعمت ان

العراق انتهك وقف اطلاق النار عن طريق تقديم معلومات زائفة الى الفدائيين، وهللت مرددة كل كلمة من كلمات النقد التى وجهها رجال حرب العصابات للحكومة العراقية . وحتى يخرج العراق من هذا المأزق ، كان لابد له من العثور على كبش فداء . وبالتالى ولأسباب لا صلة لها بأحداث الأردن ، قرر الرئيس البكر وصدام حسين التكريتى مساعدسكرتير عام حزبالبعث العراقى،طرد حردان التكريتى نائب الرئيس من الخدمة ، والقاء اللوم عليه لما حدث فى الأردن . وكان الرجلان — ولا تربطهما صلة قرابة ، وانما قدما مثل الرئيس البكر وواحد او اثنان من اعضاء الحكومة من منطقة تكريت فى شمال العراق — كانا يتزعمان الجناحين المتنافسين للحزب فى بغداد على غرار ما فعل صالح جديد وحافظ الاسد فى سوريا . وربما كان نتيجة لما تنطوى عليه سياسات البعث من حساسية ان ادت الحرب الأهلية فى الأردن الى اشتباكات علنية بين الأجنحة المدنية والعسكرية للحزب فى كل من الدولتين .

ولم يكن التنافس بين صدام حسين وحردان التكريتى بالحدث الجديد : اذ ان صدام حسين كان قد سيطر على قوات الأمن الداخلى فى الحكومة والحزب التى كانت قد تصرفت بصورة وحشية خلال العام الأول من حكومة البكر . ولموازنة ذلك ، سمح البكر لحردان جعفر التكريتى بتكوين اتباع له فى القوات المسلحة ، فقد كان قائدا فى السلاح الجوى من قبل . وكان كثير من الضباط يدينون بالولاء لحردان التكريتى اكثر مما يدينون للحكومة كلها . وكان من المعتقد ان أحد الأسباب التى دعت الى ايفاد « قوة عسكرية » الى الأردن ، هو التخلص من وحدات وضباط ثبت انهم يثيرون المتاعب فى العراق . ومن المؤكد انه عندما تم التوصل الى قرار طرد حردان التكريتى تم اتخاذ اجراءات استثنائية . فقد احاطت قوات يعتمد عليها بمعسكر الرشيد بالقرب من بغداد لمنع أى اجراء من جانب الضباط الموالين للتكريتى ، وكان الاعلان الفعلى بعد ظهر احد الأيام ، يوم الخميس وفضلا عن ذلك فان اجراء تجريد حردان التكريتى من كل سلطاته بدا عندما كان فى الخارج فى مهمة رسمية بالرغم من ان هذا القرار الخاص به كان قد تمت الموافقة عليه قبل ذلك بأسبوعين فى اجتماع خاص لمجلس قيادة الثورة ، مما يذكرنا — كما اعلن بعض الذين كانوا هناك فى ذلك الوقت — بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى وما فعله نيكيتا خروشوف بستالين .

لقد كانت مسرحية مفتعلة تماما ، لعب فيها صدام حسين دور ممثل الاتهام فقال : ان حردان التكريتى ، يعد مسئولا عن اعدام كثير من الضباط الذين لا يعتبرهم ممن يدينون بالولاء له شخصيا ، وانه كان على اتصال

بعناصر فى الدولة معادية للرئيس البكر ، وانه اخذ رشاوى من شركات البترول الأجنبية ، وفوق كل شىء فقد فشل فى اصدار الأوامر الى القوات العراقية المرابطة فى الأردن لتقديم المساعدة الى الفدائيين – ولابد أن ظل ابتسامة طفيفة قد لاحت فى تلك اللحظة على وجوه أعضاء مجلس قيادة الثورة الحاضرين ثم خبت، ذلك انهم يعلمون جميعا ان قرار عدم اشتراك القوات العراقية فى الاردن اتخذ بالاجماع فيما بينهم ، على ضوء تقارير عسكرية تفيد ان قواتهم لا يمكنها ان تصمد امام اى اعتـــداء اردنى علنى .

ان مبدا المسئولية الجماعية لا يجد تأييدا كبيرا فى العـــالم العربى . وانما الأفضل والأكثر احتراما اتباع اسلوب اختيار زميل مثير للمتاعب يقدم ككبش فداء لدفع غضب الآخرين مما ادى الى الادانة الجماعية لحردان التكريتى . غير ان الأمور لم تسر فى يسر على نحو ماكان مخططا لها . فقد علم حردان التكريتى بقرار فصــله فى الوقت الذى كان فيه فى بيروت لفترة قصيرة فى طريقـــه الى العراق ، وحثه عدد من المنفيين الذين يقيمون فى لبنان على البقاء معهم ، خشية ان يتعرض لضرر اذا ما سافر الى بغداد لمواجهة رفاقه القدامى . ولكنـــه اصر على العودة الى وطنه ، معتقدا فيما يبدو ان وجوده سيجمع مؤيديه فى الجيش وفى مجلس قيادة الثورة ، وكان مخطئا فى ذلك للغاية . وبدلا من الترحيب به فقد كان فى استقباله مجموعة صغيرة من المسئولين اختارهم صدام حسين التكريتى بعناية وحراسة شديدة من جانب قوات الأمن الداخلى . واقتـــادوه رأسا الى اجتماع فى بغداد مع الرئيس الذى اتهمه ، والذى أوضح تمـــاما ان حردان التكريتى لا أمل له فى التمسك بالسلطة ، وانه سيخلق أزمة كبرى اذا ما حاول اثارة المتاعب . وسافر حردان التكريتى ، الذى كان يدرك تمـــاما ان احتمال الذهاب الى المنفى قد لا يدوم طويلا ، الى الجزائر فى اليوم التـــالى ، حيث لحقت به زوجته بعد اسبوعين ، وتوفيت بعد يوم أو يومين من وصـولها الى هناك ، وعندما حاول التكريتى مرافقة جثمانها الى بغداد لتدفن فى وطنها، حذر من أنه قد لا يسمح له بالهبوط . وأوضح خلال الأســابيع التى تلت طرد التكريتى أن لديه أتباعا فى القوات أكثر بكثير مما كان يخشى البكر وصـــدام حسين ، وكان من الخطورة السماح له فى ذلك الوقت بالعودة الى العـــراق . وكان ذلك بمثابة بداية لادراك حقيقة أنه طالما ظل التكريتى على قيد الحيـــاة فان الحكومة ستظل فى خطر .

وهكذا اعقب طرد التكريتى حملة تطهير واسعة النطاق لجناحه داخـــل القوات المسلحة ونشب قتال على نطاق محدود عنـــدما حاول العميـــد طه الشاكارجى تحريك بعض الوحدات فى بغداد تأييدا لقائده السابق ولكنه طرد من

الخدمة كما طرد العميد حسين نجيب مساعد رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، طرد معه ما يربو على عشرين من الضباط من ذوى الرتب المتوسطة ، وبناء على السجل السابق للحكومة ، ترددت شائعات لها ما يبررها عن اعدام عـــدد من هؤلاء ، ولكن لم يثبت وجود ما يؤكد صحة هذه الشائعات . ونتيجة لزيادة نفوذه عمد صدام حسين – ربما لتفادى تشابه الأسماء مع رفيقه السابق ، أو لتفـــادى الانطباع بان الحكومة تعد نوعا ما من مجلس القرية – الى اسقاط كلمة «التكريتى» من اسمه . وكان صدام حسين يشعر بالرضاء عن القيام بمهـــام الحكومة ، وتحسين سياسات العراق مع بقية العالم العربى . وكان من المحتمل ان يفعـــل صدام حسين ذلك اذا لم يكن هناك تهديد مستتر ، لكنه كان يدرك ان حردان التكريتى رجل صعب المراس وانه لم يتم بعد التخلص من اصدقائه ومؤيديه كلهم ، كما اوضحت الشواهد اليومية . فقد كانت ثمة وقائع دائمة واجتماعات سرية ، فى الوقت الذى اصبح فيه اللواء المخاوع موضع سخط للساخطين داخل القوات المسلحة وخارجها . وهكذا تم اتخاذ القرار وهو ضرورة القضـــاء على التكريتى وكان القول اسهل من العمل، ذلك ان التكريتى كان جنديا قديما مراوغا ، يعرف نظام الحكم حق المعرفة ، ويدرك مدى الخطر المحدق به . وتمثلت أولى خطواته فى مغادرة الجزائر الى الرباط وهى مدينة يصعب على المغتالين العمل فيها . وفى الوقت نفســه ، كان التكريتى عراقيا ، لا يمكنه الكف عن تدبير المؤامرات ، وكان يعتقد ان لديه فرصة حقيقية لقيادة ثورة مضادة ، واستمر فى مراسلات سرية مع المتعاطفين معه فى العراق ، وعقد اجتماعات كثيرة مع مبعوثى بلاده . وكان من الواضح انه بالغ الى حد بعيد فى تقدير فرص نجاحه ، كما بالغ فى عدد الذين هم على استعداد لتأييد مساعيه . بيد انه كان على استعداد للمضى فيها ، ودفع فى ٣٠ من مارس ١٩٧١ ثمن ثقته. فقد اطلق عليه اثنان النار بينما كان يهبط من سيارة عند مدخل المســـتشفى الحكومى بالكويت ، حيث توجه لمقابلة عدد من مؤيديه ، بحجة اجراء فحوص طبيـــة .

ففى تلك المناسبة ، كان التكريتى قد تخلى عن حرسه وقبل عرضـــا بالمساعدة من ابراهيم جمعة السفير العراقى، الذى صدرت اليه الأوامر من بغداد بالترحيب بالتكريتى . وبطبيعة الحال ، نفذ السفير التعليمات ، وهو يجهل تماما بما وراء ذلك كله . فانه عندما كان بصدد اقناع التكريتى باستخدام ســـيارة السفارة ، ويرتب له المواعيد والمناسبات الاجتماعية ، تأكد بدون قصد من أن هناك مجموعة من الأشـــخاص فى السفارة يعلمون تحركات التكريتى بالتحديد ومكانه فى أى وقت من الأوقات .. ووقع اختيارهم على هذه اللحظة عندما كان خارج المستشفى الحكومى ليضربوا ضربتهم ولقى التكريتى مصرعه فى الحال نتيجة

اطلاق خمس رصاصات عليه – ونقل السفير المسكين الى العيادة من جراء الصدمة .

وقام اثنان آخران بعملية تغطية باطلاق النار فى الوقت الذى فر فيه القاتلان فى عربة كانت فى انتظارهما عند البوابة . ولم يتم العثور على اى منهما ذلك الوقت ، ولم يكن هناك اى مجال للشك فى انهما خلال ساعات كانا قد عبرا الحدود الى العراق ، لينقل الى بغداد من اقرب قسم للشرطة ان مهمتهم قد تمت بنجاح . وبطبيعة الحال ، أنكرت حكومة بغداد المغتالين ، ونفت اية صلة لها بهذا الحادث . فليست هناك حكومة على الاطلاق تعترف بعملائها السريين سواء حققوا نجاحا أم لم يحققوا ولمزيد من التغطية ، اصدر الرئيس البكر اوامره بالسماح بدفن جثمان التكريتى فى العراق ، وارسلت طائرة خاصة الى الكويت ، لتحمله الى تكريت ، المدينة الصغيرة التى انجبت الكثيرين من كبار قادة العراق واعضاء السلطة التنفيذية فيها . وكانت بادرة يعوزها الحماس ، فقد تمت اجراءات الجنازة سريعا ، ولم يحضرها اى من الممثلين الرسميين ، بل انهم كانوا يحاولون اخفاءها بقدر المستطاع ، وليس هناك اى شك فى ان رد فعل بغداد ازاء وفاة التكريتى تمثل فى آهة ارتياح طويلة . فقد كان الاختيار قد وقع عليه ليكون كبش الفداء ولكنه رفض القيام بهذا الدور ، وحاول النضال من اجل العودة ، ونظرا لأنه يعلم الكثير ويفهم تماما أعمال حزب البعث ، فقد كان لابد من التخلص منه . وكان هذا أحد الميادين التى تفوق منها صدام حسين . وقد تم له ما اراد . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ترتكب فيها الحكومة أعمال العنف كما لم تكن الأخيرة ، ولكنها كانت بمثابة بداية تغيير فى سياسة العراق ، فقد كانت حكومة البكر بدات تشعر بمزيد من الثقة ، ولم تعد تعتمد بصورة كبيرة على سفاكى الدماء لتهدئة الشعور بالاستياء ، من جانب الشعب . وأصبحت اكثر ادراكا لحقيقة ان التقدم الاقتصادى ورفاهية الشعب ، هى مفاتيح الحكم الذى لا يواجه تحديات . لقد كان حزب البعث فى طريقه لأن يصبح اكثر حكمة .

ولم يكن قتل التكريتى أكثر من مجرد ملاءمة للظروف ، ذلك لأن الخطوة الكبرى التى اتخذتها الحكومة كانت قد تمت قبل ذلك بعام عند « اعلان نية » تسوية الحرب الطويلة مع الأكراد . فقد دام هذا النزاع الميئوس منه لتسع سنوات بين الجبال التى يكسوها الجليد والوديان المليئة بالزهور شمال العراق . وادى هذا النزاع الى شل حركة اغلبية الجيش العراقى ، ولم يكن من الممكن ان ينتصر اى من الطرفين على الآخر . وكان الأكراد ، المنفصلون تماما عن العرب بلغتهم وثقافتهم المختلفة ، بالرغم من انهما يدينان بالاسلام ،

يناضلون من اجل حقهم فى الاحتفاظ بكيانهم الخاص ، وحكمهم الذاتى وفقا لاحتياجاتهم واساليبهم الخاصة . وكان الأكراد فى العراق فى البداية يريدون الحصول على الحكم الذاتى المحلى ، ولم يكن الملا مصطفى البرزانى ، الزعيم القبلى ، ورئيس الحزب الديمقراطى الكردى ، يمل الحديث عن كردستان التى ستشكل دولة جديدة لكل المناطق الكردية المنتشرة فى العراق وايران وتركيا واجزاء من سوريا واذربيجان السوفييتية ، وكان يهتم بشعبه فى العراق فقط ولم يكن ليطمع فى ان يصبح زعيما لدولة جديدة ، وكان الحصول على حكم ذاتى داخل الدولة يعد كافيا بالنسبة له . وكان هذا ما نصت عليه اتفاقية مارس ١٩٧٠ التى صاغها مع حكومة بغداد . واخذت فيما يبدو الأعوام التسعة من القتال صيفا والصوم شتاء ، حيث يكفهر الجو ويصبح من العسير مواصلة القتال ، تؤتى ثمارها وتلقى الملا ورجاله وعدا بمنح الأكراد الحكم المحلى ، وتخلص العراقيون فى مقابل ذلك من العبء الدائم والثقيل للحرب المدمرة او خطر توجيه طعنة الى ظهورهم من ايران . وشعر الطرفان بالسعادة، غير ان الطرفين كانا على حذر ايضا ، ذلك انه غالبا كان يتم فى الماضى ابرام اتفاقيات ، لا تلبث ان تنتهك شروطها قبل ان يجف المداد الذى وقعت به . وبالرغم من ذلك ، فانه فى هذه المرة ، بدا الأمر كما لو كانت المعاهدة قد تستمر . وكان الملا مصطفى يتقدم به العمر ، فقد كان فى الثامنة والستين من عمره ، ولا يمكنه التطلع الى سنوات طويلة ، قادمة من الحياة الشاقة لزعيم قبلى مقاتل . وحان الوقت لأن يبرز الجانب السياسى فيه ، فحتى نجود شمال العراق ، كان الرجل يفكر هناك فى مكانته فى التاريخ فى الوقت الذى يقترب فيه من السبعين . فقد اراد الملا مصطفى ان يكون الرجل الذى يتوصل الى التسوية النهائية ، لا ان يدعها لأحد من الشباب الذى سيخلفه ، ويجنى ثمار ما زرعه الرجل المسن ابان الفترة الطويلة لقيادته البارعة .

وهكذا تم توقيع الاتفاقية التى بدات اتفاقية من افضل ما يكون،انها تنص على ان يمنح الأكراد السيطرة على كل مكان يثبت من الاحصاء الرسمى لتعداد السكان ، انهم يشكلون الغالبية فيه . وتظل الكردية هى اللغة الرسمية الى جانب اللغة العربية . ويصبح الجيش الكردى ، قوة حدود تحرس المناطق الشمالية ، وأن يعين نائب للرئيس من الأكراد ، وأن يكون هناك تمثيل نسبى للأكراد فى السلطة التشريعية . ووعد الأكراد – فى مقابل ذلك ، بتسليم اسلحتهم الثقيلة فى المراحل النهائية وتنفيذ الاتفاقية ، والغاء اذاعتهم السرية متى تم السماح لهم باصدار صحيفة خاصة بهم فى بغداد .

واعلنت فى البلاد عطلة لمدة ثلاثة أيام بمناسبة « السلام » واذاع صدام

حين تفاصيل ما تقرر ، وانهالت رسائل وبرقيات التأييد من الجيش والشيوعيين وكل من يهتم بالأمر ولو من بعيد . وبدا الأمر كما لو كانت الاتفاقية نافذة المفعول . غير انها لم تكن سوى مجرد هدنة اخرى ، وليست التسوية المرتقبة ، بالرغم من انها كانت فترة سلام اطول من اى فترة سابقة. وربما كانت الوعود التى تعهدت بها بغداد قد اسفرت — لو انها وفدت بها — عن اندماج الأكراد فى الدولة ، بالرغم مما بها من شروط سرية تنص على منع الاستقلال التام خلال اربع سنوات ، او قبل ذلك ، اذا انضمت العراق الى اية وحدة عربية او اتحاد عربى جديد . ولم تنفذ الاتفاقية فى واقع الأمر ، غير ان اجزاء منها قد نفذت على وجه التأكيد ، اذ لم يتم انتخاب نائب للرئيس، ولم يجر احصاء رسمى لتعداد السكان ، ولم ينتخب اى من الاكراد للسلطة التشريعية ، بيد ان هذا لم يكن خطأ بغداد وحدها بأية حال . ولكن الاكراد هم الذين رفضوا تعيين نائب الرئيس لأن ذلك ، كما يقولون ، لن يكون سوى مجرد رئيس صورى ، اذ ان السلطة الحقيقية كلها تتركز فى ايدى مجلس قيادة الثورة ، وانه ليست هناك امكانية لحصولهم على اى تمثيل فيه . كذلك فانهم لم يوافقوا على القيام باحصاء رسمى ، وبالرغم من أنهم بذلك ينضمون الى الحكومة المركزية . وكان الطرفان يسعيان بجد للتأثير على الشعب ، ولم يكونا على استعداد لقبول خبراء من الخارج لجنى ثمار ما بذلاه من جهد . وكان العراقيون يعيدون توطين قبائل البدو العرب حول كركوك ، فى حين يجلب الأكراد اناسا من ايران ويزعمون انهم شردوا نتيجة للقتال .

وكان الجو ما يزال يسوده نوع من الهدوء الذى اصبح بعد فترة من الوقت مسألة عادة ، وكان من المحتمل ان يتطور الموقف الى موقف مستقر بصورة دائمة لو ان صدام حسين لم يفرغ صبره ، ويلجأ الى اساليبه القديمة فى التخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم ممن يعترضون عليه ، وفى هذه الحالة فقد كان على ثقة من أن الملا مصطفى هو الذى بيده الأمر .

وهكذا حدثت واقعة من اكثر الوقائع غرابة فى تلك الحقبة من التاريخ العراقى : محاولة لاغتيال البرزانى ، من جانب مجموعة من الزعماء الدينيين الذين زاروه فى مقره فى حج عمران . ففى سبتمبر عام ١٩٧١ ، وعقب ١٨ شهرا من الصلح الذى ان لم يكن تاما ، فانه سمح على الأقل للجيش العراقى بتحريك غالبية قواته بعيدا عن الشمال ليتخذ مواقع اكثر تهديدا لايران نظرا للنزاع القائم حول شط العرب . ولم يعد هذا كافيا بالنسبة لصدام حسين، فعهد الى جيهاز الحنين بالتخلص من البرزانى ، الرجل الذى من المعتقد ان بوسعه تجميع الأكراد فى وقت السلم والحرب على السواء ، ومن ثم فهو

الزعيم القادر على محاربة مخططات العراق للتخلص من مناطق الأكراد ، واضعاف المطالبة بالحكم الذاتى الذى وعدوهم به .

وكما كانت الحال مع التكريتى فانه استخدم عملاء المخابرات التابعة لحزب البعث وسطاء ابرياء ، فى محاولة للتخلص من البرزانى ، وكانت فى هذه المرة مجموعة من علماء السنة والشيعة أوفدوا الى حج عمران فى محاولة للتوسط بين الأكراد وحكومة بغداد — فقد كانت العلاقات تتدهور بتعاقب الشهور ، نظرا للجدل الذى دار حول تفسير نصوص الاتفاقية . واقتنع احد افراد المجموعة بحمل جهاز تسجيل معه فى الاجتماع مع البرزانى حتى يتسنى للحكومة فى بغداد مباشرة ما لدى الزعيم الكردى من اقوال وشكاوى او مقترحات وبدا الطلب معقولا ، حتى انه فى الوقت الذى كان يصب فيه فنجانا من القهوة فى حجرة استقبال البرزانى الخالية من الأثاث والمغطاة بالآجر فى منزله فى حج عمران ، استغل الزائر الساتر المؤقت المكون من الخادم الذى يقدم القهوة ، لفتح جهاز التسجيل . وما ان فعل ، حتى وقع انفجار عنيف فى الغرفة ادى الى مصرع ثلاثة ممن كانوا فيها ، فقد كان جهاز التسجيل عبارة عن قنبلة قوية . وكما كان الخادم منحنيا أمام الرجل حامل القنبلة وقت انفجارها ، فقد انقذت حياة البرزانى ، لأن الرجل الذى كان جالسا الى جواره مباشرة وهو عبد الوهاب العزامى لقى مصرعه من بين الثلاثة الذين لقوا حتفهم وقام الدكتور محمود عثمان عضو المكتب السياسى الكردى المشرف على الجيش الكردى بجذب البرزانى ودفع به الى خارج المنزل ، خشية وقوع انفجار آخر . وما كان يمكن ان يقوم بخطوة اسوا من تلك ، فقد كان بالخارج سيارتان جاء فيها العلماء الأحد عشر . وكان يقف بالقرب من السيارتين السائقان واثنان من عملاء جيهاز الحنين على استعداد فى حالة ما اذا فشلت المحاولة ، فجذبا مسدسيهما وشرعا فى اطلاق النار على البرزانى ، الذى كان يترنح على غير هدى من جراء الانفجار. وفى ذلك الوقت ظهر عشرات الحراس على مسرح الحادث ، واختفى القتلة تحت وابل النيران . ومن ثم بقى الضيوف الذين ربما كان بعضهم على علم بالمؤامرة أو بأجزاء منها ، بالرغم من أن ذلك بدا غير محتمل . وتشير كافة الاحتمالات الى أنهم كانوا مخدوعين أبرياء ، تماما كما كان سفير العراق فى الكويت ، غير أنه من الطبيعى بالنسبة لحرس الجيش الكردى ، الذين لم يجدوا فرصة أن يقرروا الانتقام ممن تصل أيديهم اليه ، ولم يدعوا أحدا يفلت منهم حيا .

ولم تكن تلك هى النهاية . فقد اعد جيهاز الحنين القنبلة الأولى ، ووضع

السائقين تحت اشرافه لتنفيذ محاولة ثالثة : فبعد الانفجار الأول بثلاثين دقيقة ، وقع انفجار هائل آخر تهشمت من جرائه السيارة البيضاء من طراز تويوتا التى وصلت أولا الى منزل البرزانى ، وتوقفت بجواره . واصبحت السيارة كتلة معدن ملتوية ، وانهار جدار باكمله من المنزل . ولحسن الحظ كان البرزانى بعيدا يعالج جراحه ، ولم يصب أحد بسوء . وأوضح فحص السيارة الثانية التى أقلت مجموعة الزوار ، أنها الأخرى تحولت الى قنبلة متحركة : فقد وقعت انفجارات تحت المقعد الخلفى ولوحة اجهزة القياس ، وتم العثور على صواريخ تحت الأنوار الخلفية للسيارة لردع المتعقبين ، فيما يبدو ، اذا ما نجحت المؤامرة ، وفى حالة تمكن رجال جيهاز الحنين من الهرب.

واعلن البرزانى ، عقب الحادث ، انه كان من الواضح ان الحادث من تدبير « طرف ما فى الحكومة العراقية » . وكان اتباعه أقل حذرا : فكانوا على ثقة تامة بأنه من تدبير صدام حسين ، واعتبروه بمثابة اعلان جديد للحرب. وحاول البرزانى الذى كان ما يزال يرغب فى الحفاظ على السلام ، تهدئة الأمور، حتى انه ظل عاما قبل أن يرغم فى نهاية الأمر على الاعتراف بأن المعاهدة مع العراق ليست فى الواقع سوى هدنة طويلة الى حد ما فى الحرب الطويلة . وان ما نصت المعاهدة عليه سابقا لم ينفذ . وتمثل احد العوامل التى ارغمت الزعيم الكردى فى النهاية على الاعتراف بأن شهر العسل القصير قد انتهى ، ليس فى محاولة القتل التى تعرض لها ونجا منها بأعجوبة ، وانما فى الرحيل الجماعى لشعبه . فقد غادر العراق ٦٠ر٠٠٠ كردى من اصل ايرانى فى عام ١٩٧٢ لأن حكومة العراق ارادت التأكد من ان البرزانى لن يتمكن من جمع اغلبية فى كركوك ، حيث تشكل حقول البترول الحيوية الكثير من ثروة البلاد . وأدى هذا فى النهاية الى استفزاز الرجل المسن وتوجيه تحذير علنى الى بغداد . وجاء فى بيان من المكتب السياسى للحزب الديمقراطى الكردى « ان العلاقات بين الحزب الديمقراطى الكردى والشعب من ناحية ، وبين السلطات وحزب البعث الاشتراكى من ناحية اخرى ، قد تدهورت بطريقة لم يسبق لها مثيل منذ اتفاقية مارس عام ١٩٧٠ . ان الموقف ينذر الآن بالانفجار مما يؤثر على أمن الشعب العراقى بأسره ومن عرب واكراد واقليات ـ على نحو قد يسبب خسائر جسيمة للجميع » . وذكر البيان ان العراق يحاول تنفيذ سياسة متعمدة لتعريب المناطق الكردية ، وشراء الأراضى من « الاقطاعيين » ـ الذين هم فى الواقع أغوات اكراد او من الملتزمين بدفع الضريبة ـ وطرد الاكراد وتوطين العرب . والجدير بالذكر أن ١٣ قرية قد تحولت بهذه الطريقة من السيطرة الكردية الى السيطرة العربية.

وتم نقل اعضاء الحزب الديمقراطى الكردى الذين يعملون فى الحكومة الى اماكن بعيدة عن منازلهم ، واتهم المكتب السياسى للحزب بالتنكر لما نصت

عليه الاتفاقية . وتم تشكيل حركات سرية للأكراد المنشقين بمساعدة اموال الحكومة ، ووزعت منشورات معادية للبرزانى ، واتبعت سياسة قمع واسعة النطاق ، بحجة البحث عن قتلة احد الضباط فى سنجار ، واستخدمت وحدة من القوات فى مطاردة القتلة .

وهكذا تفاقم الموقف تدريجيا حتى وصل الى الحالة التى كان عليها قبل عام ١٩٧٠ . لم ينشب القتال من جديد ، ولكن تمت تعبئة الجيش الكردى ، وبدأت الأسلحة تتدفق عبر الحدود من ايران . وتعاقبت الاتهامات والاتهامات المضادة بين السليمانية مقر الأكراد وبغداد . وقد بذلت محاولة أخرى لحل المشكلة القديمة ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل .

وفى الوقت نفسه كانت حكومة بغداد تكتسب الثقة ، غير مبالية بالنقد اللاذع الذى يوجهه لها من دوائر العالم العربى كافة ، وكانت تحاول جاهدة اتباع سياستها الخاصة وعلى راسها تحريك الاقتصاد ، واتخذ قرار واع لبلوغ هذا الهدف . وكان واضحا أن الاتحاد السوفيتى لابد وأن يصبح الشريك الرئيسى ، بالرغم من ان العراق كانت تشجع التجارة مع الغرب ، وثمة قيود قليلة كانت تفرض على مشتريات الحكومة . وسرد احد المديرين بالوزارة كيف انه أقنع رؤساءه السياسيين بأنه فى حاجة الى عدد من الآلات الحاسبة الحديثة المتنوعة وبعد ذلك ، أبلغهم انه يزمع السفر الى امريكا لشراء ما يلزمه ، فأصابهم الفزع ـ لأن البضائع الأمريكية فى القائمة السوداء نظرا لتأييد الدولة لاسرائيل ـ وتساءل المدير ، ايهما أحق ، تحقيق الكفاءة فى الوزارة او التسمك الأعمى بقائمة مناطق تلتزم بها الدول العربية الأخرى بصورة متعصبة ؟ وحصل المدير على الآلات التى طلبها .

بيد ان العادات القديمة ليس من السهل التخلى عنها : فقد عزم صدام حسين على ان يكون القوة الوحيدة وراء كرسى الرئاسة فى العراق . وان اى فرد يبدو كما لو كان من المحتمل أن يشكل تحديا ، لابد وأن يرحل . ولم يبق هناك سوى شخص واحد هو صالح مهدى عماش ، نائب الرئيس ، وعضو اللجنة التنفيذية العليا ، وعضو مجلس قيادة الثورة ، والرجل الذى سيخلف الرئيس البكر تلقائيا اذا ما حدث له اى شىء . وبالرغم من أن منصب نائب الرئيس لم يكن يعتبر منصبا هاما على الاطلاق فى العراق ، فان الرئاسة كانت تحتل هذه المكانة ، وهذا التفكير هو ما راود ، فيما يبدو ، صدام حسين عندما أصابت الرئيس البكر وعكة وبسببها دخل المستشفى قرب نهاية ١٩٧١ . ولم يكن صدام حسين هذه المرة فى حاجة الى تلفيق اية اتهامات او تقديم اية « شواهد »،

لقد اصبح قويا للغاية وكانت قبضته على جهاز امن الدولة محكمة ، لدرجة أن جولة انتخابية صغيرة بين رفاقه تضمن له اغلبية الاصوات الكافية لطرد عماش . وكان السكرتير العام المساعد القوى من الثقة فى ذلك الوقت ، بحيث انه لم يصر فى هذه المرة على النفى . ووضع عماش على الرف ، وعين سفيرا لوزارة الخارجية ، وهو منصب لا يقوم صاحبه باى عمل ، فهو يحيله الى التقاعد ، ويوفر له قدرا من الاحترام ، وليس من النفوذ . وفى خلال ثلاثة اعوام استطاع صدام حسين تدعيم مركزه باعتباره الرجل القوى فى حكومة قوية فلم يكن هناك من يتحداه ، ولا من يجرؤ على محاسبته . وطالما كان فى وسعه تنمية الاقتصاد ، فليست هناك احتمالات لأية قلاقل بين الشعب . وكان الرئيس البكر راضيا يترك الأمور لتابعه النشيط ، وكان نائبه يتوق الى تحمل جميع الأعباء وحده . بيد انه نادرا ما توجد دولة تخضع تماما لسيطرة فرد واحد دون أن تدرك من هو الحاكم الحقيقى الذى يحكمها .

وبدا هذا واضحا عندما قام صدام حسين بزيارة لموسكو فى اوائل عام ١٩٧٢ . ولم يكن من المنتظر ، بطبيعة الحال ، أن تسفر مثل هذه الزيارة من جانب شخص ليس أكثر من السكرتير العام المساعد لحزب البعث ، عن نتائج هامة أن مثل هذه الأمور الهامة تترك لرؤساء الدول أو لشخصيات على مستوى أعلى ولكن لم يكن هذا هو الحال بالنسبة للعراق ، فقد قام الكسى كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتى بزيارة العراق ردا على زيارة صدام حسين ، ولم يسافر الزعيم السوفيتى الى بغداد فحسب ، وانما اتجه الى استغلال حقول البترول فى الرملية فى الشمال لتبدا اول تدفق لها بخمسة ملايين طن سنويا ، حصل عليها الاتحاد السوفيتى من حقل كانت مصادرته قد تمت من شركة بترول العراق فى عام ١٩٦١ ، والأهم من هذا كله ، أن مستر كوسيجين أبرم معاهدة صداقة سوفيتية عراقية لمدة ١٥ سنة، مشابهة لتلك التى تم توقيعها مع مصر قبل ذلك بعام .

وكان الهدف من المعاهدة فى مصر واضحا الى حد ما : وقد تمثل فى اظهار أن العلاقات بين روسيا ومصر ما تزال طيبة ، بالرغم من حقيقة ان الرئيس السادات كان قد تخلص لتوه من غالبية الأعضاء الموالين للسوفيت فى حكومته فى حركة وقائية. اما فى العراق فلم يكن الأمر بهذه البساطة، فمن وجهة النظر الروسية : كان لابد من ان يوضع فى الاعتبار رد فعل ايران ودول الخليج الأخرى ، وكذلك الفائدة التى يمكن ان تعود على روسيا من وراء هذه المعاهدة . وكان الشاه قد أوضح فى ذلك الوقت أنه يعتزم أن تكون دولته أقوى دولة فى الخليج ، وبدا يتحدث على نحو غامض عن محاربة اساليب القمع ، ومقاومة

اشكال الهجوم التقليدية . وكان من مصلحة روسيا أن تكون ايران دولة محايدة على حدودها الجنوبية ، ولهذا كان مستر كوسيجين حريصا على عدم القيام باى شىء من شانه ازعاج الشاه . ومن ثم فقد خرج عن عادته ليقول فى خطابه الذى القاه فى حفل اقيم بمناسبة توقيع المعاهدة فى بغداد : ان هذه المعاهدة ليست موجهة ضد اية دولة ، او ضد المصالح المشروعة لأية دولة من دول المنطقة ، وهو مفهوم لم يحاول مستر كوسيجين بطبيعة الحال ، أن يحدد معالمه. وتمثل هدف روسيا الحقيقى من وراء توقيع المعاهدة فى تثبيت مركز استراتيجى تابع لها على راس الخليج يمكنها من محاصرة ايران وتركيا صاحبتى الميول الغربية ، ويزودها بقاعدة للتقدم جنوبا الى امارات الخليج الغنية بالبترول . كذلك كانت الاتفاقية بمثابة قاعدة فى عالم البترول ، لانه بالرغم من ان روسيا لديها احتياطى هائل من البترول ، فان حاجة الدول الشرقية الى البترول تزداد دائما ، وتصور الشيوعيون السوفييت انه قد يجىء وقت يصبح فيه الاحتياطى الروسى غير كاف . ولذا فان من المفيد الحصول على مصدر بديل ، والأكثر فائدة من ذلك أن يكون السوفييت فى وضع يمكنهم من منع البترول عن الغرب ، الذى يعتمد بصورة اكثر على المصادر الخارجية .

كذلك كان الهدف من اقامة علاقات سوفيتية رسمية مع العراق يتمثل فى القضاء على نفوذ الصين هناك . وبالرغم من ان الصينيين لم يشاركوا فى كثير من مشروعات التنمية فى العراق فانهم ابدوا اهتماما متزايدا ، واعلنوا عن تأييدهم للعراق فى نزاعها مع ايران ومساعدتهم للحركات « الثورية » فى الخليج ، الأمر الذى لم تكن روسيا تفعله نظرا لرغبتها فى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الشاه . وبالنسبة للجانب السوفيتى كان هناك كذلك عنصر ضمان فى التحالف مع العراق : فلم تكن العلاقات مع مصر طيبة للغاية ، وكان من الممكن أن تتدهور بسهولة ، فكان لابد من ايجاد مؤطىء قدم فى العالم العربى ، وبالتالى كانت العراق هى افضل ما يراهن عليه اذا ما اصبحت الأمور مستحيلة بالنسبة لمصر .

اما بالنسبة للعراق ، فكان الشعور السائد هو ان المعاهدة اكدت ان هذه الدولة المعزولة أصبح لها صديق دائم . ولقد حاولت العراق من وقت لآخر الانضمام الى العالم العربى وكانت فى كل مرة تقابل بالرفض ، فهل كان من المؤكد ان توفر لها الصداقة المعلنة مع واحدة من الدول الكبرى المكانة التى تتوق اليها بشدة ؟ فى الواقع كان تأثيرها ضئيلا : فقد أدت هذه المعاهدة الى شعور الكويت بالقلق،ورفضت سوريا ابرام معاهدة مماثلة لتتفادى الظهور بمظهر من يحذو حذو بغداد ، ولم تأبه مصر بها . وكان صدام حسين لا يرجو من وراء هذه المعاهدة سوى الآثار العملية : فتدفق الفنيون الروس الى العراق ، وتوفر لها

تمويل مشروعات التنمية ، واصبح الاقتصاد العراقى تدريجيا احد عجائب العالم العربى ، بالادارة اليومية لمجموعة من الاخصائيين الشباب الذين سمح لهم بالمضى فى طريقهم دون اية معوقات ايدلوجية . وظلت هذه المجموعة بعيدة عن المؤامرات والمناورات السياسية التى كانت ما تزال تدبر فى ردهات الحكومة .

وتمكن صدام حسين نفسه من دمج الفوائد الاقتصادية وتعاليم الحزب فى ثورته التالية: فقد أمر بتأميم شركة بترول العراق فى ١٩٧٢، وهو اجراء استهدف ايضاح كيفية معاملة الشركات الأجنبية على ارض منتجى البترول الآخرين . وكما جرت العادة بالنسبة لمبادرات العراق ، اتى هذا الاجراء بعكس النتائج المرجوه وبدلا من ارغام الدول الأخرى على تأميم مصالحها البترولية ، خشيت الشركات من ابرام اتفاقيات المساهمة التى نادى بها الشيخ زكى اليمانى والمملكة العربية السعودية منذ عدة سنوات . كذلك أوشك الأمر على بداية نشوب حرب جديدة مع الأكراد ، الذين كانوا يعتمدون على الاعانات المالية من شركة بترول العراق فى كثير من دخلهم ـ فقد كانت الشركة تدفع مبلغا كبيرا « لحماية » حقول بترول كركوك التابعة لهم . وبالرغم من ذلك ، فقد الأمر بمثابة اجراء من اجل حالة امن جديدة والثقة بالحكومة العراقية ، فقد توصلت بغداد ـ فى غضون اشهر ـ الى اتفاق مع شركة بترول العراق ، بعد نحو عشرة اعوام من النزاع على المناطق التى تمت مصادرتها من قبل .

وخلال خمسة اعوام تقريبا استطاع العراق ان يتحول من دولة فوضوية ، متحاربة يعوزها التنظيم ، الى واحدة من اكثر دول المنطقة نجاحا فى الناحية الاقتصادية بيد انها اصبحت كذلك بفضل سياسة صدام حسين الى حد بعيد . وكانت وسائله فى البداية تتسم بالوحشية ككثير من الأساليب فى العالم ، ولن تنسى سريعا عمليات الشنق والتمثيل بالجثث فى الميادين العامة فى بغداد ، ثم أعقب ذلك مرحلة الاسترخاء مع توفر القوة العلنية ، وبالرغم من أنه لم يحقق اى نجاح فى تسوية المشكلة الكردية على الاطلاق ، الا انه تمكن من اقرار النظام فى البلاد . وفى عام ١٩٧٣ ، استطاع المواطن العراقى العادى الذى لا يهتم بالسياسة ، أن يتجول بحرية فى الشوارع بلا خوف ، ولشغل وظيفة جيدة ، ويحصل على دخل معقول ، واصبحت المتاجر مليئة بالكثير من السلع المختلفة . ودور السينما مليئة بالأفلام ، والبنوك مليئة بالأموال . لقد قطعت العراق شوطا بعيدا ، وبالرغم انها كانت ما تزال بمثابة الرجل الغريب الأطوار فى العالم العربى ، ولم يعترف بها جيرانها فقد كانت تمضى قدما بطريقتها الخاصة . وكانت هناك قلاقل بطبيعة الحال ، لأن العراق لا يمكن أن تكون بدون هذه القلاقل . وكانت أخطر هذه الانقلابات ، بالرغم من انها لم تكن فى محلها ـ محاولة انقلاب قام بها

العقيد ناظم الكزار ، رئيس الأمن الداخلى ، الذى قام باختطاف اثنين من كبار الوزراء واعضاء مجلس قيادة الثورة فى محاولة لتغيير الحكومة . فقبض على اللواء حماد شهاب وزير الدفاع ، واللواء سعدون غيدان وزير الداخلية ، بعد ان ضللهما بما زعمه من افتتاح منشآت علمية سرية خارج بغداد . وهناك طلب من الرجلين طرد الحراس والمساعدين والمرافقين لهما . بينما كانا يقومان بتفقد المشروع الغامض ، الذى هو من السرية بحيث لا يمكن للرجل العادى مشاهدته . فما كادا يفعلان ذلك حتى دفع بهما الى درك أسفل ، وجردا من ملابسهما . وابلغا انهما سيطلب اليهما اصدار بعض الأوامر فى مقابل الافراج عنهما .

وكانت خطة الكزار المتهورة تستهدف اغتيال الرئيس البكر ، عند عودته الى مطار بغداد عقب زيارة رسمية لكل من بلغاريا وبولندا، ثم استغلال الوزيرين الأسيرين كرهينتين ، أو كوزيرين صوريين بصفة مؤقتة فى الحكومة الجديدة التى يعتزم تشكيلها . وبطبيعة الحال ، كان لابد من ان تفشل مؤامرة بمثل هذا التهور من البداية ، فقد افتقد الرجلان ، وبدأت حملة واسعة النطاق للبحث عنهما . وتمكن قائد الدفاع الجوى اللواء شهاب الذى كان قد أسر كذلك تمكن من الهرب وسرعان ما اتضح الموقف ، واخذت القوات الخاصة وضع الاستعداد وفى الوقت الذى كان فيه الكزار يرحل مع اسيريه الى مدينة صربطيه ، فى اتجاه الحدود الايرانية ، طاردت طائرات الهليوكبتر التابعة للجيش العراقى وموكب السيارات التابعة له على طريقة جيمس بوند . وفى المدينة تم محاصرة الكزار ومجموعته ، وتم تبادل اطلاق النار قبل استسلامهم فى معركة المدافع ، واسفر ذلك عن مقتل اللواء شهاب واصابة اللواء غيدان .

وسرعان ما تم تشكيل احدى « لجان التحقيق » التى كان حزب البعث متمرسا فيها وشكلت محاكمات ثورية فى الوقت نفسه ، وبعد خمسة ايام من الانقلاب الفاشل ، تم اعدام العقيد الكزار و ٢٢ ضابطا وعضوا من رجال الأمن التابعين له . وفى اليوم التالى شنق ١٣ غيرهم . وأودع كثيرون السجون ، او تم نفيهم ، أو الاكتفاء بفصلهم من وظائفهم ، وانتهى التمرد بنفس السرعة التى بدا بها ، وكانت ثمة دلائل تشير الى تأييد خارجى ، ومن المحتمل أن يكون قد تم استدعاء اللواء عماش الذى كان وزيرا لدى موسكو ، والسيد الشيخلى، رئيس وفد العراق لدى الأمم المتحدة ، ليصبحا زعيمين فى حكومة جديدة . والواقع أن الحادثة الهوجاء قد أثبتت ان حكومة الرئيس البكر تسيطر تماما على مقاليد الأمور ، وانه بوسعها احتواء الانقلابات التى تقع من وقت لآخر والتى تبدو مستوطنة فى البلاد . ولم يكن هناك اى تعاطف مع الكزار ، وهو رجل مكروه للغاية نظرا لوظيفته والطريقة التى يكرس بها نفسه لها ، وقد قام بحركته هذه

لانه كان يخشى ان يصرف من الخدمة . وكان القدر الضئيل من التايـيـد الذى يحظى به يعتبر بمثابة دليل واضح على المعارضة القليلة للحكومة . وعلى الفور تم دون اعلان كما جرت العادة ، اعدام ٣٦ شخصا من المشتركين اساسا فى العملية الأمر الذى اعتبر دليلا آخر على سياسة الشدة من جانب الحكومة ، وتحذيرا واضحا على أنه بالرغم من أن الحياة قد سادتها الحرية ، فان الحزب القـوى لم يفقد رغبته فى الحكم ولا اتباع اسلوبه الوحشى مع معارضيه .

وتطورت العراق فى السنوات الست التى تخللت الحروب الى دولة مستقرة بشكل ملحوظ ونجح صدام حسين بالرغم من الأساليب المدمرة التى اتبعها مرارا ، فى تسوية المسائل الداخلية ، وكان هـذا هو السبب الذى جعل من الاشتراك الفعلى للعراق فى حرب ١٩٧٣ امرا ممكنا ، عندما تم ايفـاد ٢٠٫٠٠٠ جندى الى الجبهة السورية ، وكان لهم تاثير حقيقى على سير المعركة . ومع زعيم قوى ، يستطع العراق ان يلعب دورا بناء على نحو اكبر فى فترة ما بين الحروب ، ذلك لأن سياسة العراق العربية مماثلة تماما لسياسة الجزائر ، التى تتمتع بنفوذ كبير فى انحاء المنطقة كافة .

٩ ـ زعماء المغـرب يؤدون دورهم

غالبا ما بدت دول المغرب ، التى تفصل ما بينها المسافات الشاسـعة ، والتباين الثقافى والاحتياجات الاقتصادية،بمعزل عن الشرق العربى ، بما يشغله بصورة طاغية من وجود اسرائيل وحاجته الى استرداد الاراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ . بيد ان دولة واحدة بل ورجلا واحدا قد تمكن من سد الفجـوة الهائلة ، فقد تاكدت الجزائر ، وزعيمها هوارى بومدين من أن العالم أدرك أنه بالرغم من ان الدول العربية فى المغرب قد تكون بعيدة عن جبهة القتال ، فانها ما تزال جزءا لا يتجزء من الأمة العربية ، وأن الجزائر ذاتها تعد عضوا بارزا فى مجموعة الدول الثورية .

وقام بومدين بدور هام فى تشكيل سياسة بلاده واسـلوب حكمها ، وكان نفوذه الشخصى بمثابة قوة ملحوظة فى انحاء الشرق الأوسط كافة.وهو دائما ما يتسم بالهدوء والكتمان ، ولم يسع مطلقا الى ان ينسب اليه اى فضـل لوساطاته الكثيرة ، كما يفضل العمل فى هدوء خلف الكواليس عندما يتسنى له ذلك . وترجع كراهيته الشديدة لتسليط الاضواء اساسا الى مظهره الشخصى فاسنانه غير منتظمة وهى لا تسبب له الما شديدا فحسب ، بل ان مظهرها قبيح كذلك الأمر الذى يجعله خجولا وعصـبيا . وتتمثل واحدة من السخريات الكثيرة التى تزخر بها حياة بومدين فى ان طبيبا فى الجيش الفرنسى قام باجراء عدة عمليات جراحية فى مدى شهرين لاسنانه ، مما جعل من الممكن ظهوره فى ثقة بطاقم اسنان حسن المظهر تماما كما يود ان يكون عليه اى فرد .

ولولا هذان الشهران من الجلسات المنتظمة لتقويم الاسـنان ، لاختلف تاريخ الجزائر تماما . ذلك أن بومدين وجد أنه من العسـير عليـه تغيير عادات الكتمان التى تسبب فيها عيبه الجسمانى السابق ، وسنوات نضـاله الطويلة ضد الفرنسيين وتناقضات السياسة الجزائرية ، لقد واصـل اخفاء اسـمه الحقيقى خزيا ذلك ان اسم بومدين لم يكن سوى « اسم حرب » واسمه الحقيقى هو محمد بوخروبة . وهو سر كان لابد من كتمانه عنـدما كان رجـال الأمن الفرنسيون يبحثون عنه فى وهران اثناء حرب الاستقلال .

وكان يتعين على بومدين ، الذى تولى السلطة فى انقلاب ابيض عام ١٩٦٥ . عندما خلع بن بللا ، مواجهة الكثير من المتاعب الداخلية فى السنوات الأولى لحكمه لها ، ومرت به اوقات كان لا يمكنه فيها ان يبعـد كثيرا عن قصره الخاص دون حراسة شديدة . وقد استطاع ان يفلت من الموت فى حالتين ذلك ان العقيد طه

زبيرى رئيس هيئة اركان حرب الجيش كان قد قام بتمرد فى ديسمبر ١٩٦٧ ، احمد بعد يومين من القتال الذى اسفر عن مقتل عدة عشرات من الاشخاص ، وفى ابريل من العام التالى اطلق احد القتلة النار على بومدين من مسافة قريبة جدا ولكنها ضلت طريقها اليه . وواجه الزعيم الجزائرى الواقعتين دون صعوبة ، وعقب باقتضاب قائلا : انهما يعدان أمرا متوقعا . وقال : انهما نتيجة لسياسة حكومته الرامية الى توحيد الأحزاب كافة ، والقضاء على النزعة الاقليمية واتجاهات الحزبية الفردية . وواصلت الحكومة اتباع سياستها وعلى نحو فعال وقامت ببناء الاقتصاد الذى كان على وشك الانهيار تحت حكم بن بللا الذى تميز بالحساسية ، واتباع سياسة واقعية مع العدو القديم متمثلا فى فرنسا ، والاحتفاظ بعلاقات سليمة مع جيرانها فى المغرب — فقد كانت ثمة فترة تميزت بفتور لا مبرر له فى العلاقات مع تونس عندما احتمى العقيد زبيرى هناك — والابقاء على اتصال حذر مع امريكا وروسيا . ولم يكن بومدين يتجاهل العلاقات الخارجية ولكنه كان يضع الأساس لمساعيه الأكثر فاعلية فيما بعد . فقد كانت بلاده فى المقدمة ، ولم يكن من العسير ، مع توفر عائد من البترول يربو على ١٠٠ مليون جنيه سنويا ، القيام بمعجزه اقتصادية صغيرة ، ولكنها فعالة الى حد بعيد .

وكانت المشكلة الفلسطينية تشكل واحدة مما يشغل بومدين بصفة مستمرة ، وقد فصلها تماما عن مشكلة استرداد الأراضى العربية المحتلة . وكان الزعيم الجزائرى فى هذا ابعد نظرا واكثر منطقية من كثير من زملائه رؤساء الدول الأخرى . وكان يرى ان الفلسطينيين هم لب مشكلة الشرق الأوسط فى وقت كان فيه الكثير من الزعماء يبدى ولاء لفظيا لرفع الظلم المحيق بهم ، وكانوا فى الواقع يستخدمونهم ويستغلونهم بطرق متعددة . وفى الوقت الذى انتشرت فيه الأفكار والمشاريع الجديدة لايجاد حلول ، وكان بومدين هو الذى اصدر مذكرة تحذيرية جاء فيها « ليس لأية دولة عربية الحق فى القيام بتنازلات باسم الفلسطينيين ، ولا يمكن لأحد ان يسلم فلسطين او اى جزء منها دون موافقة الشعب الفلسطينى ، انها ليست مسألة خبز بل مسألة وطن » . وكان موقف بومدين هو نفسه موقف ياسر عرفات ومنظمة فتح : ان فلسطين يجب أن تصبح دولة علمانية عربية يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود معا فى سلام . وعقدت اجتماعات عديدة بين الرجلين ، اللذين اتفقا على مبادىء اساسية ، واختلفا على طرق تنفيذها . فلم يكن باستطاعة بومدين مع سنوات تجربته فى النضال الجزائرى من اجل الاستقلال ، ان يرى السبب فى عدم قيام الشعب الفلسطينى بشن « حرب شعبية » . وكان على استعداد تام

لمساندتهم بالأسلحة والمال ، وكان على يقين من ان دولا اخرى ستفعل الشىء نفسه . وكان بومدين ، الذى يكبر عرفات بعام واحد ، أكثر ثراء منه فى الخبرة العسكرية ، وظل على غير اقتناع بتفسيرات زعيم الفدائيين لاختلاف الظروف تماما فى اسرائيل . ولم يحل ذلك دون تعاون الجزائر ، بالرغم من انه قد اتضح فى تعيين محمد يزيد كسفير للجزائر فى لبنان ، والمبعوث الجزائرى الرسمى لدى الفلسطينيين ، وهو اول بل وآخر رجل تعينه اية حكومة عربية فى مثل هذا المنصب .

والواقع ان يزيد قد عين كسفير لدى الفدائيين قبل ان يوافق مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الجزائر عام ١٩٧٣ بوقت طويل ، وكانت الجزائر قد قررت ان حركة المقاومة الفلسطينية هى الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى . وكان هذا ، فى بداية الأمر ، يعنى منظمة فتح وحدها حتى تبين الجزائريون تدريجيا انه من المتعذر توحيد المنظمات الفلسطينية المتعددة ، وأن كل واحدة من هذه المنظمات لديها ما تسهم به ، ولهذا عندما تولى يزيد منصبه ، لم يتباحث مع عرفات وحده ، وانما تباحث مع حبش وحواتمه وزهير محسن واحمد جبريل . ولم يتباحث معهم فحسب ، وانما كان هو والسفارة الجزائرية فى بيروت على اتصال دائم لتسوية الخلافات التى بين الفدائيين وبين اللبنانيين، وترتيب شحنات الأسلحة او اختيار احدث مجموعة من الفدائيين تذهب الى الجزائر ، لقد كانت الجزائر عبر السنين هى المركز الرئيسى لمعسكرات تدريب رجال العصابات ، وكان المدربون السوريون او المصريون يقومون بتدريب الفدائيين على كيفية استخدام احدث الأسلحة السوفيتية التى كانت تصل لهم ، ولكن الجزائريين كانت لديهم الخبرة العملية فى تدريبهم على أعمال حرب العصابات الحقيقية ، « والحرب الشعبية » التى لم يكف الجزائريون عن المناداة بها . وكذلك توفر لهم قدر كبير فيه تبادل الخبرات لأن الفلسطينيون لم يكونوا وحدهم فى الجزائر ، بل كانت هناك قوات من فرليمو التى كانت تحارب فى موزمبيق ، وقوات زانو او زابو من روديسيا ، او مقاتلى سرابو ممن كانت لهم خبرة ضد أساليب جنوب افريقيا . وكان هناك الفهود السوداء من امريكا الذين منحوا حق اللجوء السياسى فى الجزائر ، واعضاء جيش التحرير الشعبى التركى بل واعضاء من الجيش الأحمر اليابانى . وكان الجميع لديهم ما يقدمونه، من اساليب جديدة ، او التحذير من وسائل القمع المضادة العدالة . وبالنسبة لمنظمات مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين او ايلول الأسود ، كانت هناك ميزة القدرة على اجراء اتصالات قد تثبت فائدتها فى عمليات لاحقة ، أو حتى بالنسبة لتجنيد الشعب للمشاركة فى هذه العمليات على اساس متبادل .

ولم يكن التدريب فقط هو ما قدمه الجزائريون الى الفلسطينيين ، وانما زودوهم ايضا بمعدات هم فى امس الحاجة اليها ، وتتكون فى اغلب الاحيان من اسلحة رفض الروس ، باعتبارهم المصدر المعتاد ، ارسـالها لهم ، وعربات نصف جنزير ، وعربات مدرعة ، ومدافع ثقيلة ، وكانت كلها تصل فى شحنات من الجزائر للفدائيين ، وتصل الى سوريا عن طريق ميناء اللاذقيـة . وكان هذا الحشد من الأسلحة لا يتم ارساله الى منظمات رجال حرب العصابات ، وانما لجيش التحرير الفلسطينى ولا سيما الى لواء اليرموك ، القوة التى ذهبت مرتين لنجدة الفدائيين فى لبنان عندما حاول الجيش الحد من نشاطهم هناك . ولم يكن هذا هو السـبب الذى دعا الجزائريين الى تقـديم اسـلحة ثقيلة للفدائيين . لقد كان الرئيس بومدين بعيد النظر ، وتكهن بتحـديد وقت يمكن فيه ان تقوم دولة فلسطين . واذا تم ذلك ، فان الأمر سيسـتلزم قوة يعتمد عليها للسيطرة على اعضاء المنظمات الصغيرة الذين يتسمون بالتهور ، والذين قد يسعون الى انتصار قضيتهم عن طريق العمل المباشر ويصبح فى استطاعة جيش التحرير تحت سيطرة عرفات والمعتدلين ان يعمل فى مثل هذه الظروف لوحدة بوليس شبه عسكرية طارئة ويوفر للدولة الاستقرار الذى تحتـاج اليه حكومة حديثة . وكان لواء اليرموك بصفة خاصة ، والذى يتكون من جنـود تم تدريبهم مع جيش الأردن ، يخضع لسيطرة دولته المضـيفة كالوحـدتين الاخريين فى جيش التحرير الفلسطينى ، الذى كان يخضع لسيطرة مصر ثم للعراق . وعندما راى بومدين انه قد تم تسليح اللواء على نحو سليم ، وقبل حرب اكتوبر بعامين ، وفى وقت كانت احتمالات اقامة دولة فلسـطين لا تبشر بالخير فى واقع الأمر ، كشف عن بصيرة اعترف له بها تدريجيا غيره من الزعماء العرب .

وبالرغم من التسهيلات التى كانت تقدم للمنظمات الأخـرى . كانت الجزائر اقرب التزاما تجاه فتح ، نظرا لأن عرفات اصبح صديقا لمحمد خضر ، الزعيم الجزائرى الذى قتل فى مدريد عام ١٩٦٧ . وكان خضر امينا لصـندوق جبهة التحرير الوطنى أثناء الحرب ضد فرنسا ، قد اتخذ القاهرة مقرا له عندما كان عرفات هناك ، واحس عرفات ، الذى تبين الحاجة الى قاعدة آمنة للثورة الفلسطينية بعيدا عن خطوط القتال ، اختيار خضر صديقا له ، وعن طريقة تعرف على الزعماء الجزائريين الآخرين ومن ثم قدم الأساس لتأمين سـلامة عرفات عبر السنين ، وابراز أهمية منظمته .

وبالرغم من تأيدها للقضية الفلسطينية ، فان حكومة الجـزائر كانت حريصة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الدول الأخرى . ورفض الجزائريون

وقف اطلاق النار الذى وضع موضع التنفيذ على قناة السويس عام ١٩٧٠ ، وادانوا مشروع روجرز ، الذى راوا فيه وسيلة « لتجميـد » الموقف ـ ذلك انه متى تم فتح قناة السويس للملاحة ، كما جاء ضمنيا فى المشروع ، يصـبح من العسير جدا لمصر العودة الى الحرب . ومنذ عام ١٩٦٧ اصبح للجزائريين وحدة قوامها ٤٠٠٠ جندى فى منطقة القناة ، انسحبت عندما قبل ناصر مقترحـات روجرز . واستقبل بومدين الجنود عندما عادوا ، وابلغهم السبب فى استدعائهم قائلا « لا يمكننا رفض اطلاق النار ، لم ندعكم تظلون فى الخنادق تحت وطـاة الشمس المحرقة على بعد ٢ر٥٠٠ ميلا من عاصمة بلادكم» . واكد الرئيس ثبات الجزائر على موقفها : ان الجزائر لا ترفض وقف اطلاق النار ومشروع روجرز فقط ، ولكنها ضد قرار ٢٤٢ الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧ كذلك وانها تشك كثيرا فى الدوافع الأمريكية ، وتساءل بومدين « منذ متى كانت أمريكا صـديقة للعرب او سـعت الى رفاهية العرب ؟ أن هذه أيهـا الأخوة ، وجهة نظر خاطئـة ، واتعشم الا ندفع ثمنا باهظا لها » .

ولم تهتم مصر فى هذه المرحلة بفقد القوات الجزائرية ، بالرغم من ثبـوت اهميتها القصوى فيما مضى عندما كانت « حرب الاسـتنزاف » قائمة . وكان الجزائريون هم الذين يعبرون القناة فى مهمات تخريبية فدائية منتظمة ، وكانوا هم الذين يرعبون اسرائيل دائما حتى عندما تصمت نيران المدفعية . وكان هذا فى حقيقة الأمر أحد الأسباب التى دعت الى استدعاء القوات الجزائرية، فعندما كانت تشن غارة عبر القناة ،كانت البيانات المصرية تقول : « هاجمت قواتنا العدو .. » دون اشارة فعلية الى الجزائريين . وكان الانطباع الذى يعطى فى القاهرة ، عن عمد ، ان القوات المصرية هى التى قامت بالمهمة ، وكان الشعور فى الجـزائر ان المصريين كانوا يشعرون بالغيرة ازاء البراعة العسكرية الفائقة لحلفائهم . ولم يكن المصريون على استعداد لنسبة الفضل لمن يستحقه ، وكانوا يقللـون عن قصد ، من دور الفرق « الخارجية » العديدة التى وفدت الى مصر . وثمـة سبب آخر تمثل فى انه كانت هناك دائما درجة من التنافس بين ناصر وبومدين، وكلاهما قوى ، ويرى نفسه الزعيم الطبيعى للعالم العربى . وبمرور الوقت ، ادرك بومدين ان ناصر سيظل دائما المتحدث باسم العرب والشخصية الفـذة الت ، يعتبرها ساسة العالم الزعيم العربى الطبيعى . وسلم بذلك ، وعزم على ممارسة نفوذه على نحو اكثر تعقلا وهدوءا وثمة سبب آخر للنزاع بينهما ذلك أن كليهما يرى القيمة الكامنة فى ليبيا ، الصحراء الغنية الشاسعة التى تفصـل بين بلديهما . فبينما كانت الحكومة الفاسدة بقيادة الملك ادريس الكبير السـن تتولى مقاليد الحكم فى البلاد كان هناك القليل الذى يمكن القيام به . غير ان

المخابرات المصرية والمخابرات الجزائرية كانتا على يقين من ان تغييرا سيحدث وهكذا وضع كلاهما فى اعتباره عائد البترول والسلطة والأمن ، وسعى كلاهما الى بسط نفوذه . وعندما وقع الانقلاب فى سبتمبر ١٩٦٩ ، كان من الواضح ان مصر كسبت هذه المعركة ، واتجه العقيد القذافى فورا الى ناصر كناصح ومعلم، والشقيق الأكبر الذى حاول أن يحذو حذوه ، وشعر بومدين بالاستياء، وكان نقده العلنى لناصر عندما تم وقف اطلاق النار نتيجة لذلك الى حد ما .

ولم ينشر عن هذا الموقف سوى القليل . وعلى المستوى الرسمى ، اختلفت الجزائر ومصر على طريقة ايجاد تسوية للنزاع القائم فى الشرق الأوسط . فقد ظلت الجزائر مقتنعة بأن القوة هى الأمل الوحيد لاسترداد ارض فلسطين ، او الأراضى العربية المحتلة . وفى حين كان لمصر ، التى تدرك الضربة الباهظة التى تدفعها قواتها فى حرب الاستنزاف التى بداتها بنفسها ، وتدرك أن جيشها لا يقدر على تصعيد هجوم ، كان لمصر راى آخر . بالرغم من هذه الخلافات ، فان الرئيس بومدين ما يزال يتبع سياسته للابقاء على علاقات الصداقة مع الدول العربية ـ حتى انه رحب بالملك فيصل فى زيارة رسمية ، كانت بمثابة اجتماع الأضداد ، اذا كان لها أن تجتمع على الاطلاق ، وفى الوقت نفسه أعد ترتيباته ، ليظل متمسكا بتقديره للموقف ، فى حالة ما اذا نشبت حرب اخرى ، او دعت الضرورة اليها ، كذلك ظلت الجزائر تتمسك بوجهة نظر واقعية تجاه الأمور الدائرة بين الدول العربية ، على عكس مثالية الحاكم الشاب الجديد فى ليبيا . ولم يتردد الرئيس بومدين ولو للحظة عندما راى انه من الضرورى ابطال جهد سنين من جانب أربع دول لتشكيل سوق مشتركة فى المغرب العربى . وكان من المقرر أن تضم هذه السوق المغرب وموريتانيا وتونس والجزائر ، متخذة أولى الخطوات وهى بتخفيض ٤٠٪ من التعريفة الجمركية بين الدول الأربع . وكان الوزراء فى الرباط على استعداد لتوقيع الاتفاقية عندما تلقى الوفد الجزائرى تعليمات جديدة مفاجئة بعدم الموافقة . وكان سبب ذلك ان بومدين ومستشاريه تبينوا مؤخرا ان هذه الخطوة ستسمح بتدفق كبير للسلع الأوروبية المصنعة الى الجزائر عن طريق المغرب ، ولم تكن لديهم الرغبة فى السماح لاقتصادهم الاشتراكى الثورى بأن يقضى عليه بهذه الطريقة . الأمر الذى يعنى انه ليس فى وسعهم مواجهة المنافسة ، بالرغم من أنهم كانوا يسيرون على الطريق السليم بصفة عامة ، فقد تم تأميم شركات توزيع البترول الفرنسية والمصالح الفرنسية الأخرى دون اى تعقيد ، واديرت شركات البترول الكبيرة بكفاءة تامة ، بالرغم من انه فى هذه الحالة قامت هناك بعض العراقيل وتمثل انتقام فرنسا للتأميم فى سحب غطائها للعملة الجزائرية، مما جعل من العسير على الدولة شراء احتياجاتها الحيوية لفترة من الوقت .

ونجم عن ذلك نقص فى المواد الغذائية ومواجهة تهديد بانهيار عام فى الاقتصاد ، لولا اجراء مفاوضات مع البنك الدولى للحصول على قرض . ومنذ تخطى الجزائر لهذه العقبة ، لم تكف مطلقا عن التقدم، فقد كان لديها الكثير من الأكفاء القادرين على ادارة مصانعها ،واحرزت تقدما مطردا نحو اللامركزية مما مهد الحكم المحلى، وبالتالى تحقيق مزيد من المرونة ، وبالرغم من ان علاقاتها مع الدول الأخرى كانت فى وقت من الأوقات اقل من المستوى ، فقد تمكن الرئيس بومدين من تجنب نزاعات مدمرة مع اى منها .

ومن المؤكد ان واحدة من اهم منجزات بومدين تمثلت فى تجنب اى مشكلة خطيرة مع جيرانه من الدول المتاخمة . فمن ناحية فهو يجاور القذافى، الذى يتميز بالاندفاع والثورية ، والذى يعتقد دائما انه يمكن تحقيق المثالية بالسعى الجاد الى تحقيقها ، بينما يوجد الملك الحسن فى الناحية الأخرى، واحد من آخر ملوك ثلاثة فى العالم العربى ، وهو رجل يصمم على الاحتفاظ بعرشه ومركزه ، رجل تحول من انسان مستهتر الى سياسى داهية يحاول دائما ان يصبح رجل دولة . والى جانب هاتين الشخصيتين المتناقضتين هناك الحبيب بورقيبة ، الرجل الذى يمثل مجموعة من المتناقضات . فهو ثورى محافظ ، ورئيس لمدى الحياة يؤمن بالديمقراطية ، وعربى مخلص شاغله المفضل توجيه النقد الى رفقائه . واستطاع الرئيس بومدين ، الذى كان محاطا بمثل هذه المتناقضات ، ومعتمدا على فرنسا ، عدوه القديم ، فى معظم امداداته ، ومتبعا سياسة تختلف عن سياسة اكثر الدول العربية قوة ، استطاع خلال ست سنوات أن ينتقل ببلاده من الفوضى الاقتصادية الى الرخاء ، وأن يحول نفسه من شخصية باهتة فى الظل ، الى حد ما ، الى زعيم عربى ودولى جدير بالاحترام والى رجل لمكائده الهادئة تأثير كبير .

وقد فعل جاره بورقيبة الشىء نفسه ولكن بأسلوب مختلف تماما ، فكان سياسيا يعترف بفضل احراز التقدم « مرحلة مرحلة » ، وقد نال الحبيب بورقيبة الى الاستقلال لبلاده دون أن يجعل شعبه يناضل من اجل نيله . وخلافا لكثير من الدول العربية ، كان دائما على استعداد للتفاوض ، ولم يطلب اكثر مما يعتقد أن فى وسعه الحصول عليه فى اى وقت . وكان يؤمن، كما يقول ، بالسماح لخصومه بالاحتفاظ بكبريائهم وكرامتهم ، ولا يجعلهم يشعرون بالهزيمة ، ومن ثم فانه لم يضغط على الفرنسيين حتى يجلوا فورا عن قاعدتهم فى بنزرت ، متى اذعنوا لمبدا منح تونس الاستقلال ـ وكان عبد الناصر ينتقده بعنف لمثل هذا «الضعف» . ومما يذكر أن بورقيبة أرسل دعوة الى عبد الناصر عام ١٩٦٣ لحضور الاحتفالات التى كانت ستقام بمناسبة تسليم القاعدة للقوات التونسية بصورة سليمة . غير ان الزعيم

المصرى لم يقبل الدعوة . وكان بورقيبة ناجحا كذلك فى معالجة مشـــكلات بلاده الاقتصادية ، مع ان اكثر من ربع تعداد السكان يشتغلون فى الزراعة ، ويمتلك الفرنسـيون معظم المزارع . وصـادر بورقيبة ملكية كل الاراضى الصالحة للزراعة مما اسفر عن ازمة قصيرة مع باريس ، لم يلبث بورقيبة ان تغلب عليها ، مثلما فعل مع اى شىء آخر .

وكان بورقيبة يعتقد ، وما يعتقده بورقيبة يعلنه ، ان لابد من تطبيق اسلوبه فى احراز التقدم خطوة بخطوة ، بدلا من القيام بهجوم شامل لمحاولة تحقيق ما يصبو اليه ، وكذلك فى المشكلة الفلسطينية ايضا . ومن ثم فقد اقترح اجراء مفاوضات مع اسرائيل على اساس مشروع الامم المتحدة لتقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ ، وتعرض بورقيبة لنقد شديد نتيجة هذا الاقتراح : وفى عام ١٩٧٣ نادى الكثير من الزعماء الفلسطينيين صراحة بنفس النـوع من التسوية . وعندما عرض بورقيبة هذه الفكرة ، قامت مظاهرات معادية لتونس ، وارتفعت أصوات الضجيج فى العالم العربى . وتم قطع العلاقات الدبلوماسية مع القاهرة . وزاد بورقيبة ، الذى لم يهتم تماما بكل هذه الجلبة التى لا مبرر لها ، من تدهور الموقف عندما اعلن ان مصر استخدمت الجامعة العربية كأداة لتنفيذ سياســتها الخاصة ، ثم رفض لان يحذو حذو الدول العربية الأخرى التى قطعت العلاقات الدبلوماسية مع المانيا الغربية نظرا لقيامها بتبادل السفراء مع اسرائيل .

وعندما نشبت حرب ١٩٦٧ عادت تونس الى حظيرة العرب ، بنفس الطريقة التى رايت بهاهذهالحرب صدع الكثير من الخلافات القديمة والكثيرة. فبالنسبة لبورقيبة ، كانت هذه الفترة بمثابة شهر عسل قصير ، فقـد تم استدعاء القوات التونسية التى ارسلت الى ميدان القتال قبل وصولها اليه، بالرغم من ان بورقيبة حضر مؤتمر القمة الذى عقد فى الخرطوم ، الا ان روح الخلاف القديمة قد تحركت من جديد . فقام باتخاذ اجراءات صارمة ضد الطلبة الذين تظاهروا فى تونس وهاجموا السفارة البريطانية نتيجة «للأكذوبة الكبرى » لعام ١٩٦٧ . وهى أن الطائرات البريطانية والأمريكية ساعدت اسرائيل اثناء حرب الأيام الستة . واعتقل اكثر من ١٣٠ طالبا وأستاذا ، وحكم على احد المتزعمين بالسجن عشرين عاما ، مما يعد حكما قاسيا على اية حال ، بالرغم من انه خفف فيما بعد . وعندما انتقدت سوريا بورقيبة لآرائه بشأن المشكلة الفلسطينية وطرق حلها ، واتهمته بخيانة النضال ، اتهم القائم بالأعمال السورى فى تونس بأنه وراء القلاقل ، وتم ترحيله .

وكانت الجامعة العربية التالية فى الانضمام الى النزاع ، ورفضت الانصات الى خطاب الوفد التونسى الذى كان يبرر آراء بورقيبة ، وسرعان ما اعلنت تونس انها ستقاطع كافة الاجتماعات التالية للجامعة العربية ، وحرصت على توزيع البيان الذى رفضت الجامعة العربية الانصات اليه : وكان يتهم مصر بالاعتماد الزائد عن الحد على الدول الشيوعية،واتباع سياسات ادت الى الحاق هزائم متتالية للعرب . وكان البيان مناسبا للموقف فى ذلك الوقت . وكانت العلاقات مع الجزائر وهى الأهم بكثير نظرا للموقع الجغرافى للدولتين ، قد تحسنت نتيجة لمساعدة تونس اثناء حرب الاستقلال الجزائرية ـ ذلك لأن كلا من تونس والمغـرب كانتا قد زودتا الجزائريين بقواعـد بيد ان بورقيبة الذى منح حق اللجوء السياسى للعقيد الزبيرى بعد محاولته اغتيال بومدين ، الأمر الذى لم يكن يستطيع رفضه لاعتبارات انسانية ، قد اثار عداء جاره نتيجة ذلك ، عقب فترة تمت فيها تســوية النزاع على الحـدود وتوقيع معاهدات اقتصادية بين البلدين .

وظلت مشكلة بورقيبة ، اذا جاز تسميتها مشكلة ، تتمثل فى عادته فى الاعلان عن افكاره ، وهى سمة غير ملحوظة فى العالم العربى . اما بالنســبة الزعيم التونسى فقد اذدادت بدرجة كبيرة نظرا لكونه المعلم الرئيسى والقــوة الموجهة الى بلاده لفترة طويلة ، حتى انه اعتبر نفسه معلما أبديا ، ورجلا مهمته التوجيه لكل من له صلة به فلاحا كان او رئيسا . وكانت القصص التى تروى عن ذلك كثيرة : فغالبا ما كان ينتقد زواره للطريقة التى يلبسون بها أرديتهم ، او يعقب على اختيار غير موفق اربطة عنق . وقد القى ذات يوم على مســامع السيد منجى سليم الأعزب المعروف والمرشح البارز للسكرتارية العـامة للأمم المتحدة ، محاضرة عن مزايا الزواج وفى الاجتماعات العــامة كان كثيرا ما يدلى بملاحظات على الترتيبات المعدة ، ويرغم الحاضرين على نقل كراسيهم وموائدهم قبل الجاوس والانصات اليه .

وانتهى كل ذلك عام ١٩٧٠ ، عندما واجهت بورقيبة ازمة قلبيــة حادة، وتعين عليه قضاء ستة اشهر للاستشفاء فى فرنسا . وتم تعيين باهى الأدغم ، رفيقه القديم ، رئيسا للوزراء أثناء غيابه ، وفى الوقت نفسه حانت الفرصــة للتخلص من بن صالح الذى ادى تحمسه المدمر لتطبيق السياسات الاشتراكية المحصنة فى مجال الزراعة الى تراكم ديون ضخمة وكفاءة ضئيلة . واعتقـد الكثيرون حينئذ ان بورقيبة قد انتهى ، غير ان سرعان ما اتضــح انه يتمتع بحيوية كبيرة ، وانه على استعداد لمقاومة ـ بدافع من زوجته الثانية السيدة وسيلة بورقيبة ، التى كان قد تزوجها بعد ان انفصل عن زوجته الفرنسـية

ايام الاستقلال . وكانت للسيدة وسيلة أفكار محددة خاصة عن كيفيـــة حكم الدولة ، وعمن يخلف زوجها ، وعلى خلاف الكثيرات من زوجات الزعمـــاء العرب لم تتردد فى استخدام نفوذها . ويرجع الفضل اليها الى حد بعيد فى ان يعهد الى باهى الأدغم بمهمة رئاسة لجنة المتابعة ، التى شكلها مؤتمر القاهرة والتى انهت الحرب فى الأردن ، والتى كان عليها ان تبقى فى الأردن لعدة اشهر للاشراف على وقف اطلاق النار والتغلب على العقبات بين الفدائيين والجيش الأردنى . وقام الأدغم نفسه بجهد ملحوظ ، ونال مكانة مرموقة فى العالم العربى نتيجة لذلك .غير انه عندما عاد الى دولته ، وجد ان امره قد اهمـــل تماما . وتم تعيين هادىء نويرة رئيسا جديدا للوزراء ليحل محله ، وأعطوه مهلة لازالة الفوضى المادية والاقتصادية التى خلفتها سياسات بن صالح المدمرة . ولم يعد هناك اى مجال للسيد الأدغم ، بالرغم من انه علق الآمال لفترة من الوقت على ان يصبح يوما ما رئيسا للدولة ، وكان هذا ما يشغل كثيرا من الســياسيين التونسيين ، وذلك لأنه بدا من الأرجح ان يتخلى بورقيبة عن الرئاسة ، بالرغم من انه لم تكن لدى بورقيبة اية نية فى القيام بذلك الا مكرها . وفى الوقت الذى كان لابد فيه من تعديل اسلوبه القديم ، كان ما يزال يحكم قبضته على الأمور ، وكانت السيدة وسيلة تساعده فى حالة اخفاقه فى تحقيق ذلك .

وسرعان ما أخفقت المساعى الرامية الا ارغام الرئيس على توزيع مزيد من السلطة ، كما اختفت تماما المساعى الرامية الى ادخال تعديلات على الدستور ، الأمر الذى يعنى تولى نائب الرئيس تلقائيا رئاسة الجمهـــورية فى حالة وفاة بورقيبة ، أو قيام رئيس البرلمان باستكمال فترة الحكم . واستبعد من الخدمة تماما كل من نادى بتوزيع السلطة . كذلك فان بورقيبة لم يســمح لمرضه المزمن أو اشتغاله بالأمور الداخلية لأن تبعده عن الأمور الخارجيـــة . وكانت دعوته الأكثر اصرارا وتعقلا هى اخلاء البحر الأبيض من الأساطيل الأجنبية ، وقد ايد فى اخلاص دول عدم الانحياز واقام علاقات صداقة وروابط اقتصـــادية مع روسيا والصين ، وانتقد نشاطات الأسطول السوفيتى والســادس الأمريكى فى المنطقة ، وكان يرى أن اقامة علاقات وثيقة بين دول شمال أفريقيا وأوروبا قد تنجح فى وضع نهاية لوجود هذه القوى الخارجيـــة . وكان المؤيد الأول لفكرة طرحها شاه ايران فيما بعد وتتمثل فى ان الدول الساحلية ، والساحلية فقط ، لابد من أن تقع عليها مسئولية الدفاع عن أية منطقة مثل منطقة الخليج ومنطقة البحر الأبيض المتوسط حيث يحاط بحر صغير نسبيا بعدد من الدول المختلفة . ونتيجة لسياساته اقامت تونس علاقات خاصة مع دول السوق الأوربية ، ولكن نظرا للضعف والانشقاق داخل تلك المجموعة ، فان التحالف لم يكن كافيا بحيث يؤثر على سياسات الدول الكبرى فى المنطقـــة .

وما أن تخلصت تونس من اخطاء سياسة بن صالح الاشـــتراكية ، حتى تحسنت علاقاتها بجاراتها تدريجيا ، كما اذدهر اقتصادها . وبالرغم من ذلك، كان يمكن ان تتطور الأمور الى ابعد حد ، كما اوضح بورقيبة فى عام ١٩٧٢ ، عندما كان القذافى فى زيارة لتونس . ففى ذلك الوقت كان بورقيبة ملازما لفراشه نتيجة للمرض واستمع عن طريق الراديو الى اذاعة على الهوء لخطاب القـــاه ضيفه القذافى الذى انتهز الفرصة واقترح تكوين اتحاد بين تونس وليبيا تنازل فيه عن طيب خاطر عن الرئاسة لبورقيبة . وسواء اكان مريضا ام لا فقد راى بورقيبة ان هذا الأمر مبالغ فيه من جانب القذافى : فارتدى ثيابه على عجـل ، وهرع الى القاعة حيث كان القذافى ما يزال يتحدث . فانتزع الميكروفون من يده واعلن فى الحال رفضه لاقتراح الاندماج ، الذى قال انه يجب أن يتم تدريجيـــا اذا كان له ان يتم على الاطلاق . وقال الرئيس المحنك ، ان الوحدة الوطنيـــة يجب ان توضع فوق كل اعتبار وقبل اية اندماجات كبرى ، ومضى الرئيس فى توجيه النقد للقذافى ووصفه بأنه ما يزال اصغر من ان يدرك العقبات الماثلة فى طريق الوحدة الوطنية ، بصرف النظر عن اى شىء آخر . وكان من الواضـــح ان فكرة انضمام دولته الى ليبيا فى ذلك الوقت مسالة كبيرة بالنسبة لبورقيبة. فقد كان يرى استحالة التوفيق بين « الاشتراكية الاسلامية » التى ينادى بهـــا القذافى ، والتى تدعوا الى التمسك الصارم بالشريعة الاســـلامية ، وبين أفكاره الخاصة عن تحرر المراة ، والسياحة والعلاقات الواقعية مع كافة الدول الأخرى. وهو موقف كان يتعين عليه ان يغيره فى المستقبل ، او يتظاهر بتغييره ، غير أنه من الواضح تماما فى تلك الفترة أن بورقيبة يشارك الراى العربى العام فيما يراه فى القذافى ، ولم تكن لديه اية رغبة فى تحويل دولته التقدمية المتحررة الى دولة متعصبة على النحو السائد فى ليبيا .

والتقت آراء الزعيمين فيما يبدو حول نقطة واحدة تمثلت فى ان كلاهمـــا كان يرى أن الفلسطينيين يشكلون اساس ازمة الشرق الأوسط.وكان بورقيبة يشارك القذافى رايه فى ان الدول المعنية مباشرة وهى مصر وســـوريا والأردن لا يشغلها سوى استرداد اراضيها المحتلة ، ولا يهم ما تردده حول فكرة استعادة حقوق الفلسطينيين . وكان القذافى يعتقد أن الحرب هى الحل الوحيـــد ، اما بورقيبة فكان يؤيد المفاوضات بشدة ، وبصرف النظر عن هذا ، فقد كانا متفقين على ضرورة وضع فلسطين أولا فى أية محاولة للتوصـــــل الى حل . وبالرغم من ذلك لم يؤد هذا الى قيام تونس بتقديم اى تأييد فعلى للفدائيين الفلسطينيين ، كما تفعل ليبيا ، وبدلا من ذلك ، بدا للرئيس بورقيبة أن الفرصة ســانحة لممارسة موهبته المؤكدة لاجراء مفاوضات ، بغض النظر عما قد تعتقده الحكومات

العربية الأخرى ازاء اساليبه . وهكذا اعلن بورقيبة انه على استعداد للقيام بدور الوساطة بين الاسرائيليين والعرب ، وانه ليس لديه اى اعتراض على الاطلاق للاجتماع بالزعماء الاسرائيليين وجها لوجه ، وان شرطه الاول والوحيد هو موافقة الطرفين على مشروع التقسيم عام ١٩٤٨ كنقطة بداية للمناقشات . وكان هذا بمثابة خطوة جريئة فى المناخ المشحون بالمرارة بصورة متزايدة فى ذلك الوقت ، بيد ان بورقيبة كان قد تعرض لنقد العرب اللاذع من قبل : عندما اقترح ذات مرة الغاء صيام شهر رمضان لانه يؤدى الى نقص خطير فى الانتاج فى الدول الاسلامية .

وكان بورقيبة فى هذه المرة على استعداد تام للدفاع عن اقتراحه الخاص بالاجتماع مع الاسرائيليين ، وقال : ان الحوار هو وسيلة التقدم دائما . حتى بين الله والشيطان . غير ان احدا منا ليس الها ، كما ان احدا منا ليس شيطانا تماما ، بالرغم من ان اسرائيل قد تصرفت بطريقة خاطئة . « كذلك فقد اعطى حافزا للاسرائيليين قبل ان يتلقى ردا من تل أبيب ، وذلك عن طريق التسليم ضمنيا بحق اسرائيل فى استمرار وجودها كدولة ، وهو امر يكره الزعماء العرب الآخرون التسليم به ، بالرغم من أنهم توصلوا تدريجيا الى هذا الرأى سرا ، . اما بورقيبة فقد اعلنه جهارا وقال : « ان من حق العرب عدم احتلال اراضيهم او الحاق اهانة بهم ، كذلك فمن حق الاسرائيليين عدم طردهم او الالقاء بهم فى البحر » . وكان ذلك كله بلا جدوى . وعلى النقيض من بعض الانباء التى ترددت فى ذلك الحين ، فان بورقيبة لم يحظ بأى تأييد لمبادرته . فلم يكن قد تشاور مع اى من الزعماء العرب ، وبدت مبادرته كما لو كانت محاولة ذاتية لعودة الحبيب بورقيبة لمكان الصدارة ، وليست محاولة مدروسة لانهاء النزاع الطويل فى الشرق الأوسط . ولقيت المبادرة ترحيبا حذرا من ابا ايبان فى تل أبيب ، وهذا كل ما فى الأمر .

وسرعان ما تلاشى الاهتمام لدى الرئيس التونسى ، ومضى فى تنفيذ رياضته المفضلة فى تضليل أولئك الذين يعتقدون انهم على وشك أن يحلوا محله . وكانت همسات حول مرض بورقيبة بجنون العظمة قد ترددت او على الاقل برغبة شاذة فى التمسك بالسلطة لاطول مدة ممكنة وضمان مكانه فى التاريخ . وكان فى هذا شىء من الحقيقة بالرغم من أن بورقيبة ، الذى كان اول من أعلن ذلك ، يعد رجلا غير عادى . وقد احتفل بعيد ميلاده السبعين فى انحاء البلاد كافة على نحو رائع ، حيث انتهز الفرصة لكى يوفر للشعب المزيد من المعرفة برئيسه . وكانت المناسبة ندوة شعرية ، حيث كانت المهمة هى نظم قصائد مديح لرئيس الدولة الذى اشار الى نفسه بصيغة الغائب حين قال :

يجب على ان اكشف لكم ، وكذلك لبقية الشعب ، عن جانب آخر من شخصية بورقيبة ، انه ليس عبقرية سياسية ، انتصرت على الاستعمار الفرنسى فحسب، بل وربما كان شاعرا عظيما كذلك . ولهذا السبب ، قررت أن تتجدد هذه الندوات الشعرية كل عشرة اعوام ، وساجتمع معكم مرة اخرى فى عام ١٩٨٣ فى عيد ميلادى الثمانين ، ثم فى التسعين ، ثم ولم لا فى المائة » . وبدا كما لو ان بورقيبة قد عزم على تنفيذ ما قاله بالضبط .

واذا كان الزعيم التونسى شخصية غريبة الاطوار فى المغرب ، فان هذا الركن من الوطن العربى ، يمكنه ان يفخر بشخصية متميزة اخرى ، وهو لاحد ملوك ثلاثة فى العالم العربى ما يزال يمارس الحكم بالرغم من جميع الخلافات وفى مواجهة عقبات كثيرة . لقد تحول الحسن الثانى ملك المغرب من ملك تلقى تعليمه فى فرنسا ، وهو مولع باللهو بعد ان خلف والده فى الحكم وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، الى سياسى داهية ورجل دولة لا يبارى وكان ما يزال يميل نحو تحديد موعد مباراة للجولف قبل اجتماع مجلس الوزراء ، غير ان هذا الموقف لم يلبث ان تغير كثيرا نتيجة لأحداث سنوات ما بين الحرب . ذلك لانه بينما بدت وقائع تلك السنوات السبع فى المغرب للعالم الخارجى متمثلة فى نجاة الحسن بشبه معجزة من الاغتيال فى مناسبتين على الاقل ، فان الاهمية الحقيقية لهذه السنوات تكمن فى خطوات الملك التدريجية المتأنية لتحرير نظام المستبد .

وكان لابد من أن تتم العملية بصورة بطيئة ، ذلك لان الملك صمم على الاحتفاظ بمركزه ، وكان الموقف ينم على ان اى تراخ مفاجىء قد يطيح بالملكية ، فى الوقت الذى كان يعتمد فيه على تأييد اكثر افراد الشعب تخلفا وهم الفلاحون والمسلمون المتعصبون وبربر الريف (Berbers of the Rif الذين تربطه بهم اواصر النسب . وكان الأهم بالنسبة لهم ان يظل الحسن زعيمهم الروحى من ان يكون مليكهم : ويقال ، كما يدعى ، انه من سلالة النبى مباشرة ، وان اهم القابه هو امير المؤمنين .

وسرعان ما أدرك الحسن أن القاب الوراثة ، فى دولة على غرار فرنسا والدول الاوروبية كدولة المغرب ، كافية لضمان الاستمرار والبقاء فقد أرغم على الغاء البرلمان وممارسة الحكم عن طريق مرسوم سارى المفعول من خمسة اعوام ، بعد أن قضى المشرعون وقتهم فى النزاع فيما بينهم ، وفشلوا فى التوصل الى شىء . وعندما تركزت السلطة فى يدى الحسن ، تعرض للنقد الذى كان يوجه من قبل الى وزرائه . وقد حقق الملك على الاقل بعض الانجازات ، ولا سيما

في تسوية نزاعات الحدود مع الجزائر ، وفي التفاوض بشأن انسحاب القوات الاسبانية من المنطقة « افني » وفي اقناع الولايات المتحدة بتزويد المغرب بأقصى قدر من المساعدات التي تقدمها لاحدى دول افريقيا وهو عمل ينطوي على بعض المخاطر بالنسبة للرأي العام العربي (الذي كان دائما في حالة غضب) . وفي مقابل الحصول على مبالغ هائلة من امريكا ، سمح الملك الحسن بدوره ، باقامة ثلاث قواعد أمريكية على أرضه في قنيطرة وسيدي يحيى وبدكنادل . وكانت خطوة واقعية ومعقولة ، ذلك لأن بلاده كانت في حاجة ماسة الى الدولارات التي تأتي نتيجة لهذه القواعد ، غير ان ذلك تسبب بطبيعة الحال في توجيه مزيد من النقد من جانب الأحزاب المعارضة . ومن حسن الحظ كان في استطاعة الحسن تغيير هذا الأمر ، ففي البداية تم اخفاء الدليل الواضح للوجود الأمريكي ، ثم تم بعد ذلك تدريجيا الحد من التدخل الأمريكي في البلاد ، بالرغم من ان كمية المساعدات ظلت كما هي . واظهر الملك كعادته مزيدا من الحزم في التعامل مع الدول الخارجية اكثر مما كان يفعل بالنسبة للشئون الداخلية .

وغالبا ما كان يبدو أن الحسن يعتمد على ما يحققه نتيجة لسياسته الخارجية لتعويض العجز في حكمه الداخلي ، الذي أصبح يوما بعد يوم أكثر وضوحا : وكانت الرشوة والفساد اسلوبا للحياة ، تورط فيها القصر نفسه مباشرة طبقا لما تردده الشائعات في المدن ، عن طريق العمولة التي كان يأخذها الأمير مولاي عبد الله ، الشقيق الأصغر للملك . وكانت مظاهرات الطلبة لعدم كفاءة الحكومة والتدهور الاقتصادي يتم قمعها بصورة وحشية ، واصبحت المعارضة التي كانت مباحة في البداية ، هدفا للواء محمد أوفقير وزير الداخلية والرجل القوى في البلاد ، الذي لفق اتهامات تدبير مؤامرات ضد الملكية لكي يشكل محاكمات استعراضية تقضي بصورة منتظمة على زعامة الأحزاب ، وقد شنت الحملات لازعاج نقابات العمال ، ومراقبة الأفراد وارغام رجال الأعمال على المشاركة في قبول الرشوة اذا ما رغبوا الاستمرار في أعمالهم . ولم تكن الأمور طيبة بأي حال . وكان من الواضح انه لا بد من اتخاذ اجراء حتى يمكن تفادي وقوع اضطرابات عامة ، بل أن حرب ١٩٦٧ لم تكن كافية لتوحيد الشعب ، ولم تبذل اية محاولة للانضمام للصف العربي . وكان رد الملك الحسن هو اقرار دستور جديد ، قدم كعملية خلاص للحكومة ، بالرغم من انه في الواقع ، وعند التطبيق الجاد كان يعني تخويل مزيد من السلطة للملك ، وفي محاولة اخرى لاخفاء مظهر الديموقراطية على الوضع كله ، عرض الملك مقترحاته للاختيار الشعبي في استفتاء قررت الأحزاب المعارضة مقاطعته . وبالرغم من هذا ، تمت الموافقة على الدستور بأغلبية ٩٨٫٣٥٪ من الأصوات

البالغ عددها ٤٫٥ مليون صوت ، حسب الأرقام التي أعلنها اللواء أوفقير ، الذي اشرفت وزارته بالطبع على العملية كلها . وكانت نتيجة الاستفتاء بطبيعة الحال ، ملفقة تماما كانتخابات البرلمان التي أعقبت ذلك ، والتي أشرفت عليها وزارة الداخلية ايضا . واعلن اللواء اوفقير بلهجة رقيقة « انه ينبغي على الجماهير ان تتخلص من ولائها للأحزاب السياسية ونقابات العمال » .

وتفرغ الحسن لممارسة المزيد من لعبة الجولف ، بينما رجال حاشيته الملكية يقومون بممارسة الحكم أما البرلمان فلم يكن يقوم الا بدور محدود للغاية. ولاحت المتاعب في الأفق ، لأن احزاب المعارضة المتعددة تمكنت من الاتحاد في جبهة وطنية ، ومن بينها حزب الاستقلال ، الذي حقق الاستقلال للبلاد ، والاتحاد الوطني للقوى الشعبية ـ الأكثر تطرفا ـ والنقابتان الرئيسيتان واتحاد الطلبة . وكان الاتحاد هائلا بحيث يمكنه احداث تغيير عنيف في مجرى السياسات المغربية ، وربما أمكنه القيام بذلك في الوقت المناسب . وقبل أن تتاح له الفرصة وقع حادث ترك اثرا ابعد بكثير على مجريات الأمور وادى الى تغير اسرع وابعد المدى في حكم البلاد من أي شيء كان يمكن للاحزاب السياسية أن تأمل في تحقيقه .

لقد كان هذا الحادث هو محاولة انقلاب طال انتظارها ، وكان كل فرد داخل المغرب أو خارجه ، وفيهم الملك نفسه يتنبأ بوقوعها وينتظرها منذ أمد بعيد . وسئل الملك في اجتماع له مع احد الدبلوماسيين عما يريده من الدولة ؟ فأجاب : انه يتطلع الى يوم لا يحتاج فيه الى ان تكون طائرته الخاصة دائما على اهبة الاستعداد للاقلاع ومروحتها تدور ايذانا بالرحيل . وكان الجميع يدرك ما الذي يعنيه وما الذي يحسه . ومع ذلك فانه ، عندما تعرضت حكومته للانقلاب ، كانت مفاجأة تامة . فقد كان ذلك في ١٠ من يوليو ١٩٧١ العيد الثاني والأربعين لميلاد الملك . وتجمعت قافلة طويلة من ٢٥ سيارة لوري حول قصر الملك الصيفي في الصخيرات وقفز منها مئات من طلبة الكليات العسكرية من معهد « أبرمومو لتدريب ضباط الصف » وتدفقوا يطلقوا النار على القصر حيث كان ٤٠٠ من الضيوف من الشخصيات البارزة يتناولون عشاءهم مع الملك . ولقى سفير بلجيكا مصرعه مع الطلقات الأولى من نيران المدافع ، واصيب الأمير عبد الله ، وجرح عشرات غيرهم ، واندفع الملك الى داخل القصر برفقة حرسه الخاص غير انه سرعان ما اكتشف مكانه المتمردون وأسروه لخمس ساعات. وفي الوقت نفسه الذي هوجم فيه القصر في الصخيرات ، قامت قوات اخرى بالاستيلاء على محطة الاذاعة في الدار البيضاء والرباط : وجاء في اول بيان اذاعي ، اذيع باللغة الفرنسية وليس بالعربية لأمر له مغزاه : « قتل الملك .

تحيا الجمهورية ! ، ثم اعقب ذلك الاعلان المتوقع عن تشـــكيل مجلس قيادة الثورة ، والملاحظات المبتذلة عن مساوىء الحكومة التى اطيح بهــا ، والمزايا التى ستعود على البلاد من وراء الحكومة الجديدة .

وكان للبيانات الاذاعية أثرها الفــورى ليس فقط داخـل الدولة وانما فى كافة انحاء المغرب . وعقد كل من العقيد بومدين والعقيد القذافى والرئيس بورقيبة جلسات لمجالس وزرائهم بينما تدفقت الجماهير فى شوارع الدار البيضاء والرباط وطنجة تردد الشعارات وتمزق صور الملك . وكان العقيد القذافى اول من يتخذ اجراء خارج الدولة ، ودون انتظار لرفاقه اعضاء مجلس قيادة الثورة ، فقد اصدر الأوامر لراديو طرابلس بالبدء فى اذاعة رسائل التأييد للثوار المغربيين . ولم يكن القذافى ولا لليبيين يد فى المحاولة ضد الملك ، غير انهم اعتقدوا ان تصرفهم لابد وان يكون له تأثير على عزم المتمردين على التحرك، وشعروا بانهم ملتزمون تجاههم بتقديم اية مساعدة يستطيعون تقديمها . كما كان القذافى مقتنعا تماما بأن حكومة ثورية فى المغرب قد تسهم الى حد بعيد فى تحقيق خططه التوسعية ، التى كان يخفيها تحت شعار « تحقيق الوحدة العربية » . ان القذافى والجماهير التى هرعت الى شوارع مدن المغرب اتسموا بالاندفاع المتهور ، ولم يدخلوا فى حسابهم الاحتيـاطات التى اتخذها اللواء اوفقير . لقد كون اللواء قوة درك هائلة بالاضافة الى جيش من البوليس السرى فى انحاء البلاد كافة ، وكما اثبتت الأحداث فيما بعد ، فقد كان يعلم افضل من اى شخص آخر ان محاولة لتغيير الحكومة بالقوة تعد امرا مؤكدا ، وكانت لديه خطط تفصيلية لمواجهة مثل هذه الخطوة . واستطاع رجاله ، خلال خمس ساعات ، استعادة القصر واطلاق سراح الملك ، وضربوا الجماهير فى الشوارع واستعادوا السيطرة على محطات الاذاعة ، واتخذوا اجراءات امن مشددة فى انحاء البلاد كافة . وسرعان ما ظهر الحسن على الهواء ليخطب فى شعبه الذى كان يعوزه الحماس بصـورة ملحوظة ، وزعم أن الانقلاب دبر خارج الدولة ، وان المشتركين فيه لا يزيد عددهم على عشرة من كبار الضباط . اما بالنسبة لتأييد ليبيا للمتآمرين ، فكانت لدى الملك عبارة لا تنسى عن الليبيين وزعمائهم . فقد قال : انهم لا يستحقون اللعنة الملكية .

وكانت الدول الأخرى اكثر حذرا من ليبيا فلم تقل الجزائر او تونس شيئا حتى اصبح واضحا ان المحاولة باءت بالفشل ، وما ان اتضحت الامور حتى سارعتا الى تأدية واجبهما. فأرسل الرئيس بومدين الشريف بلقاسم لتهنئة الحسن بنجاته ، وارسل الرئيس بورقيبة ابنه . وتصرف الملك حسين ملك الأردن بصورة افضل . فقد سافر الى الرباط شخصيا لابداء التضامن لرفيقه الملك وبعث الملك فيصل برسالة تهنئة مستفيضة ، كما ارسل برقية مناسبة

للرئيس السادات الذى كان فى طريقه للاجتماع مع العقيد القذافى فى مرسى مطروح فى محاولة للحد من تأييد حليفه الشاب للعناصر المضادة للحسن . وفى المغرب لم يكن الحسن فى حالة تسمح له بالصفح او التسـامح . ونقل التليفزيون المغربى ، عقب الهجوم على القصر بيومين ، دليلا قاسيا على الطريقة التى يعتزم الملك التعامل بها مع المتآمرين . فقد تجولت كاميرات التليفزيون ببطء عبر صفوف الجند فى ثكنات مولاى اسماعيل خارج الرباط . وتوقفت عند عشرة اوتاد مثبتة فى الأرض ، يقـابل كل منها زمرة مكلفة بتنفيذ حكم الاعدام رميا بالرصاص وقد اصطفت كتائب القوات فى جانب من جوانب ساحة الميدان كشهود . ثم سار الأشخاص الذين يقال انه تقع عليهم مسئولية التمرد: اربعة ضباط برتبة لواء ، ثلاثة منهم قادة للمناطق العسكرية الست فى الدولة، وخمسة ضباط برتبة عقيد ، وقائد وحدة عسكرية وتم ربطهم فى الأوتاد ، وجردوا من رتبهم العســكرية . وركزت كاميرات التليفزيون بعد ذلك على الارض فى الوقت الذى كان ينطلق فيـه وابل من الرصاص على المتآمرين . وهكذا انتهت المؤامرة غير المتقنة والتى كانت تفتقر الى الادارة الحكيمة .

وكما اعلن الملك فيما بعد ، أن الأمر كله كانت تنقصه الادارة السليمة ، فقد استولى المتمردون على وزارة الداخلية ،ولكنهم اغفلوا مقر البوليس ، واستولوا على محطات الاذاعة فى الرباط والدار البيضاء ، غير انهم اغفلوا محطة الاذاعة فى طنجه . وقتل اللواء محمد مدبوح ، الرجل الذى قيل انه قاد الانقلاب اثناء الهجوم على القصر .

وكان لعملية العنف التى وقعت فى العيد الثانى والأربعين لميلاد الملك ، بعض الفائدة ، بالرغم من عدد القتلى والجرحى الذى أسفرت عنه حيث قتل على الأقل ٢٠٠ شخص . فقد جعلت الملك يفكر فى مستقبله الخاص ومستقبل بلاده كما لم يفعل من قبل . ولم تكن محاولة الاستيلاء على الحكم بمثابة الأمر الذى أثر فيه ، فقد عاش ينتظرها طويلا . أما الشىء الذى أثار الرعب ، فقد كان الأشخاص الذين نظموا الانقلاب ، فلم يكن هؤلاء من الشباب الثوريين ذوى العيون اللامعة كالنجوم الذين كان من الممكن أن يتمردوا بوحى من القذافى فى ليبيا أو من جمال عبد الناصر الشخصية شبه الأسطورية . ولكنهم كانوا جميعا من كبار الضباط ، أشخاص فى مراكز قوة وسلطة يدينون بها للعرش، وكان من المحتمل أن يكونوا من مؤيديه المخلصين وربما كانوا كذلك ، لأنهم وهم يواجهون الموت كانوا يصيحون«يحيا الحسن». لقد كانوا يعترضون على النظام، وليس على منصب الملك ، وكانوا يتمردون على التجاوزات التى سمح بها الحسن والتى عمل حتى على تشجيعها . كانوا يتمردون على الفساد والظلم والتباهى الشديد

بالثراء وسط الفقر المنتشر . وكونهم من المؤيدين اليساريين للاتحاد الوطنى للقوى الشعبية واعضاء فى نقابات العمال التى مزقت صورته وهللت لسقوطه المفترض مجرد مصادفة فى اعتقاد الحسن . ولم يكن فى استطاعته التسامح مع الذين كان يحترم وجهات نظرهم وكان يعتمد عليهم فى تقرير اسلوبه فى الحكم . وكانوا قد اعتزموا الابقاء عليه كرئيس صورى عند تشكيل حكومة افضل ، بالرغم من ان الجماهير فى الشوارع كانت ترى فيه رمزا للاضطهاد والفساد ، وكانت ترغب فى التخلص منه ومع توفر مثل هذه المجموعة المتحدة ضده ، ادرك الحسن انه لابد من ان يعدل اساليبه .

وقال الحسن : « اننى لن اغير سياساتى ، ولكننى بالتاكيد سأغير من اسلوبى فى الحكم ، وسأبدا بنفسى » . واعترف بان محاولة الانقلاب جاءت نتيجة لأخطاء متراكمة « بعضها اخطائى » . وفى الوقت نفسه ، لم يكن فى استطاعة الملك مقاومة توجيه ضربة جانبية لاحزاب المقاومة فى البلاد . فقد وقعت المأساة نتيجة لخططهم كذلك ، وقال انها تحفر قبرها عن طريق تعليقاتها النافذة وهجومها الدائم على الحكومة فى الصحف التى يسمح لها بالنشر فيها . والواقع انه لم تكن اصوات الاحتجاج المعتدلة بعض الشىء والمعقولة التى تنشر فى الصحافة هى سبب المتاعب ، كما يدرك الملك جيدا . وانما كانت جذور المتاعب تتمثل فى الترف الواضح وسط الفقر المدقع اذ كانت العملات الذهبية تتناثر بين الأطعمة التى تقدم للضيوف فى القصر الملكى — وفى قوة اللواء اوفقير المرعبة للغاية . وربما كان الملك يدرك ذلك مثلما يدركه اى فرد آخر ، بالرغم من انه كان على استعداد لتحرير حكمه الى حد ما ، كما كان يعتقد انه من الضرورى فى الحالة الراهنة للبلاد احكام قبضته على عناصر من المحتمل ان يقوم بأية محاولة جديدة لاحداث تغير مستخدمة اساليب العنف : مثل الجيش والسلاح الجوى والبوليس والدرك . ومن ثم فانه عندما شكل الحكومة الجديدة بعد الاعلان عن محاولة الانقلاب عهد الى اللواء اوفقير بمزيد من السلطة : فنقل من وزارة الداخلية لتولى وزارة الدفاع ، مع تولى مهمة التخلص من العناصر المشتبه فيها فى القوات والتيقن من ان المخلصين للملك فى مراكز القوة كافة ، والتأكد فى الوقت نفسه من ان اولئك الذين عينوا بالفعل فى القيادات العليا فى البوليس والدرك يدينون بالولاء . وتولى احمد بن بوشته وزير العدل السابق ، وزارة الداخلية ، وهو معروف باعجابه باللواء اوفقير ، وبالتالى ضمن استمرار تولى اوفقير لهذا المنصب . وعندما تم تعيين اللواء الذى منح سلطات مدنية وعسكرية كاملة لادارة البلاد لعدة أيام اثناء التمرد الذى لم يدم طويلا ، رئيسا للأركان كان من الواضح انه وقع عليه الاختيار للقيام بدور « حامى الملك » ويلى الملك نفسه فى المرتبة .

وكان لدى الحسن من الخبرة والحكمة ما يكفى لادراك ان المغرب لا يمكن ان يخضع للقوة وحدها ، وانه من اجل استمرار حكمه وازدهاره ، لا بد له من القيام بتنازلات . وهكذا قام بعمليات حذرة لاستطلاع الراى بين الزعماء المعارضة ، عرض الملك خلالها الغاء محاكمة ١٩٣ من المتآمرين المزعومين ، تلك المحاكمة التى كانت تجرى فى مراكش قبل وقوع التمرد . وكان الماثلون امام الحاكم جميعا اعضاء فى احزاب معارضة ، وكان من الواضح ان التهم الملفقة لم هى محاولة من الملك لشل قوة احزاب المعارضة له . ولم يكن العرض كافيا : فما كان من الملك الا ان خفض عدد الضرائب ، وزاد مرتبات ومعاشات الموظفين المدنيين فى محاولة للحد من الرشاوى الضئيلة الدائمة التى كان يبتزها الموظفون للقيام حتى بأبسط الأعمال . ولم يكن ذلك ايضا كافيا ، ومن ثم انتقد الملك فى نهاية الأمر الذين كانوا يؤيدونه ، من المضاربين الأثرياء الذين غالبا ما يشغلون مناصب عليا فى الحكومة ، واستفادوا من معلوماتهم السرية . وتم اعتقال ستة وزراء سابقين بتهمة الفساد ، وتم فصل عشرات من كبار اعضاء الحكومة ، وحتى اقارب الملك تم التحقيق معهم . وبدا الشعب اخيرا يعتقد ان ملكه يعتزم حقيقة تغير أساليبه ، ويرى ان اولئك الذين يحيطون به يسلكون طريقته ، ذلك لأن الجيش الذى فقد الثقة فى نفسه ، وضعفت معنوياته فى اعقاب واقعة اطلاق النار فى الصخيرات ، اصبح لا يمكن الاعتماد عليه ، وكان اللواء اوفقير يقوم باعادة تنظيمه — وبالرغم من ذلك ، فقد كان ما يزال يحظى بنصيب الأسد من الميزانية القومية للحصول على معدات وبناء ثكنات جديدة وفيلات وسيارات لرفاهية كبار الضباط . وكان الملك يأمل فى الحصول على قوة احتياطية ، اذا ما اخفقت اصلاحاته فى تنفيذ اهدافه .

وبدا الأمر كأنهم نجحوا فى تحقيق ما يريدونه ، فقد تغير المناخ تدريجيا نتيجة للدعاية التى صاحبت القضاء على الفساد ، ونتيجة لاجتماعات الملك الظاهرية مع زعماء المعارضة . وفى فبراير ١٩٧٢ القى الملك خطابا أوضح تماما ما يدور فى ذهنه : تشكيل حكومة جديدة تكون مسئولة امام البرلمان ، وليس امام الملك ، وصياغة دستور جديد يطرح للموافقة عليه فى استفتاء حقيقى ، مما يكفل سيطرة برلمانية على الدولة . وكان من المعروف بصفة شخصية ان الملك يرغب فى الاحتفاظ لنفسه بالسيطرة على وزارتى الداخلية والدفاع ، لضمان سلامته الشخصية . والسيطرة على وزارة الخارجية نظرا لاهتمامه بالشئون الخارجية . وكان يقول : فى وسع الأحزاب المعارضة السيطرة على القطاع الاقتصادى كله — وهى منحة مشكوك فى امرها ، ذلك لان اقتصاد الدولة ، الذى كان فى حالة فوضى تامة يعد السبب الرئيسى لجميع المتاعب

وكان هدفا لنقد المعارضة لسنوات ماضية ومع ذلك فقد كانت الخطة ما تزال مقدمة ، بالتأكيد ، لتحقيق ما تم اقتراحه من قبل ، وكانت توضح ان الملك اعترف اخيرا بأن عهد الملكية المطلقة قد انتهى فى دولة متقدمة وحديثة كالمغرب التى ما زالت تعانى من عدم المساواة فى توزيع الثروة وعندما نشرت نصوص الدستور الجديد فى نهاية الأمر ، بدا ان الملك ما يزال يحتفظ بقدر كبير من السلطة ، بما فى ذلك حق الحكم بمقتضى مرسوم تشريعى فى حالة الطوارئ — التى من سلطة الملك ان يعلنها ايضا — وله حق تشكيل الحكومات وحل البرلمان . كذلك احتفظ بحق اجراء استفتاء اذا ما نشب نزاع بينه وبين البرلمان ، وهى مناورة واضحة تماما ، لأن الـ ٧٠٪ من الشعب الأمى فى المناطق الريفية ، من المؤكد تماما ، ان يصوتوا لصالح اى شىء يقترحه مليكهم وزعيمهم الروحى . وجاء مع نتيجة الاستفتاء على دستور ١٩٧٢ ، الدليل الواضح على ذلك ، وعلى استمرار كفاءة اللواء اوفقير ، حيث وافق عليه ٩٨ر٧٥٪ من مجموع الأصوات البالغ عددها ٤ر٤٩٠ر٠٠٠ ، كما اوضحت الأرقام الرسمية . ولحسن الحظ كان زعماء المعارضة اوضح رؤية من الشعب ، فقد تبينوا تماما المساومات فى الدستور الجديد ، ورفضوا الاشتراك فى الحكومة التى اراد الملك تشكيلها ، لأنه كان لابد من استمرار حكومة مؤقتة تم تشكيلها من الأشخاص القدامى المجربين بالرغم من كونهم ليسوا اهلا للثقة ممن كانوا يشكلون الحكومة السابقة .

وقع بعد ذلك ما اوضح من جديد وعلى نحو مفاجىء ، سيطرة الحسن على مشاعر شعبه وبصورة اكثر اهمية ، على اولئك الذين يقومون بحمايته ، فبينما كان الحسن عائدا الى عاصمته على متن احدى طائرات الخطوط الجوية الملكية المغربية عقب زيارة قام بها لفرنسا ، اخذت ثلاث مقاتلات تابعة للسلاح الجوى المغربى اماكنها حول الطائرة الملكية لحماية من فيها . وحينما تم التشكيل الدقيق للمقاتلات ، اطلقت احدى المقاتلات النار على طائرة الملك مستخدمة المدافع والصواريخ والرشاشات . وتمكنت الطائرة وهى بمحرك واحد من الصمود بالتحكم عن طريق اجهزة القيادة كما اعلن بعد ذلك الطيار المدنى المغربى الذى تمكن بطريقة ما من الهبوط بالملك الى مطار الرباط . ومع ذلك فان متاعبه لم تنته : فبعد دقائق تدفقت الطائرات على نحو صارخ على الممر المعبد ، واخذت فى قصف مبانى المطار حيث كان الملك والوفد المرافق له من وزراء وكبار رجال الدولة ممن كانوا فى استقباله يحتمون بقدر الاستطاعة . وسرعان ما هرع الملك الحسن والأمير مولاى عبد الله الذى كان معه على نفس الطائرة الى بعض الغابات المجاورة واستولى الملك عقب ذلك على سيارة وتوجه

بها الى قصره حيث عقد اجتماع عاجل مع الحكومة ، بدا بعده اللواء اوفقير فورا فى اتخاذ احتياطات الأمن التى يجيدها بصورة فائقة . وحاصرت القوات قاعدة السلاح الجوى بالقنيطرة التى اقلعت منها المقاتلات ، وقامت قوات امن اخرى بالاستيلاء على محطات الاذاعة والوزارات كاجراء احتياطى ضد اى تحركات اخرى من جانب المتمردين على الملك ، وصدرت الأوامر لضباط السلاح الجوى كافة بالتزام مواقعهم والا تعرضوا للاعتقال . والقى البوليس عن طريق « خبطة حظ » جديرة بالذكر ، القبض على الرائد قويرة وائل ، قائد قاعدة القنيطرة ، الذى قاد شخصيا احدى المقاتلات الثلاث التى هاجمت الملك ، والذى ارغم على الهبوط عندما نفد الوقود من طائرته . وتحدث الرائد وائل ، ولكن ليس مع اللواء اوفقير وضباطه الذين كانوا يديرون عمليات الأمن من القاعدة الجوية ، وانما مع الملك ومساعديه فى القصر .

وكانت القصة التى رواها الرائد وائل بمثابة اكبر صدمة تلقاها الملك على الاطلاق ، ذلك لأن الرائد اعلن ان العملية كلها تمت بتدبير من اللواء اوفقير نفسه ، الرجل الذى حمى الملك لمدة طويلة ، الرجل الوحيد فى الدولة الذى لم يكن اخلاصه موضع شك على الاطلاق ، الرجل القوى الذى تحدى الحكومة الفرنسية والراى العالمى للتخلص من بن بركة نيابة عن الملك ، هذا الرجل الذى بدا للملك بمثابة الصخرة الوحيدة الثابتة فى افقه المتغير ، هذا الشخص النموذجى المثالى قد انقلب عليه فى نهاية الأمر . لقد كان هذا الاكتشاف مرهقا للأعصاب ، غير ان ملوكا كالحسن وحسين ، تعتمد حياتهم ومصائرهم على تقدير الأحداث وتقلبها على نحو سريع ، لا يستسلمون كثيرا لأفكارهم ومشاعرهم ، واتخذ الحسن قراره فى الحال : لابد من التخلص من اوفقير ووفقا للرواية الرسمية للواقعة ، وبدافع من الاحساس بالواجب انتحر الحامى السابق للحكومة فى حجرة بالقصر فى نفس الليلة ، وترددت الشائعات ان احد حراس الملك قام باطلاق الرصاص على مؤخرة راس اوفقير ، بعد ان ابلغه الحسن شخصيا ان دوره قد اكتشف ، واوضح له ما سيحدث . ولم يرد اى تأكيد لهذه الانباء على الاطلاق ، ولم يعلن الشعب سوى ان اللواء ادريس بن عمار العلمى ، الضابط الوحيد الذى كان فى امكانه ان ينافس اوفقير على السلطة والنفوذ والقوة ، قد عين وزيرا جديدا للداخلية . واستمرت عملية التخلص من المنشقين . فتم فصل او سجن ثلث ضباط السلاح الجوى على الأقل ، واعدم بعضهم . وكان من بين الذين قدموا للمحاكمة ، اثنان تمكنا من الفرار الى جبل طارق ، حيث طلبا حق اللجوء السياسى هناك . وفى تسرع لا يليق ، اعادتهما بريطانيا دون ان تضع فى اعتبارها

اية اعتبارات سليمة ، وكانت خطوة لا ريب فى انها نالت تقدير الملك الحسن ، بينما اثارت عداء غالبية الدول العربية الاخرى ، واثارت اشمئزاز الكثير من الدول المحايدة . ولم يستطع سوى القليل تفهم السبب الذى من اجله عرضت بريطانيا حياة اثنين للخطر من اجل الفوز بصداقة وامتنان رجل من شأنه ان يتعرض مركزه دائما للمخاطر .

وتولى الحسن بنفسه منصبى وزير الدفاع ورئيس الاركان ، وشارك بصورة ايجابية فى التحقيق فى الواقعة برمتها . واتضح ان الخطة كانت تتمثل فى قتل الملك ، ثم يعلن اوفقير بعدها ، باعتباره الرجل المسئول عن التحقيق انها كانت بمثابة حادثة ، وينادى بمحمد ابن الملك والذى يبلغ من العمر تسعة اعوام ، ملكا للبلاد ، بينما يتولى هو السيطرة الحقيقية على الدولة باعتباره الوصى على العرش . وكان الجنرال ، بآرائه الاقطاعية وايمانه الراسخ بمهمته الخاصة ، يشعر بقلق عميق ازاء تساهل الملك مع احزاب المعارضة وازاء ما يعتبره معالجة ضعيفة لمشكلات الدولة — وكان اوفقير يعتقد انه من الاصوب ان يزداد الغنى غنى ويظل الفقير فقيرا ، ولا يتردد فى اتخاذ اجراءات فعالة وقاسية فى اغلب الأحيان حتى يظل الحال كما هو . وقد ارغم الملك ، بالرغم من انه ربما كانت له فى يوم ما آراء مماثلة ، على اعادة التفكير فى موقفه ككل ، وكان التحرر والتعاون فى الداخل بمثابة السبيلين اللذين يمكنه الاستمرار عن طريقهما ، وليس هناك فى الوقت نفسه اى ضرر من اتباع اسلوبه القديم متمثلا فى تركيز الاهتمام على الأحداث الخارجية . ولذا اهتم المغرب بصورة متزايدة بأحداث المشرق العربى ، وبنضال الفلسطينيين والجهود التى تبذلها سوريا ومصر لاسترداد اراضيهما وختاما لهذه الحملة المنظمة بعناية فائقة ، أعلن الملك قراره الخاص بايفاد قوات مغربية للقتال فى مرتفعات الجولان ، حيث كانت تتردد يوميا انباء انتهاكات وقف اطلاق النار . وكان الهدف من ذلك ، بطبيعة الحال ، مساعدة سوريا التى كانت العلاقات قد تحسنت معها مؤخرا بعد ان كانت قد اعطت حق اللجوء السياسى للمنشقين المغربيين المنفيين — كما كان قرار ارسال القوات اسلوبا مفيدا لتركيز انتباه الشعب على شئون خارجية ، وايجاد ما يشغل تفكير الضباط الصغار الذين كان فى امكانهم ان يقدموا على عمل من اعمال التخريب او العصيان ، ومن ثم يستطيع المغرب الآمن نتيجة لبعدهم عن البلاد ، اثبات انتمائه للأمة العربية . وكانت خطوة من اكثر خطوات الملك دهاء ، كما كانت فى نهاية الأمر ، خطوة مفيدة للغاية بالنسبة للقضية العربية .

١٠ ـ القوى الخارجية : النفوذ الأمريكى والروسى

كان لابد للقوات المغربية التى تم ارسالها الى الجبهة السورية ان تعتبر نفسها كتيبة عقاب ، وذلك عندما وصلت الى مرتفعات الجولان القاحلة التى تتميز بالبرد القارس ، بعيدا عن معسكراتهم الدافئة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط . ولم يكن هناك ثمة ما يوحى اليهم بأنهم سوف يشتركون فى عمل عسكرى نشيط . كما كان من المؤكد ان الملك الحسن لم يكن محل ثقة الرئيس السادات او الرئيس الأسد . وكانت الدلائل كافة تشير الى ان العرب ما زالوا فى وضع لا يؤهلهم لخوض غمار الحرب . لقد كانت هذه المظاهر خادعة . ذلك انه بمرور الأيام ، كانت الجيوش العربية تتحسن بشكل مطرد . وقد حال فن السرية العسكرية ، الذى تطور على مر السنين ، دون علم الأجانب وادراك ما يحدث بالنسبة لهذه الجيوش . لقد كان فى وسع عمليات الاستطلاع الجوية والصور التى تلتقطها اقمار التجسس التى تحلق فى السماء كشف تحركات القوات ومواقع التحصينات . ولكن لم يكن فى وسعها كشف تحسن الروح المعنوية لدى الجنود العاديين ، او اظهار مهاراتهم المتزايدة فى التعامل مع الأسلحة الجديدة التى حصلوا عليها . وكان الافتقار الى هذا النوع من المعلومات مضافا اليه ضآلة التفسيرات الدبلوماسية للأوضاع الداخلية فى العالم العربى ، والتقدير المتشائم للغاية للعلاقات بين الدول العربية ، كان ذلك من الأمور التى ساهمت فى المفاجأة الضخمة التى وقعت بنشوب حرب اكتوبر . وكان هذا الأمر اكثر وضوحا فى مصر عنه فى اى مكان آخر . فمصر تعتبر بحق البلد الذى كان سيتعين عليه اتخاذ القرار النهائى بالحرب او السلام ، والذى كان سيتعين عليه تحمل وطأة القتال وأعبائه فى حالة اندلاع اى صراع .

ولقد قيل ، بحق ، ان قادة الجيش قد انفقوا سنوات فى الاستعداد لخوض معركتهم الأخيرة . ولكن ، وبنفس الأسلوب تماما ، كان الدبلوماسيون والساسة فى جميع انحاء العالم يصدرون احكامهم على مصر على ضوء نتائج حرب عام ١٩٦٧ بالرغم من ان وقتا طويلا كان قد مضى على انتهائها . كما ان السياسات المصرية كان يتم تقييمها على ضوء المعيار الذى وضعه ناصر عندما كان نفوذه يتعرض للزوال ببطء . وكان الوضع فى مصر يجرى تقديره على ضوء التقارير الواردة عن الأحداث التى تقع فى القاهرة ، والشواهد التى يجمعها الملحقون العسكريون الذين لم يذهبوا قط ليشهدوا بأعينهم ما يجرى بالقرب من قناة السويس . ومن ثم ، لم يكن مثيرا للدهشة ان تكون النتائج

التى توصلوا اليها غير صحيحة تماما فى كثير من الأحيان . وثمة عامل معوق آخر ، وهو قديم وان كان صحيحا ، وهو عامل اللغة . وهنا فالمشكلة الرئيسية ليست مشكلة فهم اللغة العربية ، وانما صعوبة استيعاب اسلوب التعبير العربى بما ينطوى عليه من محسنات لفظية وغلو فيها باستخدام العبارات البليغة والاشارة الى الله والى الأمة العربية ومعركة المصير وغيرها من مخزون الأفكار الكثيرة التى يفهمها العرب بشكل غريزى ولكنها باستمرار تثير حيرة الغرب . لذلك نمت فكرة مؤداها أن القادة العرب ، وبخاصة السياسيين المصريين ، يميلون الى الحديث بلغتين ففى حديث او جانب منه ، يفيض كلامهم بالحماسة المتقدة والغضب ويتوعدون بشن الحرب ونشر الموت والدمار ، وفى حديث آخر بل فى الفقرة التالية مباشرة للحديث عن الحماسة والحرب يسود المنطق العذب ، فيعرضون التفاوض او يقبلون الوساطة . وبالنسبة لناصر كان من الصحيح ، فى كثير من الأحيان ، انه كان يهدف الى مخاطبة جماهير مختلفة . اما بالنسبة للسادات فيكاد على الدوام يعنى ما يقول . ففى الوقت الذى كان يسعى فيه بصدق لايجاد حل سلمى للمشكلة بأسرها ، توصل الى اقتناع ، على كره منه ، بانه بدون الاقدام على عمل فى ساحة المعركة فلن يتسنى له على الاطلاق كسر جمود الموقف .

وثمة عامل آخر كان له تأثير على فهم القوى الخارجية لما يحدث فى العربى وهو الموقف السلبى ، الذى بدا للعيان ، أن العرب قد اتخذوه . ذلك ان اول رد موجه الى هزيمة ١٩٦٧ كان عقد مؤتمر قمة عربى فى الخرطوم ، وهو المؤتمر الذى اتخذته ثلاثة قرارات رئيسية هامة من المفترض ان تلتزم بها جميعا الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية ، وتبدأ هذه القرارات كلها بكلمة « لا » : لا اعتراف باسرائيل ، ولا تفاوض مع اسرائيل ولا صلح مع اسرائيل . ولئن بدا هذا الموقف واضحا تماما ومحدودا للغاية ، فانه خلال شهور نحى ناصر هذه المبادىء جانبا عندما قبل مبادرة روجرز ، التى اعتبرت بداية للمفاوضات ، والتى كانت ستؤدى ، بوضوح مماثل ، فى النهاية ، اذا ما نجحت الى الاعتراف باسرائيل . وكان الرئيس السادات يعرض ، المرة تلو المرة ، التوصل الى تسوية عن طريق التفاوض : تتجاوز الى حد بعيد « لاءات » الخرطوم الثلاثة . وكان الأمر الأكثر اهمية هو الاتفاق الذى ابرم هناك والذى يقضى بأن تدفع دول البترول الغنية الثلاث وهى السعودية والكويت وليبيا مساعدات لمصر والاردن وسوريا لتعويضهم عن الأموال التى فقدوها نتيجة للحرب . وكانت الأموال التى تدفع قيمة فى حد ذاتها وبخاصة بالنسبة لمصر التى كانت تعانى بشكل حاد من نقص العملة الأجنبية ، بسبب اغلاق

قناة السويس . ولكن الأمر الأكثر أهمية أيضا ، كان تأثير هذه المساعدات بالنسبة للدول التى تمنحها . فقد شعرت السعودية والكويت ، للمرة الأولى ، باشتراكهما المباشر فى المواجهة مع اسرائيل . وعلى الرغم من أن الأموال التى دفعتها ليبيا كان لها تأثير ضئيل ، خلال الفترة القصيرة التى اعقبت الحرب ، والتى كان الملك ادريس ما يزال فيها فى السلطة ، فانها قدمت اسلوبا مباشرا امكن للعقيد القذافى من خلاله ان يبدى اهتمامه بالشئون المصرية . فقد كانت فرصة انتهزها بحماس ، وكان التفكير الكويتى متأثرا باعتبار ان منح او منع المعونة عن الأردن سيكون له تأثير حقيقى على تصرفات الملك حسين . وكان نتيجة ذلك ، انه بدلا من تقديم كميات ضخمة من الأموال كنوع من الرشوة المستمرة من اجل الحفاظ على امنها ، بدات الكويت فى استخدام ثروتها الطائلة بطريقة انتقائية . فقد سعت الى تشكيل سياسات البلاد التى تساعدها متى كان ذلك ممكنا ، ومع ذلك استمرت فى اعتبار اموالها اكثر ضمانا للأمن من اى جيش بالنسبة لدول مثل العراق .

واذا كانت « لاءات » الخرطوم الثلاثة هى الرد المذعور من جانب العرب على الوضع الذى كان يتعين فى راى الكثيرين ، ان يؤدى الى استسلامهم ، فقد كانت ثمة اجراءات اخرى تنطوى على تفكير افضل وتتسم بفعالية اكثر . واهم هذه الاجراءات ، بالطبع ، الاجراء الذى اتخذه المصريون ، ليس الزعماء المصريين وانما المصريون العاديون الذين تدفقوا فى الشوارع مطالبين عبد الناصر بسحب الاستقالة التى قدمها للأمة فى خطابه العاطفى الذى لام فيه نفسه عقب هزيمة يونيو مباشرة . واذا كان ناصر قد ذهب فى ذلك الحين ، لكان الأمر قد استغرق من المصريين جيلا حتى يستعيدوا انفسهم . ذلك انه لم يكن هناك شخص آخر يستطيع تولى القيادة فى ظل وجود ناصر ، لم يكن هناك شخص ذو مكانة مرموقة تمكنه من حشد وجمع بلاد الشرق الأوسط التى اصابتها صدمة عصبية واعتراها الارتباك والاختلال ، كما لم يكن فى وسع اى شخص آخر ان يشرع من جديد فى البناء من البداية تقريبا ، مثلما فعل ناصر . لقد كان طوفان العواطف العارمة التى دفعت مئات الآلاف من الأفراد الى شوارع القاهرة لمطالبة ناصر بالاستمرار رئيسا ظاهرة تلقائية . والفكرة القائلة بأن هذا الأمر قد رتبه ناصر ونسقه لا تقوى على الصمود امام الاختبار ، على الرغم من ان بعض مؤيدى ناصر ربما وجهوا الجماهير واقترحوا لها على وجه السرعة عددا قليلا من الشعارات التى يرددونها . واذا كان الأمر كذلك ، فخيرا فعلوا . اذ انه بدون ناصر ، فى ذلك الوقت لكانت مصر قد ضاعت ، لا لأنه امهر رجال السياسة فى بلاده ، ولا لأنه رجل السياسة الوحيد لدى

العرب ، المعترف به على الصعيد الدولى ، وانما لمجرد انه الشخص القادر على حشد البلاد وتوحيدها فى وقت الصدمة الوطنية . لقد كان فى وسع ناصر ان يفعل اشياء يتعذر على الآخرين فعلها . وكان اهم هذه الاشياء قراره بتصحيح ما حدث فى حرب ١٩٦٧ . وكان يتعين حينئذ سواء قبل ظهور رد الفعل العربى ازاء كارثة بهذه الضخامة او بعده وضع الحقائق على بساط البحث ، او التظاهر بأن الكارثة لم تحدث . والواقع ، ان ناصر قد بدا ابان الصدمة ، فى كشف الحقيقة ، وبالرغم من ان الأمر كان يتطلب سنوات قبل ان ينشر على الملأ جميع جوانب الحقيقة ، فان الجهود قد بذلت بسرعة للكشف عنها . وفى الوقت نفسه ، كان ينبغى تقديم كباش الفداء كما هو معتاد فى مثل هذه الأمور . وفى هذا الوقت كان هناك الكثيرون الذين يختار من بينهم كباش الفداء . وكان الشخص الرئيسى الذى اسهمت افعاله — او عجزه — بشكل كبير فى وقوع الهزيمة هو المشير عبد الحكيم عامر الذى حيل بينه وبين الانتحار فى الليلة التى انهارت فيها مصر . وقد تم طرده آنئذاك . وكان ان اتهم ، كما زعم بتدبير انقلاب عسكرى من ناصر . وقد تم القاء القبض على المشير فى ٣ من أغسطس مع عدد من الضباط . وأخيرا قيل ، بعد أسبوعين انه انتحر .

وقد تم فى وقت واحد ، طرد خمسة عشر لواء من الجيش بينهم قادة الجيش والبحرية والطيران والدفاع الجوى ، وكذا طرد عشرات من كبار الضباط الآخرين . وتولى الفريق اول محمد فوزى قيادة الجيش على الفور وكون قوة اساسية للدفاع عن القاهرة اذا ما قرر الاسرائيليون عبور القناة . كما نجح ايضا فى تنظيم السيطرة على بور فؤاد ، وهى احدى جيوب المقاومة المصرية على الضفة الشرقية للقناة التى صمدت ضد الهجمات الاسرائيلية . وفى الوقت نفسه ، اصدر ناصر اوامره بشأن اهم عمليتين عقب الحرب وهما: اعادة تنظيم القوات المسلحة المصرية واعادة تسليحها ، واجراء تحقيق مفصل حول كيفية وقوع هزيمة ١٩٦٧ — وهو موضوع كان الروس مهتمين به اهتماما شديدا اذ ان اسلحتهم هى التى استخدمت فى القتال وقد ثبت عدم كفايتها فى ايدى الجنود المصريين . ولذلك ارسل السوفييت ، على وجه السرعة ، وفدا ضخما من كبار العسكريين الى مصر . وقد وافق وصوله وصول الرئيس بودجورنى فى زيارة له واعرب الوفد عن استعداده لتولى تدريب الجيش المصرى وتحويله الى آله محاربه . ولكن بدا ان الروس قد اعادوا النظر فى افكارهم هذه وسبب ذلك ان امريكا وروسيا قد بدانا اقترابهما بحذر من سياسة الوفاق التى اخذت بها كل منهما بعد ذلك بسنوات ، والتى نبعت من ادراكهما بأن اية جولة جديدة فى المستقبل القريب ، عقب هزيمة ١٩٦٧ ، لن

تحقق للطرفين اى خير ، بل قد تجرهما الى صراع مباشر اذا ما اندلعت هذه الجولة . ومن ثم ، فان كلا من روسيا وأمريكا قد قررتا عن عمد ، وفى اطار التعقل ، البحث عن حل سلمى للأزمة . ولم يمنع هذا ، بالطبع ، روسيا من تزويد مصر وبقية الدول العربية بالأسلحة ، كما لم يمنع أمريكا من الاستمرار فى دعم اسرائيل . لقد اتفقت الدولتان العظميان . رسميا تقريبا ، على اتخاذ مواقف متعارضة فى المنطقة ، وأن يعملا من خلال الدول التابعة لهما ، ولكن كان عليهما تجنب اى شىء من شأنه توريطهما فى الصراع بشكل مباشر .

وكان الاتحاد السوفيتى هو الدولة المطالبة بالقيام بجهد اكبر . كما كان يتعين عليها تعويض مصر عن كل شىء . كان لابد من بناء جيش جديد وتدريبه، وتحصين مواقع جديدة ، ووضع استراتيجية جديدة . وفى غضون شهور من زيارة الجنرالات الروس للقاهرة ، كان هناك ٢٥٠٠ « فنى » روسى يعملون فى مصر ، وهو عدد ازداد تدريجيا بشكل منتظم الى ان امر بعد ذلك بأربع سنوات خليفة الرئيس ناصر فجاة وبدون تبرير واضح بطردهم من البلاد .

ولقد كان ذلك الأمر يبدو بعيدا ، فى تلك الأيام العصيبة بين عامى ١٩٦٧، ١٩٦٨ عندما كان ناصر وزملاؤه يعملون على انقاذ الوضع الذى كان واضحا انه يتدهور باضطراد ، مع انفجار مشاعر الاستياء لدى الجماهير وتبدد اوهامها على نحو ما حدث فى معارك الشوارع التى جرت بين الطلبة والبوليس ، والتى اتسع نطاقها لتشمل عمال حلوان حيث يوجد مجمع الحديد والصلب الذى بناه الروس والذى كان قد بدأ عملية الانتاج .

وفى بداية الأمر بدا من الواضح ان الاضطرابات قامت احتجاجا على اللين الذى اتسمت به الأحكام الصادرة ضد ضباط سلاح الطيران المتهمين بالاهمال خلال الحرب . ولكن سرعان ما اتضح بعد ذلك ان هذا الأمر لم يكن سوى مبرر للقيام بالاضطرابات . فقد اعرب الطلبة والعمال عن غضبهم المكظوم من الطريقة التى خانهم بها زعماؤهم . وكان ناصر عادة ، وان لم يكن دائما ، يستثنى من النقد . ولكن الآخرين جميعا الذين ساهموا فى الحاق الهزيمة المخجلة بمصر كانت تذكر أسماؤهم بشكل منتظم ، وكان من بينهم السياسيون العسكريون. لقد كان وقتا مفعما بالمخاطر التى يمكن ان تتحول بسهولة الى ثورة ضد الحكومة . وكان رجال السياسة فى سياراتهم الفارهة ، والجنرالات ذوو « الكروش » الضخمة ما يزالون يظهرون كثيرا فى بلد من المفروض انه فى قبضة برنامج للتقشف ، بلد ما يزال فيه الفقير فقيرا للغاية ، وتقل فيه وسائل الحياة المريحة الى حد الادنى اذا ابتعد المرء عن المدن .

وقد ازداد الموقف الخطير سوءا بسبب التعنت الاسرائيلى . وكان ان

ترعرعت بذور حرب ١٩٧٣ التى زرعتها الهزيمة المريرة التى حاقت بالمصريين بسبب الرفض الاسرائيلى الغبى باتخاذ اية خطوات تهدف الى التوفيق . وكان من المؤكد تقريبا انه اذا ما انسحبت اسرائيل من جانب واحد الى خط ممرات سيناء – اى الى مسافة ابعد قليلا من تلك المسافة التى انسحبت اليها فى النهاية من سيناء عن طريق التفاوض وبثمن باهظ من الدم والدمار فى عام ١٩٧٣ – ان يحول هذا الانسحاب دون نشوب اى صراع جديد . ولكن الاسرائيليين المتغطرسين بسبب انتصارهم والواثقين من الحماية التى يستشعرونها من اعتقادهم القوى بقدرتهم القتالية المتفوقة للغاية قد اطاحوا بفرصة استرضاء العرب كما ان رد فعل بقية العالم لم يكن يساعد على تحقيق هذا الأمر . فقد اعقب ذلك الرسوب الكاريكاتورية التى تسخر من بسالة العرب العسكرية خلال الحرب ، وحولت النظر الى المشكلة بدافع من الشعور بالتفوق : فكان الموقف ، فيما بدا ، ان العرب قد تعرضوا لهزيمة نكراء ، ولذا فلن يصيبهم اى ضرر اذا ما اضطروا لقضاء فترة فى زنزانات العقاب . دعهم يتحملوا الاحتلال الاسرائيلى لأرضهم لفترة من الوقت ، ودع ناصر يأكل فطيرة الذل – ان اذلاله لبريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٦ ما يزال ماثلا فى الأذهان بوضوح . ولكن لم تكن هذه هى السياسة التى يمكن ان تؤيدها الحكومات ، وحتى لو كان متفقا عليها بشكل عام فى أمريكا واوربا . ذلك ان الشرق الأوسط كان منطقة متفجرة للغاية بحيث يتعذر تركها فى حالة فوضى ، وان ما بها من احتياطى بترولى ضخم امر هام لا ينبغى اهداره او تعريضه للخطر . ومن ثم كان لا بد من اتخاذ اجراء ما.

وكانت النتيجة صدور قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى صاغته بريطانيا فى تلك الصيغة الغامضة التى وضعت الأساس لكافة الجهود التى بذلت فيما بعد للحفاظ على السلام . والتى تمثلت ايضا فى القرار رقم ٣٣٨ الذى انهى حرب ١٩٧٣ . وكان للقرار ٢٤٢ تأثير مباشر ضئيل ، بالرغم من أن كافة الأطراف رحبت به . وكانت نتيجته العملية الوحيدة هى تعيين الدكتور جونار يارنج ممثلا خاصا للسكرتير العام للأمم المتحدة والذى كلف بمهمة ضم الأطراف المتحاربة معا – وهى مهمة فشل فيها الدبلوماسى السويدى فشلا ذريعا ، لأنه بدا الى حد كبير يفسر دوره باعتباره « رجل بريد » اكثر منه عنصرا مشاركا او عنصرا مساعدا على التفاعل .

وفى القاهرة كان ناصر فيما يبدو قد فقد سيطرته القديمة ، بل وتحكمه فى عواطف الجماهير . ففى الوقت الذى كان فيه معتل الصحة وتحدق به المشكلات الخارجية والداخلية ويطارده فشله ، لم يستطع التنازل عن قيادته

الايجابية كما كان يتوقع منه الكثيرون . فقد انجز الكثير بمجرد بقائه فى منصبه، ولكن هذه الانجازات لم تكن كافية تماما . ومن الأحكام الخاطئة التى كان الرئيس يتميز بها فى هذه المرحلة ، تكليفه الجيش بشن قصف مدفعى مكثف عبر القناة على المواقع الاسرائيلية فى محاولة لرفع الروح المعنوية للشعب الذى كان ما يزال غير مقتنع بأن قواته قادرة على مقاومة الاسرائيليين . ولكن بدلا من ان يسفر القصف المدفعى عن رفع الروح المعنوية ، تمخض عن تأثير عكس ذلك انه بعد ان صعدت اسرائيل الرد بشن غارة قام بها الكوماندوز الاسرائيليون المحمولون جوا على نجع حمادى ، التى تقع على بعد ١٥٠ ميلا شمال اسوان، والتى تم فيها تدمير جسر واتلاف محطة تحويل كهربية – وهو هدف اختاره الاسرائيليون عن عمد حتى يجعلوا اكبر عدد ممكن من الناس يعرف ما حدث. ذلك ان الرقباء فى القاهرة لم يكن فى وسعهم اخفاء انقطاع الكهرباء عن منطقة مترامية الأطراف ، بالرغم من انه تم اخفاء اشياء كثيرة اخرى عن الشعب المصرى . وفى الوقت نفسه اقتضى الأمر اخلاء مدينتى السويس والاسماعيلية وغيرهما من المدن الواقعة على قناة السويس من سكانها عندما بدا الرد المدفعى الاسرائيلى ، وانشا الجيش المصرى مناطق عسكرية جديدة . ونظرا لعدم توفير اى مكان آخر يذهب اليه سكان هذه المدن ، فان غالبية الذين اجبروا على ترك منازلهم بحثوا عن مأوى فى القاهرة . وكان ان ازداد عدد سكان القاهرة المكتظة بالسكان بالفعل من اربعة ملايين نسمة الى ستة ملايين نسمة فى اقل من سنتين . وثمة حقيقة كان يلاحظها الجميع وهى الصعوبة التى يواجهها اى شخص من سكان القاهرة حين يحاول أن يستقل سيارة أتوبيس او حين يحاول البحث عن مسكن .

وفى بداية عام ١٩٦٩ ، كانت حرب الاستنزاف عبر القناة فى اوج اكتمالها وضراوتها : فكان القصف المتبادل يجرى يوميا ، وشنت اسرائيل غارات فى عمق مصر ، وقام العرب بغارات عبر القناة . وقد دفع هذا الأمر كلا من امريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا الى بدء سلسلة من الاجتماعات فى نيويورك فى محاولة لايجاد حل . غير ان هذا الجهد لم يحرز اى نجاح اكثر مما احرزته زيارات الدكتور يارنج المتكررة . وفى الوقت نفسه ، كانت اسرائيل تصعد من مستوى ردها الانتقامى ، اذ انها سرعان ما شنت غارات جوية على بعد عشرة اميال من العاصمة المصرية ، واقدمت على اعمال غطرسة مثل سرقة محطة رادار كاملة عاد بها الكوماندوز الاسرائيليون الى اسرائيل لفحصها ، او احتلال جزيرة شدوان فى خليج السويس . ثم شنت اسرائيل غارة جوية على مصنع ابو زعبل، الذى يقع على بعد اثنى عشر ميلا فقط من وسط القاهرة ، وقد اسفرت عن

مقتل مالا يقل عن سبعين عاملا واصابة عدد آخر كبير بجراح .

وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، فقد ارسل ناصر رسائل عاجلة الى موسكو يعزز فيها حججه السابقة بمد يد المساعدة للدفاع عن بلاده، وكانت هذه المرة طلبا اكثر منها رجاء . ذلك ان الزعيم المصرى كان قد اصبح يائسا للغاية . وقد وافق الروس اخيرا على تلبية الكثير مما اراده : فتدفق الفنيون السوفييت الى الأسكندرية وانتشروا فى انحاء البلاد . واقاموا سلسلة جديدة من الدفاعات الصاروخية ، ولكنها فى هذه المرة لم تكن صواريخ سام ٢ اس الفعال ضد الطيران المرتفع فقط ، وانما صواريخ سام ٣ اس الأكثر حداثة والمستخدمة ضد الطائرات التى تحلق على ارتفاع منخفض بحيث لا يرصدها الرادار ، وهو الأسلوب الذى تخصص فيه الاسرائيليون . وفى الوقت نفسه ، أرسلت روسيا الى مصر ثلاثة أسراب من طائرات ميج ٢١ بطياريها وطاقمها الأرضى. وتم توزيع هذه الأسراب فى مطارات صعيد مصر . وقد ارتفع عددها الى خمسة أسراب فيما بعد . وكان دورها هو حماية الدفاعات الصاروخية الروسية ، وليس القيام بطلعات هجومية . وفى مقابل هذا التورط المباشر ، تم السماح للسوفيت بوجود بعض طائرات الاستطلاع طويلة المدى من طراز « بادجر » يقودها طيارون سوفيت وتوضع عليها العلامات المصرية ، وكذا عدد قليل من طائرات ميج ٢٣ اس وهى احسن الطائرات المقاتلة فى العالم ، وذلك لكى يستخدمها الروس فى مراقبة التحركات الاسرائيلية فى منطقة القناة .

وكان هذا هو التصعيد الرئسى للتورط الروسى فى الصراع . وقد أثار شيئا من الذعر فى الغرب ، بالرغم من أنه كان واضحا أن كل شئ قد تم توريده كان للدفاع عن مصر ، وأن التوازن العسكرى لم ينقلب بالتأكيد بسبب تزايد الوجود السوفييتى . غير أن ما طرأ عليه التغيير ربما كان عدم سيطرة المصريين على قواتهم ، ذلك ان الرئيس ناصر نفسه اعترف بأن الروس كانوا ، فى ذلك الوقت ، « فى كل مكان » ابتداء من مستوى السرية فى الجيش الى كل قاعدة طيران أو قاعدة بحرية. ومن ناحية أخرى، لم يكن مسموحا للمصريين بدخول المطارات المخصصة لاستخدام الروس . وكان يتعين على العاملين أن يقدموا للحراس الروس تصريحات المرور فى كل وقت يدخلون فيه هذه المطارات . وكان هذا الوضع بالنسبة للمصرى العادى مهينا ، مثله فى ذلك مثل القدرة الاسرائيلية على شن الغارات على الأراضى المصرية كلما شاءت وحيثما اختارت . ولذلك حدث رد فعل انفصامى فقد كان المصريون شاكرين للروس جميل مساعدتهم، وخاصة عندما توقفت الغارات الجوية الاسرائيلية داخل عمق مصر ، ولكنهم كانوا يشعرون بالسخط من الأسلوب الذى يدير به السوفييت اعمالهم .

وكان هذا الموقف من شانه ان يشمل كافة العلاقات المصرية السوفيتية .

غير ان امريكا قد رات التدخل السوفييتى وتدفق الأسلحة من جديد الى الشرق الاوسط عاملا معرقلا للجهود التى تبذل لايجاد تسوية سلمية ، هذا ما اعلنه جوزيف سيسكو عقب جولة قام بها فى العواصم العربية . ومع ذلك استمرت امدادات الأسلحة الامريكية لاسرائيل ، وكان واضحا تماما ان اسرائيل ما تزال تتمتع بميزة المقدرة الهجومية . وربما كان القرار السوفييتى بالاستجابة الى الطلبات المصرية بشان الحصول على مساعدات اضافية ، وهو القرار الذى اتخذ عقب تسويف طويل ، فى الواقع قد ساهم فى البحث عن السلام اكثر مما عرقله ، وذلك عن طريق دفع امريكا الى بذل جهود اكبر. فعقب جولة سيسكو الاستطلاعية ، وتحذيراته بشأن التورط الروسى ، وضع وليام روجز وزير الخارجية الأمريكى مشروعه للسلام والذى بالرغم من ان النجاح قد جانبه ، الا انه وضع نهاية لحرب استنزاف الضارية . وقد ارسل مشروع روجرز الى القاهرة فى يونيو ١٩٧٠ ، وكان عبارة عن تطوير لمبادرة أمريكية سابقة (فى عام ١٩٦٩) لم تر النور قط . وكانت المقترحات الجديدة تدعو الى الآتى :

تصدر كل من اسرائيل ومصر والاردن بيانات منفصلة تتعهد فيها بالالتزام بقرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وانسحاب قوات الدول المتحاربة عشرين كيلو مترا من مواقعها الحالية .

وقف اطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر يقوم خلالها فريق من المراقبين التابعين للأمم المتحدة بضمان عدم خرق اى من الدول المعنية لوقف اطلاق النار او تحقيق منافع من توقف الاشتباكات ، استئناف المفاوضات عن طريق جونار يارنج المبعوث الخاص للأمم المتحدة فى الشرق الأوسط ، لتحقيق انسحاب القوات الاسرائيلية من جميع الأراضى التى احتلتها اسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ .

وخلال أيام من تسلمه مشروع روجز ، سافر الرئيس ناصر الى موسكو لاجراء اعنف محادثات مع الزعماء السوفييت . وكان قد قرر ان الروس قد درسوا بالفعل الأمور مع الأمريكيين ، وان الدولتين العظميين قد توصلتا الى اتفاق عام عريض . وفى مواجهة ذلك ، لم يكن أمام ناصر سوى القليل مما يفعله باستثناء طلب المساعدة العسكرية للوقوف ضد الغدر الاسرائيلى ، وحتى يكون قادرا على التفاوض من مركز القوة . فقد اعرب الطرفان فى محادثات موسكو عن اعتقادهما بان مشروع روجرز يمكن ان يؤدى الى تحقيق تسوية سلمية ، بالرغم من ان ناصر كان متشككا فى هذا الأمر اكثر من الروس . وقد تردد ان

ناصر، قال فيما بعد « لقد قررت منح الأمريكيين فرصة اخرى اخيرة . وفى الوقت نفسه ، اردت ان اكسب بعض الوقت لبناء دفاعاتنا الصاروخية » . وكشف ناصر عن انه اضطر الى التهديد بالعودة الى القاهرة وتقديم استقالته وشرح الأسباب على الملأ ، اذا رفض السوفييت منحه ما اراد . وعندئذ ، وافق الروس على مطالبه ، بشرط ان يقبل المشروع الأمريكى وان يامر قواته بمراعاة وقف اطلاق النار ، وقد اضطر ناصر ، بدوره الى الرضوخ .

وهكذا ، تم قبول وقف اطلاق النار . وصمتت المدافع ، وجرت اول تحركات عسكرية استعدادا لحرب ١٩٧٣ . ذلك انه فى الساعات والايام التى تلت تنفيذ الهدنة الجديدة مباشرة تم تركيب مواقع صواريخ سام ٣ على طول القناة . وكانت صواريخ سام هذه هى التى كفلت للجيوش المصرية الحماية الفعالة التى مكنتهم من اجتياح القناة فى حرب اكتوبر . لقد كانت ميزة هائلة بالنسبة لمصر ان يصبح فى مقدورها تحريك الأجهزة الدفاعية الى منطقة القناة ، وبالرغم من ان هذا الأمر كان خرقا مباشرا لبنود مشروع روجرز . وقد اثار ضجة فى انحاء العالم . وقد حققت اسرائيل بالطبع ميزة مماثلة من هذه الفرصة وذلك باسراعها الى دعم تحصينات على طول القناة بانشاء خط بارليف الحصين كما كان مفترضا ، والذى ثبتت اهميته فى عام ١٩٧٣ بقدر ما كانت اهمية خط ماجينو فى عام ١٩٤٠ . وقد تم اتخاذ القرار المصرى الخاص بتحريك الصواريخ بناء على نصيحة سوفيتية ، فقد وصل المارشال بافيل كوتاكوف قائد السلاح الجوى السوفييتى الى القاهرة قبل اسبوع من تنفيذ وقف اطلاق النار — وكان انعكاسا دقيقا لشكوك الرئيس ناصر فى مبادرة روجرز . كما كان اطار السياسة التى انتهجها خليفته وهى : اسع الى السلام ، واستعد للحرب .

وكان انهاء حرب الاستنزاف ينطوى على فائدة اكبر بالنسبة لمصر عنه بالنسبة لاسرائيل التى لم تعان منها الا القليل ذلك أن سياسة اسرائيل الدفاعية كانت تقضى بوجود عدد قليل من الجنود على الجبهة ، والاعتماد على تحريك الاحتياطى الى الخلف قليلا . وكان القادة المصريون يفضلون تحريك قواتهم الى الأمام ، وكانت النتيجة وقوع معدل خسائر مفزعة من جراء القصف المدفعى الاسرائيلى الدقيق والقصف الجوى : ولم تنشر فى القاهرة قوائم بأسماء الجنود الذين قتلوا او اصيبوا بجراح ، غير ان اعدادهم الاجمالية كانت مرتفعة للغاية . واصبحت هذه الخسائر الكبيرة فى الارواح حديث المقاهى ، الأمر الذى كان من العوامل المؤثرة على ناصر لقبول الهدنة .

وكانت المزايا العسكرية التى حققتها مصر بخرق مشروع روجرز ووضع

حد للمعدل المخيف فى الخسائر هما النتيجتين الحقيقيتين الوحيدتين لاجراء ناصر الجرىء بقبوله وقف اطلاق النار . فلم تحدث متابعة لتنفيذ باقى بنود المشروع، ولم تضغط أمريكا على اسرائيل لتنسحب ، ولم يوجه الروس اى نصيحة لمصر لتحاول اجراء مفاوضات مباشرة . وكان كل ما حدث هو ان العالم العربى اصبح اكثر انقساما عندما سارع البلد تلو الآخر الى انتقاد قرار ناصر. فسحبت الجزائر قواتها ، ورفض المجلس الوطنى الفلسطينى رسميا ، فى جلسة عقدها ، وقف اطلاق النار . وجاهرت العراق باستنكاراتها . وخرجت من دمشق احتجاجات تتسم بالأسى . ولكن كل هذا لم يكن له اى تاثير على الاطلاق . وكان من الممكن أن يستمر هذا النقد اذا لم يكن العرب قد واجهوا فى الحال ما يشغلهم من أحداث أخرى أكثر جسامة . ومن المؤكد أن هذا هو ما فعلوه . فقد كان هذا العام هو ١٩٧٠ ، وسرعان ما شعر كل فرد بالقلق من حوادث خطف الطائرات التى قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والحرب التى جرت فى الأردن (بين الفلسطينيين والجيش الأردنى) وقد كرس ناصر الرجل المريض والمنهك كل طاقاته العظيمة لوقف اراقة الدماء فى الأردن والتوفيق بين الطرفين . وقد أنجز هذه الهدنة الثانية والهامة ، ثم مات . وخرج شعب مصر الى الشوارع مرة ثانية فى مظاهرة اعرابا عن الحزن ، واظهارا للحب لزعيمهم الذى فقدوه ، واثباتا للوحدة الوطنية ، وهى مظاهرة بدت الى جانبها مظاهرة ١٩٦٧ الهائلة ضئيلة للغاية .

لقد مات الرئيس ، ولكن يجب أن تستمر الجمهورية ، وأن يتحقق الاستمرار والنظام ، ومن ثم فقد كان يتعين اتخاذ قرار سريع . وكان أنور السادات نائبا لرئيس الجمهورية بقرار اتخذه ناصر عندما ما خطر بباله هذا الأمر . وكان السادات هو الاختيار المطروح أمام كل شخص وكان منافسه على صبرى رجلا طموحا ويحظى بتأييد قوى ، وبخاصة من شعراوى جمعة الذى كان فى وسعه أن يقوم بدور صانع الملك عن طريق سيطرته على أجهزة الأمن الداخلى والمخابرات . وكان من الممكن أن يصبح حسين الشافعى رئيسا للجمهورية كنوع من اختيار الحل الوسط ، على أن يترك السلطة الحقيقية فى أيدى مجموعة الوزراء وأعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى . والواقع ، أن الدستور المصرى ينص فى الأساس على القيادة الجماعية ، وقد اضطر النظام بسبب شخصية ناصر ، التى رفعته فوق مستوى زملائه الى الأخذ بأسلوب الحكم الرئاسى .

وما أن خفت الصدمة المباشرة التى أعقبت موت ناصر ، حتى تذكر الكثيرون أن ناصر قد اختار زكريا محيى الدين خليفة له ، وذلك عندما قدم استقالته

فى تلك الليلة الجياشة بالعواطف من عام ١٩٦٧ . وكان أحد الذين بدا أنهم يحبذون أن يصبح زكريا محيى الدين زعيما جديدا هو محمد حسنين هيكل الشخص القوى والرجل الذى يعتبر نفسه الحارس على تراث ناصر والمفسر الرئيسى للناصرية . ولم يكن من باب الصدفة أن تنشر جريدة « الاهرام » التى يرأس هيكل تحريرها نبأ اصابة كل من السادات وعلى صبرى بأزمة قلبية أثناء الفوضى التى سادت جنازة ناصر . ذلك أن الاهرام بالرغم من مكانتها الرسمية باعتبارها الصحيفة الرئيسية المعبرة عن الحكومة المصرية ، فانها كانت أيضا قاعدة قوة خاصة لمحمد حسنين هيكل الذى كان يستخدمها من حين لآخر لتحقيق أهدافه الخاصة . وكان نشر هذا النبأ أحد هذه الأهداف : اذ كان الغرض منه اظهار أن كلا من على صبرى والسادات لا يتمتعان باللياقة الجسمانية أو الذهنية الكافية لتولى منصب رئيس الجمهورية . ولم يكن هيكل يود آنذاك الحصول على منصب لنفسه ، وانما كان يرى أنه سيكون الشخصية البارزة فى القاهرة فى حالة انتخاب مرشحه . ومما يدل على براعة هيكل السياسية وجاذبيته الشخصية أنه عندما فشل مشروعه حاول بنجاح ، وبصفة مؤقتة على الأقل ، ايجاد وضع يحظى فيه بسلطة هائلة فى حكومة السادات .

وسرعان ما تبين ان المناقشات الخافتة حول مسالة الخلافة كانت أكاديمية ، اذ أن السادات تحرك بسرعة لتقلد ما اعتبره منصبه الشرعى . وكان السادات هو الذى أصدر الأوامر عقب موت ناصر مباشرة بسحب القوات الى القاهرة بدعوى حفظ النظام بين الجماهير التى استبد بها الحزن ، ولكنها كانت فى الواقع للتصدى لأى مغامرة قد تقوم بها وحدات اخرى من الجيش . وقد تم اختيار القوات التى عملت فى القاهرة بعناية ، كما كانت تخضع لرقابة الحرس الجمهورى ، وهو القوة المنتقاة التى تعمل فى الحراسة للرئيس شخصيا ، وتتلقى اوامر من مكتب الرئيس وليس من قيادة الجيش . لم يكن السادات هو الذى يتولى رئاسة اجتماعات مجلس الوزراء ـ بالمعنى الحرفى . لهذه العبارة ، فقد ترك مقعد ناصر شاغرا عندما كان الوزراء يجتمعون فى تلك الأيام العصيبة ، ولكن السادات كان الشخص الذى يدعو الى انعقاد هذه الاجتماعات ، ويقدم الموضوعات التى تجرى مناقشتها والتصويت عليها . كما بدأ السادات جولة من المحادثات القلقة مع القيادة العليا فى البلاد مؤكدا ضرورة اتخاذ قرار سريع بشأن رياسة الجمهورية لتجنب احتمال قيام أى اضطراب أو الحاق أى ضرر بسمعة مصر فى العالم الخارجى . وفى محادثاته مع على صبرى وشعراوى جمعة وحسين الشافعى وغيرهم ممن كانوا فى قمة السلطة أكد السادات أنه لن يستطيع ولن يحاول تقليد أسلوب عبد الناصر فى الحكم . وقال : ان المسئولية

الجماعية والقرارات المشتركة ستكون أسلوب الحكم . وكانت حججه فيما بدا صحيحة . وقد تم تعيينه رئيسا للجمهورية باجماع الاعضاء الثمانية للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى وصدق على التعيين أعضاء اللجنة المركزية « المائة والخمسون » ومجلس الأمة . وفى الخطاب الذى القاه السادات فى ٧ من اكتوبر بمناسبة توليه الرئاسة أوضح السياسات التى سيتبعها بشىء من التفصيل ، ومن الأمور التى تنطوى على دلاله أنه وضع سيناء فى آخر الأراضى العربية المحتلة التى يتعين استردادها . فمنذ البداية كان مصمما بحق على محاولة تحقيق الوحدة العربية ، وكان مستعدا لتقديم بعض التضحيات من أجل ذلك وفى التطبيق ، لم تحقق الوحدة العربية على هذا النحو ، غير أن وعود السياسيين نادرا ما تحقق . وقال السادات فى خطاب توليه الرئاسة :

« اننا مطالبون بمواصلة النضال من اجل وحدة الأمة العربية . وان متناقضات هذه الأزمة وتأزمها طبيعى فى المرحلة الحالية التى تعيشها الأمة ، ولا يجب أن يلهينا ذلك عن جوهر الحقيقة التى طالما نادى بها وعمل من أجلها جمال عبد الناصر ، وهى أننا أمة واحدة تاريخها واحد ونضالها واحد ومصيرها واحد .

« اننا مطالبون بتحديد أعداء أمتنا تحديدا لا شبهة فيه . وأعداؤنا هم اسرائيل والصهيونية العالمية والاستعمار العالمى . ونحن فى صراع مصيرى معهم جميعا ، وهو صراع لا يستهدف الغزو ولكن يطلب الأمن . لا يستهدف الحرب للحرب ولكن يطلب السلام كما يجب أن يكون السلام .

« اننا مطالبون بالتمسك بسياسة عدم الانحياز . ولكن سياسة عدم الانحياز كما علمنا جمال عبد الناصر ليست موقفا سلبيا وانما هى انحياز لاستقلالنا وانحياز لحريتنا وانحياز للسلام وانحياز للتقدم . وبالتالى فهى سياسة تصد الاخطار التى تهدد هذه القيم كلها .

« ان صداقتنا الخاصة مع الاتحاد السوفيتى وشعوبه العظيمة من ورائه مجموعة الشعوب الاشتراكية الكبيرة لتتسق اتساقا كاملا مع سياسة عدم الانحياز ، وهى تطبيق عملى وواقعى لشعار من أبرز شعارات قائدنا العظيم وهو القائل : نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا .

« اننا مطالبون دواما بأن نذكر ولا ننسى أننا جزء من حركة التحرير الوطنى العظيمة باتجاهها التقدمى الاشتراكى .

« اننا مطالبون أولا وأخيرا بالحفاظ على المكاسب الاشتراكية التى تحققت

لجماهير قوى شعبنا العامل ، وبالمضى فى هذا الطريق الذى رسمه وحدده لنا قائدنا جمال عبد الناصر » .

وعندئذ اتخذ السادات الاجراءات لتأكيد ترشيحه من جانب الشعب ، وعلى الرغم من أن ثلاثة أرباع مليون قد صوتوا ضده ، فان نتيجة التصديق على ترشيحه كانت مرضية للغاية . ثم اعقب ذلك تشكيل الوزارة،وكان الرئيس الجديد حريصا على ان لا يكون مغامرا . ولذا اصبح الدكتور محمود فوزى ، الذى يعتبر ألمع دبلوماسى مصرى ، رئيسا للوزراء ، بينما تم اختيار باقى الوزراء من الذين كانوا يعملون تحت رئاسة ناصر . وتم تعيين على صبرى نائبا أول للرئيس وحسين الشافعى نائبا ثانيا للرئيس ، وهو اجراء قصد به آنذلك ابعادهما عن ادارة الشئون اليومية ، على أن يوضع فى الاعتبار كل ما تنطوى عليه احتمالات التطفل فى مثل هذه الأمور . وفى الوقت نفسه تأكيد حصولهما على المناصب والمكانة التى تتفق مع أفكارهما الخاصة . وقد كرس كل منهما جهده الأساسى للسياسة الخارجية ، وقد احتفظ على صبرى عقب شهور من تولى السادات السلطة ، بوضعه كحلقة اتصال رئيسية بين موسكو والقاهرة . وفى الوقت نفسه ، كان السادات مشغولا بالوضع الداخلى ، وكان اهتمامه الأساسى ينصب على الجيش . وقد أمضى السادات مع الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية وقتا أطول مما أمضاه مع غيره من الوزراء فى هذه المرحلة . ولم يكن مرجع ذلك ادراكه احتمال وقوع تدخل فى السياسة من جانب العسكريين اذا لم يأخذ فى اعتباره آراء الجيش ، وانما لأنه كان واثقا طوال السنوات الماضـــية من ان القدرة على كسر جمود الموقف بالقوة قد يؤدى الى ايجاد حل للأزمة . ومن ثم فقد وعد السادات فوزى بأن يوفر له المزيد من الرجال والأموال والمعدات . وأبلغه ضرورة بعث الجيش من جديد ، وقال السادات ان الجهود الفاترة التى بذلت منذ عام ١٩٦٧ كانت غير كافية . وباعتباره ضابطا سابقا فان فى وسعه أن يرى أفضل من أى شخص آخر مكمن الخطأ فى القوات المسلحة . اذ كان ما يزال فى الجيش عدد كبير جدا من الضباط ذوى البطون المترهلة والذين ينظرون بازدراء الى جنودهم ، الفلاحين القـادمين من الدلتا مثلما كانت الأرسـتقراطية الأوروبية القديمة تنظر الى جماهير الجاهلة الذين كانوا يعملون فى خدمتهم كعبيد . وكان صغار الضباط كسالى وتعليمهم سىء ، كما كانوا غير مقتنعين بقدرتهم على دخول فى معركة ضـد الاسرائيليين ولم يكن لدى هيئة أركان الجيش خطط معقولة لمواجهة الطوارىء المختلفة التى قد تحدث . وأمر السادات بضرورة تصحيح هذه العيوب كلها . وفى مستهل عام

١٩٧٠ تم ارساء أسس الأحداث التى وقعت بعد ذلك بثلاث سنوات .

اما بالنسبة للعالم العربى ، فقد اتبع السادات خطا واضحا تماما . فقد كان يريد تحقيق الوحدة العربية ـ وحدة ليست على غرار الوحدة التى يسعى القذافى الى تحقيقها عن طريق ادماج الدول فى دولة كبرى وانما وحدة التصميم والهدف والغاية ـ وكان السادات يعتقد أنه اذا ما حقق هذه الوحدة فان وضعه سيصبح اكثر يسرا . ومع ذلك ، فان اى زعيم عربى يشرع وحده فى انجاز هذه الوحدة ، من المحتم أن يشعر بحساسية من التعليقات والانتقادات التى تصدر من زملائه فى جامعة الدول العربية . ذلك أن اى قرار يتخذ فى القاهرة من الممكن أن يسبب قيام مظاهرات فى بيروت أو طرابلس أو الرباط ، ومن ثم يتعين على أى زعيم مصرى أن يأخذ فى الاعتبار هذه الحقيقة الماثلة . وكان هذا هو دافع السادات فى ضغطه من أجل المطالبة بقيام الاتحاد بين مصر وسوريا وبين ليبيا ، وكذا الحاجة الى اتباع السياسات التى انتهجها ناصر ، كما كان اسلوبا لضمان أن اقتراحه الخاص باعادة فتح قناة السويس لن يتعرض لسوء الفهم ، اذ كانت اجتماعات الاتحاد ، التى أسفرت عن الاعلان الرسمى لقيامه ، مجالا مفيدا لمعرفة رد الفعل تجاه فكرة اعادة فتـح القناة وغيرها من الأفكار الكثيرة . وعلى أية حال ، لم يسفر عرض اعادة فتح القناة عن اى شىء نظرا لارتباطه بطلب تعهد من اسرائيل بضرورة الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة كافة ، وهو التعهد الذى ترفض الحكومة الاسرائيلية تقديمه ، بحجة أن مثل هذا التعهد لا يمكن قبوله كشرط أولى لاجراء أى محادثات .

وعندئذ ، وقعت أحداث مايو ١٩٧١ عندما تخلص السادات من المعارضة داخل الحـكومة واقام نظامه الخاص . وقد حصـل بسرعة على تأييد اليســار واستمرار المساعدات السوفييتية بابرام المعاهدة المصرية السوفييتية التى تمت عقب الاضطراب الذى وقع فى القاهرة . واصبح السادات الرجل الذى يعبر عن شخصيته وأفكاره ، ولم يعد يحكم بالمعاناة أو فى ظل ناصر ، فقد أصبح حرا تماما فى اتخاذ قراراته وتنفيذ أفكاره . وقد كشف ، المرة تلو المرة ، عن هذه الأفكار وهى : البحث عن السلام والاستعداد للحرب . وكانت المشكلة تكمن فى أن أحد هذه الأهداف يمارس علنا والآخر يمارس سرا . ولذلك فان كل محاولة لفتح حوار جديد مع اسرائيل كان لابد ، بالضرورة ، من نشرها ، ففى كل مرة كانت تنشر أنباء وصــول أى مبعـوث مصرى الى واشنطون أو موسكو . كما كانت تصدر من حين لآخر بيانات أو تصريحات تلقى فى المطار . وبالرغم من تعمد صياغتها بشكل غامض فانها كانت تعطى

دائما بعض المؤشرات الى ما يحدث . وكانت الجولة التى قام بها جوزيف سيسكو فى دول الشرق الأوسط محاولة واضحة لتنشيط مشروع روجرز مرة أخرى . وارتبطت زيارات الدبلوماسيين الروس ببذل الجهود للضغط على مصر لتعدل من موقفها القائل بضرورة استرداد الأراضى العربية المحتلة كافة . وقد اعتبر تحذير السادات بأنه قد لا يجدد وقف اطلاق النار مجرد تكتيك فى الوقت الذى كانت المدافع ماتزال فيه صامتة . وقد استمر الاعتبار نفسه عندما كان السادات يتحدث عن السلام فى كل خطاب يلقيه ، ويقرن دعوته بالمفاوضات بالتهديد بالاقدام على عمل عسكرى وهو الأمر الذى لم يحدث . ولذلك فقد ازداد اتساع فجوة عدم الثقة فى المصريين .

وبينما كانت المحادثات مستمرة ، كانت تجرى أيضا الاستعدادات للحرب . وكانت مرتبات الجنود وأحوالهم تتحسن بشكل حاسم . وقد خضع الضباط لفحص دقيق ، فتم فى هدوء احالة عدد كبير من الجنرالات السذج الى المعاش ، وتم نقل الضباط من ذوى الرتب المتوسطة الى أعمال لا تشكل ضررا فى الوزارات أو وحدات الاحتياطى حتى اذا لم يفعلوا شيئا طيبا ، فلن يكون فى وسعهم ، على الأقل ، احداث أى ضرر . أما صغار الضباط فقد جرى تجنيدهم من الجامعات واقناعهم بأن الفرق الوحيد بينهم وبين جنودهم هو أنهم حصلوا على تعليم أفضل ، ومن ثم تقع على كاهلهم مسئوليات أكبر . وتولى الفريق سعد الدين الشاذلى ، وهو احد الأبطال المصريين القلائل فى حرب يونيو ١٩٦٧ قيادة القوات الخاصة ، واستطاع تحويلها خلال برنامج تدريب ممتاز الى صفوة حقيقية يمكن مقارنتها بأحسن القوات فى أى جيش . وتدفق على مصر المزيد من المعدات من جانب روسيا ، وبالرغم من أن المخابرات الاسرائيلية والأمريكية كشفت وصول طائرات الميج والمدفعية بعيدة المدى ونشروا ذلك فى حينه فانهما لم يكشفا معدات كثيرة أخرى . فقد ظهر صاروخ « ساجر » المضاد للدبابات كمفاجأة فى عام ١٩٧٣ ، وكذا كان ظهور صواريخ « ستريلا » أرض جو .

ومن الأمور التى لا يمكن تفسيرها ، أنه قد تم أيضا فى سرية صنع نوع جديد من الجسور العائمة التى ركبها المصريون بسرعة عبر القناة . ولم تكتشف أيضا طائرات الاستطلاع أو أقمار التجسس أو عملاء المخابرات ، الموجودين بالتأكيد فى البلاد ، سنوات التدريب على عبور القناة وتدمير السواتر الترابية بخراطيم المياه . ولم ينشر اى من هذه التدريبات على الملأ ، ولذلك فان الشعب المصرى والعالم الخارجى كف عن أخذ تصريحات السادات مأخذ الجد

فكان كل شخص يقول أن أحاديثه عن الحرب للاستهلاك المحلى ، وان ما يصبو اليه ، فى الواقع ، هو السلام . وقد اعتبر التحسن الكبير الذى طرأ على الاقتصاد المصرى دليلا على ذلك . كما اعتبر بدء تشغيل السد العالى سببا آخر يجعل مصر لا تجرؤ على خوض الحرب ، واستبعدت تماما الظواهر الواضحة والدالة على تغير الأحوال داخل القوات المسلحة المصرية . وهكذا ، فعندما ظهر رجال الشرطة الجدد (امناء الشرطة) فى شوارع القاهرة وهم يرتدون أزياء أنيقة ويحمل كل منهم جهاز لاسلكى للاتصال بقيادته ، وكانوا فى غالبيتهم يتميزون بدماثة الخلق والمقدرة والكفاءة ، فان الدعاية الغربية أسهمت ، الى حد كبير ، فى الحقيقة القائلة بانهم تلقوا تدريبهم على أيدى خبراء ألمانيا الشرقية ، واوحت بانه تم تشكيلهم لدعم النظام المهتز . كما تم تفسير التحسن الذى طرأ على أحوال الشعب بنفس الطريقة : اى أنه جهد لاخفاء السعادة على الأهالى الساخطين والواقع أن زيادة مرتبات موظفى الحكومة والخدمات كان قد تأخر استحقاقها طويلا ، وكانت أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت أكثر مما يجب ، ولذا فان الاجراءات التى اتخذها السادات ، اجراءات كان يتعين اتخاذها قبل ذلك بفترة طويلة . ولئن كانت فى الواقع قد اشاعت الرضا بين غالبية الشعب ، باعتبارها علاوة مفيدة ، الا أن هذه الاجراءات لم تكن تحتل المرتبة الأولى بالنسبة لاهتمام السادات .

وهكذا كان السادات يمضى فى اتباع سياساته المزدوجة بنجاح هائل ، ومع ذلك فقد كان هناك مجال واحد لم يكن يعبر فيه عن نفسه تماما وهو مجال: العلاقات مع السوفييت. ولقد كان ناصر هو الذى اقنع الروس بتصعيد تورطهم مع مصر فى وقت كانت اسرائيل تشن فيه غاراتها فى عمق البلاد . كما كان ناصر هو أول من ورط الروس فى ميدان القتال عندما طلب منهم المساعدة فى اعادة بناء الجيش المصرى عقب حرب ١٩٦٧ . ومن ثم ، كان الجنرالات الروس فى قيادات الجيش والسلاح الجوى فى القاهرة ، وفى غرفة عمليات البحرية بالاسكندرية . وكان « المستشارين » السوفييت يعملون فى غرف التحكم فى الصواريخ المضادة للطائرات « نوبات عمل » تستغرق كل منها ثمانى ساعات . وكان الطيارون السوفييت يقومون بمهمات قليلة تحددها لهم قياداتهم الخاصة ، وليست القيادات المصرية . وكان الضباط السوفييت يوجدون مع القوات بدءا من مستوى السرية . وفى القاهرة ، كانت السفارة السوفييتية تبدو مثل وزارة منهمكة فى العمل المتواصل وليس مجرد مكاتب يشغلها ممثلون دبلوماسيون يتبعون بلدا واحدا! . وفى المطار ، كانت طائرات

روسية خاصة تهبط بالتعزيزات والزوجات والأطفال ، ثم تقلع مرة ثانية بالعائلات التى تغادر البلاد • وكان الجميع يعربون عن اعتقادهم بضرورة اعفائهم من الاجراءات الجمركية والهجرة المعتادة • وقد أثارت واقعة تم فيها ضبط عدد من السيدات الروسيات كن يحملن ذهبا اشترينه من الاسواق وحاولن الخروج به من البلاد بطريقة غير قانونية ، أثارت هذه الواقعة ضجة دبلوماسية كبيرة وان كان قد تم التكتم عليها ولم يذع شىء عنها • وفى ميدان القتال ، كان الروس ، على حد قول تلاميذهم المصريين ، متغطرسين ويفتقرون الى اللياقة ، ولا يخفون رأيهم السىء فى القوات المصرية • أما فى المدن ، فقد كان الروس فى عزلة تامة ، ولا يحاولون على الاطلاق التكيف مع الأساليب المتبعة فى البلاد ، ولم ينفقوا أى أموال فى شراء السلع من المتاجر المصرية • وكان كل هذا كما أشار اليه عدد كبير من المصريين يثير ذكريات الشكاوى القديمة ضد الاستعمار البريطانى •

وكانت هناك أيضا اتهامات أكثر خطورة : واحدى التهم التى كانت تتردد من حين لآخر هى ان الروس يمدون الأمريكيين بمعلومات سرية عن أحوال المصريين وهؤلاء يبلغونها بدورهم ، للاسرائيليين وقيل أن الغرض من هذا هو الحفاظ على الوضع الراهن فى المنطقة ، وضع اللاحرب ، واللاسلم الذى يتفق تماما والمصالح الروسية • وثمة تهمة أخرى ، وهى سبب معظم الاحتكاكات المصرية السوفييتية ، وهى أن روسيا لن تمنح مصر ما تحتاجه من أسلحة ، وترفض تزويدها بالأسلحة « الهجومية » وبالفعل كانت روسيا تمنع مصر من اتخاذ أى اجراء لاسترداد أرضها بالقوة ، أو حتى أن تشكل تهديدا معقولا بالنسبة لاسرائيل • ونقطة أخرى كانت مثار خلاف دائم وهى تدخل الروس فى الشئون الداخلية : وكانت هناك شواهد كثيرة سعى فيها الدبلوماسيون الروس الى تقديم جماعة أو شخص على حساب الآخر ، كما كانت توزع الأموال أحيانا عن طريق سفارات بعض الدول التابعة للروس لدعم الجماعات المنشقة • ومع ذلك ، فان استياء المصريين من الروس قد نبع أساسا من الخلافات الثقافية القائمة بينهما • ذلك أن الروس الصارمين والمجدين فى العمل والدؤوبين لم يكونوا ذلك النوع من الناس الذين يتعاملون ببراعة مع المصريين المتكاسلين، خاصة وأن المصريين بالرغم من تساهلهم الذى لاشك فيه وقدرتهم على الضحك على أنفسهم ، لكنهم كانوا يؤمنون بقدراتهم والمكانة العالية التى يتعين أن يتبوأوها بين الأمم • وكان يحلو للمصريين أن يشيروا الى أمجادهم الماضية شأنهم فى ذلك شأن البريطانيين •

وقد أسهمت هذه العوامل كافة فى الاضطراب الخطير الذى اجتاح القاهرة فى مستهل عام ١٩٧٢ • وقد فجر هذا الاضطراب خطبة ألقاها السادات ، وكانت أكثر خطبه تعاسة ، وزعم فيها أنه أصدر أوامره خلال « عام الحسم » بشن غارة جوية على الأهداف الاسرائيلية ، لكنه اضطر الى الغاء العملية بسبب نشوب الحرب بين الهند وباكستان • وفى محاولة لايجاد تشابه بين اجراء مماثل اتخذه ناصر ــ وهو تكتيك مألوف فى وقت الأزمات ــ تحدث السادات فيه عن « الضباب » الذى أثارته الحرب • وقد التقط طلبة الجامعة هذه العبارة على الفور ، واتخذوا منها مادة سياسية فى كثير من السخرية تمثلت فى الرسوم الكاريكاتورية والنقد المباشر • وبدا أن السادات يفقد تأثيره فى هذه المرحلة ، وكانت حكومة الدكتور محمود فوزى قد حصلت على ثقة مجلس الأمة ، ومع ذلك فقد قرر الرئيس تغييرها • وعين الدكتور عزيز صدقى رئيسا جديدا للوزراء ، وهو شخص كفء من الناحية الفنية ولكنه لا يحظى بالشعبية • وكان من المنطقى ، ان ينادى الطلبة بتفسير لهذا التغيير الوزارى ولغيره من التناقضات الكثيرة التى كانوا يرونها ، وكان من بين هذه التناقضات حقيقة أن السادات قد زعم انه كان يعتزم شن الحرب خلال العام الماضى ، بينما اعترف بأن الجبهة الداخلية لم تكن مستعدة • كما أنهم أرادوا معرفة الأسباب التى تدعوا الى جلب الشركات الأمريكية لتولى صناعة البترول المتطورة فى مصر فى الوقت الذى يندد السادات فيه باستمرار بالحكومة الأمريكية باعتبارها عدو العرب وحامية اسرائيل • كما تساءلوا أيضا لماذا يكال المديح لروسيا باعتبارها الحليف ومنقذ مصر فى الوقت الذى تسمح فيه لليهود بالهجرة منها الى اسرائيل للمساعدة فى تنمية هذا البلد ، واذا ما كان صحيحا أن روسيا تمتنع عن تزويد مصر بما تحتاج اليه من الأسلحة ، فلماذا اذن الثناء المستمر على السوفييت ؟ •

وكانت هذه الأسئلة كافة معقولة ، وتمت صياغتها بأسلوب معقول • وفى البداية ، طلب جميع الطلبة أن يلقى فيهم السادات خطبة ويشرح لهم سياساته وما يعتزم فعله فى المستقبل • وكان الطلب معقولا فى ذاته ، ولكن المظاهرات كانت قد قامت قبل ذلك بفترة وجيزة فى حلوان ، احتل خلالها المضربون المصانع ومنعوا العمال الذين يرغبون فى مواصلة العمل من أدائه • ووقعت فى بعض مدن دلتا النيل حوادث شنيعة جرى خلالها حرق مكاتب الاتحاد الاشتراكى العربى وقذف المسئولون بالحجارة • وكان من المتفق عليه بشكل عام فى مصر أن السادات حاول فى حديثه مسألة اعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى من القاعدة الى القمة بشرط أن لا يصل الى مراكز السلطة الحقيقية

سوى الأشخاص الذين يعتقد فى صلاحيتهم . وعندما واجه السادات هذه الموجة من الاضطراب بدا أنه يوشك أن يشعر بالذعر . وكان الشىء الذى يقلقه أكثر من اى شىء آخر هو خطر تورط الجيش وقوات الأمن الداخلى فى هذه الاضطرابات . وكان هناك احتمال حقيقى فى امكان حدوث التورط وهو أمر وضح بشكل ملحوظ : فعندما لم يحصل الطلبة على أية اجابات مرضية لأسئلتهم ، لجأوا فى بداية الأمر الى انتهاج الأساليب التقليدية التى يتبعها الطلبة فى العالم وهى الاعتصام والمظاهرات وغير ذلك . وعندما لم تسفر هذه الأساليب عن شىء ، تحركوا الى الشوارع . وطوال عدة أيام ، كانت المناطق الواقعة وسط القاهرة حول شارع قصر النيل ، وبالقرب من جامعة عين شمس وحول جامعة القاهرة فى الجيزة مسدودة أمام حركة المرور العادية لعدة ساعات فى كل منطقة على حدة نظرا لأن الطلبة اتخذوا منها ساحة للاشتباك مع « قوات الأمن المركزى » ، وهى قوة تم تشكيلها خصيصا للتصدى للمظاهرات . غير أن البوليس فشل فى القيام بمهمته ، وكان ينجح فقط فى تفريق الأطفال المشردين الذين كانوا ينضمون فى ابتهاج الى المظاهرات ، على حين أن الطلبة كانوا يتمكنون من اعادة تنظيم أنفسهم والظهور فجأة مرة أخرى فى بعض الأحياء الجديدة . والى هذا الحد،كان الأمن سيئا وان لم يكن خطيرا .وعندئذ، ظهر تطور أثار قلق الحكومة أكثر من أى شىء آخر . فقد كف الطلبة عن المظاهرات العنيفة ، وبينما احتل عدد صغير نسبيا منهم ، يبلغ مئات قليلة ، ميدان التحرير وهو أهم منطقة فى القاهرة اذ تطل عليه نوافذ فندق هيلتون النيل ، تفرق الآخرون الى مثنى ورباع ليدخلوا فى حوار مع أى شخص يختارونه . وقد وجدوا أن الآلاف من الأهالى على استعداد تام للاصغاء اليهم . ففى أنحاء القاهرة كافة كان عشرات الأشخاص يتجمعون حول طالبين أو ثلاثة ويناقشونهم فى كثير من الأحيان ولكنهم كانوا يتركونهم وهم مقتنعون ، عادة ، بما سمعوه منهم . ولم يكن فى وسع البوليس أن يتدخل ، حتى لو أراد ذلك ، نظرا لأن سكان القاهرة المحترمين العاديين لم يكونوا ليسمحوا لرجال البوليس باتخاذ أى اجراء ضد الشبان والشابات الذين لم يفعلوا أكثر من الكلام . والأمر الأكثر مدعاة للقلق فى هذه الأحداث كلها ، ان هذا النوع من الحوار بدا ايضا مع رجال البوليس الذين احتشدوا فى صفوف ليمنعوا الاقتراب من مناطق معينة او الذين ينتظرون فى عرباتهم ليهرعوا الى اى منطقة تقع فيها اضطراب جديد ولم يحدث هذا الحوار مع اى من كبار ضباط البوليس الذين كانوا يحولون دون حدوثه فى اى مكان . اما بالنسبة لصغار الضباط فكان الأمر مختلفا . ذلك أن الضباط الشبان المسئولين عن مجموعة من حوالى عشرين من رجال البوليس كانوا من ، حيث السن ، اكبر قليلا من المتظاهرين

وربما كانوا هم انفسهم مثلهم قد تخرجوا حديثا من الجامعات تمشيا مع سياسة تجنيد عناصر افضل من رجال البوليس . وكان هؤلاء الضباط الشبان والجنود الذين يقفون من خلفهم ينصتون الى ما يقوله الطلبة ، وفى خمس حالات واضحة على الأقل وصل البوليس والطلبة الى تعايش سلمى . اذ وعد الطلبة بعدم القاء الحجارة على أن لا يتدخل البوليس بدوره فى حوار معهم لاقناع الناس بآرائهم .

وكان هذا أمرا لا يمكن السماح به : ان تحالفا من المتظاهرين وقوات النظام فى طريقه الى التكوين .وكان على الحكومة ان تتصرف لانها تدرك بقلق وجود ٧٠ الفا من خريجى الجامعات بين صغار الضباط فى الجيش. ولذلك، ففى وقت مبكر من الصباح ، اعدت قوات بوليسية « لم تلوث بآراء الطلبة » واقتحمت الجامعة وزج بالمحتجين فى عربات « اللورى » التى أقلتهم الى السجن . وفى الوقت نفسه ، تم تطويق الطلبة الذين ما يزالون يقظين فى ميدان التحرير وتم نقلهم فى السيارات وتم القاء القبض على أكثر من ألف طالب ، بالرغم من انه لم يوجه الاتهام ، فى النهاية ، الا الى أربعين منهم فقط . وفرضت الحكومة على الفور حظرا كاملا على جميع المظاهرات ، وأفرجت عن الطلبة المعتقلين ، وهكذا انتهت «الثورة». ويرجع ذلك الى حد كبير الى حلول اجازة عيد الاضحى (واجازة نصف السنة الدراسية) التى تستغرق ثلاثة أسابيع ، وليس بسبب جبن الطلبة أو اقتناعهم بعدالة اجراءات الحكومة وسياساتها .

وقد فجر الاضطراب الذى حدث فى جامعة القاهرة بعض الطلبة الفلسطينيين الذين شاركوا حركة المقاومة الفلسطينية مخاوفها من أن مصر كانت مستعدة لاتخاذ أى اجراء للتوصل الى سلام عن طريق التفاوض ، وأنه سيتم خلال هذه العملية تجاهل حقوق الفلسطينيين . والواقع ان الشعارات والبيانات التى كانت تتردد لم يكن فى مقدورها ، فى العادة ، ان تثير مثل هذه المظاهرات الضخمة أو تحظى بهذا التأييد الواسع النطاق . وكان من الواضح أن هناك مخاوف عميقة بين العديد من القطاعات بشأن الطريق الذى كانت تشير اليه مصر . ومن ثم قوبلت احتجاجات الفلسطينيين بتأييد اليسار واليمين والمستقلين . وكما هو معتاد ، فان الاجتماعات الأولى التى عقدها الطلبة سرعان ما تفشى فيه الاضطراب على نحو ما أشار الرئيس السادات فى أحدى خطبه : « اجتمعوا وقرروا بدء المعركة من خلال اثارة وصراخ وضجيج . هكذا ... وبمثل هذه السهولة تم قرار بدء المعركة . هناك عدة أجهزة تعمل وتدرس او تضع التقديرات لهذه المعركة . وأن قرار بدء المعركة لا يمكن ان يتخذ بمثل هذه السهولة » .

ولم يقتنع أحد بمـا بقوله الرئيس بالرغم من أنه كان يقـول الحقيقة الموضوعية • وكان كلما أكد أن الحرب حتمية ، كلما قل تصديق الناس له : « أما بالنسـبة للوضع السـياسى فان أى شىء يؤثر على قرار المعركة لن اتخذه وحدى ، وانكم جميعـا ستشتركون فيــه ، ولن أغيره الا عن طريق الشـعب أما بالنسبة لقرار المعركة ، فما زال سـارى المفعول • ويبقى بعد ذلك قرار التوقيت • توقيت المعركة • أحسن توقيت وأحسن حسابات • وكما قلت سوف أستمر فى حساباتى حتى آخر لحظة قبل أن أعطى أشارة البدء • ان كل شىء فى هذه المرحلة من أجل المعركة ، لان هذا هو قرار الشعب. لقد اتخذ قرار المعركة والمعركة حتمية • وكل شىء من الآن يجب تعبئته من أجل المعركة : الاقتصادية والسياسية ، والجيش ، والمؤسسات والقطاع العام والحكومة ، والدفاع المدنى والتدريب • كل شىء من أجل المعركة • ان المهمة الأساسية للحكومة الجديدة هى تعبئة قدرات البلاد لمواجهة أبعاد المعركة • سـوف تستخدم كل امكانياتنا فى المعركة » •

وكان هذا واضحا بالقدر الكافى ، على الرغم من أن السادات قد ادرك أيضا أنه لابد من اتخاذ اجراء سريع حتى يحول دون امتداد الاضطراب الى قطاعات أخرى من الشعب بحيث يتعذر عليه الاستمرار فى قيادة البلاد • وكان رده السريع هو اعلان قطع جميع الاتصالات مع أمريكا ، وانه لن يعاد تجديدها ، الأمر الذى كان يرجع الى حد كبير الى الشحنات الأمريكية الجديدة من طائرات الفانتوم لاسرائيل • وكان تحركه الثانى هو قيامه بزيارة أخرى لموسكو فى محاولة جديدة للحصول على أسلحة هجومية كان يرى الفريق أول صادق وزير حربيته أن الجيش فى حاجة ماسة اليها •

والواقع ، أن صادق كان أكثر الرجال انتقادا للمساعدة الروسية لمصر • وكان صارما ومنطويا على نفسه ، وتعذر عليه التعامل مع كبار الضباط الروس الذين كان يتعين أن يكون على اتصال وثيق بهم • لقد رفض انتقادهم وارتاب فى دوافع حكومتهم ، واعترض على نظام التقتير فى امدادات الاسلحة والذى يقرر الروس بمقتضاه كمية الاسلحة ونوعها ، ويوافقون على ما يعتقدون أنه لازم وضرورى من الناحية السياسية أو العسكرية • اذ كانوا يزيدون من الشحنات عندما يرجونهم الزعماء المصريون فقط أو عندما يبدو أن هؤلاء الزعماء على وشك الحصول على مصادر أخرى للسلاح • ولم يكن صادق رجل سياسة ، ولم يفهم الضغوط التى كان يتعرض لها زعماؤه السياسيون ، الأمر الذى أدى الى نشوب الخلاف • وقد أثار نشر فكرته الخاصة بأنه يتعين على الروس اقامة مصـانع للأسلحة فى مصر حتى يتمكن المصريون من تحديد ما يحتاجون اليه ، أثار مزيدا

من الخلاف • اذ كان واضحا بالنسبة لأكثر الناس احاطة أن هذا الأمر يستغرق سنوات قبل التمكن من اقامة مصانع للأسلحة ، واذا كانت اقامة هذه الصناعة هو الشرط الأسـاسى لخوض غمار الحرب مرة ثانية ، عندئذ لا يوجد أى مبرر لتجنيد مئات من الشبان فى الجيش فى الوقت الذى يمكن فيه تحقيق استفادة أكبر من توظيفهم فى القطاع المدنى •

وهكذا قام السادات بزيارة موسكو لطلب الأسلحة التى يحتاج اليها جيشـه • وكان هذا أول شىء يفعله عقب اعـلانه أنه تخلى عن جميع الآمال فى تحقيق سلام أمريكى _ وكان آخر الاقتراحات الأمريكية فى هذا الشأن اجراء « محادثات عن قرب » وذلك بأن يجلس وفد اسرائيلى وآخر مصرى فى فنـدق واحد ، ويقوم مسئولون امريكيون بالتنقل بينهما حتى لا يضطر الوفدان الى اجراء مفاوضات مباشرة • وقد تعثرت هذه المبادرة نظرا لأن اسرائيل رفضت ربط الانسحاب الجزئى ، الذى يتيح اعادة فتح قناة السويس ، بالتعهد بأن هذا الانسحاب سيكون بمثابة الخطوة الأولى فى الانسحاب الشامل من سيناء ، ولأن الرئيس السادات أصبح مقتنعا ، من جراء امدادات طائرات الفانتوم الأمريكية لاسرائيل ، بأن الرئيس نيكسون ملتزم تماما تجاه اسرائيل ، ولا يمكن الوثوق من تعامله بنزاهة مع أى طرف من أطراف المشكلة •

ولم تسـفر رحلة السادات الى روسيا عن أى شىء ملموس : فقد ترددت الوعود المعتادة بزيادة الامدادات والبيانات المسكنة المنتظمة عن النوايا ، والتأييد الشـفوى لمصر والعرب • ولم يكن هنـاك أى شىء آخر • ولم يعد هذا كافيا • فبالنسبة للسـادات ، كان لابد من مخرج لكسر حالة اللاسلم واللاحرب وذلك حتى يتمكن من الحفاظ على نظامه وسياساته اللذين يعتقد أنهما يعبران أحسن تعبير عن مصالح مصر • ولذلك أقدم على أكبر مخاطرة فى حياته حتى تلك اللحظة وقد تمثلت فى خطوة لا تسـتهدف كسر الجمود فحسب ، بل استعادة شعبيته الآخذة فى الزوال بين شعبه • وكان القرار هو أنه يتعين على الروس أن يغادروا مصر •

وبالرغم من أن القرار جاء مفاجأة عندما تم تنفيذه ، لكنه لم يكن أمرا غير متوقع كلية ، ذلك لأنه موضع مناقشة المصريين من كل الفئات ، اذ كان الفنيون والمستشارون السوفييت غير محبوبين لدرجة أنه كان من المعتاد أن تسمع الناس فى القاهرة يقولون : ان أحسن شىء يفعله السادات هو التخلص من الروس • وعندما سأل زائر ، كان يبحث عن تأثير هذا القرار وعمن سيزود مصر بالأسلحة

والخبرة المطلوبة ، لم يحصل على أية أجابة . ان ما لم يدركه الزائر ولا المصريون هو أن المساعدة الفنية لم تكن الى حد كبير مطلوبة مثلما كانت فى الماضى ، وان الروس أصبحوا ملتزمين تجاه العرب بسبب تنافس الدولة الأعظم وهو الأمر الذى لا يســعهم التخلى عنه . وكان الرئيس السادات وحده يرى الموقف بوضوح ، ولذلك كان قادرا على التحرك ـ وان كان قد داخله بعض الخوف ، على نحو مابدا من التدابير الوقائية التى اتخذت . فقد تحركت القوات المصرية الى مواقع قريبة من جميع المرافق الروسية ، وصدرت الأوامر الى جميع الضــبــاط بتحمل مســـئولياتهم طـوال الوقت ، ومن باب الحيطة جرى التـأكد من أن الطائرات السوفيتية ستبقى جاثمة على الأرض عن طريق عدم تزيدوها بالوقود . وقد تمت هذه الاستعدادات فى هدوء ، وأعلن السادات بيانه : مغادرة جميع العسكريين السوفييت مصر خلال ثمان وأربعين ساعة اعتبارا من ١٨ من يوليو ١٩٧٢ . ومما أثار دهشة الكثيرين أن الروس غادروا البلاد فى هدوء . والحوادث الوحيدة التى وقعت صدرت عن عدد قليل من المتهورين منهم الذين دمروا بعض المنشآت التى تركوها وراءهم .

وكان السؤال ، لماذا قرر السادات أخيرا أن يهاجم حليفه القديم ؟ وكانت الاجابة التى قدمها لاتشمل الحقيقة كلها ، لقد قال : انه اتخذ قراره لأن روسيا لم تلتزم بالجدول الزمنى المتفق عليه بخصوص امدادات الأسلحة لمصر ، وبسبب التسويف السوفيتى فى مجال توفير الأسلحة الحديثة أى الهجومية ، وبسبب الشك الذى يسيطر على البلدين ، وبسبب الوضع الجديد الذى نشأ عقب مؤتمر القمة الأمريكى السوفيتى الذى انعقد قبل ذلك بشهرين . وقد لعبت هذه العوامل كلها دورا فى أصــدار القرار ، ولكن كان ثمة عوامل أخرى لم يتحدث عنها الرئيس ، وأبرزها الأمل فى أن تؤدى هذه الثمرة الضخمة وغير المتوقعة التى القت بها الرياح أمام الدبلوماسية الامريكية الى اغراء الولايات المتحدة على تقديم شىء ما فى المقـابل أى أن تقنع اسرائيل بالموافقة على الدخول فى مفاوضـات للانسحاب من سيناء ومن أراضى محتلة أخرى . وكان هذا ، فى أحسن الأحوال ، فرصة يائسة . فلم يكن ثمة مبرر لأن تعطى أمريكا ثمن شىء لم تسع الى الحصول عليه ، مهما كان تقديرها لهذه الايماءة . ونظرا لأن السادات لم يكن يرغب فى المخاطرة بتسريب أى معلومات عن قراره ، لذلك لم يلمح للأمريكيين عن نواياه قبل اتخاذ القرار . وكان كل ما حدث فى هذا الصدد أن السادات تلقى فى النهاية مذكرة رقيقة من نيكسون كانت أقل كثيرا مما كان يأمل فى الحصول عليه . أما على الصعيد الداخلى ، فان قرار طرد الروس قد أتى أكله ، بالطبع فقد أصبح السادات فجأة أكثر الرؤساء الذين شهدتهم مصر شعبية . ففى جميع أنحاء

البلاد ، كان الناس يمشون والابتسامة على وجوههم ، كما لو أن نصرا كبيرا قد تحقق . وكان هذا هو التعليق الملحوظ على موقف الصديق والحليف المؤيد ومورد السلاح الدولى الأساسى لمصر .

وبالرغم من أن شعبية السادات فى الداخل قد أزاحت احد الأمور المزعجة التى كانت تثير قلقه ، لكنها لم تفعـل شـيئا لمســاعدته على ارغام اسرائيل واضطرارها الى تقديم تنازلات ، الأمر الذى كان ، بحق وكما هو معلن ، مثـار اهتمامه الأول . وكان من المؤكد أن الأنباء التى ترددت عن وجود اتصال سابق مع أمريكا لا أساس لها من الصحة . وكان ما حدث هو أن المسئولين المصريين عقب الانســحاب الروسى بدأوا يلمحون الى أنه ما ان تنتهى انتخابات الرئاســة الأمريكية ، حتى تظهر نتيجة الموقف الأمريكى . ولكن لم يحدث أى شىء بالطبع ، لانه لم يكن قد اتفق على أى شىء . لقد أقدم السادات على تحركه بمفرده ، دون أى ضمانات دولية أو ثنائية .

ومع أن هذا التحرك بدأ فى ذلك الوقت وكأنه خطأ فى التقدير ، فنحن اذا تأملنا أحداث الماضى يمكننا الاعتقاد بأنه أسفر حقا عن نتائج طيبة للغاية . لقد كانت هناك نتائج اضافية أسعدت العســكريين المصريين . مثل النقص المفاجىء فى نوعية معلومات المخابرات الاسرائيلية . فقد كان الروس يسربون اليهم سرا الكثير من المعلومات نظرا لانهم يريدون الابقاء على الوضع الراهن فى المنطقة . وكان هناك ارتفاع فى الروح المنعوية بين القوات المسلحة وبين الشعب المصرى ، وأهم من هذا كله ، أن هذا التحرك هو الذى جعل حرب ١٩٧٣ ممكنة . ذلك لأنه طالما بقى السوفييت على موقفهم بشأن المواجهة ، فان من المتعذر تصور أنهم لن يبلغوا الامريكين أية اشـارة لما كان يجرى أو أنهم سيسمحون لقواتهم العسكرية التى يتراوح عددها بين ١٥ الفا و ٢٠ الفا بالاشتراك فى الحرب . ولو أن هذا قد حدث ، لكان هناك خطر جسيم من أن ترسل أمريكا قوات الى اسرائيل، كما أنه سيكون واضحا أمام تصعيد ما ينبغى أن يبقى نزاعا محليا الى أن يحدث اشتباك عالمى . ولكانت مثل هذه المكاسب اقل كثيرا مما كان السادات يأمل فى الحصول عليه ، وما ان فتر الحماس الذى اقترن بصدور القرار . حتى ترددت تقارير مزعجة عن الضرر الذى نجم عن القرار . ذلك ان المخابرات العسكرية ، بوجه خاص قد حذرت من أن الثقة بمصر كقوة عسكرية قد دمرت بشكل خطير ، وأن اسرائيل تعتقد أن عدوها أصبح الآن أضعف مما كان عليه عندما كان الروس يساعدون الضباط المصريين فى ادارة أجهزة الدفاع الصاروخية المعقدة . ولدحض هذا الاعتقاد ، صدرت الأوامر للجيش بالقيام باســتعراض للقوة أعرابا عن

الاســـتعداد لخوض غمار الحرب . ولذلك فعندما حلقت طائرات الاســـتطلاع الاسرائيلية ، فى المرة التالية ، فوق القناة ، أطلقت صواريخ سام ٢ . وقد نظر الاسرائيليون لهذا الحادث بجدية ، وجرت مناقشـــته فى جلســـة سرية فى الكنيست . وكان استعراض القوة فعالا فى منع قيام اية مهمة اســـتطلاعية اسرائيلية مغامرة فى عمق مصر . ولكن الأمر كان مايزال يتطلب المزيد . ولذلك امر السادات الفريق أول صادق بان يشن الكوماندوز غارة واسعة النطاق على الأراضى التى تحتلها اسرائيل كبرهان على استمرار عزم مصر على خوض المعركة وقدرتها على القتال . ولكن صادق رفض ، وقال ان مثل هذا الاجراء من المحتم أن يسفر عن رد فعل انتقامى اسرائيلى هائل من المرجح أن يأتى عن طريق شن الغارات الجوية ، وانه فى أعقاب الانسحاب الروسى فان نظام الدفاع الصاروخى داخل مصر يعمل بكفاءة تقدر ب ٤٠٪ فقط . ولذلك فمن المشكوك فيه للغاية أن يتم ضرب عدد كبير من الطائرات المهاجمة . وقبل السادات هذا التبرير . ولكنه شعر أن الفريق صادق يتخذ موقفا انهزاميا للغاية . واتخذ السادات من هذا الحادث ذريعة لاحلال الفريق احمد اسماعيل محل الفريق صادق فى أكتوبر من العام نفسه .

وفى الوقت الذى تم فيه استبدال الفريق أول صادق ، أيقن السادات أن طرده للخبراء الروس لن يؤدى الى تحقيق تسوية سلمية ، وأن الأزمة التى نشأت بين البلدين والتى اتسمت بسحب السفراء لم تسفر عن أية فائدة من الناحية الدبلوماسية . ولذلك ، طلب من الرئيس الأسد الذى قام بزيارة لموسكو لمدة يومين فى نهاية شهر سبتمبر أن يتدخل ، وان يشرح للروس ما حاولت مصر ان تفعله . وقد تبع هذا زيارة قام بها الدكتور عزيز صدقى لموسكو وشيئا فشيئا ، أعيدت العلاقات الطبيعية بين البلدين — بالرغم من أن روسيا حاولت الاستفادة من الوضع لتحقيق أحد أهدافها وهو ابعاد محمد حسنين هيكل . فقد كان ينتقد الروس فى صحيفة « الاهرام » طوال الصيف ، وساعد بذلك على خلق المناخ الذى اتخذ فى ظله السادات خطوته الجريئة . وكانت موسكو تعتبر هيكل دائما عدوها اللدود ، ومن أكثر المصريين ذوى النفوذ موالاة للأمريكيين . ولذلك حاولوا مرة أخرى طرده ولكن محاولتهم باءت بالفشل مثل المحاولات السابقة . ذلك أن السادات لم يوافق على ذلك ، وكانت تلك هى الدعوى الأخيرة فى شروط اعادة العلاقات الطبيعية بين البلدين . وبدأت الأسلحة الروسية تتدفق الى مصر مرة ثانية . كما وصل بعض الفنيين الروس ، بالرغم من ان عددهم لم يكن قريبا باى حال من عدد الذين غادروا البلاد من قبل . وكان حوالى ٤٠٠ فنى روسى قد بقوا

فى مصر عندما تم الانسحاب الكبير ، وفى نهاية عام ١٩٧٢ بلغ عددهم الاجمالى الف فنى ، جميعهم ضباط صواريخ واخصائيون فى الالكترونيات . وكما أشار الرئيس السادات بحذر ، فان طرد الروس قضى على خط دعائى مفيد بالنسبة للاسرائيليين . فلو أن الروس كانوا فى مصر عندما بدأت الحرب ، لكانت اسرائيل قد زعمت أنها تقاتل روسيا ، وليس المصريين ولكانت قد استخدمت هذه الذريعة لطلب مزيد من التورط الأمريكى ، وكسب الرأى العام الأوروبى الى جانبها .

وقد وصف السادات أمره باخراج الروس من مصر بانه « صدمة كهربية لايقاظ الصديق » . وكان وصفا مناسبا . فمن المؤكد أن القرار جعل الروس يجلسون فى يقظة ويلاحظون الحقائق . وكان أحد الأمور التى أثرت فيهم هو السرية الكاملة التى اكتنفت الترتيبات التى أعدت لطردهم ، وكفاءة خطط الطوارىء التى وضعها الجيش . فقد اكتشف الضباط السوفييت أن الضباط المصريين تسلموا أعمالهم فى الوقت المتفق عليه من قبـــل ، وكان هناك تنظيم حذر لمراقبة عدم توافر أية فرصة أمام الروس ليقوموا معا بعمل مشترك . وبالاضافة الى ذلك ، لم يسمح لمعظم كبار الضباط الروس فى القيادات المختلفة باستخدام وســـائل الاتصال ، فيما عدا ارسال الأوامر التى يمليها عليهم المصريون . وعندما عاد جميع الروس الى موسكو ، قدموا تقارير عما حدث ، ووصلت هذه التقارير الى الزعماء الســـياسيين ، فأعطتهم انطباعا عن كفاءة المصريين مختلفا عما كانوا يسمعونه من قبل لفترة طويلة من الزمن .

وهكذا ، بدأ الروس ، أيضا ، أعادة تقييمهم لمصر ، ولزعمائها ولسياساتها . وظلوا طوال الصيف يدرسون فيما يتعين أن يكون عليه رد فعلهم . وســـجلت النتيجة تحولا كبيرا فى الرأى الروسى : فقد قرر المخططون أنه سيكون شيئا سيئا اذا ما نشبت حرب صغيرة محدودة فى الشرق الأوسط . ان مثل هذا النزاع سيتيح الفرصة لاختبار الأسلحة الســـوفيتية الجديدة وقياس قدرة القوات العربية، كما انها سوف تثبت للمصريين ان الروس هم فى الواقع حلفاؤهم الأساسيون والوحيدون ، وقد تؤدى هذه الحرب ، فى أحسن الأحوال الى تحقيق الهدف الروسى الخاص باعادة فتح قنـــاة السويس والواقع أنه . عقب اتفـــاق « الوفاق » مع أمريكا ، كان الخطر يبدو ضئيلا من تحول هذه الحرب الى مواجهة بين الدول الكبرى . وفى الوقت نفســـه ، اذا تورطت الدول العربية المنتجة للبترول ، كما يبدوا ذلك محتملا ، فقد يعود هذا بالنفع على الاتحاد السوفييتى من الناحية التجارية والاستراتيجية .

وفى هذا الاطار ، آتت مغامرة السادات أكلها . فقد بدأ الروس يأخذون

موقف العرب ماخـــذ الجدية . فلم يعودوا يصرفون النظر عن كلامهم عن الحرب باعتباره مجرد كلام منمق طنان ، أو يحاولون اثناءهم عن بدء القتال . بل العكس من ذلك ، زاد تدفق الأسلحة لكل من مصر وسوريا . وفى هذه المرة لم تنشر انباء شحنات الأسلحة كما كانت تنشر من قبل . وكانت الأســلحة هذه المرة للاستخدام فى ساحة القتال ، وليس لتحقيق نفوذ سياسى أو اعرابا عن حسن نية الروس . لقد كان ذلك تحولا سياسيا كبيرا ، وبهذا المعنى بدأ الاندفاع لحرب ١٩٧٣ عندما أمر السادات بخروج الروس من مصر ، وبدأ يحصل على قوة دفع منذ الوقت الذى أعاد فيه علاقاته بهم على نحو ودى وواضح وكان ذلك فى شهر اكتوبر .

١١ - فلسطين كقوة سياسية

لم تكن مصر وحدها من بين الدول العربية الدولة التى تعانى من المشكلات مع روسيا . فقد عانت سوريا أيضا من صعوبات مماثلة . ومع ذلك ، فقد كان الفلسطينيون هم الجماعة التى واجهت أكثر من غيرها مشكلات مع روسيا ويرجع ذلك ، الى حد كبير ، الى ان المسئولين السوفييت الذين كان يتعين عليهم التعامل مع الفلسطينيين وجدوا من الصعب عليهم فهم اســباب افتقارهم ال الوحدة وصراعاتهم الدموية الداخلية . ففى وقت ما ، وبينما كان الفدائيون فى الأردن فى القمة فى أعقاب معركة الكرامة ، كان هناك على الأقل ثلاث عشرة منظمة مقاتلة مستقلة ، ومنفصلة تماما عن الكيانات السياسية المختلفة . وعلى حين أن بعضها لم يكن يزيد على خمسين أو مائة شخص . فان كل منظمة كانت تعتبر نفسها الراعى الحقيقى للقضية والمستحق للمساعدة والتأييد . وكان لكل منظمة عقيدتها السياسية الخاصة التى يتعين الدفاع عنها ضد الهجمات الفعلية التى تشنـــها احيانا الجماعات الأخرى . وبالنسبة للروس الذين كانوا دائما المورد الرئيسى للأسلحة للفدائيين كان الأمر يثير حيرتهم . ولم يكن مما يبعث على الدهشة أن عرفات تحدث عقب أحدى زياراته لموسكو عن « الجليد المتجمد » هناك ، وهى اشارة الى الاستقبال الفاتر الذى حظى به والواقع أن عددا قليلا من الأشخاص هم الذين يستطيعون القاء اللوم على السوفييت لموقفهم هذا ذلك أن الفدائيين لم يفشلوا فحسب فى توحيد أنفسهم ، وانما كسروا القواعد الأولى لحرب العصابات . فقد أقاموا ادارات رئاسية عامة وضخمة ، وأنفقوا الكثير من الوقت والمال والجهد على الدعاية ، بينما تجاهلوا القيام بنوع معين من العمليات كان من المحتم أن تسفر ، تبعا للنظريات الكلاسيكية ، عن اندلاع « حرب شـــعبية » داخل الأراضى التى تحتلها اسرائيل .

ولم يكن الخطأ خطأ الزعماء الفلسطينيين وحدهم ، وانمـــا كان نتيجة للظروف التى اضطروا الى العمل فى ظلها . فلم تكن لهم على الاطلاق قاعدة آمنة ، حتى فى تلك الأيام العنيفة التى اعقبت معركة الكـرامة ، وكان ما يزال يتعين عليهم أن ينظروا بحذر الى الحكومة الاردنية والى جيشـــها على نحو ما أثبتته الأحداث التى سرعان ما وقعت بعد ذلك. أما فى سوريا ولبنان ، وهما الدولتان الأخريان اللتان حاول الفـدائيون ان يكون لهم وجود فيها فقـد عانوا نفس الصعوبات : فقد وضعتهم سوريا بهدوء وكفاءة تحت السـيطرة الكاملة لجيشها أما فى لبنان فكانت الحكومة المنقسمة تتردد بين محاولة فرض سلطتها حينا ، وغض النظر فى أحيان أخرى . ونادرا ما كان الفدائيون يعرفون أى الموقفين

سيتخذ فى المرة التالية ، ومن ثم لم يكن فى وسعهم قط التراخى فى يقظتهم . وكان هذا الافتقار الى الاحساس بالأمان يعنى عدم وجود المقومات التى تتميز بها الدولة كدولة . ولذلك اضطر الفدائيون دائما الى العمل بأسلوب شبه سرى . فلم يكن ثمة احتمال قط بأن مثل هذا الوضع يؤدى الى ارساء أساس الوحدة، ومع انعدام وجود أى محور للولاء المشترك فيما عدا فلسطين نفسها ، فقد اتجه الولاء نحو الأفراد الذين يمثلون اراء الرجال المعنيين ــ او الذين كانوا فى الأيام الأولى أقدر الرجال على توفير الاسلحة والزى العسكرى والمرتبات .

وفى فترة ما بين الحربين مرت حركة المقاومة بثلاث مراحل متميزة : المرحلة الأولى استمرت من ١٩٦٨ حتى ١٩٧١ اى من معركة الكرامة حتى الأيام اليائسة الأخيرة من القتال الذى جرى فى التلال الواقعة شمال الأردن عندما سحقت دبابات الملك حسين ، فى النهاية ، قوة الفدائيين العسكرية . وبدأت المرحلة الثانية فى أواخر عام ١٩٧١ باغتيال وصفى التل واستمرت حتى نشوب حرب أكتوبر ــ لقد كانت مرحلة الارهاب ، وهى الفترة التى كانت فيها جماعة « أيلول الأسود » . اكثر تعبيرا عن الفلسطينيين من منظمة التحرير الفلسطينية . وتوازت المرحلة الثالثة لفترة من الوقت ، مع المرحلة الثانية ، وشملت ظهور الفلسطينيين كقوة سياسية ، واستمرت الى ما بعد حرب ١٩٧٣ . وجاءت هذه المرحلة الى حد كبير ، نتيجة للتكتيكات التى أتبعها المتطرفون . وقد أدى رفض المعتدلين للهجمات العشوائية التى قام بها زملاؤهم الى انقسامات عميقة داخل حركة المقاومة ، الأمر الذى مكن ياسر عرفات من القيام بدوره المتوازن المشهور والظهور باعتباره أحسن ممثل للفلسطينيين أثر الحوادث التى كان من الممكن أن تنتهى باختفاء الرجل الذى يتحلى بقدر وافر من الدهاء السياسى .

وأدى تحطيم الأردن للفدائيين باعتبارهم كيانا عسكريا جديرا بالثقة الى التعجيل بوقوع المتغيرات الأخرى كافة . وقد بقى فى شمال الأردن حوالى ألفى فدائى عندما بدأ الجيش هجومه الأخير . وعندما انتهى الهجوم الأردنى لم يبق منهم أحد فقد فر الكثيرون الى سوريا ، وفضل مئات منهم التراجع مستسلمين فى الأراضى الاسرائيلية بدلا من المخاطرة بأن تلقى قوات البدو التابعة للملك حسين القبض عليهم . وانتهى الآخرون فى السجون الأردنية ، وقتل المئات منهم . وكانت هذه هى نهاية وجود المقاومة فى الأردن ، ونهاية الخطر الفدائى على اسرائيل . وتحكى الأرقام هذه القصة : ففى عام ١٩٦٩ قام الفدائيون ب ٤٩٠ عملية ضد الأهداف الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة وداخل اسرائيل نفسها ، وفى عام ١٩٧٢ لم تقع سوى عشر عمليات فدائية .

وقد وجه الفدائيون ، الذين اضطروا الى تقييم الموقف ، أن قيادتهم قد انقسمت على نفسها . فكان صلاح خلف المعروف باسم « ابو أياد » يحبذ التحرك لشن حملة من الرعب العشوائى ، وتفجير القنابل ، والاغتيال واختطاف الطائرات . اما عرفات وخالد حسن (ابو سيد) فقد كانا يريدان اعادة تنظيم المقاومة وان تبدأ عمليات جديدة انطلاقا من جنوب لبنان . وكما يحدث عادة ، تم التوصل الى حل وسط . فقد خفف الفدائيون من وجودهم الملفت للنظر فى المدن والقرى اللبنانية ، بل وحتى فى مخيمات اللاجئين الخمسة عشر الموجودة فى البلاد ، وبداوا يعربون على الأقل عن الولاء المصطنع للسيادة اللبنانية . وفى الوقت نفسه ، كف عرفات ومؤيدوه ، بشكل حذر ، عن مساءلة صلاح خلف عما يقوم به هو وجماعته . وكانت الاجابة ، بالطبع ، هى أنهم كانوا يتحملون مسئولية جماعة «ايلول الاسود» وقد اتخذ صلاح خلف وخليل وزير (أبو جهاد) وآخرون من النقد الذى اعلنه ابو على اياد للأسلوب الذى انتهجته حركة المقاومة فى الأردن وانتقاداته العنيفة للكثيرين من زعماء المقاومة ، مبررا لانشاء المنظمة الجديدة والتى وصفت بحق أنها فى المقام الأول : « تعبير عن موقف فكرى أكثر منها جماعة منظمة » . وكان هذا الوصف صحيحا فى البداية . ولكن الذين سعوا الى استغلالها ترجموا المشاعر الى اجراءات عملية . وقد فعلوا ذلك عن طريق جهاز « الرصد » ، وهو جهاز مخابرات منظمة فتح ، الذى كان يتولى أيضا مهمة اختيار جميع الذين يحتمل تجنيدهم للعمل الفدائى ، ومن ثم كان يضطلع ببراعة بتوجيه الأشخاص الى وحدات سرية أو ثانوية . وكان محمد يوسف النجار هو رئيس جهاز « الرصد » ، ويتولى أيضا مهمة تنظيم العمليات داخل الأراضى المحتلة وهى مسالة كادت تكون مستحيلة فى عام ١٩٧١ . ولذلك رحب بحماس بأى شىء قد يبقى الفدائيين كقوة مقاتلة . وقد قتل وصفى التل فى القاهرة فى أول عملية قامت بها جماعة « أيلول الأسود » ، وهى عملية وافق عليها الزعماء الجدد باعتبارها استرضاء للشبان الذين حلموا فى البدء بالشهرة وأقسموا أن ينتقموا لمقتل « أبو على أياد » .

أما العملية التالية فقد وجهت أيضا ضد شخصية أردنية بارزة هى السيد زيد رفاعى ، الرئيس السابق للديوان الملكى الأردنى ، والذى كان قد عين سفيرا فى لندن غير أن محاولة الأغتيال هذه باءت بالفشل ، ونجا الرفاعى ، وعين فيما بعد رئيسا لوزراء الأردن .وكانت هذه نهاية العمليات التى قامت بها حركة المقاومة ضد الأردن . باستثناء الانقلاب الفاشل الذى قام به أبو داود فى الأردن ، وهى محاولة كانت خطأ مهلكا ، ولم تكن لها صلة ما بالهدف الأساسى وهو الثأر من الملك حسين بسبب أحداث عامى ١٩٧٠ و ١٩٧١ .

وكان واضحا منذ البداية ان جماعة « أيلول الأسود » فرع من « فتح » ، ذلك أن القتلة الأربعة الذين القى القبض عليهم فى القاهرة رفضوا علانية انكار صلتهم « بالمنظمة الأم » . وقد ادلى ابو داود ، عندما القى القبض عليه فى الأردن ، باعتراف مسهب ذكر فيه تفاصيل الهيكل القيادى لجماعة أيلول الأسود ، وذكر اسماء الرجال الذين كانوا يديرونها . وثمة احتمال بانه ادلى باعترافه هذا وهو تحت التعذيب او التهديد بالتعذيب ، ومع ذلك فان الاعتراف قدم صورة كملة ودقيقة للمنظمة. غير انه لم يسفر عن شيء سوى مزيد من تأكيد ما معروف عن المنظمة لدى معظم اجهزة المخابرات فى كل من الشرق الاوسط والغرب . ولم يشكل اى خطورة خاصة على أى من اعضائها . ذلك أن جماعة ايلول الأسود قد تم تشكيلها تبعا لنظام الخلايا الكلاسيكى ، الذى يقضى بان لا يعرف أى عضو أكثر من عضوين أو ثلاثة أعضاء ورئيسه المباشر ووجود سلسلة من الفواصل بين الخلايا ، بحيث تبقى القيادة آمنة لا نعزالها عن الأعضاء العاملين عن طريق الوسطاء وتدين المنظمة بالكثير لتدريب مدرسى ألمانيا الشرقية الذين كانوا خبراء فى هذا النوع من التدريب . وقد تم استدعاؤهم لمساعدة منظمة فتح فى بناء نظام مخابراتها وأنها ، والواقع أن دروسهم قد وضعت موضع التطبيق على نطاق واسع .

وسرعان ما اثبتت جماعة «ايلول الأسود» انها شيء كالوحش وقد وجد هؤلاء الذين أنشأوها ، فى الأصل ، أنه من العسير عليهم للغاية السيطرة عليها ، خاصة وأن الحركة استأثرت بخيال الجماعات ذوى الآراء المتطرفة فى المقاومة . وهكذا ، لم يعد لديها نقص فى الرجال او الأموال او الأسلحة ، وفى المراحل التالية ، كان هناك شك ضئيل فى أن ليبيا تمول الحركة بالرغم من أنها كانت تعترض بشدة على أعمال الجبهة الشعبية التى تعتبرها جبهة شيوعية . وأخيرا ، اختلف صلاح خلف مع جماعة « ايلول الأسود » التى انقسمت الى عدد من الواحدات المستقلة ، وبهذا خرجت من سيطرة قيادة المقاومة كلية . وفى الأيام الاولى ، كانت هناك سيطرة محكمة على جماعة « أيلول الأسود » . وبالرغم من أن الحركة اكتسبت سمعتها من خلال الأحداث الدموية مثل المجزرة التى وقعت فى دورة الألعاب الأوليمبية بميونيخ ، فانها نفذت بعض المهمات التخريبية التى حققت هدفها ، وتمثلت هذه المهمات فى الهجمات على المنشآت البترولية فى ألمانيا الغربية وهولندا فى أوائل عام ١٩٧٢ ، والانفجارات التى وقعت فى معامل تكرير البترول بتريستا فى العام نفسه . كما بدأت جماعة » أيلول الأسود « نقل الحرب الى الاسرائليين ، بمجرد أن وعدت الحكومة الاسرائيلية بنقل الحرب الى الفلسطينيين . فقد بدأت جماعة أيلول الاسود فى ملاحقة رجال المخابرات

الاسرائيلية واعدامهم فى أماكن كثيرة منها لندن وباريس وروما ومدريد وقبرص . وتم اسكات المرشدين من بين ٦٠ ألف عربى يعملون فى أوروبا بطريقة وحشية للغاية لردع الآخرين . وفجاة ، احتلت القضية الفلسطينية مرة أخرى العناوين الرئيسية فى صحف العالم ، على نحو ما خطط زعماء جماعة أيلول الاسود تماما .

وكان هذا هو هدفهم ، أكثر من تحقيق اى مكاسب فعلية من العمليات الفردية : لقد كانوا يريدون اثارة انتباه العالم . ويسعون الى اعادة اشعال روح القتال بين الجماهير الفلسطينية التى استبد بها الهلع منذ الانتصارات الكاسحة التى أحرزها الملك حسين ضد الفدائيين فى الأردن . وكانوا يريدون ايضا التأثير فى سياسات الحكومات العربية واعمالها . ولما كانت جماعة « ايلول الأسود » تمثل اليسار من حركة المقاومة ، لذلك كانوا يؤمنون بالعقيدة الفدائية الكلاسيكية التى تسعى الى استعادة فلسطين كلها للسيطرة العربية ، ويرفضون اية أفكار من شانها استعادة الاراضى العربية المحتلة وحدها ، او جزء فقط من فلسطين. ولذلك ، تم شن عمليات كثيرة فى اوقات اختيرت بدقة لارباك لحكومات وهى فى معمعة مفاوضات دقيقة ، أو فى لحظة قبول بعض صياغات الحل الوسط وكانوا يعترضون بشدة على الأردن والمغرب والسعودية مثل اعتراضهم على اسرائيل . وكان الخلاف الوحيد بين جماعة « أيلول الأسود » والجبهة بزعامة جورج حبشى يتمثل فى الأيدلوجية والتنظيم فقط اما عدو المنظمتين فكان عدوا مشتركا .

وقد سببت هذه السياسة لياسر عرفات متاعب أكثر مما سببت لأى شخص آخر . ذلك أن عرفات كان يستمد دعمه السياسى من الدول التى تعارضها بعنف جماعة « أيلول الأسود » والجبهة الشعبية بعنف . وكان الملك فيصل يوافق على عرفات العضو السابق فى الاخوان المسلمين وذى النزعة المحافظة أساسا ، فى الوقت الذى كان لا يتسامح فيه مع زعماء مثل حبشى : ومن ثم كان من الطبيعى أن يصدم الملك فيصل عندما يتبين ان منظمة « فتح » التى يتزعمها عرفات كانت مسئولة عن جماعة أيلول الأسود ، وكان يتوقع أن يسيطر عرفات عليها . ولكن ، لم يكن فى وسع عرفات ان يفعل ذلك . وكانت اية محاولة من جانبه لضبط سلوك اتباعه من المحتم ان تسفر عن خلعه . ذلك أن الأمور التى كان يعتمد عليها فى الحفاظ على سلطته عندما كان الفدائيون فى الأردن لا يمكن استخدامها فى الوقت الذى لم تعد فيه المقاومة فى الواقع عسكرية ، واصبحت بدلا من ذلك ، نظاما من العصابات الخاصة المتشابكة والمتداخلة بعضها فى بعض. وكان عرفات ما يزال يتدبر الأمر نظرا لأن الجزء الأكبر من الاموال التى تصل الى المقاومة يتم جمعه عن طريقه . وكان عرفات أمينا للغاية ، ولم يكن هناك ادنى

ايحاء الى انه يستفيد شخصيا من هذه الاموال . ولكن كان بوسعه عن طريق السيطرة الوثيقة على الأموال ان يمارس ضغطا كبيرا على الجماعات المتشددة . غير انه من حين لآخر . كانت الأمور بالطبع لا تسير على النحو الذى يهواه لقد كان فى موقف محير ، وخاصة عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعمليات جماعية لاختطاف الطائرات فى بداية حرب ١٩٧٠ فى الاردن. ولم يكن لدى الجبهة الشعبية آنذاك اكثر من ٩٠٫٠٠٠ جنيه فى البنك، مما اضطرها الى التصرف فى الأموال التى يسيطر عليها عرفات الذى بدا ، فى راى بعض المطلعين على بواطن الأمور ، متورطا فى الحوادث التى لم يخطط لها بعناية والتى انطوت على عواقب وخيمة وادت الى الهزيمة العسكرية .

ان امور مثل الافتقار الى الاموال لم توقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على الاطلاق عن المضى فى تنفيذ ما تعتقد أنه مفيد . ذلك أنه اذا كانت جماعة « أيلول الأسود » قد وصفت فى وقت ما بأنها موقف فكرى، فان الجبهة الشعبية كانت دائما ثورة فى العمل ، ولم تكن ثورة فلسطينية بصفة خاصة ، وانما ثورة عالمية بشكل عام. فقد كانت الجبهة الشعبية ملتزمة التزاما شديدا بالعقيدة الماركسية، ومن ثم مهتمة بالأحداث التى تجرى فى آسيا او أوروبا مثل اهتمامها بسيناء أو الجولان . لقد كانت اكثر حركات المقاومة التزاما وتفانيا فى تنفيذ معتقداتها ، كما كانت أكثرها عالمية على نحو ما يبدو من عملياتها . فقد اشترك عضوان من « الفهود السوداء » فى الهجوم على ناقلة البترول « كورال سى » فى البحر الأحمر عام ١٩٧١ ، أبحرا مع فلسطينين من أعضاء الجبهة الشعبية من عدن فى قارب بخارى صغير واعترضوا ناقلة البترول وأطلقوا عليها النيران التى دمرت أجزاء منها . ثم قفلوا راجعين الى جزيرة بريم حيث استقبلهم اليمنيون استقبالا فاترا ، اذ كان اليمنيون على استعداد للسماح للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بان تجند اعدادا كبيرة وأن تفتح مكتبا للدعاية فى أرضها ، ولكنهم كانوا غير واثقين من التدخل فى طرق الملاحة الدولية يعتبر فكرة طيبة فى تلك المرحلة . ومرة أخرى ، قام أعضاء الجيش الاحمر اليابانى بتنفيذ مجزرة مطار اللد الاسرائيلى ، عندما أطلقوا النيران على المسافرين بلا تفرقة فى صالة المطار فقتلوا ٢٦ شخصا وأصابوا أكثر من مائة آخرين بجراح . وفى وقت مبكر ، اشترك باتريك أرجيللو ، من أعضاء حركة حرب العصابات فى نيكاراجوا ، مع ليلى خالد ، التى كانت تتمتع بشهرة واسعة ، فى محاولة اختطاف طائرة تابعة لشركة العال الاسرائيلية من تل أبيب ولندن فى عام ١٩٧٠ .

ان الطابع الدولى لهذا الارهاب لم يظهر مصادفة ، وانما نبع من المعتقدات

السياسية للمنظمة ، والاسلوب الذى أنشئت عليه والسياسة المتعمدة للزعيم ، جورج حبشى . لقد كانت الحروب الشعبية لتحرير فلسطين فرعا من حركة القوميين العرب التى أنشأها حبشى فى عام ١٩٥٣ عقب تخرجه من كلية الطب بالجامعة الأمريكية فى بيروت . وكان الرجل الذى أصبح نائبا له ورئيسا للعمليات هو الدكتور وديع حداد أحد المؤسسين مع حبشى . وقد ازدهرت حركة القوميين العرب بالرغم من أنها كانت واحدة بين عشرات الاحزاب السياسية الجديدة التى تم تكوينها فى ذلك الوقت . وكانت قوتها تكمن فى الشبان الذين جذبتهم اليها . وكان خريجو الجامعة الأمريكية فى بيروت الذين ينتمون الى بلاد مختلفة يجدون عند عودتهم الى اوطانهم فروعا للمنظمة – وهى فروع سرعان ما أصبحت خلايا سرية عندما فطنت الحكومات الى الطبيعة الثورية لهذا التنظيم الجديد . وقد ذهب حبشى الى الاردن حيث فتح عيادة أتاحت له التعرف على النـاس بينما كان يعالج آلامهم ، وكان حبشى يوزع الافكار والدواء معا وسرعان ما كون فى الاردن تنظيما صلبا . وكثيرا ما عاد الذين كانوا قد جاؤا من الضفة الغربية أو اسرائيل قبل عام ١٩٦٧ ، عادوا الى بلادهم بفلسفة جديدة وتعليمات بان يكونوا جماعاتهم الخاصة . وكان هؤلاء « النائمون » هم الذين استيقظوا عقب حرب يونيو ٦٧ وسببوا الكثير من المتاعب لاسرائيل ، وبخاصة فى قطاع غزة . وفى تلك المرحلة ، كانت حركة القوميين العرب نفسها هى التى تعمل تحت اسم شامخ هو « أبطال العودة » ، غير أن هؤلاء الابطال اندمجوا فى أعقاب حرب عام ١٩٦٧ ، مع جماعتين صغيرتين يساريتين وشكلوا معا الجبهة الشعبية التى كانت حتى عام ١٩٧٠ أكثر المنظمات الفدائية نشاطا . وقد دخلت بعد ذلك فى منافسة مع جماعة « أيلول الاسود » فى استخدام أساليب الارهاب .

ان جورج حبشى ليس الديماجوجى الذى يصور أحيانا على هذا النحو : انه متحدث هادىء ولا يظهر أحسن ما عنده فى الاجتماعات الجماهيرية . وهو مسيحى ، بالرغم من أنه استولى على خيال الشبان العرب ، الا أن هذا لم يكن يعنى أن فى وسعه جذب الجماهير وراءه ، كما أنه لم يكن فى مثل المكانة التى يحتلها عرفات فى الشئون العربية الداخلية . ولتعويض ذلك ، أقدم على انجاز شىء لم يكن فى وسع زعماء المقاومة الآخرين انجازه : لقد عمل على تدويل الصراع وبدأ تحركاته الاولى فى هذا الاتجاه فى مؤتمر عقدته حركة القوميين العرب فى عدن عام ١٩٦٨ واشترك فيه عدد من « المراقبين » من دول « ثورية » أخرى . وقام بعد ذلك فى عام ١٩٧٠ بجولة زار خلالها فيتنام الشمالية وكوريا الشمالية وغيرهما من المراكز الآسيوية . وكان عرفات وغيره من زعماء المقاومة الذين كانوا موجودين فى عمان خلال القتال الرهيب الذى دار هناك ينتقدون حبشى لغيابه عن الساحة

وعدم اتخاذه اى اجراء للعودة . وكان كثيرون من الذين يعتقدون أن عدم اهتمام حبشى الواضح بالاحداث التى تقع على عتبة بيته ، سوف تسفر عن تدمير خطير لمكانته ، كانوا لا يقدرون أن أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ليسوا مثل الفدائيين الآخرين . لقد كانوا يفهمون ويوافقون على كل ما يفعله زعيمهم ، ويدركون ان جولته الناجحة للغاية أكثر اهمية من اشتباك لا ضرورة له للاعراب عن القوة او البسالة الشخصية ـ وهو أمر لم يرتب فيه أحد على الاطلاق . ولم تسفر اتصالات حبشى عن اشتراك الجيش الاحمر اليابانى فى الاعمال الارهابية فحسب ، ولكنها ايضا وضعت الأسس التى ترتكز عليها جماعة ايلول الاسود فقد اقام حبشى علاقات مع ثوريين متباينين مثل جماعة « بادرماينهوف » فى المانيا الغربية وجماعة « جيف دنك » فى تركيا ، كما ضمن أن المتعاطفين مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين او الاعضاء النشطين فيها هم الذين سيطروا على الاتحاد العام لعمال فلسطين، وهو احد المنظمتين الفلسطينيين الرئيسيتين فى اوروبا . وفى السنوات من عام ١٩٧١ ، عندما كان الارهاب هو العمل الباقى الوحيد كان فى وسع كل من جماعة ايلول الاسود والجبهة الشعبية ان تطالب مساعدة هذه المجموعات المختلفة كلما عن لها تنفيذ عملياتها . اذ انه فى ذلك الوقت كان خطوط التقسيم بينهما غير واضحة. وكان فى وسع جماعة ايلول الاسود ان تجند احد رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للقيام بعمل خاص . وفى احدى هذه المناسبات ، اسفر هذا التحرك عن نتيجة لم تكن متوقعة . فقد قام عضوان فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف طائرة تابعة لشركة « لوفت هانزا » لضمان اطلاق سراح فدائى جماعة أيلول الاسود المحتجزين فى ألمانيا الغربية أثر عمليات القتل التى جرت فى الدورة الأوليمبية فى ميونخ . وتمت عملية اختطاف الطائرة بنجاح ، واستسلم الألمان بسرعة ، وطار مختطفا الطائرة ورفاقهم الى ليبيا ، ورحب بهم العقيد القذافى وعوملوا معاملة رسمية : ثم استجوبوا بروح ودية للغاية ، وكان من الطبيعى أن يكشف عضوا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عن ولائهما ، وعلى الفور أودعوا السجن فى طرابلس . ذلك أن العقيد القذافى يفضل الارهابيين اليمنيين فقط ، وليست له أية صلة « بالشيوعيين فى الجبهة الشعبية حتى لو وافق على انجازاتهم وصفق لها .

ومثلما نبعت قوة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من الخط الثورى المتشدد، ورؤيتها الواضحة عن الثورة الفلسطينية باعتبارها فقط جزء من نضال اكبر ، من هنا ايضا نبعت عيوبها. وكان أكبر هذه العيوب الميل المستمر الى الانشقاق، فقد أدى تشجيع للمناقشات والنقد الذاتى على المستوى الرسمى الى تقديرات جديدة للسياسة ، وأفكار جديدة للتعامل مع الظروف المتغيرة ، وولاءات جديدة .

وكانت اكثر الجماعات المنشقة أهمية هى الجبهة الديموقراطية الشعبية بزعامة نايف حواتمة ، وهو أكثر الزعماء الفلسطينيين قدرة على التفكير العقلى المركز . وقد اتهم حبشى بانه يمثل « البرجوازية الصغيرة » فحسب وحدد حواتمة موقفة الخاص بأنه « يسار اليسار » . وقد حاول حبشى فى البداية ، القضاء على هذه الجماعة المنافسة بالقوة . فجرت المعارك بينهما فى شوارع عمان ، مما اضطر «فتح» الى التدخل فيها لاعادة السلام. واخيرا، وافقت الجماعتان على التعايش فيما بينهما ، فى الوقت الذى سمح فيه حبشى أيضا لأحمد جبريل بالمضى فى طريقه الخاص عندما شكل هذا الضابط السابق فى الجيش السورى تنظيمه ذا الاسم الغريب « الجبهة الشعبية : القيادة العامة » . وكان جبريل قائدا ممتازا ، ولم يكن لديه وقت للمناقشات الايدلوجية الملتوية التى يشترك فيها زملاؤه : لقد كان يريد قتال الاسرائيليين اينما وجدوا ، وكان هذا كل ما فى الأمر . ومن ثم، كون جماعته ليقوم بذلك . ولم يبذل حبشى أية محاولة لوقفه عن المضى فى هذا الطريق ، بيد انه قام بعمليات قتالية بأسلوبه الخاص اكثر من تلك التى كان سيقوم بها لو بقى فى الجبهة الشعبية . فقد كان جبريل هو الذى نظم أحسن مقاومة عندما غزت القوات الاسرائيلية لبنان ، الأمر الذى كثيرا ما تفعله ، وقد جذب ببسالته العسكرية عددا من المقاتلين من المنظمات الأخرى .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن حواتمه يسيطر على عدد كبير من الاشخاص . اذ كان يرى أن دوره يتمثل الى حد كبير فى قيادة الجماعة المنشطة للثورة ، وعمل بنجاح بالغ بصفته هذه . فقد كان رجال الجبهة الديمقراطية هم الذين دبروا الهجوم على موكب الملك حسين بينما كان متجها الى مطار عمان فى سبتمبر ١٩٧٠ فى محاولة متعمدة لتحقيق المواجهة التى اعتبرها حواتمة امراحيويا. وكان مبرر هذا العمل الاستفزازى واضحا ، فقد كان حواتمة يعتقد أن حركة المقاومة كلها قد غاصت فى مستنقع الجدل التافه ، والسياسات العربية الداخلية ، وأصبحت تمثل نمط « الثورة البرجوازية » التى يزدريها . وكان يتعين عليه أن يعجل بنشوب ازمة حتى يتسنى لحركة المقاومة كلها ، وليس لجماعته فقط ، ان تخرج منها أقوى وأكثر قدرة على السير فى الطريق الثورى « الصحيح » . وكان هذا النوع من المنطق هو الذى دفع الآخرين فيما بعد الى القيام بهجمات ارهابية عشية انعقاد المؤتمرات العربية أو أى اجتماعات عامة فى محاولة لمنع « الحلول الانهزامية » أو التسويات التى تترك الفلسطينيين بأقل من العودة الى وطنهم كله . ولم تعمل جماعة حواتمة باعتبارها عاملا مساعدا على التفاعل فى الاردن وحده ، ذلك أن رجال الجبهة الديمقراطية ، وبنفس الاسلوب تماما ، هم الذين

أثاروا الازمة فى لبنان فى مايو ١٩٧٣ عندما جرى القتال بين الجيش اللبنانى والفلسطينيين فى ضواحى بيروت ٠

والواقع ، أن الفدائيين اضطروا فى لبنان الى القتال بعنف دفاعا عن استمرار وجودهم ، فقد تنكرت لهم الاردن ذات يوم ، واوضحت ســوريا عن عزمها على تنظيم نشاطهم بشكل محكم ، ومن ثم لم يبق سوى جنوب لبنان كمنطقة انطلاق لهجماتهم فى الأراضى العربية التى تحتلها اسرائيل ٠ أما بقية لبنان فكان المكان الوحيد الممكن أن توجد فيه معســكرات التدريب ، ومقر القيــادات ومكاتب الدعاية ، وغيرها ٠ وقد شكل هذا الامر ورطة رهيبة للحكومة اللبنانية ٠ وذلك ان لبنان يتمتع بوضع فريد فى لعالم العربى ، اذ انه يتكون من عدد مساو تقريبا من المسلمين والمسيحيين ، ويتبع نظامه السياسى والاجتماعى من هذه الحقيقة. ومن ثم ، فان لبنان بلد يحكم عن طريق الحل الوسط : اذ تنقسم الحكومة بعناية بين الجماعات الدينية المختلفة تبعا للخطوط الموضوعة فى الميثاق الوطنى ٠ كما ينقسم بالمثل ، نظريا على الاقل ، الجيش والوظائف المدنية ومن هذا الوضع تتبع سياسات البلاد ، وهى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة الدينية ٠ ففى لبنان يعتبر الذهاب الى الكنيسة أو المسجد بمثابة مظاهرة سياسية ٠ ويغدو الاحتفال بأعياد المسيحيين او المسلمين مناسبة لاظهار القوة من طرف أو آخر ٠ ولذلك ، فان استمرار هذا التوازن الدقيق فى اطاره الخاص من الصعوبة بمكان ٠ وقد ازداد سوءا عندما اضيف الفلسطينيون الى المعادلة : ان ثلاثمائة الف فلسطينى قد انضموا الى بلد يبلغ عدد سكانه مليونين وما يزال تسعون الفا من الفلسطينيين يعيشون فى ظروف رهيبة فى مخيمات اللاجئين الخمسة عشر المنتشرة حول المدن الكبرى وفى بيروت نفسها ، يوجد مخيمات على مرمى قنبلة يدوية من المطار الدولى ، على النحو الذى وصفه الفدائيون وبينوه عدة مرات .

وقد قررت اسرائيل بسرعة بالغة احتمالات الموقف ، عقب الخطأ الاول الذى ارتكبته بشن « غارة عقاب » على مطار بيروت فى عام ١٩٦٨ ، وهى الغارة التى أسفرت عن توجيه انتقاد من جانب معظم دول العالم لاسرائيل ٠ وبعد ذلك ، كان يجرى بدقة اعداد الهجمات الاسرائيلية لدفع الحكومة اللبنانية الى القيام بمهمة ضبط حركة المقاومة وهو ما لم تكن اسرائيل تستطيع القيام به فى وضعها الحالى ذلك أن هجوم بعض الفدائيين على الجليل الاعلى كان يتبعه قصف اسرائيلى شديد على القرى اللبنانية الواقعة على الحدود ، ومن الطبيعى ان يسفر هذا عن مطالبة السكان للحكومة فى بيروت بأن تكفل لهم الحماية او يطالبونها بابعاد الفدائيين باعتبارهم أساس المتاعب ٠ وكان للغارات التى تشنها اسرائيل فى

عمق البلاد ، أو عمليات غزو « الجنود أثر مماثل وان كان اكثر وضوحا ٠ وكانت المشكلة تتمثل فى ان الحكومة اللبنانية لا تستطيع ان تضع سياسة متماسكة ومستمرة للتعامل حسب الحالة الراهنة ، اذ انها كانت دائما منقسمة على نفسها بسبب نظام توزيع الوزارات تبعا للأساس « الدينى » ٠ وفى المرات النادرة التى وافقت فيها الحكومة على اجراء معين ، فقد كان الشعب لا يوافق عليه ٠

لذلك ، كان الفدائيون مضطرين الى القتال فى لبنان أكثر من قتالهم فى اسرائيل وفى عام ١٩٦٩ ، وهى المرة الأولى التى نشب فيها صراع حقيقى فى البلاد ، كانوا يقاتلون من أجل هدف عسكرى : لقد كان عليهم أن يحافظوا على خطوط امداداتهم مفتوحة من سوريا عبر منطقة العرقوب ، قاعدتهم الرئيسية آنذاك. وكان «طريق عرفات»، كما يسمى الآن ، يقع عبر الحدود اللبنانية عند قرية تسمى دير الاشاية ثم ينعطف على امتداد الحدود المكشوفة المواجهة للبنان حتى معسكرات الفدائيين فى الجنوب. وكان فى استطاعة الجيش اللبنانى ان يسيطر على هذا الطريق طالما أن قواته تسيطر على مدينة راشيا الواقعة فى مفترق الطرق، وكانت هذه القوات حرة فى التحرك فى الطرق الموازية لطريق الفدائيين ، وكان فى وسع اللبنانيين تنظيم كمية ونوع المواد التى تدخل البــلاد ، اذا ما ظلوا مسيطرين على هذه الاماكن ٠ ولذلك استولى الفدائيون على عدد من قرى الحدود اللبنانية ، وقام رجال من جيش التحرير الفلسطينى وقوات الصاعقه بالجانب الاكبر من عمليات الاستيلاء هذه ٠ كما حاولوا السيطرة على مدينة راشيا وكان عملا ميئوسا منه، فقد كان الجيش اللبنانى يقاتل من قلعة قديمة موجودة هناك. وقد صمدت المدينة بسهولة للهجمات العنيفة التى قام بها الفدائيون ، واستطاع الجنود الذين فى داخلها الحاق خسائر فادحة بالفدائيين ٠ وما هو أهم من هذا كله ، من جهة نظر قادة الجيش اللبنانى هو أن الجنود المسلمين لم يترددوا فى القتال ضد الفدائيين ، وكان أحد الضباط المسلمين برتبة نقيب يتولى قيادة سرية كانت تعسكر بالقرب من راشيا ، وقرب نهاية القتال تجاوز تعليماته بالهجوم على المواقع التى يطلق منها الفدائيون مدافع المورتار فى التلال ، وذلك بعد أن أبلغ بعدم الرد الا اذا هوجم شخصيا ٠ وقد أوضح ، فيما بعد ، أنه تصرف من وجهة نظر عسكرية بحتة ٠ وقال بقوة أنه كان « سيطهر » جميع المواقع التى تطلق منها مدافع المورتار على رجاله ، حتى ولو كان الذين يطلقون هذه المدافع فصيلة من علماء المسلمين ٠

وهكذا ، وقد اثبت الجيش، وفى تلك المرة ، وفى غيرها من المناسبات ، قدرته ورغبته فى التصدى للفدائيين ، لكنه لم يسمح له باخضاعهم كلية ، لأن ذلك كان يعنى استئناف الحرب الاهلية التى كادت تدمر لبنان فى عام ١٩٥٨ ٠

وبشكل عام ، كان المسلمون ينتمون الى الاحزاب اليسارية التى تؤيد الفلسطينيين
تأييدا صادقا ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى أن المسلمين كانوا الفئة المحرومة بين
السكان . وكان المسيحيون ، بصورة عامة ، ينتمون الى الاحزاب اليمينية التى
كانت لا تبدى اعتراضها على محاولات الفلسطينيين استرداد وطنهم ، الا أنهم لم
يوافقوا على الأسباب التى تجعل الفلسطينيين يتوقعون ان تمنحهم لبنـــان
المحايدة،بشكل تقليدى ، والضعيفة قاعدة آمنة يعملون منها . وقد اوجز زعماء
اليسار واليمين هذين الموقفين بوضوح وذلك فى اكتوبر ١٩٦٩ . فقد قال كمال
جنبلاط ، الاشتراكى ، ان الرئيس شارل حلو كان يحاول اعادة عقارب الساعة
الى عام ١٩٥٨ ، بينما قال بيير الجميل ، زعيم حزب الكتائب ، أنه يجب معاملة
الفدائيين فى لبنان مثلما يعاملون فى العراق وســوريا ومصر وانه لا يتعين ان
يدعوا أحد لبنان الى تقديم اكثر مما تستطيع .

لقد كانت النتائج الملموسة عنيفة للغاية . ففى عام ١٩٦٩ ، ومرة اخرى،
عندما ثارت الأزمات الاخرى بين لبنان والفدائيين ، كان المؤيدون من الطرفين
يخرجون الى الشوارع ، وفى لبنان حيث يوجد سلاح صغير على الاقل لدى كل
رجل وامراة وطفل ، وكان هذا الأمر يشكل خطورة كبيرة اكثر مما لو كان فى
بلاد أقل كثافة فى التسليح . كما كان يعنى أن شبح الحرب الاهلية ما يزال
قائما،ولذلك كان يتعين ايجاد تسوية سريعة للنقطة موضوع الخلاف قبل تحديد
خطوط المعركة . وفى عام ١٩٦٩ ، أسفر القتال عن « اتفاق القاهرة » . وهى
وثيقه تم التوصل اليها عن طريق التفاوض بين عرفات واللواء أميل البستانى قائد
الجيش اللبنانى وبفضل المساعى الحميدة للمسئولين المصريين وضـــغط الرئيس
ناصر . وكان من المفترض أن يعمل هذا الاتفاق على تنظيم النشاط الفدائى فى
البلاد ، وتحديد المناطق التى يمكن للفدائيين العمل فيها ، وتوفر أسس تسوية
الخلافات فى المستقبل . ولقد كان ذلك تعبيرا نموذجيا عن الحل الوسط اللبنانى .
ومما لا شك فيه أن هذا الاتفاق كان سيسرى تنفيذه بشكل طيب بدون التدخل
الاسرائيلى ولكن اسرائيل كانت تدرك ذلك أكثر من أى طرف آخر ، ولم يكن
لديها أية نية للسماح للفدائيين بدعم مواقعهم . ولذلك مارست الضغط على لبنان
عن طريق شن الغارات على حدودها والهجمات الجوية وأى شىء آخر تراه مفيدا فى
ذلك الوقت ، مما اضطر الحكومة اللبنانية الى التحلل تدريجيا من الحقوق التى
منحتها للفدائيين لصالح الحفاظ على التوازن غير المستقر فى البلاد . ومن الأمور
ذات الدلالة الهامة ، أن الزعماء اليساريين فى لبنان بدأوا شيئا فشيئا يتحدثوا
عن الأهمية النسبية للنشاط الفدائى والوحدة الوطنية ، وانحازوا بشدة الى
جانب الوجود المستمر لبلادهم . وقد نتج هذا ، جزئيا ، عن الضغط الاسرائيلى،

ومع ذلك فقد نبع أيضا من الدور غير الفعال بشكل واضح الذى كان الفدائيون
يقومون به . ذلك ان مدافعهم وأسلحتهم الثقيلة التى كانت تسببت المتاعب فى
لبنان ، من حين الى آخر ، نادرا ما كانت تستخدم ضد اسرائيل . وكان زعماؤهم
يقضون فى الشجار الدائر بينهم وقتا أطول مما يقضونه فى توجيه رجالهم وكانت
سياساتهم تبدو فى نظر معظم اللبنانيين العمليين تسير فى اتجاه من شأنه عرقلة
اية تحركات نحو التسوية الأمر الذى يحبذه اللبنانيون اذ انهم كانوا فى الواقع
يسعون الى ذلك وقد استطاع الفدائيون البقاء بالرغم من كل هـــذا ، ولكنهم
بقوا كفكرة أكثر منهم كقوة مقاتلة . وفى كل مرة كان الاسرائيليون لا يتخذون
منها عملاما ، كان يتبع ذلك اجراءات لبنانية جديدة للحد من حرية الفدائيين ،
حتى أنه عند حلول نهاية عام ١٩٧٢ لم يكن فى جنوب البلاد أى وجود حقيقى
للمقاومة وفى ذلك العالم ، شنت اسرائيل غزوها الكبير الذى احتلت فيه الجنوب
مدة ثلاثة أيام وتبع ذلك تحرك الجيش اللبنانى على الفور الى العرقوب والقضاء
نهائيا على قواعد المقاومة الدائمة هناك . وبالرغم من أن العملية الاسرائيلية كانت
سيئة التنظيم وتم تنفيذها فى ذلك الوقت بطريقة سيئة وغير فعالة ، فانهـــا
حققت هدفهـــا .

ومن المرجح أن الوجود الفدائى فى جنوب لبنان لم يكن يزيد قط على الفى
رجل،بل عادة ما كان عددهم اقل من ذلك بكثير . ولكن ، مثلما كان الأمر فى الأردن،
كان لدى المقاومة قوات ميليشيا تتحرك الى العمل فى وقت الأزمات . وكان هؤلاء
المقاتلون غير المتفرغين يفتقرون الى الكفاءة فى مواجهة الاسرائيليين . فقد ظهر مئات
منهم خلال الغزو الاسرائيلى عام ١٩٧٢ حول صيدا واندفعوا الى حيثما اعتقدوا
بوجود الجبهة ، واتجهوا مسرعين وفى غير نظام مستقلين سيارات مدنية كنوع من
التمويه الأمر الذى كان يشكل خطرا عليهم وعلى العابرين فى الطريق غير أنه لم
ينجم أى ضرر من أسلحتهم ، اللهم الا اذا انطلقت هذه الأسلحة بالصدفة لتصيب
بعض العابرين بجراح . وقد اعتبرهم الجيش اللبنانى شـــيئا مزعجا ، وكان
الاسرائيليون يقصفونهم بسعادة كلما وقعوا فى مرمى أســـلحتهم . ومنذ تلك
اللحظة ، كف الفدائيون عن محاولة أظهار قوتهم على طول الحدود ، وانسحبوا الى
مخيمات اللاجئين التى كانت تعتبر حصونهم الأخيرة . ولم يكن فى لبنان أكثر من
حـــوالى مائتى فدائى « متفرغ » فى عام ١٩٧٣ ، معظمهم ممن يقومون بالدعاية
والأعمال الكتابية وما شابه ذلك . ولم يكن يحمل السلاح منهم ســـوى عدد
ضئيل ممن يعملون فى حراسة المكاتب المختلفة ، أو للتأثير على الزائرين الغربيين
العابرين . أما فى المخيمات فكانت الميليشيا موجودة ، وما تزال تدين بالولاء
للمنظمات المختلفة ، وهى قادرة على اثارة اضطراب حقيقى عندما تكلف بذلك .
وحتى لو ساعد ذلك على أحداث اضطراب بين الطوائف اللبنانية المختلفة .

وفى الوقت الذى كانت فيه القوة العسكرية للفدائيين تضعف ، كان زعماء المقاومة يزدادون قوة فى المجال السياسى . وقد فاز ياسر عرفات أخيرا فى الصراع الطويل من أجل السيطرة الكاملة عندما قضى على محاولة خالد الحسن تولى رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٢ . وكان الحسن ، وهو يمنى ، اختارته مصر للزعامة ، قد تعهد بتطهير حركة المقاومة من الجماعات المتطرفة التى سببت الكثير من المتاعب ، والتى ظهر ان عرفات ليست له قدرة على السيطرة عليها . وكانت المملكة العربية السعودية تؤيد الحسن ايضا ، ومن ثم كان من المؤكد أن يضمن التدخل الفعال لهاتين الدولتين فوز الحسن فى الانتخابات . ومع ذلك فان عرفات لم تكن لدية أية نية للتخلى عن القيادة ، ولذلك استطاع عبر سلسلة من الاجتماعات السريعة أن يشكل على نحو مرتجل ائتلافا جديدا من الوسط ، ووعد بتوفير حرية العمل للجناح اليسارى ، وأكد لليمنيين أنه سيعمل على انضمام المقاومة بحسم مع مصر . وهكذا تجنب محاولة أخرى لخلعه من منصبه . فقد أعيد انتخابات عرفات بأغلبية كبيرة فى اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى فى يناير ١٩٧٣ ، وكان ان استقال خالد الحسن من جميع مناصبه الرسمية ليكرس نفسه كلية للعمل فى منظمة « فتح » .

ولم يكن هذا هو العصيان الأول الذى واجهه عرفات وقضى عليه ، ومع ذلك فقد كان اخطرها على الصعيد السياسى ، وعكس الاستياء العميق داخل حركة المقاومة من أسلوبه فى القيادة . وكان عرفات قد قضى ، فى فترة مبكرة ، على تمرد مسلح حقيقى عندما رفض قادة فتح الشبان فى لبنان سلطته ، وحاولوا جعل أنفسهم قادة عسكريين ، واختاروا حمدان عاشور قائدا جديدا لهم . وفى البداية ، وعندما كان مخيم تل الزعتر القريب من بيروت مقرا لقيادات الجماعة المنشقة ، حاول عرفات القضاء على الخلاف بأسلوبه المعتاد وهو التوصل الى حل وسط وذلك عن طريق منح القادة العسكريين المعنيين مزيدا من الاستقلال الذاتى ولكن أتباع عاشور رفضوا قبول الضمانات المجددة ، وبدأوا فى تنظيم منظمتهم الخاصة ، وشرعوا فى مغامراتهم العسكرية . عندئذ ، اضطر عرفات الى قمع هذه الحركة بالقوة ، وقد فعل ذلك بالاستعانة برجال قيادة النضال المسلح ، وهى قوات فتح الذين وعدوا بالحصول على مكافآت مختلفة مقابل مساعدتهم ، كما استعان بتدخل السيد محمد يزيد السفير الجزائرى فى لبنان الذى وقف الى جانب عرفات معتقدا أن عرفات أكثر حنكة من الناحية السياسية مما سيكون عليه عاشور الذى لم يختبر بعد من الناحية العسكرية . وأخيرا ، ذهب عاشور الى بغداد ، ووجد ملاذه فى الفرقة التابعة للجبهة الشعبية الديمقراطية هناك .

ان كثيرا من المتاعب التى تنشأ داخل حركة المقاومة تنبع من الصراع بين

رؤية عرفات ورؤية أتباعه لما ينبغى أن تكون عليه الأمور ، اذ يعتقد عرفات أن الظهور أمام الملأ ضرورى اذا تولد فلسطين من جديد : ومن ثم كان يعتقد ، وقد ثبت صحة اعتقاده، انزياراته المستمرة والمعلنةبشكل واضح للعواصم العربية، واجتماعاته المنتظمة مع المسئولين والسياسيين فى انحاء العالم كافة ،والاعلانات والبيانات واشاعة انطباع عام بالانشغال فى العمل ، كل هذه الأمور تماثل فى أهميتها تماما القتال الفعلى ضد اسرائيل . وقد أدرك عرفات ، قبل أن يدرك الآخرون بوقت طويل ، أنه فى ظل الظروف السائدة فى الشرق الأوسط ، لا يوجد ثمة أمل على الاطلاق فى شن « حرب شعبية » ناجحة ، أو فى تصعيد حملة فدائية بكثافة كافية لتحقيق أى تأثير على اسرائيل . ولذلك استقررأيه على العمل على ابراز حقيقة فلسطين ، وأظهار أن فلسطين والفلسطينيين مازالوا موجودين عن طريق التظاهر بأن هناك حكومة تمارس مقاليد الحكم . وكانت هذه ، فى الواقع ، نفس الرسالة التى يؤكدها الجماعات المتطرفة فى كل مرة يقومون فيها بعملية ارهابيه . وكان كل من عرفات والقتلة وقاذفى القنابل يلكزون العالم فى جنباته قائلين : « انظروا ، هؤلاء الفلسطينيون الملعونون مايزالون موجودين » . وبالنسبة للارهابيين ، فقد كان رد الفعل العالمى تعبيرا عن الاستياء والفزع . أما بالنسبة لعرفات فكان الناس يرون فيه رجلا كرس نفسه لقضية يمكنهم فهمها ، وبمرور السنين أصبح معترفا به من جانب العناصر المعتدلة الذين حازوا القبول تدريجيا باعتبارهم الزعماء المسئولين المحتملين فى حالة بعث فلسطين وقيامها . وكانت حيلة سياسية لها اهميتها ،وبداية لتحول مدروس وهائل قام به عرفات بالنسبة للأفكار التى وفرت للحركة فى البداية قوتها الدافعة الكبرى عام ١٩٦٨ . وعند حلول عام ١٩٧٣ ، اقترب عرفات من قبول الرأى القائل أنه القوة ، فى الشرق الأوسط ، تستمد من القمة وليس من فوهة البندقية . وأيقن عرفات أن فى وسعه تحقيق المزيد عن طريق الحصول على مساندة الحكومات العربية أكثر مما يأمل فى تحقيقه عن طريق الجهود التى يبذلها مؤيدوه المسلحون . وفى الواقع ، فقد كان هذا الموقف يعتبر ، من جانب تحولا بالاكراه : ذلك أنه ما ان تولى الرئيس سليمان فرنجية السلطة فى لبنان عام ١٩٧٠ ، حتى واجهت المقاومة رجلا من طراز مختلف للغاية عن الرئيس حلو الذى اتخذ مواقف غير ثابتة فى تعامله مع المشكلةالفلسطينيةطوال مدة رئاستهالتى استغرقت ست سنوات. أما فرنجية فكان يمثل شخصية«الاب الروحى»، فهو رجل صارم من شمال لبنان وقد تفهم كل شىء عن فوائد السلطة ، وأوضح أنه طالما كان يتولى السلطة ، فان لبنان ستكون فى المرتبة الأولى . وكان مستعدا تماما لتملق جميع الأطراف الفلسطينية ، وكان يفعل هذا من حين الى آخر وكان هذا كل ما فى الأمر . وعندما كان الفلسطينيون يخرجون على الخط المرسوم لهم ، كان يحذرهم بأن فى أمكانه الضرب بشدة ، وأوضح أنه على استعداد كامل للمخاطرة التى قد تسفر عن تعميق الانقسامات القائمة فى الهيكل الاجتماعى اللبنانى ـ وكان مرجع دلك أنه الى حد

كبير ان الكتائبيين افضل تسليحا وأكثر عددا من الجماعات اليسارية التى قد تؤيد الفدائيين .

وقد وافق عرفات على أن احتمال أقامة « دولة داخل دولة » فى لبنان ، على نحو ما فعل الفلسطينيون فى الأردن ، قد انتفى ، ومع ذلك فان بعض اتباعه لم يقبلوا ذلك ، الأمر الذى كان يؤدى أحيانا الى وقوع حوادث دموية . وقد أدرك عرفات كذلك أنه يتعين ان تكون لديه قاعدة راسخة للعمليات الأخرى التى كان يعتقد أنها أكثر أهمية ، ولذلك وافق على الالتزام بخط الرئيس فرنجية . وقد قال العقيد القذافى ، عقب سحب « المتطوعين » الليبيين الذين كان قد أرسلهم للقتال مع الفدائيين ، ان حركة المقاومة قد أنتهت ، وانها موجودة فقط فى « ميكرفونات » البرامج الاذاعية . وكان صادقا فى ذلك القول ، ولكنه كان مخطئا فى قوله ان المقاومة قد أنتهت . ذلك ان اذاعات المقاومة كان لها تأثير طيب أكثر من جميع الاسلحة التى وردت من روسيا ، وهى حقيقة ظهرت عندما كشف الملك حسين عن مخططه الخاص بانشاء المملكة العربية المتحدة التى ستصبح فيهـا الضفة الغربية لنهر الاردن دولة تتمتع بالاستقلال الذاتى ضمن اطار اتحاد يرأسه الملك . وبالنسبة لكثيرين ،بدت أفكار الملك كاملة وأكاديمية الى حد كبير، وبخاصة عندما اكد انه سيجرى تنفيذها فقط عقب تحرير الأراضى المحتلة واذا ما وافق الشعب المعنى فى استفتاء عام . ومع ذلك ، فقد أدرك الفلسطينيون بوضع كاف ما تنطوى عليه أفكار الملك . ذلك أن هدف الملك كان يتمثل فى إعادة تثبيت حقوقه فى منطقة يعتبرها الفلسطينيون ثابتة لهم كلية . ومن ثم فقد شنوا على الفور حملة مدعمة وفعالة ضد الملك ، وضد أفكاره وكل ما كان ينادى به ويمثله . وقد نجحوا فى أن تقطع مصر علاقاتها بعمان . وقد أعربت الحكومات العربية الأخرى عن معارضتها لمخططه . لقد كانت هذه الحملة دليلا مقنعا لقوة الدعاية المقنعة وتبريرا مفيدا لأسلوب عرفات السياسى اذا كانت هناك ضرورة لهذا التبرير .

وهكذا ، وبنهاية عام ١٩٧٢ لم تعد حركة المقاومة الفلسطينية قوة مقاتلة ، وانما اصبحت فكرة سياسية يجسدها عرفات ، ومنظمة ارهابية كان هدفهـا مجرد الابقاء على فكرة فلسطين حية . وكان الشبان فى المخيمات القذرة فى لبنان والأردن والأراضى التى تحتلها اسرائيل يتجمعون سرا ويضعون خططا محكمة لشن حملاتهم لاستعادة الوطن الذى لم يروه على الاطلاق . ولكنهم يفعلون ذلك بهمة فاترة ، ولا يصدقون كلماتهم البليغة . ومن ثم ، تم الاعتراف أخيرا بأن اجتماعات عرفات مع الزعماء العرب أكثر أهمية من اعداد دورات تدريبية على البندقية طراز أ ك ٤٧ . وكان نشر صوره فى صحيفة أكثر دلالة وأكثر جدوى من اخراج قطار اسرائيلى عن القضبان أو نسف سيارة أوتوبيس . وهكذا أصبحت فلسطين أخيرا فكرة سياسية أكثر منها قضية رومانسية دموية .

١٢ ـ نحو المعركة

هكذا تم اعداد المسرح : ومع بداية عام ١٩٧٣ اتخذت البلاد والرجال الذين كان عليهم القيام بالأدوار الحاسمة فى الحرب القادمة ويأخذون مواقعهم فيها . لقد فشل الرئيس السادات فى سعيه الى اقرار السلام ، وكان مستعدا للقتال ، وفى سوريا ، أقام الرئيس الاسد نظاما مستقرا ، وجعل من نفسه زعيما لا منازع له فى هذا البلد المنقسم على نفسه عادة والمشاكس أيضا . وكان الملك حسين يعيش على المعونة الامريكية فى دولة جعلها آمنة مثـل أى دولة أخرى فى المنطقة . وخرج الملك فيصل من العزلة ليشارك الرئيس السادات فى زعامة العالم العربى . وأخيرا ، كان العرب من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الهندى ، ومن الخليج العربى الى المحيط الأطلنطى متحدين بدرجة معقولة ويعيشون فى ظل أوضاع سياسية واقتصادية طيبة . وكان الفلسطينيون وحدهم هم الذين لا يشاركون فى هذه الثقة الجديدة التى تم أكتشافها . ففى مخيمات اللاجئين وقواعد المقاومة حيث يتلقى الفدائيون الكلمات الشجاعة التى كانت تبدو فى كثير من الأحيان مثل صفير فى الظلام . ذلك أن الفلسطينيين القلب الحزين لمشكلة الشرق الأوسط لم يكن فى وسعهم أن يروا بصيصا من الامل فى تحقيق ما قاتلوا من أجله وتطلعوا اليه عبر السنين . لقد كانت أرض فلسطين تبدو بعيدة للغاية ، وبدا مستقبلهم فى نظر الكثيرين محاطا بالاسوار التى تميل الحكومات بشـكل متزايد الى بنائها حول مخيماتهم القذرة ، وذلك حتى تحجب رؤية مالايودون أن يقلق ضمائرهم أو وعيهم . وكانت الاعمال الوحشية التى يقوم بها المتطرفون الذين استبد بهم اليأس بسبب الحـرمان هى وفيض الأمـل الذى ما يزال حيا لدى الفلسطينيين . وقد اثرت رحلات عرفات واجتماعاته على الغـرب أكثر مما أثرت على العرب : وكان هذا هو الهدف من وراء تلك الرحـلات .

ولئن كان الفلسطينيون يشعرون بأن المستقبل أسود ، فمرجع ذلك أنهم لم يشعـروا بالثقة التى كانت تشعر بها الحكومات العربية ، فأخيرا ، كان فى وسع رجال السلطة فى الشرق الأوسط أن يشعروا فى الواقع بحالة جديدة من التفاؤل والثقة ، وكان عدد قليل منهم يدركون حقيقة ما يجرى ، وكان هؤلاء هم الاشـخاص المعنيين بالامر بشكل مباشر ومؤيديهم المباشرين . أى : الرئيس السادات والرئيس الاسد والملك فيصل والرئيس بومدين . وقد أبلغ الرئيس السادات عرفات عدة مرات بأن يتحقق من أن رجاله مستعدون للقتال ، نظرا لأن المعركة الاخيرة توشك أن تبدأ : ولكن عرفات لم ينتبه للأمر ، ولذلك فعندما بدأت حرب أكتوبر لم يكن الفدائيون فى جنوب لبنان فى أى حالة من حالات التأهب

الخاصة ، بالرغم من أن السادات قد جدد تحذيراته لعرفات قبل بدء الحرب بثلاثة أيام فقط . وبالطبع ، لم يكن يعرف الموعد الفعلى للهجوم سوى مصر وسوريا - وفى مرحلة واحدة ، كان ثلاثة رجال فقط هم الذين يعرفون هذا الموعد وهم السادات والأسد والفريق أول أحمد أسماعيل . ومع ذلك ، فقد جرى طوال الوقت ابلاغ الملك فيصل والرئيس بومدين بالموقف ، ولكن لأسباب تتعلق بالامن لم يتم ابلاغهما بتفاصيل ساعة الصفر ولا بيوم الهجوم . وفضلا عن الجولة الدبلوماسية الطويلة التى قام بها السادات لتحقيق قدر من الوحدة فى العالم العربى ، فان الاستعداد السياسى الرئيسى للحرب تم فى شهر مايو عندما جاء الملك فيصل الى القاهرة . فقد بحث الرجلان مرة ثانية المقترحات الخاصة بالقيام بعمل عربى مشترك ، وهى المقترحات التى قدمت فى اجتماع مجلس الدفاع العربى الذى انعقد فى القاهرة قبل ذلك بشهور ثلاثة . وتدعو هذه المقترحات مصر وسوريا الى شن « مظاهرة عسكرية لاستعراض القوة » يدعمها الضغط من جانب دول البترول التى ستقيد انتاج البترول بشكل تدريجى . وأبلغ السادات الملك فيصل أن مصر مستعدة فى السير قدما لتنفيذ الاقتراح . وكشف له لأول مرة أن ما عقد عليه العزم شىء أكبر بكثير من مظاهرة لاستعراض القوة . وشرح السادات أن التقارير الاخيرة التى قدمها له قادته العسكريون قد أقنعته بأن فى وسع الجيش المصرى عبور القناة بنجاح والتقدم فى سيناء . وكانت سوريا واثقة كذلك من أن فى وسع قواتها اجتياح الاسرائيليين فى هضبة الجولان . ومن ثم تعهد فيصل ، الذى يساوره قليل من الشك ، بأنه سيمول المعركة ، وسيجد من انتاج البترول على نحو ما اتفق عليه ، وأنه سيعمل على أن تتبع دول الخليج الاخرى نفس الخط ، والامر الهام للغاية أنه وعد أيضا بحضور مؤتمر قمة دول عدم الانحياز الذى كان من المقرر عقده فى الجزائر فى شهر سبتمبر ، حيث اعتزم الزعماء العرب عقد اجتماع أخير لوضع استراتيجيتهم .

وقبل أيام من المحادثات الحاسمة التى أجراها السادات وفيصل فى القاهرة ، كان الرئيس الاسد قد عاد من موسكو ، وكان التقرير الذى قدمه عن هذه الزيارة مصدرا آخر للأمل . فقد قال أن الروس قد أعربوا أخيرا عن استعدادهم لمنح الدول المتحاربة ما تريده ، وتعهدوا بأن يدفعوا عنهما فى الامم المتحدة فى حالة وقوع الاشتباك .

وطار فيصل الى باريس ، ثم الى الجزائر حيث أجرى محادثات طويلة مع هوارى بومدين . وكانت هذه أهم نتيجة لكل سياسات السادات المتسمة بالصبر . لقد أراد أن يضم الى جانبه زعماء أهم كتلتين فى العالم العربى . ذلك أن فيصل ،

الزعيم الذى لا منازع له لمجموعة المحافظين ، استطاع أن يضمن وقوف كل دول البترول الغنية الأخرى وراء مصر . وكان فى وســـع بومدين ، بكل مؤهلاته « الثورية » التى لا يرقى اليها الشك ، كان فى وسعه ان يضمن عدم وقوع أية متاعب من جانب الدول اليسارية عندما يحن الوقت للبدء فى المعركة وان يضمن أيضا ان الدول المنتجة للبترول منها ستقبل التوجيهات التى ستصدرها السعودية فى هذا الشأن . ولم يدخل بلدان فقط فى حسابات السادات الحذرة ، وهما : العراق وليبيا . وكان استبعاد العقيد القذافى متعمدا وضروريا . أما بالنسبة للعراق ، فقد شعر السادات بانه غير قادر وغير راغب فى اضاعة الوقت وبذل الجهد لضم العراق الى الخط . وفىهذه الحالة، لم يكن بالطبع مضطرا الىذلك، لكن العراق كانت من أولى الدول التى دخلت المعركة على الفور . ولكن عقب سنوات من المناقشة ، والادراك الكامل للسجل الطويل ، ومن السياسات المفاجئة التى مارسها النظام البعثى فى بغداد ، قرر السادات ترك العراق بمفرده . فقد كان يعتقد أنه فى حاجة ماسة الى الآخرين الذين يقفون الى جانبه .

وسجل العرب فى شهر مايو أيضا ، واحدة من أكبر نجاحاتهم الدبلوماسية، عندما تعهدت معظم الدول الافريقية ، نتيجة للجهد المكثف فى « كواليس » مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية المنعقد فى أديس أبابا ، بأن تقطع علاقاتها باسرائيل . وفى الوقت نفسه ، كان المبعوثون المصريون والسعوديون يجوبون أنحاء العالم لشرح القضية العربية والتحذير بطريقة هادئة من أن الجمود الراهن فى الموقف لا يمكن السماح له بأن يستمر . ولذلك فعندما وقعت الحرب ، لم تشعر البلاد التى زارها هؤلاء المبعوثون خلال الشهور الماضية الا بقليل من الدهشة ، وكانت النتيجة العملية هى انه كان فى وسع العرب ، فى الأمم المتحدة ، ان يحصلوا على تأييد الاغلبية فى أى اقتراع .

وشهد شهر مايو المفعم بالأعمال مظاهر أخرى كان ينبغى أن تحذر العالم ، وخاصة الغرب ، الى ما كان يجرى ، لقد أوقفت الدول العربية المنتجة للبترول ضخ البترول كعلامة لمدة ساعة فى اليوم الذى كانت تحتفل فيه اسرائيل بالذكرى الخامسة والعشرين لانشاء دولتها - وهى كما أطلق عليها العرب « الذكرى الخامسة والعشرون لاغتصاب فلسطين » . وأوقفت ليبيا انتاج البترول لمدة أربع وعشرين ســـاعة ، كمحاولاتها المعتادة لتبدو أفضـــل من الآخرين . ولكن الشىء الجدير بالملاحظة هو أن الدول المنتجة للبترول قد وافقت جميعها على أتخاذ هذا الاجراء فى وقت واحد . ونفذته بشـــكل فعال للغاية . وعنــدما أعلنت هذه الدعوة ، استبعد معظم رجال البترول الفكرة من أساسها ، وكان هناك كثيرون يؤمنون بأنه

بالرغم من ان الدول قد تعلن انه يتعين وقف ضخ البترول ، فان عددا قليلا منهم سيوقف الضخ بالفعل. ولذلك، فعندما أوقف الجميع ضخ البترول ،كان يتعين فهم الرسالة ، ولكن من سوء الحظ أن أحدا لم يفهمها • ونتيجة لهذا كان لابد من فرض حظر تصدير البترول الضخم فى أكتوبر •

وقد وضعت المملكة العربية السعودية الترتيبات لهذه المظاهرة التى تنم عن المقدرة والعزم ، ذلك أن فيصل ، شأنه فى ذلك شأن الرئيس السادات ، كان مايزال يأمل حتى اللحظة الأخيرة فى امكان تجنب نشوب حرب • وكان الملك فيصل يعتقد أن البرهان على مقدرة العرب وتصميمهم على استخدام بترولهم فى الضغط على أمريكا قد يقنع واشنطون فى النهاية بالعمل • ولذلك أوفد الشيخ اليمانى الى الرئيس نيكسون مرة أخرى بتحذيرات جديدة ومطالب جديدة بالمساعدة. ولكن كل هذا كان عبثا • فلم ينتبه العالم،ورفضت أمريكا الموافقة على أن الوضع خطير ، ولم تر اسرائيل أى تغير فى الموقف العربى •

وفى الواقع ، كانت السياسة الأمريكية فى الخليج هى التى فعلت الكثير لدفع الملك فيصل الى احضان السادات فقد اختار الأمريكيون، بتأييد متحمس من جانب البريطانيين ، شاه ايران خليفة لهم فى المنطقة • ويرجع ذلك ، الى حد كبير ، الى أن الشاه كان مصمما على أن يجعل من نفسه أكثر الحكام قوة فى المنطقة ، وكان هذا المرشح المتحمس أفضل من شخص يتعين دفعه للقيام بعمل قوى • وكان الشاه الذى ينفق ، بغبطة ، البلايين فى شراء الطائرات والسفن والدبابات قد شرع فى تحويل قواته المسلحة الى أقوى أداة عسكرية فى الخليج ، الأمر الذى اعتبر تحديا واضحا للمكانة الممتازة للملك فيصل • وقد عزز اجتماع دول الحلف المركزى « السنتو » الذى انعقد فى طهران قلق الملك • فقد وافقت وفود تركيا وباكستان وايران وبريطانيا وأمريكا على أن الاعمال التخريبية هى التهديد الرئيسى الذى تتعين مواجهته ، وأنه يتعين على حلفهم أن لا يوجه جهوده لمكافحة السياسات التوسعية السوفيتية فقط • ووافق الملك فيصل على أن الاعمال التخريبية من جانب العراق أو اليمن الجنوبية كانت تشكل خطرا ، ولكنه كان يعتقد أنها مجرد شكل آخر من أشكال النزعة التوسعية الروسية • كما لم يوافق على المعنى الضمنى بأن دول « السنتو » ستتصرف بحرية فى أى مكان فى الخليج اذا ما شعرت بأن الامر يقتضى ذلك • ومن ثم فان الملك فيصل الذى كان يساوره شك عميق تجاه النوايا الأمريكية ، كما كان يعرف العلاقات السرية الوثيقة التى بين ايران وبين اسرائيل لم يشعر بالرضاء ازاء الطريقة التى تسير بها الامور • وذلك فقد بدأ يرى أنه يتعين عليه أن يجعل وجوده محسوسا ، حتى لا تستخف به أمريكا التى كانت تعلن أنها تضع تقديرات احتياجاتها من الطاقة

والامدادات البترولية فى المستقبل على أساس الافتراض بأن المملكة العربية السعودية ستزيد انتاجها البترولى من ثمانية ملايين برميل الى عشرين مليون برميل يوميا • وكانت ميول الملك الخاصة تتجه فى ذلك الوقت نحو الانحياز الى سياسات السادات نتيجة للموقف المتعنت من جانب أمريكا •

ولم تبذل اسرائيل ، أيضا ، أى شىء لتغيير صورتها المتعجرفة فى العالم العربى ، فقد تبع غارة الاغتيالات التى قامت بها فى بيروت فى شهر أبريل وأسفرت عن المعارك التى نشبت بين الجيش والمقاومة فى الشهر التالى ، محاولة أخرى لالقاء القبض على جورج حبش ، الذى كان على رأس الرجال المطلوب القبض عليهم فى القائمة الاسرائيلية • فقد أرغمت طائرتان نفاثتان اسرائيليتان طائرة تابعة لشركة خطوط الشرق الأوسط كانت متجهة الى بغداد على الهبوط فى مطار عسكرى اسرائيلى فى الجليل الاعلى • وجرت تحقيقات مع المسافرين ، ثم سمح لهم بالاقلاع بطائراتهم • وكان حبش قد احتجز مقعدا فى الطائرة ، بل وصل الى المطار ، وهناك شعر بوخزة ألم حاد مفاجىء فى صدره ، فتنبه الى أنه قد أصيب بالفعل بأزمتين قلبيتين فقرر عدم الاستمرار فى الرحلة ، وبذلك أنقذ نفسه من قضاء سنوات فى سجن اسرائيلى ، ان لم يكن ما هو أسوأ من ذلك وكانت نجاة سعيدة لزعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتذكرة كريهة على نجاح اسرائيل فى التسلل الى حركة المقاومة ، ومقدرتها على معرفة الخطط السرية للزعماء فى مدى ساعات قليلة من صياغتها •

ان مثل هذه الحوادث ، أو حتى الهجوم الوحشى الذى قامت به جماعة أيلول الأسود على السفارة السعودية فى الخرطوم كانت مجرد لهو اذا ما قورنت بما كان يجرى الاعداد له • فيوما بعد يوم كانت القوات المصرية تتدرب على عبور القناة الأمر الذى كان معظم صغار الضباط يدركون أنه سوف يحدث ، غير أن أحدا منهم لم تكن لديه أدنى فكرة عن موعد العبور • وقد أشرف السيد عثمان أحمد عثمان شخصيا ، وهو المقاول المصرى اللامع ، والرجل الذى بنى سد أسوان ، على فريق من الفنيين كانوا يضعون أساليب فنية جديدة للجسور • وقد طوعوا ، بالاشتراك مع المستشارين الروس،المعدات التى زودهم بها السوفيت لتحقيق الهدف المطلوب . وكانت التدريبات على الغارات الجوية تجرى فى القاهرة ودمشق، بينما الجنود ورجال البحرية ورجال الطيران يقومون بأعمالهم يحدوهم أحساس جديد مقترن بالعزم والاخلاص • وكان من المحتم أن يتسرب بعض مما يجرى ، الأمر الذى كان يحدث من حين الى آخر • فقد نشرت الصحف البيروتية المتحرره عدة مرات بطريقة مدعمة بالحقائق ومحددة ، أن مصر وسوريا كانتا تستعدان لخوض غمار الحرب ، ولم ينتبه أحد لهذا ، لقد تردد هذا الكلام عدة مرات من قبل

لدرجة انه لم يكن فى وسع الناس أن يصدقوا انه كان كلاما حقيقيا هذه المرة . وشيئا فشيئا ، نما ادراك واضح بأن الظروف قد تغيرت ، وربما كان الزعماء العرب فى هذه المرة يعنون دعم الكلام بالعمل . غير أن الأمر كان ما يزال استنتاجا لم تتأكد صحته بعد ، ولم يحقق اى تأثير على التقديرات الأمريكية او الاسرائيلية . وكان فى وسع كافة التدريبات أن تستمر دون انقطاع .

وكان الشىء الوحيد الذى يسبب قلقا للقادة الاسرائيليين فى اغلب الاحيان التقارير الواردة عن النشاط الروسى المكثف . فقد كانوا يتلقون فيضا من المعلومات التى تشير الى أن السوفييت يرسلون كميات كبيرة من الاسلحة الاضافية لسوريا ، وان القوات الروسية ربما تكون قد سيطرت على ميناء طرطوس الذى تتدفق عبره الامدادات. وأيا ما كانت دقة هذا النوع من المعلومات، فانه لا يمكن مقارنتها بالرؤية المباشرة ، ولذلك قرر الاسرائيليون أن يلقوا نظرا بأنفسهم . وكان الطريق الى تحقيق ذلك ، واضحا بالنسبة لهم ، وهو أن تحلق طائراتهم لالتقاط الصور . وكانوا يعتقدون أن هذا الأمر يحقق هدفا مزدوجا ، اذ ان الاستطلاع الجوى لن يسفر عن دليل مباشر لما كان يجرى فحسب ، وانما سيؤدى ايضا الى استفزاز الجانب الآخر فيتقدم بالرد انتقاما وبذلك يتمكن الاسرائيليون من استنتاج ما اذا كان الروس مهتمين بصورة مباشرة كما يعتقدون بالدفاع عن الميناء .

ولذلك اقلعت طائرات الفانتوم وسكاى هوك لتحقيق مهمتها ، التى أثارت ردا غير متوقع : فبدلا من أنه يستخدم السوريون الدفاعات الارضية ، وهى الصواريخ أرض ــ جو المقامة حول ميناء طرطوس ، أرسلوا طائرات السلاح الجوى لصد الغزاة . ولم يكن الاسرائيليون يتوقعون هذا ، ومع ذلك ، فقد كانو يحسبون حسابهم لمثل هذه الاحتمالات . ولذلك كان سرب من الطائرات يحلق للتغطية بعيدا فوق البحر ، ويتجه على الفور لمساعدة الموجة الاولى التى كانت تحلق فوق طرطوس والتى هاجمها السوريون. ودارت معركة عنيفة ، مما اضطر الاسرائيليين الى ارسال مزيد من الطائرات ، اذ كان الرد السورى على الغارة عنيفا للغاية . وفى النهاية ، اعترفت سوريا بفقد ثمانى طائرات ، وزعمت أنها أسقطت خمس طائرات اسرائيلية . وقالت اسرائيل أنها حطمت ثلاثا عشرة طائرة سورية مقابل فقدها طائرة واحدة . وأيا ما كانت الرؤية الصحيحة ، فان شيئا واحدا كان واضحا ، وهو أن القادة السوريين اتخذوا قرارا متعهدا بعدم استخدام الدفاعات الجوية المقامة حول طرطوس ، حتى تصبح الشبكة الصاروخية الجديدة مفاجأة للاسرائيليين عندما تبدأ الحرب . فقد كان حول ميناء طرطوس بطاريات صواريخ سام ٢ وسام ٣ وسام ٦ ، وفى هذه الحالة لو أنه قد تم تشغيلها ، لكانت بالتأكيد

قد اصابت الطائرات الاسرائيلية بالدمار . ذلك أن هذه الطائرات لم تكن قد دخلت فى قتال حتى تلك اللحظة ضد شبكة الدفاع الجوى المتطورة للغاية التى اقامها الروس فى سوريا ، كما كان من شأن استخدام هذه الصواريخ أن تحذر الاسرائيليين لما كان يجرى ، وتعطيهم فرصة للحصول على معدات التشويش الالكترونى من الولايات المتحدة ، اذ كان ما يزال هناك شهر قبل نشوب الحرب . والواقع أن السوريين قد ضحوا بعدد من طائراتهم وطياريهم لكى يحافظوا على سرية شبكة الصواريخ . ومن المؤكد انه كان قرارا من الصعب اتخاذه ، وكانت اشارة أخرى الى الجدية الجديدة التى اتسم بها القادة العسكريون العرب ، والى أسلوبهم الفنى الذى طرأ عليه تحسن بالغ ، والى تصميمهم الى ألا يدعوا أى شىء يتدخل لعرقلة الهجوم الكبير الذى كانوا يعتزمون القيام به . وعندما اندلعت الحرب ، كان للقرار السورى ما يبرره بشكل كبير،اذ اثبتت شبكة الصواريخ وجودها فى الأيام القليلة الأولى من الحرب ، فقد تم اسقاط ثلاثة من خمس طائرات اسرائيلية كانت تهاجم الاهداف السورية بصواريخ أرض جو ، بينما كانت صواريخ سام ٦ المتحركة مفاجأة كاملة للطيارين الاسرائيليين . ولم تستطع اسرائيل تجنب الخسائر الفادحة التى منيت بها طائراتها الا عندما حصلت من الولايات المتحدة على شحنات من أجهزة التشويش الالكترونى الجديدة .

لكن ، ما هو أكثر أهمية من القرار السورى بشأن الحفاظ على سرية الدفاعات الصاروخية ، كان عملية التغطية بقصد التعمية على الاستعدادات المباشرة للحرب ، ومرة أخرى ، كانت سوريا هى التى دبرت هذه العملية ، وبرهنت على نجاحها الهائل . لقد كانت العملية تتمثل فى الهجوم الذى قام به الفدائيون الفلسطينيون على القطار الذى كان يقل اليهود الروس المهاجرين من موسكو الى فيينا،واسفرت عن اغلاق معسكر المرور فى قلعة شيناو ، وأطلقت ستارا من الدخان لاخفاء التحركات التى قامت بها كل من مصر وسوريا لجعل قواتها تتخذ مواقعها استعدادا لهجوم ٦ من أكتوبر . وكان الرجلان اللذان قاما بعملية النمسا هما مصطفى سويدان ومحمود الخالدى اللذان سافرا بجوازى سفر لبنانيين ، ولكنهما كانا فى الحقيقة فلسطينيين . وقد خططت مهمتهما المخابرات العسكرية السورية ،وليست منظمة من المنظمات الفدائية . وكان الرجلان ، وهما عضوان بمنظمة الصاعقة قد تدربا فى وقت مبكر فى مؤسسة للقوات الخاصة فى براغ ، ونتيجة لذلك كانا يعرفان بعض المعلومات عن المنطقة ، وكانت لهما اتصالات مفيدة فى تشيكوسلوفاكيا . وقد تمكن سويدان والخالدى عن طريق هذه الاتصالات ، وإثر اتصال سرى بين أجهزة المخابرات فى سوريا وبعض بلدان الكتلة الشرقية ، تمكنا من أن يدخلا القنابل اليدوية والأسلحة الأوتوماتيكية الى تشيكوسلوفاكيا استعدادا

لاختطافهما قطار اللاجئين ، كما اخذا معهما كمية كبيرة من منشورات اوهمن ان
الذين اصدروها جماعة تسمى نفسها : « نسور الثورة الفلسطينية » وهى منظمة
لم تكن معروفة من قبل . لقد اراد الضباط السوريون الذين رتبوا المسالة كلها
ان يفهم الناس بوضوح ان العملية من تدبير الفلسطينيين .

وقد نفذ الفلسطينيان مهمتهما تبعا للتعليمات التى صدرت اليهما
تماما ، فقد اختاروا اربعة من رهائن القطار المزدحم بالركاب واخذوهم فى
سيارة اتوبيس صغيرة الى مطار شويشات حيث بدات المفاوضات الطويلة .
وفى النهاية ، قرر المستشار النمسوى مستر اوتوكرايسكى ، وهو يهودى ،
الاستسلام ، بالرغم من الاحتجاجات العنيفة من جانب السفير الاسرائيلى.
ولقد وافق المستشار على اغلاق معسكر المرور بقلعة شيناو ، والسماح
للفلسطينيين بمغادرة النمسا . ومن المرجح ان هذه هى المرة الأولى التى
نفذ فيها الفلسطينيون عملية حققت نجاحا كاملا . وقد رحب بها العالم
العربى باعتبارها انتصارا . غير ان ما لم يفطن اليه احد هو ان اغلاق المعسكر
لم يكن الهدف الاساسى ، اذ ان المقصود من هذه العملية كان رد الفعل
الاسرائيلى ، وقد جاء هذا الرد على الفور ، فقد بقى السفير الاسرائيلى لدى
فيينا فى تل ابيب ، وطارت مسز جولدا مائير الى النمسا لتقدم احتجاجها
الى مستر كرايسكى . واكد الوزراء والمسئولون الاسرائيليون الواحد تلو
الآخر خطورة القرار النمسوى وهددوا بالانتقام لما حدث . وكان هذا بالضبط
هو ما خطط له السوريون — ولذلك تم تنفيذ الجزء الثانى من المشروع ، فقد
اخذت الصحف فى دمشق وبيروت تحذر ، يوما بعد يوم ، من ان اسرائيل
قد تشن غزوا ضد لبنان او سوريا للانتقام من هجوم النمسا . وهكذا ،
واستعدادا لهذا التحرك الاسرائيلى ، اقام الجيش السورى خطوطا دفاعية
جديدة فى مرتفعات الجولان ، تبعا للتصريحات التى اعلنت انئذاك والواقع ،
ان السوريين كانوا يحركون قواتهم الى مواقع جديدة استعدادا للهجوم
الذى شنوه بعد اسبوع من حادث فينا . لقد كانت حيلة رائعة ، وقد احرزت
نجاحا كاملا ، ويعزى ذلك ، الى حد كبير ، الى رد الفعل الاسرائيلى . ذلك
ان التهديدات الاسرائيلية المستمرة بالانتقام ، والتى كانت تقريبا استجابة
شرطية (تبعا لنظرية العالم ا . ف . « بافلوف » عن « الفعل الشرطى
المنعكس ») للاستفزاز السورى ، قد مكنت الجيش السورى من اتخاذ
تشكيلات المعركة دون ان يسبب ذلك اى قلق فى تل ابيب . فخلال اسبوع ،
كان الاسرائيليون يرون ما يجرى فى سوريا ، ووافقوا عليه باعتباره مناورة
دفاعية . وفى الوقت نفسه ، كان الاسرائيليون والأمريكيون يعرفون أيضا

ما يحدث فى مصر ، فقد كان الجيش المصرى ايضا يستعد لشن الحرب ،
ومرة اخرى لم ينتبه احد . ذلك انه فى كل عام منذ ١٩٦٧ كان المصريون
يقومون بمناورات واسعة النطاق فى شهر اكتوبر ، وقد اعتبر القيام بهذه
المناورات فى نفس الوقت الذى يوزع فيه السوريون قواتهم مجرد مصادفة.
والواقع انه من النادر ان يخدع بلد بسبب مفاهيمه الخاصة المسبقة مثلما
خدعت اسرائيل عام ١٩٧٣ .

واذا ما استعرضنا الأحداث الماضية ، فاننا نجد انه من الصعب ان
ندرك كيف اصيبت اسرائيل بالعمى الى الحد الذى تعذر عليها رؤية ما هو
واضح جلى ذلك ان التحركات العسكرية قد جاءت فى أعقاب سلسلة طويلة
من المؤشرات السياسية الدالة على الحرب ، وكان اكثر هذه المؤشرات
السياسية وضوحا مؤتمر القاهرة الذى اشترك فيه السادات والأسد
وحسين ، والذى أسفر عن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والأردن،
والذى لم يكن له اى مبرر اخر سوى رغبة الرئيس السادات فى ايجاد جبهة
عربية متحدة عندما تبدأ المعركة . ذلك ان سياسات الملك حسين لم يكن قد
طرا عليها اى تغيير من شانه ان يوفر للزعيم المصرى مبررا لتحسين العلاقات
مع الأردن . كما كانت هناك المشاورات المستمرة بين القاهرة ودمشق ،
والجولة التى قام بها السادات فى دول الخليج للتأكد من أن الدول المنتجة
للبترول كانت مستعدة لمساندته كما كانت هناك الجولات المنتظمة التى يقوم
بها المبعوثون المصريون لتهيئة الراى العالمى لما كان سيحدث .

وبالطبع ، كانت هناك بعض الخدع أيضا فمثلا ، وقبل ان تبدا الحرب
مباشرة ، منحت مصر عقد انشاء خط أنابيب بترول « سوميد » الى شركة
امريكية وقد اعتبرت هذه الصفقة ، التى اعلن عنها بشكل واضح ، والتى
تتكلف ٤٠٠ مليون دولار لمد خط يربط خليج السويس بالبحر الأبيض
المتوسط ، دليلا على أن مصر كانت تركز اهتمامها على التنمية الاقتصادية
وانها لا تعتزم القتال . والواقع أن توقيت هذه الصفقة كان جزءا من
الاستعدادات لشن الحرب . وفى الوقت نفسه ، نشر خبر صغير فى صحيفة
الأهرام « حول منح اذن خاص للضباط الذين يرغبون فى اداء فريضة الحج
فى مكة » وكان المقصود من نشره أن تلتقطه المخابرات الاسرائيلية ، على نحو
ما كانت تفعل ، واعتبر الخبر دليل آخر على أن مصر لا تعتزم بدء المعركة خلال
شهر اكتوبر ، بأى حال من الأحوال .

وقد حدد الرئيس انور السادات والفريق اول احمد اسماعيل يوم

المعركة فى اجتماع عقداه يوم ١٥ من سبتمبر فى برج العرب وهو مقر استراحة الرئيس فى الصيف ، ويقع فى الصحراء الغربية . وكان الفريق اول احمد اسماعيل قد قدم اربعة مواعيد مختلفة وضعتها هيئة اركان الجيش باعتبارها مواعيد مناسبة ليوم المعركة . ولكنه كان يوصى شخصيا بيوم ٦ من اكتوبر ، ليس لان امورا مثل احوال الطقس ، وطلوع القمر والمد والجزر مناسبة فى ذلك الوقت ، وانما لأن هذا اليوم كان ايضا يوم « كيبور » ، وهو عيد الغفران اليهودى ، والذى يعنى ان عددا من الجنود لابد وان يكونوا فى اجازة . كما تتوقف فيه اذاعة اسرائيل عن الارسال . وقد وافق السادات واحمد اسماعيل على هذا الموعد ، وارسلت الرسائل الى الرئيس الاسد الذى وافق على القرار ، بالرغم من ان المخططين العسكريين السوريين كانوا يريدون شن الهجوم فى الفجر ، بينما كان المصريون يريدون بدء الهجوم وقت الغسق حتى يعبروا القناة تحت جنح الظلام . واخيرا ، تم التوصل الى حل وسط بحيث تبدأ الحرب فى وقت غير مألوف وهو الساعة الثانية ظهرا ، الامر الذى كان مفاجأة لاسرائيل وللعالم . وقد استغل الاسرائيليون كثيرا نقطة اختيار يوم « كيبور » لبدء المعركة ، وتحدث ابا ايبان بصفة خاصة عن « تدنيس المقدسات » والغدر . وقد تغاضى ابا ايبان وغيره عن حقيقة ان هذا اليوم كان ايضا من ايام شهر رمضان الذى يصوم فيه المسلمون ، وفيه قد لا يكون الجنود فى ذروة لياقتهم . كما تناسوا ، بما يتفق مع مصالحهم ، عدد المرات التى قامت بها القوات الاسرائيلية « بغارات عقاب » فى ايام الجمع « او فى مناسبات اخرى تم اختيارها املا فى ان اداء الفرائض الدينية قد يعنى التراخى فى الاستعداد .

وكان سفيرا روسيا فى القاهرة ودمشق هما اول اجنبيين ابلغا بان الحرب ستقع ، ولكن الموعد المحدد للحرب لم يمنح لاى منهما ، غير انه قبل ان تبدأ المعارك باربعة ايام جرى تحذير السفيرين من ان المعركة وشيكة الوقوع . ولذلك تم اجلاء عائلات الفنيين السوفييت الذين كانوا يعملون فى هذين البلدين جوا وبحرا يوم ٤ من اكتوبر ، ومع ذلك فان الروس الذين كانوا يعملون مع الجيش المصرى والسورى ، وجميعهم خبراء صواريخ والكترونيات ، قد بقوا فى مواقعهم . ولم يتم ابلاغ الآخرين بيوم الحرب الا عندما بدات المدفعية تقصف وابل نيرانها الاولى فوق سيناء والجولان . وكان الملك حسين هو اول من تم ابلاغه ، فقد بعث اليه الرئيس السادات برسالة يخبره فيها ان « معركة المصير » التى طال انتظارها قد بدات وحذره من اشراك قواته فى القتال فى هذه المرحلة . وكان السادات يخشى

ان حسين ، المشهور بشجاعته الشخصية ، وكبريائه بين جيشه ، واخلاصه لقضية اعادة القدس ، قد يدفع بقواته بشكل متهور فى المعركة . وكان اهتمام السادات الاول هو انه فى حالة تحرك الاردن ، فانه قد يضطر الى تحويل الخطط المصرية والسورية ليحول دون تعريض قوات حسين للهزيمة . ولذلك طلب من الملك ان لا يشترك فى المعركة « الى ان تحقق القوات المصرية والسورية اهدافها » . والواقع انه لم تكن لدى حسين اية نية للاشتراك فى المعركة الا اذا اضطر الى ذلك ، لقد نضج ، الى حد معقول ، فى السنوات التى تلت عام ١٩٦٧ ، واصبح يعرف عن الواقع العسكرى اكثر مما كان يعرف خلال حرب يونيو عندما كان يطلق بنفسه مدفعا رشاشا ، ولقد ادرك انه بدون توافر غطاء جوى لجيشه فلن يكون لديه اى امل فى التحرك بنجاح الى الضفة الغربية ، كما كان يدرك انه اذا ما حاول قتال الاسرائيليين هناك ، فان الطرف الذى سيعانى اكثر من غيره هو شعبه ، مئات الآلاف من العرب الذين يعيشون فى الضفة الغربية . اما فى سيناء وهضبة الجولان فليس ثمة ما يثير القلق لأنه ليس هناك مدنيون ، ولذلك فان فى وسع المدفعية ان تقصف وابلا من النيران ، وفى وسع الدبابات ان تجرى مناوراتها دون ان تعرقلها المناطق المكتظة بالمبانى .

وكانت رسالة السادات الى الملك حسين هى الرسالة الوحيدة التى تجشم عناء ارسالها ، ذلك ان الزعماء الآخرين ذوى الأهمية بالنسبة له كانوا يعرفون ما يحدث ، بالرغم من انهم لم يكونوا قد ابلغوا بالموعد المحدد لنشوب المعركة . لقد كان الملك فيصل والرئيس بومدين وهما الحليفان المقربان للسادات ، يعرفان جيدا ما سوف يحدث ، كما تم ابلاغ أمير الكويت اثناء زيارته للقاهرة فى سبتمبر بأن الحرب ستقع قبل نهاية العام . وقد تم ابلاغ الرسالة نفسها لدول البترول الأخرى خلال الجولة التى قام بها السادات لدول الخليج . وباهمال متعمد لم يزعج السادات نفسه بالاتصال بالعقيد القذافى الذى كان رسميا عضوا فى اتحاد الجمهوريات العربية الثلاثى . كما لم يبلغ المصريون العراقيين ، والحقيقة انهم تذكروا بمرارة الخلافات الماضية بين القاهرة وبغداد . ولكن بعد ظهر يوم ٦ من أكتوبر ، استدعى كبار المسئولين والوزراء العراقيون السفراء العرب فى محاولة لتقرير ما اذا كان الهجوم الذى قامت به مصر وسوريا مقدمة لحرب شاملة ، أو انها مجرد غارات . ولم يقتنع العراقيون الا عندما وصلهم من سوريا تأكيد لضخامة المعارك ، وعندما اقتنعوا بذلك ، طلبوا على الفور عقد هدنة مع شاه ايران والملا مصطفى البرزانى حتى يمكنهم ارسال جيشهم الى سوريا .

وكان الملك فيصل هو الزعيم العربى الوحيد الذى بدأ أن رد الفعـــل لديه كان بطيئا . فبطريقته الغامضة المعتـادة ، لم يدل الملك بأى تصريحات خلال الأيام الأولى من نشوب الحرب ، وبدا انه غير متعجل لاستـخدام سلاح البترول الذى كان يلوح به . ولكن لم تكن هذه هى القضية ، لقد وعد فيصل السادات بأن يقدم له كل ما يحتاج اليه من دعم ومساعدة ، ولم يكن الملك هو الرجل الذى يخلف وعده . ومن ثم ، فان ما كان يفعله ، فى الواقع ، هو محاولة الحصول على أقصى فائدة للعـــرب من الموقف . لقد كان الملك يعتقد ، خطأ على نحو ما اتضح ، أن التهديد بقطع امدادات البترول سيكون أكثر اقناعا من وقف الضخ الفعلى للبترول . وقد عزز خبراؤه وجهـة نظره هذه ، فقد اشار هؤلاء الخبراء الى أن الأثر المباشر للقتـال كان يتمثل فى الحد من امدادات الدول الغربية بالبترول ، نظرا لاغلاق آخر خطوط أنابيب البترول فى بانياس وطرطوس ، كما ان تصدير البترول من أنابيب الظهرانى فى لبنان كان محظورا كاجراء وقائى . وكان الملك فيصل يأمل فى ان تبين هذه التجربة الأولى الصغيرة فى نقص البترول لأمريكـا ما يمكن ان يحدث وانه اذا ما هدد عندئذ بوقف شحنات البترول ، فان الرئيس نيكسون سيتلهف على ارضائه . ولذلك اوفد الملك وزير خارجيته السيد عمر السقاف الى واشنطون للاجتماع بالرئيس . وكانت رسالة الملك فيصـــل واضـحة : دع اسرائيل تحارب وحدها . واشار السيد السـقاف الى أن أمريكا عبر السنين قد اقامت بعناية الترسانة الاسرائيلية ، وانها كانت تعلن دائمـا عن عزمهـا فى الحفاظ على التوازن العسـكرى فى المنطقة ، اذن دع العرب الاسرائيليين يقتتلون بما لديهم من أسلحة . وقد أوضح السـيد السـقاف بجلاء ، وبأسلوب دبلوماسى ، أنه اذا وقفت أمريكا بحسم الى جانب اسرائيل ، فان المملكة العربية السعودية ستضطر الى مساعدة مصر وسوريا بالأسلحة المتاحة . ولكن الرئيس نيكسون ، فيما بدا لم يتأثر ، واعطى تأكيدات قليلة مبهمة وفى لغة غامضة ، أن امريكا لن تساعد اسرائيل ماديا . ومع ذلك فانه لم يقطع على نفسه اى وعود بشأن امدادات الأسلحة . وفى اليوم التالى لاستقبال السيد السقاف ، أرسل الرئيس الأمريكى مشروع قـرار الى الكونجرس يقضى بتقديم بليونى دولار كمساعدة خاصة الى اسرائيل .

وفى الرياض ، اعتبر الملك فيصل أن ذلك كان رده ، وقبل دعـوة وجهتها اليه الكويت لحضور مؤتمر خاص للدول العربية المنتجة للبترول . وفى الوقت نفسه ، اوفد مبعوثيه الى دول الخليج الأخرى استعدادا للخطة التى كان قد وضعها بالفعل ، والتى تقضى بأن لا تنشق اى من هذه الدول عندما

يجتمع المؤتمر البترولى فى الكويت عن قرار خفض انتاج البترول بنسبة ٥٪ كل شهر الى ان تنسحب اسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة واسترداد حقـوق الفلسطينيين . والواقع أن معظم الدول العربية المنتجة للبترول قد خفضت انتاجها مباشرة بنسبة ١٠٪ ، مع فرض حظر كامل على تصـدير البترول الى امريكا وهولندا وجنوب افريقيا وروديسيا . وكانت العراق هى البلد الوحيد الذى اعترض على الامتثال لنسبة الخفض الشـهرى هذه ، اذ انها اممت كافة حصص الشركات الأمريكية والهولندية فى البـلاد فى بداية الحرب ، وقالت ان هذا هو احسن اجراء يتخذ .

وهكذا ، اخيرا ، كان العرب اقرب الى الاتحاد مما كانوا فى اى وقت مضى ، فقد كان العراق والسودان والسعودية والكويت والمغـرب والجزائر وحـدات تحارب فى مصر او سوريا ، وقد ارسلت الأردن لوائين ممتازين الى مسرح الجولان ، وكانت الدول المنتجة للبترول تعمل فى تناســق بعضها مع بعض ، وتناست كل من اليمن الجنوبية واليمن الشمالية عداواتهما القديمـة وتعاونتا معا فى الاغلاق الفعال لباب المندب ، وهى المضـايق التى تؤدى الى البحر الأحمر . وكان هذا الاغلاق برهانا مفيدا لاثبات زيف حجة اسرائيـل القائلة بأنها فى حاجة الى السيطرة على شرم الشيخ الواقع عند مدخل ميـنـاء العقبة لضمان حرية الملاحة . وارسلت تونس افريقا من الاطبـاء وامدادات طبية وغذائية ، واعربت عن استعدادها لارسال قوات للاشتراك فى القتال . وكان العقيد القذافى هو الوحيد الذى لم يتخذ اى اجراء ، ولو انه قد حول كميات كبيرة من المال الى القاهرة ودمشق لاشعال وقود آلات الحرب .

وقد فعل الفلسطينيون ما فى وسعهم وبرهنوا بذلك مرة أخرى الى أى مدى كانوا يعتمدون على تصرفات الآخرين . فقد توجه مئـات الرجال الى جنوب لبنان املا فى ان يتمكنوا من تقديم أية مساعدة . وكان الجيش اللبنانى مستعدا استعدادا كاملا لجعلهم يفعلون ما يريدونه ، فقد انسحب الجيش ، فى الواقع ، من معظم المواقع الأمامية على امتداد الحدود ، تاركا الفلسطينيين يحتلون منطقة الجبهة . الا ان هذا لم يسفر الا عن تغير طفيف ، فقد مرت ليلتان والاسرائيليون الذين يعيشون فى بعض الكيبوتزات المتاخـمة للحدود ينامون فى مخابئهم ، بينما تقصف مستعمراتهم بالصواريخ . ولكن لم تقع هجمات حقيقية ، ولم تبذل اية جهود لجذب بعض القـوات الاسرائيلية من الجهات الأخرى ، ولم ينجح الفلسطينيون سواء داخل الأراضى المحتلة أو على امتداد الحدود فى القيام بأى شىء يؤثر على مســار الحــرب . ونظرا لأن

الفلسطينيين لم يتعودوا على ممارسة اى عمل عسكرى على الاطلاق فقد تبين ان تلك الأسلحة لم تكن مفيدة ، اذ كانت الصواريخ التى يتعين ان تصيب الأهداف الاسرائيلية تسقط على بعد كيلو مترا او نحو ذلك ، من منطقة اطلاقها نظرا لأن شحنتها قد تلفت بسبب تخزينها عدة سنوات . وكانت وحدات جيش التحرير الفلسطينى العاملة فى مصر او فى سوريا هى الوحيدة التى اشتركت فى القتال اشتراكا فعليا ، ولكن ، نظرا لأنها كانت تعتبر جزءا اصيلا من جيوش الدول المضيفة ، لذا فانه مما يجافى الحقيقة بمكان اعتبار قتالها جهدا فلسطينيا اصيلا .

وكان العرب ، خارج مناطق المعارك الفعلية ، يحققون نجاحات اخرى . فقد قطعت معظم الدول الافريقية علاقاتها مع اسرائيل . وكان واضحا ان جميع المتعاطفين ، فى جميع انحاء العالم الثالث ، يقفون الى جانب مصر وسوريا . وفى الغرب ، ايضا ، كان هناك المزيد من المشاعر الودية ، وذلك قبل ان يفرض البترول العربى مثل هذه السياسة بوقت طويل . اذ ان السنوات الطويلة التى مارست فيها اسرائيل عنادها وصلفها قد تركت اثرا هاما لدرجة ان تصميم العرب على استرداد اراضيهم المحتلة ، والياس الفلسطينى العام ، كان يحظى بتفهم واسع النطاق . وقد ساهم فى ذلك أهداف الحرب العربية المحدودة التى اختيرت بعناية . افمنذ البداية ، اوضحت كل من مصر وسوريا ، بحق ، ان اهدافهما هى استرداد اراضيهما المحتلة ، ولم يصدر عنها اى كلام طنان كذلك الذى كان يصدر فى الماضى ، او تهديدات غير واقعية « بالقاء اليهود فى البحر » . والواقع ، ان معارك الحرب كلها دارت فوق ارض عربية ، وهى حقيقة ، بزغت ببطء على العالم كله ، ومن ثم اخفت سمة الواقعية على الحجج التى كانت تطرح من حين الى آخر من قبل ، وعززت كافة قرارات الأمم المتحدة الممتازة ، والتى كانت تعنى الكثير ولكنها لم تحقق سوى القليل .

وعندما انطلقت المدافع فى ٦ من اكتوبر ، وبدا الجنود المصريون والسوريون الهجوم ، انتهى عصر من العار بالنسبة للعرب . وسواء خسروا او كسبوا فليس هذا هو المهم ، ذلك أن ما كانوا يقاتلون من أجله هو احساسهم بالكبرياء والرجولة . ومن ثم فان ست سنوات من اللاسلم واللاحرب ، كأمة مهزومة ، ومن النظر اليهم باعتبارهم شعبا على ادنى مستوى قد زالت عندما اجتاحت القوات المهاجمة خط بارليف ، وتحركت الدبابات من ملاجئها وعبرت هضبة الجولان . وفى النهاية ، خسر السوريون مزيدا من الاراضى ، واصبح قلب الأراضى المصرية عرضة للخطر بسبب الهجوم المضاد الاسرائيلى

الجرىء ، ولكن الأمر لم يكن يهم . ذلك ان العربى العادى من المحيط الى الخليج اصبح فى وسعه منذ الساعة ان يرفع راسه عاليا . وتم اشباع الاحساس بالشرف ، وفى غضون العملية تم الحصول على مكاسب سياسية ، ذلك ان هدف الحرب كان فى التقييم النهائى حربا سياسية ، اى امتدادا متعمدا الدبلوماسية . فبالقتال وحده كان فى وسع الرئيس السادات ان يكسر الجمود ويرغم الدول الكبرى على اخذ القضية العربية ماخذ الجد ، وبشن الحرب وحدها كان فى وسع العرب ن ياملوا فى الحصول على حقهم الشرعى الذى لا ينازعهم فيه احد .

وكان هناك أبطال فى جميع الجبهات أثناء المعارك ، كما هى الحال دائما ، ولكن البطل الحقيقى كان الرجل الذى رتب المعركة كلها ، والذى قرر برباطة جاش ما كان يتعين فعله، ثم انجزه فى مواجهة صعاب هائلة وشكاوى مريرة. لقداثبت نور السادات ، الذى انهمك بعنف فى منصب كبير بدفعة من القدر ، انه أعظم من سلفه . لقد سوى الخلافات ، وانهى المشاحنات ، محققا بذلك درجة من الوحدة اكبر مما حققه ناصر من قبل . وفى مصر ، تغلب على المعارضة وتجاهل النقد بينما كان ينتهج فى اخلاص السياسات التى يعتقد انها صحيحة ، وأخيرا كد انه قائد قدير .

وقد اضفيت العظمة على السادات ، كما لو كان هارى ترومان العرب ، وحقا لقد كان السادات جديرا بهذه العظمة .

بيروت ، مارس ١٩٧٤ ،

فهرس

رقم الصفحة

الموضوع